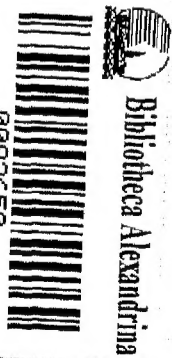


نَارُ مَنَاحِجِ عَلَاءِ الدِّبِ

عند الافرنج والعرب
وفيكتور هو كُو

تأليف
روحي الخالدي

تقديم
الدكتور حسام الخطيب



تاريخ علم الأدب
عند الإفرنج والعرب
وفيكتر هوكو

سلسلة احياء التراث الثقافي الفلسطيني

تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتر هوكو

وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية
في علم الأدب عند الإفرنج وما يقابله من ذلك عند العرب
ابان تمدهم إلى عصورهم الوسطى . وما اقتبس الإفرنج عنهم
من الأدب والشعر في نهضتهم الأخيرة وخصوصاً على يد
فيكتور هوكو ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر

الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته
ومنظوماته وغير ذلك

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم النصيب
رقم التسجيل

تأليف

روحي بك الخالدي

الوكيل الأول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه

تقديم الدكتور حسام الخطيب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩١٢

الطبعة الرابعة دمشق ١٩٨٤

هذا الكتاب

يحتفل الشعب الفرنسى وتحفل معه البشرية هذا العام بالذكرى المئوية
لوفاة فيكتور هيجو الكاتب والشاعر الروانى الذى كتب من مواقع تقدمية عن
قضية الإنسان ..

لقد كان هيجو فتى عصره ، وكان المناضل الشجاع عن القيم والعدالة
الاجتماعية والتجديد ، وترجمت أعماله الى لغات العالم ، وأصبحت كنزا
ثميناً من كنوز الأدب الإنسانى .

ويسعد الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين وهي
تحتفل مع الأوساط الثقافية بإحياء الذكرى المئوية لهذا الكاتب العظيم ، أن
تعيد إحياء هذا الكتاب النقدي الذى كتبه عام ١٩٠٤ ، الأديب والناقد
الفلسطيني روى الخالدي بعنوان (علم الأدب عند العرب والافرنج وفيكتور
هيجو) والذي يعتبر اول دراسة من نوعها تكتب عن فيكتور هيجو باللغة
العربية وتعقد مقارنة بين شعره والشعر الاندلسى .. وتتوج كاتبها كرائد من
رواد الادب المقارن في الوطن العربى .

ان الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين إذ تعتر
كل الاعتزاز بإعادة نشر وإحياء وتعميم هذا الكتاب القيم الذى كاد يندثر
ويضيع كما اندثر وضاع الكثير من مقتنيات ومخطوطات وموروثات الشعب
الفلسطيني بسبب ظروف الاحتلال وممارسات السلطات الصهيونية البشعة
ضد شعبنا وثقافته وحقوقه ، فإنها ترى فى هذا الكتاب القيم وثيقة تظهر
المستوى الرفيع الذى بلغته الثقافة الوطنية الفلسطينية فى مطلع هذا
القرن ، وشهادة على الرسالة الحضارية التى حملها وما زال يحملها
المثقف الفلسطينى تجاه محيطه القومى ومحيطه الإنسانى .

يحيى يخلف

الامين العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

القسم الأول : روعي وآثاره

تمهيد :

يهدف البحث الحالي إلى تقديم الكاتب المقدسي روعي الخالدي بوصفه رائداً للأدب العربي المقارن ولفت النظر إلى سبقه الزمني والفكري في هذا الحقل المعرفي الهام . . . والجدير بالذكر ان قضية ريادة الخالدي عرضت على « الملتقى الأول للأدب المقارن في البلاد العربية » الذي عقد في عناية بالجزائر في أيار ١٩٨٣ . وأقر هذا الملتقى ، الذي هو الأول من نوعه ، توصية تعتبر روعي الخالدي رائداً للأدب العربي المقارن ، ومحمد غنيمي هلال مؤسسة وحجته . ويؤمل ان يقدم البحث الحالي لهذه التوصية مستنداً ومثروعية واستكمالاً للعرض المختصر الذي قدمه كاتبها للملتقى (عناية) إيداً ببدء حملة علمية لانصاف هذه العبقرية المبكرة في تاريخ الأدب العربي الحديث .

ورغبة في مساعدة القارئ على تتبع تطور مجرى البحث ربما كان مفيداً التذكير منذ البدء بأن مقولة البحث تتلخص في ثلاثة أمور :

الأول : ان الخالدي لم ينل من الاهتمام ما يستحقه بوصفه من زعماء النهضة الفكرية والأدبية الحديثة .

الثاني : ان بعض المصادر نسبت إليه ريادة في حقول أدبية كالنقد الأدبي في حين غفلت تماماً عن دوره الأول والأساسي في حقل معرفي مهم جداً هو الأدب المقارن .

الثالث ان كتابه المسمى : « تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوغو » هو كتاب في الأدب المقارن الصميم Proper .

★ بعد كتابة هذه السطور ، وبعد شهور من توصية ملتقى عناية المشار إليه آنفاً ، أتيت لي مراجعة (الموسوعة الإسلامية) في طبعها الجديدة فوجدت أنها تصف كتاب « تاريخ علم الأدب » بأنه (العمل الأول من الأدب المقارن في الأدب العربي الحديث) ، انظر ص ٩٦٩ من ' .

L'encyclopedie de L'Islam, nouvelle edidtion, Tome IV, paris- London 1978.

الخالدي في المراجع العامة :

كان روحي الخالدي عالماً بارزاً في العقد الأول من القرن العشرين ، ولم تهمله معاجم الأعلام ، فخصّه « معجم الأعلام » (١) للزركلي بعمود كامل ، وخصته الموسوعة العربية الميسرة بفقرة مختصرة (٢) ، ووقف يعقوب العودات عنده وقفة مطولة وأفرد له ست صفحات تناولت حياته وتعليمه والوظائف العامة التي شغلها ونشاطه الثقافي والسياسي في فرنسا وآثاره بالطبع (٣) ، وذكرته مراجع أخرى كثيرة (٤)

ويتبين من هذه المراجع العامة أن روحي بن ياسين الخالدي ولد في القدس عام ١٨٦٤ ، وكانت دراسته الأولية مضطربة فتنقل بين مدارس القدس ونابلس وطرابلس الشام والأستانة وبירות ، ولم يكن تعليمه منتظماً ، غير أن الشيء الثابت أن الخالدي كان يصارع الظروف الصعبة سعياً وراء اكمال تعليمه وقاوم مختلف الاغراءات لتعيينه في وظائف حكومية محلية في فلسطين وخلال فترة اقامته في القدس كان حريصاً على حضور حلقات الدروس في المسجد الأقصى وقد منعه حرص أبويه على الاحتفاظ به إلى جانبها من تحقيق أمنيته في السفر إلى الأستانة طلباً للعلم ، وعلى أي حال تحققت أمنيته سنة ١٨٨٩ وانتسب إلى (المكتب الملكي الشاهاني) في الأستانة ، وهناك حضر أيضاً مجالس المصلح جمال الدين الأفغاني .

وبعد ذلك تنقل بين الأستانة والقدس وباريس ، ولم يكن يستقر على حال . وتابع بعض الدروس في السوربون بباريس واتصل بالمستشرقين وكان له بينهم نشاط علمي ترد اشارات كثيرة اليه في كتابه (تاريخ علم الأدب) . وفي عام ١٨٩٨ عين قنصلاً عاماً للدولة

(١) الزركلي معجم الاعلام ، ج ٣ ط ٣ ، بلا تاريخ ص ٦٤

(٢) عربال ، محمد شفيق الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، ٧٤٩

(٣) العودات ، يعقوب (الدوي المثلث)

من أعلام الفكر والأدب في فلسطين ، عمان ١٩٧٦ ، ص ١٥٥ - ١٦٠

(٤) منها كما يشير باحثون مختلفون

- عمر رضا كحالة في (معجم المؤلفين ، ص ١٧٤ - ١٧٥

- مجلة الهلال ، ١٥٢/٢٢ ، نوفمبر ١٩١٣

- مجلة الرسالة ، ٨١٩/١٤

- مجلة المنادي ، القدس ، ع ١٢م ، ١٩٠٨

العلية في مدينة بوردو وتوابعها وأصبح فيما بعد رئيساً لجمعية القناصل في تلك المدينة ونال أرفع الأوسمة من الحكومة الفرنسية (وسام نخلة المعارف الذهبية ووسام فرقة الشرف ، لحيون دونور) وفي بوردو اقترن بروحي بالفرنسية هرمانس بنسول وانجبت له ولداً أسماه يحيى تعلم الهندسة وأصبح فيما بعد رئيساً لبلدية بوردو ، وقد زار يحيى فلسطين ومكث فيها ثلاث سنوات قبل تعيينه رئيساً لبلدية بوردو التي توفي فيها سنة ١٩٤٢ .

وعقب اعلان الدستور العثماني في ٢٤ / ٧ / ١٩٠٨ عاد روجي إلى القدس فانتخبه مواطنوه نائباً عنهم في مجلس النواب العثماني (المبعوثان) . وأعيد انتخابه ثلاث مرات ، وفي الآستانة انتخب وكيلاً أول للمجلس ولما حل المجلس عام ١٩١٢ عاد إلى القدس ، ولكنه ما لبث بعد حين أن سافر إلى الآستانة وتوفي فيها إثر حمى التيفوئيد التي أصابته ولم تمهله سوى أربعة أيام ، وكانت وفاته عام ١٣٣١ هـ . الموافق للسادس من آب (أغسطس) عام ١٩١٣ م . (٥) .

ومن آثاره :

- رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي وفي أقسام العالم الاسلامي ، وهي محاضرة ألقاها عام ١٨٩٦ في دار الجمعيات العلمية في باريس ، ونشرتها جريدة طرابلس الشام ثم أصدرتها في كتيب .

- المقدمة في المسألة الشرقية منذ نشأتها الأولى إلى الربع الثاني من القرن الثامن عشر . وهي محاضرة ألقاها في دار الجمعيات العلمية في باريس عام ١٨٩٧ وظهرت في كتيب بالقدس بعد ذلك

- « فيكتور هوغو » ، مقالة في عشرين صفحة نشرتها « الهلال » في الجزء الرابع عشر من السنة العاشرة ١٥ / ٤ / ١٩٠٢ ، ص ٤٢١ - ٤٤٠ .

- تاريخ علم الأدب عند الأفرنج والعرب وفيكتور هوغو .

(٥) قدّم الدكتور ناصر الدين الأسد ترجمة مفصلة لحياته ، وتتبع تاريخ أسرته ومراحل دراسته وأسفاره ومؤلفاته في دراسة علمية موثقة - انظر الفصل الأول والثاني يوحه خاص من كتابه ' (محمد روجي الخالدي ، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٠

والغريب أن استاذنا الفاضل يدقق تدقيقاً شديداً في تسمية جد روجي هل هو محمد علي أم محمد بن علي ، ويبدى دقة علمية فائقة - على عادته - ولكنه لا يدقق في تسمية المترجم له نفسه ، فيسميه في العنوان (محمد روجي) في بعض المواضع في الكتاب مع العلم أن الاسم الصحيح هو (روجي) كما هو مثبت في كتبه

القسم الثاني

« تاريخ علم الأدب وريادة الأدب العربي المقارن »

بلا موارد وبعيداً عن الحماسة التي ترافق كل اكتشاف وتميل بالمرء إلى اضمحاء هالة على الأعمال القديمة او المبكرة فانه يمكن القول إن روعي الخالدي هو الرائد الأول للأدب العربي المقارن ، ويمكن تأريخ الأدب المقارن في الوطن العربي بظهور الطبعة الأولى من كتابه (تاريخ علم الأدب . .) عام ١٩٠٤ (٨) .

وهذا الحكم لا يجوز أن يعني اطلاقاً انكار الجهود المشرقة لكتاب سبقوه إلى الاتصال بالثقافة الاجنبية ومحاولة تقريبيها إلى القارئ العربي مستعينين أحياناً بعقد المقارنات والموازنات الفكرية والأدبية والفنية مما قربهم كثيراً من حقل الأدب المقارن . وكان إمامهم بالطبع رفاعة الطهطاوي ثم علي مبارك ، وإن ظلّ هدفهما إصلاحياً مما يبعدهما عن الحقل العلمي ولا يقلل أهميتها التاريخية ، ويمكن أن يذكر من بين هؤلاء خليل ثابت وأسعد داغر ونقولا فياض وأمين الحداد ونجيب الحداد ويعقوب صروف ، وبالطبع يتوجه جميعاً سليمان البستاني الذي استطاع أن يقيم بناءً شاخساً في ميدان الأدب المقارن بالدراسة الواسعة التي قام بها حول (اللياذة) بعد أن عربها شعراً (٩) .

(٨) عرضت هذا الأمر في ورقة قدمتها للملتقى الدولي للأدب المقارن عند العرب (عنايه من ١٤ - ١٩ / ٥ / ١٩٨٣) وشرحت للمؤتمر الأسباب التي تؤيد ريادة الخالدي . انظر تقريراً عن الملتقى في المعرفة ، ع ٢٥٧ ، س ٢٢ ، تموز ١٩٨٣

(٩) ياعي ، د هاشم . النقد الأدبي الحديث في لبنان ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ج ١ ، ص ٢٧١ .
قد يكون من المفيد أن أذكر أنني قدّمت خلاصة البحث الحالي في ورقة قرأتها أمام « المؤتمر الدولي للأدب المقارن » الذي عقد في السوربون بباريس من ٢٢ - ٢٦ / ٥ / ١٩٨٤ ، وكان موضوع المؤتمر « باريس وظاهرة العواصم الأدبية العالمية » مفترق طرق أم حوار بين الحضارات ، وسوف يظهر البحث في وقائع المؤتمر فيها بعد .

نشرته الهلال على مطابعها عام ١٩٠٤ بتوقيع (المقدس) ثم أعادت طبعه عام ١٩١٢ وعليه اسم المؤلف ورسمه . وهو في الأصل سلسلة مقالات نشرت في « الهلال » ابتداء من الجزء الرابع من السنة الحادية عشرة في ١٥/١١/١٩٠٢ .

- « الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة » ، مقالان نشرت الأولى في الجزء الثاني من الهلال ، س ١٧ في ١/١١/١٩٠٨ بتوقيع المقدسي . والثانية في العدد التالي (١٩٠٨/١٢/١) ، بالاسم الصريح وقد طبعتهما دار الهلال في كتيب عام ١٩٠٩ .

- برتلو : العالم الكيماوي الشهير ، الهلال ، ج ٨ س ١٠ ، ١٥/١/١٩٠٢ .
- حكمة التاريخ ، جريدة طرابلس الشام ، ع ٥١٧ عام ١٩٠٣ وادت هذه المقالة إلى تعطيل الجريدة .

- الكيمياء عند العرب ، وهو كتاب في ٨٥ صفحة ، طبعته « دار المعارف » بمصر عام ١٩٥٣ .

- رحلة إلى الاندلس ، وتذكر المراجع انه مطبوع ، ولم أره .

- وللمؤلف مخطوطات أخرى وهي

- كتاب علم اللسنة او مقابلة اللغات . (٦)

- الصهيونية . (لم يتم) ★

- تاريخ الامة الاسرائيلية وعلاقتها بالعرب وغيرهم من الأمم .

- تراجم اعلام الاسرة الخالدية (لم يتم)

وورد في « الكتاب العربي الفلسطيني » (٧) ذكر لثلاثة كتب للخالدي هي : « تاريخ علم الأدب » ص ٢٤ و « مقدمة في المسألة الشرقية » ص ٦٦ ، و « الحبس في التهمة » ص ٣١ ، ولم أجد للكتاب الأخير ذكراً في المراجع الأخرى ، ولعله كتاب في الحقوق .

(٦) اشار الاستاذ اسحق موسى الحسيبي إلى أنه رأى هذا الكتاب ، « وهو كتاب نفيس في بضعة مجلدات » ، في مكتبة الاستاذ احمد سامح الخالدي في بيت المقدس ، انظر ص ٣٤ مع الحاشية من : الحسيبي ، د اسحق موسى هل الأدباء بشر ؟ دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٠ (٩)

★ ذكر لي عدد من الأصدقاء أن المخطوطة موجودة في مكتبة الخالدي وتحمل عنوان

ولم اطلع على المخطوطة ولكن علمت أن الشاعر الفلسطيني عزالدين الماصرة شربحاً عنها في مجلة شؤون فلسطينية عدد تموز ١٩٨٢ ، الذي لم يورع بسب ظروف الاحتلال الصهيوني لبيروت .

(٧) لجنة الثقافة العربية في فلسطين الكتاب العربي الفلسطيني ، القدس ١٩٤٦ ، أعاد نشره في بيروت عام ١٩٨١ الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، وهو فهرس للكتاب العربي الفلسطيني منذ أواخر القرن التاسع عشر

حتى عام ١٩٤٦

ومن المعروف أن سليمان البستاني أنجز ترجمة الالبازة شعراً عام ١٨٩٥ وانتهى من إثبات شروحها وحواشيها عام ١٩٠٢ ، وكتب مقدماتها التي بلغت مئتي صفحة في أواخر سنة ١٩٠٣ ، واضعاً بذلك اللبنة الأولى في بناء الأدب المقارن . ولكن من المعروف أيضاً ، وما لا تشير إليه دائماً الكتب العامة في الأدب والنقد ، أن روجي الخالدي نشر كتابه الحالي على شكل مقالات منجمة في (الهلل) بين عام ١٩٠٢ - ١٩٠٣ ، وبذلك يكون البستاني والخالدي فرسيّ رمان من خلال المقياس التاريخي على الأقل ، ولكن من خلال المقياس الخاص بالأدب المقارن يسود روجي الخالدي في كتابه (تاريخ علم الأدب) أقرب بكثير إلى مفهومات هذا المصطلح من سليمان البستاني ، بل يُظهر وعياً نظرياً لمفهومات التأثير والتأثير وتبادل الأفكار والتقنيات مما لا نراه عند الكثيرين من معاصريه ، وبذلك يقترب من المفهوم الأصلي للأدب المقارن (١٠) بوصفه (تاريخ العلاقات الأدبية الدولية) على نحو ما أكدته أكبر أساتذة المدرسة الفرنسية الأوائل مثل فان تيينم ، وغويار ، وبالدينسبرغر وجان ماري كاريه ، مضيفاً إلى ذلك المفهومات المقارنة الأوسع أفقاً لأساتذة المدرسة الأميركية مثل هـ . هـ رماك وألريخ فاينشتاين ، وقد حدد الأخير قطاع الأدب المقارن على ثلاثة مستويات

- التاريخ الأدبي المقارن

- النقد الأدبي المقارن .

- النظرية الأدبية المقارنة .

وجعل تبادل التأثير أساساً ولكنه في الوقت نفسه لم يصرف النظر عن المقارنة ولو كانت غير مبنية على التأثير والتأثير (١١) ، وإن ما فعله روجي الخالدي في الكتاب الحالي يقترب كثيراً من هذه المستويات ولكن بشكل مبدئي جداً بالطبع ، إذ لم يكن ممكناً في تلك

(١٠) من أجل أخذ فكرة عن المشكلة المنهجية للأدب المقارن يمكن مراجعة الخطيب ، د حسام « الأدب المقارن بين التزمّت المنهجي والانفتاح الانساني » ، وهي سلسلة دراسات من ثلاثة أقسام نشرت في المعرفة دمشق ، الاعداد ٢٠٤ - ٢٠٧ - شباط - أيار ١٩٧٩
(١١) انظر صفحة ١٠ من

Weisstein, Ulrich:

Comparative Literature and Literary

Study Indiana University Press,

Bloomington - London, 1973.

الفترة المبكرة من النهضة الأدبية العربية أن يلتفت الباحثون إلى محاولة تفهم المسائل المنهجية المعقدة ، وذلك على فرض أن فرصة الاطلاع عليها قد أتاحت لهم . وهذا الكلام يذكر باسم آخر الى جانب سليمان البستاني عدّ دائماً من رواد النقد الأدبي الحديث والدراسات المقارنة وهو اسم قسطنطين الحمصي (الخلبي) الذي نشر كتابه (منهل الورد في علم الانتقاد) ، في مصر بجزأيه خلال سنتي ١٩٠٦ - ١٩٠٧ ، وحاول أن يخوض في بعض المفهومات النقدية الغربية ولكنه أظهر قصوراً واضحاً عن فهم المسائل النظرية التي يتحدث عنها لأن هذه المسائل كانت غريبة عن اعداده الثقافي وعن المرحلة التاريخية للأدب العربي . وقد حاول قسطنطين الحمصي أن يعقد مقارنات بين الأدب العربي والأدب الغربي ، على طريقة سليمان البستاني ولكنه لم يقترب من مفهومات التأثير والتأثير أو التواصل الثقافي أو تشابه الانتاج الأدبي بفعل تشابه المجتمعات (وهي نقطة مهمة جداً اتكأ عليها سليمان البستاني اتكاء شديداً) .

وظلت محاولة الحمصي على أي حال محصورة في النقد الأدبي الحديث وهو حتماً من رواه ذوي الفضل ، أما ما نسب إليه من ريادة في الأدب المقارن يعود مرجعه إلى الجزء الثالث من كتابه (منهل الورد) الذي صدر في حلب عام ١٩٣٥ وتضمن دراسة وافية في حوالي تسعين صفحة (ص ١٥٤ - ٢٤٦) لما سماه : (الموازنة بين الألعبوة الألهية ورسالة الغفران)

وفي هذه الفترة بالذات بدأت تظهر بعض الدراسات الأدبية المقارنة وبدأ مصطلح (الأدب المقارن) ينال شيئاً من التناول في الأوساط الأدبية العربية كما ثبت في مناهج بعض الجامعات في نهاية الثلاثينات ، وبذلك يكون دخول الحمصي في باب الأدب المقارن متأخراً في الاعتبار الزمني (١٢) .

يمكن اعتبار روجي الخالدي ، سواء من حيث السبق الزمني أم من حيث السبق العلمي ، رائد الأدب العربي المقارن ، بما تنطوي عليه كلمة (ريادة) من تسامح في ناحيتي

(١٢) تم تحديد تاريخ الجزء الثالث من خلال عدة عوامل أهمها مادة المقدمة ثم الاهداء الذي كتبه المؤلف بحظه الخميل إلى رئيس الجمهورية السورية حينذاك (صاحب المحامدة محمد علي بك العابد) ، بتاريخ ١٩٣٥ / ٩ / ٢٨ على نسخة من الكتاب أصبحت من مقتنيات الأديب عيسى فتوح الذي يعود له الفصل في اطلاعي عليها

والغريب ان محمد يوسف نجم لا يشير إلى هذه الدراسة الرائدة في القسم المعنون

٤ - العناية بالأدب المقارن ، من كتاب (الادب العربي في آثار الدارسين) المشار اليه سابقاً

المنهج والدقة العلمية ، وهذا الحكم ينبغي ألا يتعارض مع المكانة الريادية المرموقة التي يحتلها سليمان البستاني وقسطاكي الحمصي وأقرائهما في حقل النقد الأدبي العربي والدراسات الأدبية المتفتحة ، وكفي أن نلقي نظرة على عنوان كتاب الخالدي ومقدمته بالفرنسية ومقدمة الناشر لنستنتج أننا إزاء مشروع دراسة مقارنة على درجة جيدة من الوعي النظري (١٣) .

١ - يحمل عنوان الكتاب مفاجآت علمية في مقدمتها استعمال مصطلح (علم الأدب) وهو استعمال مبكر جداً ومتأثر بالاتجاه الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر إلى التأكيد على علمية الأدب (هيسوليت تين وسانت بوف) . ولكن هذا المصطلح مفاجأة تصدم القارئ العربي الذي يقوم تقليده الأدبي على تنزيه الأدب من أن يكون علماً أي خاضعاً لشيء غير الذوق والعاطفة والاحساس .

ويبدو من تنمة العنوان أن المؤلف يعرف ما يريد وأنه لم يطلق هذه التسمية عبثاً ، فما دام الأدب علماً فإذاً يمكن أن يكون منطلقه واحداً وتاريخه واحداً .

ويمكن النظر إليه من خلال زاوية واحدة وهكذا نجد تنمة العنوان :

تاريخ علم الأدب .

عند الافرنج والعرب

وفيكتور هوغو

ولكن ما شأن فيكتور هيغو هنا ؟

ان المؤلف يوضح هذا الأمر جيداً في المقدمة الفرنسية للكتاب ويبين أنه أحب أن يسهم في احتفالات الذكرى المئوية للشاعر الفرنسي فيكتور هيغو ، فقاده ذلك إلى تقليب النظر في الآداب الافرنجية والعربية وقدم أخلاطاً من الآراء بهذا الشأن وقد لو تكون (تاريخاً للآداب) ، ولكنه أثر الدقة فسمها بالفرنسية : « دراسة حول فيكتور هوغو وحول الأدب عند الأوروبيين والعرب » . وأصر عند ترجمة هذا العنوان إلى العربية أن يذكر كلمة (علم الأدب) في حين أن كلمة (علم) لا وجود لها في النص الفرنسي ، وكأنه كان يحتاج إلى

(١٣) صدرت الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٩٠٤ ، واكتفى الناشر بوضع كنية (المقدسي) عليها (نسبة إلى القدس الشريف مسقط رأس المؤلف) . وحين ظهرت الطبعة الثانية سنة ١٩١٢ كان الظرف مواتياً لإعلان اسم المؤلف عليها وهي من طبع مطبعة (الهلل) بالفجالة بمصر . وتشير مقدمة الناشر إلى ان المؤلف كم اسمه خوفاً من الاستبداد العثماني ، ولأنه كان من المنادين بالحرية

التأكيد على علمية الأدب بالنسبة للقراء العرب دون غيرهم وكأنه من فضول القول أن يسمى الأدب علماً عند الفرنسيين .

٢ - يشير تصدير الكتاب ، أي الشرح المثبت على الغلاف بعد العنوان ، الى أن الكتاب يعتمد على المقابلة والمقارنة القائمة على التأثير والتأثير . وهو ينطلق من اعتقاد واضح بإمكان إجراء المقابلة حسب المراحل التاريخية (ابان تمدنهم إلى عصورهم الوسطى) . كما يلحق المقابلة بالمقارنة ويشير إلى ما اقتبسه الافرنج عن العرب من الأدب والشعر ، وهو بذلك يدخل في صميم منهج الأدب المقارن .

ومن الملاحظ أيضاً أن العنوان الفرنسي يميل الى البساطة والتواضع والدقة تمشياً مع المنهج العلمي الأوربي . والحق ان المقدمة الفرنسية هي في الأصل منشور صدر من أجل تعريف القراء الفرنسيين بالكتاب . وعلى الرغم من أنه يحمل توقيع المؤلف فان لهجته تختلف عن لهجة المقدمة العربية ، وهناك مجال للظن بان أحد أصدقاء الخالدي من الفرنسيين هو الذي كتبه ، وربما كان من كتابة زوجته الفرنسية .

٣ - حرصاً على وحدة الكتاب وعلى اعطاء مسوغ منهجي لحشر اسم فيكتور هيغو فيه نراه يشير في التصدير نفسه إلى ما كان لهيغو من دور في عملية اقتباس الفرنجية لأدب العرب (وخصوصاً على يد فيكتور هيغو) ، فكأنه بذلك يقدم حالة عامة من التأثير الأدبي هي حالة التأثير الأدبي العربي في أوروبة مع حالة خاصة أو مثال خاص هو مثال فيكتور هيغو . وواضح من المقدمة الفرنسية ان المؤلف ينوي التوسع في الكلام على هيغو ، لا لأنه مثال خاص للتأثير بل كذلك لما يمكن أن يقدمه شعر هيغو من تأكيد على التشابه بين الأدبين العربي والافرنجي وكذلك على اللون الخاص لهذا الشاعر ، مما يمكن أن يفيد منه القراء العرب ، ومن هنا كان وعده في المقدمة بترجمة مقطوعات لفكتور هيغو ومقارنتها بمقطوعات لشعراء الحرب العرب مثل المتنبي والمعري .

٤ - تظهر المقدمة الفرنسية أيضاً أن روجي الخالدي لم يكن من أولئك الكتاب المتحمسين المعصوبي العينين الذين يعتقدون أن اتجاه التأثير الأدبي ينبغي أن يظل دائماً منطلقاً من الأدب العربي ومنتهياً عند الفرنجة بل كان واضحاً أنه يعتقد أن التجربة الأدبية الغربية وتجربة شاعره المفضل فيكتور هيغو بوجه خاص ، كفيلة بأن تغني الأدب العربي الحديث وأن تعطيه أنفاساً جديدة . ولذلك نراه في المقدمة الفرنسية يعد باعطاء الشعراء الشباب العرب فكرة دقيقة عن الأدب الأوروبي بوجه عام والأدب الفرنسي بوجه خاص ،

وعن الأحاسيس الأدبية وعن تنوع الموضوعات التي يمكن أن يعالجها شاعر معاصر .
 وإذا وضعنا هذه المقدمة في إطارها التاريخي فاننا لا نبالغ إذ نؤكد على سبق روحي الخالدي من ناحية الوعي النظري لأهمية التأثير والتأثير . فقد كتبت المقدمة في الخامس من حزيران سنة ١٩٠٦ ، أي في فترة كانت السيطرة العثمانية فيها ما تزال قوية وأصوات التجديد ما تزال طرية إزاء الموجة الطاغية من التجمد أو من التأكيد على عملية الاحياء في إطار التراث العربي وحده دون الحاجة إلى الاتصال بأدب الفرنجة ، والجدير بالذكر أن الآراء التجديدية في تلك الفترة كانت تجلب النقمة الرسمية على صاحبها حتى لو ظلت في إطار الثقافة والأدب (لأن الجواسيس يحولون كل معنى إلى المكائد والدسائس) ، وهذا ما يسر الإشارة ناشر الكتاب في مقدمته إلى أن الهلال نشرت مقالات الخالدي دون نوتيس اسم رضي المؤلف أخيراً بوضع توقيع (المقدس) على الطبعة الأولى من كتابه :
 « فنشرنا هذا الكتاب مقالات متوالية ، والقراء يسألوننا عن اسم كاتبها ويتشوفون لمعرفة . فلما طبعناها في كتاب على حدة تقدمنا إليه أن يأذن بنشر اسمه في صدر الكتاب فاكتمى بالإشارة إلى موطنه فوضعنا بدل اسمه لفظ (المقدس) ، نسبة إلى القدس الشريف مسقط رأسه » .
 وهنا يسجل المرء لروحي الخالدي فضلين :

الأول : أنه كان من الطبقة العليا العثمانية : الوكيل الأول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه والقنصل العثماني في بوردو ، أي أن موقعه الاجتماعي كان إلى جانب المحافظة والتقليد ومع ذلك فانه أثر الريادة والتجديد .
 الثاني : أنه قدّم من الآراء الحديثة ومن أمثلة التفتح العقلي ما جعله عرضة للخطر واضطره إلى كتم اسمه عن القراء في الطبعة الأولى من الكتاب وفي المقالات التي نشرها في الهلال . ولم يظهر اسمه إلا في الطبعة الثانية من الكتاب سنة ١٩١٢ .
 هـ - يظهر الخالدي في المقدمة الفرنسية أيضاً وعياً نظرياً باتجاه اللغة العلمية الواضحة التي لا بد من اعتمادها في (الأدب المقارن) باعتباره منهجاً في البحث وليس معرضاً للتألق الأدبي .

ويشير الخالدي بما يشير الإعجاب إلى أنه كان في مقدوره أن يكتب الكتاب على طريقة الحريري المسجعة ، ولكنه آثر أن يكون واضحاً ودقيقاً ومفهوماً ليتيح لجمهور القراء من أنصاف المتعلمين ومن المتخرجين من المدارس المتأثرة بالطراز الأوروبي أن يتابعوه

وبالفعل فإن لنة الكتاب أنت نموذجاً للغة العلية الدقنة الواضحة البعدة عن الزخرف والتكلف مما يضع الخالدي أيضاً في مصاف الطليعة العربية المجددة فكراً وأسلوباً في مطلع القرن العشرين .

٦ - ومما يسجل للخالدي في مجال الأدب المقارن حرصه على الترجمة أي على اعطاء فكرة عن النصوص الاصلية التي اهتم بها ولا سيما نصوص فيكتور هيغو التي كانت طريقه إلى المؤسسة في البحث ، وذلك أنه كان حريصاً على عدم السباحة في بحور التعميمات وكان يردف كل فكرة بمثال توضيحي ، من فيكتور هيغو في أغلب الاحيان ومن غيره من الأدباء الغربيين ، في حين أن تركيزه في مجال الأدب العربي تناول الشعراء المنبيين وأبا العلاء بوجه خاص

والمعروف أن الأدب المقارن هو من فروع المعرفة الأدبية الأكثر التصاقاً بالعلوم . على أي حال بذل الخالدي جهداً لتقديم ترجمات لمجموعات مختارة من نصوص فيكتور هيغو ، أورد بعضها كاملة وأورد مقاطع مختارة من بعض آخر ، إما لأسباب تتعلق بصعوبة الترجمة وإما لأسباب تتعلق بعدم استساغته لبعض الأفكار في النصوص الأصلية وكانت طريقته أن يستعرض قصائد فيكتور هيغو وأعماله الفنية مستهلاً كل عمل بتعريف عام به ومتقلاً بعد ذلك إلى التعليق عليه ولا سيما من ناحية ما يوحه من نشابة مع بعض الآثار العربية وقد يجري مقارنات فنية دقيقة لينتقل بعد ذلك إلى الترجمة الدقيقة لبعض المقاطع وقد اتبع هذه الطريقة في الثلث الأخير من الكتاب الذي خصصه لتقديم انناج فيكتور هيغو

وتبدو ترجمة الخالدي ناجحة لأنها قائمة على التعمق في النص الأصلي وفهم مرامي ، فهو ليس مترجماً محترفاً بل أديب مدوق وبالطبع لنا أن ننصور ما عاناه الخالدي في مجال ترجمة المصطلحات الأجنبية والكلمات الفنافية من فنية وبلاغة وإذا كانت بعض مصطلحاته تبدو لنا طريقة اليوم بعد أن قطعنا سوطاً طويلاً في تجارب ترجمة المصطلحات فإن الجهد الذي قدمه الخالدي يضعه في مصاف رواد الترجمة ولا سيما من ناحية اصراره على فهم المصطلح الأصلي بلغته وشرح معنى هذا المصطلح جنباً إلى جنب مع اقتراح الترجمة ومن جملة المصطلحات

الطريقة الرومانسية Romantisme مقابل ما نسميه اليوم (المدرسة الرومانسية) (١٤)

(١٤) لم يستقر هذا المصطلح بعد ، وهناك (الرومانسية ، والرومانية ، والرومانسية والرومانكية ، والرومانطية -

- الطريقة الحقيقية Realisme مقابل (الواقعية) .
- فاجعة أو مبيكة Tragedie مقابل (مأساة)
- مضحكة Comedie مقابل (ملهاة) .
- الرواية والرواية التمثيلية Drame مقابل (مسرحية) .
- هجوية Satirique مقابل (قصيدة الهجاء) أو فن الهجاء .
- وهناك كلمات كثيرة لم ينجح في ايراد مرادفات عربية لها فاستعملها كما هي بالفرنسية مع تقديم شرح واف لمعناها يدل على فهم وتذوق ، وذلك مثل .
- الشعر الغرامي المعروف باسم (ليريك) Lyrique
- محاكم الانكيزيسون (أي التفتيش) Inquisition
- مصطلحات عروضية فرنسية مثل (ستروفي) . Strophe
- وهناك كلمة دوكيان (التسجيلية) Document
- ويستعملها بالطريقة التالية .

يتحدث عن شخصيات هيغوفي قول انها (لم تُبْنِ على الحجاج والبراهين التي اشترطها أصحاب الطريقة الحقيقية وسأها أميل زولا (دوكيان)

وفي المقطع التالي نجد ادراكه الدقيق لصعوبة ايجاد الترادف بين مدلول المصطلح بلغته الأصلية وباللغة المترجم اليها مما يشكل احدى العقبات الكبرى في فن الترجمة :

(فالأود والبلاد والأليجي (١٥) . . . الخ ، يقابلها في العربية المدح والغزل والثناء . . الخ ، غير أن هذه الأقسام في العربية من الأقسام المعنوية وأما عند الفرنسيين فهي من الأقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف . ومن هذه الأقسام اللفظية أيضاً الشعر الفاجع وهو ما صور فيه الشاعر حادثة مهمة من شأنها تهيج العواطف وتحريك الغضب واستجلاب الشفقة والرحمة ، وتنتهي الرواية الفاجعة في الغالب بمصيبة ، فروايات المتقدمين التي على هذا الطراز تسمى تراجيديا وروايات أصحاب الطريقة الرومانية التي على أسلوبها تسمى درام وأما الكوميديا فهي مصورة لأخلاق الهيئة الاجتماعية ومساوئهم ومعائبهم وبصورة هزلية مضحكة كروايات مولير ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية ومنشورة في مطبعة أبو الضياء) . ص ١٨٥

والمصطلح المترجم (الانداعية ، والابداعية)
Elegie, Ballade, ode . (١٥)

ومن الواضح أن النص السابق يظهر الصعوبات التي لاقاها الخالدي في الترجمة من جهة ، ويظهر من جهة أخرى حرصه على الدقة في شرح المصطلحات ومدلولاتها ، وهو فضل يستحق تكرار التنويه به .

٧ - كذلك مما يسجل للخالدي حرصه على اعطاء فكرة عن المذاهب والأنواع الأدبية لدى الأوروبيين وتلمس آثار أو مساهمات هذه المذاهب والأنواع في الأدب العربي ومن المعروف أن دراسة المذاهب والأنواع الأدبية بمفهومها الشمولي تشكل ركيزة مهمة من ركائز الأدب المقارن .

ويسلاحظ المرء في النص الذي ورد قبل قليل كيف يعمل الخالدي على شرح المفاهيم والمصطلحات المتعلقة ببعض الأنواع الأدبية كالسرحية والمهابة والمأساة وغيرها وفي مواضع أخرى من الكتاب نراه يعنى بشرح المذاهب الأدبية الأفرنجية بالتفصيل ويتابع اتجاهاتها على مستوى الآداب الأوروبية وآسيا الآداب الانكليزية والفرنسية والألمانية ، ومن الطريف أن يذكر مسرحية (فاوست) لغوته ويعلق عليها من خلال مشاهدته اياها على المسارح الفرنسية .

ومن خلال هذا العرض يظل حسه المقارني ربيعاً وهو يقارن باستمرار بين الأفكار والتقنيات والأساليب العربية والأفرنجية .

وانه ليقف طويلاً عند ظاهرة مثل ظاهرة (المبالغة) ويتابع المواقف المختلفة منها في كل من العربية ، والفارسية ، والتركية والفرنسية .

٨ - تتوفر في كتاب (تاريخ علم الأدب) لمحات مقارنة شديدة الأهمية تدل على توفر حس التبحر المقارني والذوق النقدي أيضاً لدى المؤلف .

وبالطبع ليس من الضروري أن يكون كل ما يذكره المؤلف صحيحاً أو عميقاً ، ونحن هنا لا نشير إلى دقة المعلومات وعمق التحليل بقدر ما نشير إلى المهابة المقارنة اللامحة، وفيما يلي بعض الأمثلة التي تنبئ عن حسه المقارني .

آ - يعالج الكاتب موضوعات مقارنة مباشرة من مثل (ما اقتبسه الأفرنج من قواعد الشعر العربي) في الفصل الرابع عشر ويظهر المؤلف هنا مهابة علمية متميزة وجلداً على البحث وميلاً إلى التفحص والتدقيق . وينتهي إلى التأكيد على أن الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية أتاحت الفرصة لانتقال الأفكار والآساليب والتقنيات الغربية إلى الفرنجة في القرن الحادي عشر الميلادي من خلال الاتصال العربي الفرنسي

الحربي وغير الحربي في شمال اسبانيا وجنوب فرنسا ويتابع هذه الاقتباسات بدقة وتفصيل غير أن ما يعجب المرء بالاضافة إلى ذلك حرص المؤلف على رسم خارطة للجو السياسي الاجتماعي الذي دارت فيه المبادلات الأدبية في تلك الفترة ، ومن هنا يعرج على وصف المنطقة جغرافياً وعلى وصف حروب المسلمين والفرنجة ، ويدل وصفه على معرفة مباشرة بجغرافية المنطقة ، معرفة تاريخية واضحة بالوقائع التي دارت . والحق أنه يبدو مغرماً بتلك الأرض وتلك الفترة التاريخية فيطيل الكلام في هذه المناسبة ولكنه في النهاية يعتذر لذلك تحت ستار حجة علمية معروفة في الأدب المقارن ، وهي العناية بالمناخ العام للمبادلات الأدبية .

« فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعترضة في هذه الرسالة أن الاختلاط بين العرب والافرنج لم ينقطع » ومن الموضوعات المفارسة التي يعالجها ويبين رآه فيها مثبتاً التأثير الغربي في الأدب الافرنجي

- انشاد فقراء الافرنج النشائد والمدائح العربية

- أخذ التروبادور علم القوافي عن العرب

- الأصل العربي لمسرحية (السيد)

- اقتباس الافرنج أقاصيصهم عن العرب

- انتقال هذا العلم إلى شعراء الشمال وهم الزوفر

ومن خلال بحثه المقارن يؤكد المؤلف باستمرار على تأثير المعتقدات الدينية والمرددات والأساطير والأغاني والتصرفات الاجتماعية في الأفكار والاساليب الأدبية ويتعرض بوضوح لموقف العرب من الأدب اليوناني ويبين كيف أقدم العرب على مختلف أنواع الاقتباس من الحضارة اليونانية ولكنهم استثنوا الأدب .

« فينضح مما تقدم أن العرب لم يأخذوا من الأمم الذين ترجموا كتبهم إلا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجوا شيئاً من ذلك . مع أنهم رأوا في كتاب المنطق لا رسطو نناء طلباً على اومروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء ولم يكن للكتب المنزحة تأثير على طبقه المنهجي والمصري وابن هاني الا من جهة افادتهم الاراء الفيلسفة لا من جهة افادتهم أساليب النظم وطرف الكلام » .

ب - ويمكن أن تكون معالجة الخالدي لانفال علم القوافي إلى الافرنج نموذجاً

جيداً لطريقته في المقارنة وهي ان لم يتحصف أحياناً بالدقة والمستند العلمي فانها تنصف بسعة الأفق وذكاء الاستنتاج ، وفيما يلي خلاصه الفصل الذي عقده المؤلف لموضوع القوافي :

« فالذي أخذوه عن العرب بالسماح والتقليد هو علم القوافي وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن القافية ما يسمونه (اسونانس) وهو اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة بقطع النظر عما بعدها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج (sage) وأرم (arme) وكان استعملهم للقوافي في القرن الثالث عشر وأخذوا عن العرب في المنظوم أنواع المادح والغزل والنسيب والمهجو والهلل أي ما يسمونه ليريك وما يسمونه ساتريك كما أخذوا عنهم في المنشور القصص والملح وضروب الامثال ومنها ما نقلوه نثراً ثم نظموه في لغتهم وجاروا العرب في الفكاهات أيضاً فألفوا حكايات وتظريفات على أقسة القرى وخدمة الكنائس ليضحكوا منهم الامراء والفرسان الذين يسمونهم « شيفاليه » ، وفي هذه الحكايات والنوادر المأخوذة عن العرب ما أصله الأول من حكايات الفرس والهناد وترجمت إلى العربية ثم نقلت للأفريقية فلو كان الحكم والغلبة لأهل الجنوب المجاورين للعرب وللغتهم المسماة « أوق » لوجدنا في اللغة الفرنسية الحالية شيئاً كثيراً من فنون الأدب العربية

ولكن الحكم والغلبة كانتا لأهل الشمال وللغتهم المسماة « أويل » وكان شعراؤهم التروفيرو لا يعرفون غير أشعار الحماسة وقصائدهم قصيرة والبيت مؤلف من عشرة هجاءات ليس له قافية وإنما له (أسونانس) كما في أغاني رولان الآتي ذكرها واستمروا على هذا النظم إلى آخر القرن الثاني عشر وفي القرن الثالث عشر أخذ شعراء الشمال وهم التروفيرو ينسجون على منوال (التروبادور) وتعلموا منهم القوافي ورقة الغزل واللمحن الموسيقي وصار فرسان الافرنج يقلدون فرسان العرب في انتحال الشعر فكانت فضائل الفارس المهارة في الفروسية وحفظ الشعر والتمثل به وفي لعب الشطرنج فنحسن الشعر الافرنجي بادخال القوافي العربية فيه وباقتباس أدب الاندلسيين ورقة غزلهم » ص ١٠٤ - ١٠٥

ج - يبدو الكاتب معجباً بفيكتور هيغو ، ولكنه لا يغمض العينين عن نواحي الضعف في كتابته ، ويعترف بأن رواياته « لم تبلغ درجة الاعجاز لا بالنظر إلى المؤلفات السابقة عليها ولا المؤلفات اللاحقة لها من هذا النوع » .

وذلك ما يدفعه إلى التساؤل عن سبب الشهرة الواسعة التي حظى بها فيكتور هيغو محلياً وعالمياً ، ويجد لذلك جوانب سياسية ودينية وعلمية وعند شرح السبب السياسي يبين

تأثير مكانة الفرنسيين عند الأمم من ناحية لفت النظر إلى شعرائهم ويرجع سبب الشهرة العالمية لهيغو إلى قوة أمته وبالتالي قوة أدبه القومي :

« وكان لقومه الحظ الأوفر من التقلبات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم أنظار العالم المتمدن بأسره » .

وهذا التعليل لشهرة الكاتب خارج بلده معروف في الأدب المقارن ، ذلك أن كثيراً من الأدباء يحظون بأكثر مما يستحقونه من شهرة عالمية بسبب تأثير أمهم في المحيط الدولي السياسي أو الحضاري ، وبالمقابل يحرم كثيرون من الأدباء مما قد يستحقونه من شهرة عالمية بسبب ضعف مكانة بلدانهم على المستوى العالمي السياسي أو الحضاري .

١٠ - يبدو وكتاب الخالدي سلسلة غنية من المقابلات العربية الافرنجية الفكرية والأدبية وأحياناً المعتقدية وهو يغتنم كل فرصة تسنح من أجل المقابلة بين الطرفين ، وأحياناً تذهب به المقابلة مذاهب بدعية . ولكنه في النتيجة ينجح في رسم خطوط كبرى لنواحي التماثل والاختلاف ، من شأنها أن توحى بأن التجربة التاريخية الاجتماعية المتشابهة تنتج أفكاراً وآداباً متشابهة .

كما أن كل ما يقدمه الكاتب من أمثلة يسهم في التأكيد على تشابه التجربة الانسانية في مجال الابداع الفني والأدبي على الأقل .

ومن أمثلة مقارناته التي لا تعتمد على تأكيد التبادل أو التأثير والتأثير :

- المقارنة الشاملة بين الشعر العربي والشعر الأفرنجي مع بيان آراء كل طرف في شعر الآخر .

- المقارنة بين موضوع ملهامة (تارتوف) لمولير وأبيات للمعري تقترب منها في المغزى .

- المقارنة بين قواعد الاتباعية الجديدة وبيت لحسان بن ثابت في الصدق .

- المقارنة المستمرة بين هيغو والمعري .

والتأكيد على تميز هيغو على شعراء العربية من خلال تنوعه وعمقه وأنفته من التقليدية ، ويستثني من هذه المقارنة كلا من المتنبي والمعري .

ومن المقابلات الطريفة مقابلته بين ملحمة رولاند وبين سيرة أبي زيد الهلالي ، وتهكمه على المرددات العامة المتعلقة بسيف رولاند المسمى دوراندل وسيف علي بن أبي طالب (ذو الفقار) . ويبين هنا أن المبالغة في تأثير السيفين سلبت البطلين فضيلة الشجاعة

لأن الفضل عاد للسيفين في المرددات الشعبية . (ص ١٠٧) .
كذلك من المقارنات الطريفة تشبيهه تطوع بايرون للقتال إلى جانب الشوار اليونان
على الاتراك بكر المتنبى على الأعراب الذين اعترضوا طريقه حين خرج قاصداً الكوفة ،
وبما كان لبيته المشهور « الخيل والليل والبيداء . . » من تأثير في نفسه جعله يضحي حياته
وحياة ولده في سبيل وقفه عز فهنا أظهر المتنبى الشجاعة حيث ينبغي اظهار الحزم والرأي .
وكذلك فعل بايرون الذي مات في اليونان ، والمشابهة مجتلية هنا . ويعجز الكاتب عن فهم
طبيعة وقفه العز والوفاء للمبدأ التي وقفها كل من الشعارين .

★ ★ ★

وأخيراً يحسن التأكيد أن الخالدي كان مؤهلاً تأهيلاً معقولاً لأن يكون باحثاً مقارنياً ،
فقد كان ذا ذوق أدبي حسن واطلاع جيد على الآداب العربية والأجنبية ، وكانت معرفته
باللغات وافية إذ أتقن العربية والفرنسية والعثمانية والفارسية ، وساعدته كذلك ظروفه
الشخصية من خلال اقامته في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين أي في
الفترة التي بلغ فيها تألق فرنسا الأدبي قمة من قمم العديدة ، وفي خلال اقامته هذه تعرف
المؤلف على عدد من المستشرقين الأوروبيين وذكرهم وذكر آراءهم في كتابه يضاف إلى
ذلك كله ما ظهر في ثنايا الكتاب من حرص على الدقة وابتعاد عن المبالغة والاسراف ،
وتقيد بالامانة العلمية من حيث الرجوع إلى المصادر ، ومراقبة هوى النفس إذ لم يسمح
لتعلقه الشخصي بفيكتور هيغو أن يطغى على أحكامه فلا غرو إذن أن يكون لكتابه
« تاريخ علم الأدب » فضل السبق في ريادة الأدب العربي المقارن . (١٦) .
وربما كان لانتفاء روجي الخالدي إلى القدس أثر في تطلعه الواسع ونزعه المقارنية
العالمية ، وهذا رأي تقتضي الأمانة أن أحفظ بحقه لصاحبه الدكتور جون تايلر ، الباحث
المعروف في مجال الدراسات الاسلامية والقضية الفلسطينية ، إذ صادف أن حدثته بشأن ما
اسمته الاكتشاف العلمي الهام فيما يتعلق بريادة روجي الخالدي للأدب العربي المقارن ،
فعلق على ذلك بقوله :
« ألا ترى أن الخالدي ابن القدس وفلسطين مؤهل بطبيعة انتهائه لأن يكون له هذا
التطلع العالمي المقارني ؟ » .

(١٦) لا أدري إذا كان وارداً هنا إرجاع القارئ إلى العرض اللطيف حول « عدة الباحث المقارني » في كتاب غويار :
غويار ، م . ف : الأدب المقارن ، ترجمة د محمد غلاب ، سلسلة « ألف كتاب » رقم ٤٤ ، القاهرة ،

١٩٥٦ ، ص ٥ - ٨

القسم الثالث

تاريخ علم الأدب في المراجع الأدبية (١٧)

الخالدي في مراجع الأدب العربي :

مقابل ما رأيناه في القسم الأول من هذا البحث من إعتراف تراحم الاعلام والكتب الموسوعية بروحي الخالدي فان المراجع العامة في الأدب العربي الحديث والكتب ذات الطابع الأدبي والنقدي العام تكاد تهمله اهمالاً تاماً ويستثنى من ذلك المؤلفات ذات الطابع البليوغرافي او التعريفي ، مثل كتاب يوسف اسعد داغر « مصادر الدراسة الأدبية » وقد أورد له ترجمة مفصلة يتضح فيها شعوره بالأهمية العامة للمترجم له (١٨) وفي الكتب التي تعنى بتحليل البليوغرافيا الأدبية هناك اشارة واضحة للخالدي في بحث للدكتور محمد يوسف نجم حول حركة النقد الأدبي العربي في كتاب « الادب العربي في آثار الدارسين » وهو من الكتب الأولى التي اهتمت بتحليل المصادر والبليوغرافيا ، ان لم يكن الكتاب الأول من نوعه في الأدب العربي الحديث وبقرّر الدكتور نجم في هذا البحث ان حركة النقد الجديد في عصر النهضة تمخضت عن ثلاثة اثار (كان لها شأن كبير في حركة النقد الحديث ، وكان معيناً ثراً ارتوى منه نقاد الربع الأول من هذا القرن) وهذه الآثار هي (١٩)

(١٧) رأينا أن تقدم هذا القسم الثالث أو الملحق ، اعترافاً بفضل الأساتذة الذين سبهموا الى التنويه بأهمية الخالدي ، والملاحظ أنهم جميعاً من مؤرخي الأدب العربي في فلسطين .

(١٨) داغر ، يوسف أسعد مصادر الدراسة الأدبية ، بيروت ١٩٥٦ ، ح ٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٥

(١٩) نجم ، د محمد يوسف من بحث (الفنون الأدبية) في كتاب « الادب العربي في آثار الدارسين » ، تأليف

د صالح العلي وآخرين ، بيروت ، ط ١ شباط ١٩٦١ ، ص ٣١٨

ولست متأكداً من صحة هذا الحكم ولا سيما بالنسبة لكتائبي الخالدي والحمصي

- ١ - « مقدمة إلياذة هومروس » لسليمان البستاني .
 - ٢ - « تاريخ علم الادب عند الافرنج والمرب وفيكتور هوكو » ، تأليف روجي الخالدي .
 - ٣ - « مهمل الورد في علم الانتقاد » ، جزآن ، تأليف قسطاكي الحمصي .
- ويصف د نجم محتويات كتاب الخالدي باختصار شديد ، ويعلق عليه بما يلي .
- (والكتاب فيما أرى أول محاولة جدية لدراسة الأدب الغربي ، بقصد الافادة منه في دراسة أدبنا القومي ، وهذا واضح من مقارنات الكاتب ومن المسائل التي عُي بإبرازها في هذه الدراسة) (٢٠) .
- ومن الواضح أن تعليق الدكتور نجم هذا إنما يرشح الكتاب لأن يكون أساساً في الأدب المقارن ، وهو أقرب إلى هذا المنحى في البحث الأدبي منه إلى النقد ، والغريب أن الدكتور نجم يتحدث فيما بعد عن (العناية بالأدب المقارن) ويذكر بواكيره ولكنه لا يذكر كتاب الخالدي ، كما أنه لا يذكر الجزء الثالث من كتاب قسطاكي الحمصي (مهمل الورد في علم الانتقاد) (١٩٣٤) الذي يضم دراسة وافية حول تأثر (الألعبوة الالهية) (٢١) لدانتي برسالة الغرتران للمعري ، وهو بحث من صميم اهتمامات الأدب المقارن .
- أمّا في انمراجع الصاممة المتداولة عن الأدب العربي الحديث والنقد الأدبي فان حظ روجي الخالدي ، كاد ، صئلاً جداً ، إذ لم يرد له ذكر ذوشأن سواء في المؤلفات العامة مثل كتاب (ما ألفه في الأدب) (تاريخ الأدب العربي) ، وكتاب عمر الدسوتي (في الأدب الحديث) ، أم في المؤلفات التي تحدثت عن نشأة النقد العربي الحديث مثل كتاب عبد الحفي ديبات (التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد) الذي يذكر فيه نجيب الحداد ، وحسين نوفي العسل ، و خليل مطران ، وسليمان البستاني ، وقسطاكي الحمصي ، وأحمد ضيف وغيرهم ، ولا يشير إلى روجي الخالدي بكلمة واحدة ، أو مثل كتاب عز الدين الأمين (نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر) ، ولا أذكر أن اسم روجي الخالدي ورد في كل ما قرأته سابقاً من مراجع حول الأدب العربي الحديث أو النقد . وخيل إلى أنه من المحمل أن يرد ذكره في بعض الكتب أو المقالات التي تبحث كلياً أو جزئياً في الأدب المقارن ، ولكنني لم أجده ذكرأ أيضاً عند مؤلفين مثل د محمد مجنيمي هلال ود . عبد السلام

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٣١٩

(٢١) هكذا شاء قسطاكي بإسميها

كفاسي . كما أن معاصره قسطاكي الحمصي لا يذكره في كتابه (منهل الورد في علم الانتقاد) ، سواء في الجزأين الأولين من كتابه اللذين صدرأ في العقد الأول من القرن العشرين أم في الجزء الثالث الذي صدر عام ١٩٣٥ والذي اتجه فيه الحمصي اتجاهاً مقارنياً واضحاً (٢٢) .

وفي بحث جديد قدمه الدكتور عطية عامر للملتقى الأدب العربي المقارن في عناية بالجزائر (١٤- ١٩/ ٥/ ١٩٨٣) بعنوان (تاريخ الأدب المقارن في مصر) لا نجد أية إشارة للخالدي (٢٣) .

ومما يلفت النظر أن ذكر الخالدي في كتب تاريخ الأدب العربي الحديث كان محدوداً جداً ، ويمكن ان نعدّ على أصابع اليد الواحدة تلك الاشارات التي تتعلق به ، وهي مختصرة جداً ولا تنفع غليلاً . ومن أبرز الذين ذكروه .

١ - الأب لويس شيخو في كتابه القديم عن تاريخ الأدب العربية (٢٤) ويصفه بأنه كاتب بارع ويشيد بفضله وعلمه .

٢ - ذكره جرجي زيدان في كتابه « تاريخ اداب اللغة العربية » من خلال اشارة الى كتاب « تاريخ علم الأدب . . » الذي صنفه زيدان في قائمة « كتب تاريخية متفرقة ، اصحابها توفوا » وذكر معه كتباً تاريخية خالصة ولم يشر اليه في باب الكتب الأدبية (٢٥) . ويستغرب المرء كيف يصدر ذلك عن جرجي زيدان الذي نشر له كتابه ومقالاته في

(٢٢) الحمصي ، قسطاكي بك (الحلبي)

منهل الورد في علم الانتقاد ، ج ١ ، مطبعة الاخبار بالقجالة بمصر (٩)

تحمل المقدمة تاريخ ١٩٠٦/٧/١

ويحمل الاهداء تاريخ ١٩٠٧/١/١١

ج ٢ ، لا يحمل تاريخاً ولعله دفع إلى المطبعة مع الجزء الأول

ج ٣ مطبعة العصر الحديث بحلب

والجزء الثالث كذلك لا يحمل تاريخاً ويحلو اسم المؤلف من لقب بك ولكنه يحتفظ بصفة الحلبي

(٢٣) ظهر هذا البحث في مجلة (فصول) بعد ذلك انظر : عامر ، عطية « تاريخ الأدب المقارن في مصر » ،

فصول ، القاهرة ، المجلد ٣ ، ع ٤ ، يوليو- سبتمبر ١٩٨٣ ، ص ١٣- ٢٢

(٢٤) شيخو اليسوعي ، الأب لويس : تاريخ الاداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين ، بيروت ١٩٢٦ ،

ص ٥٠

(٢٥) زيدان ، جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، دار الهلال ، بلا تاريخ ص ٢٦٦

« الهلال » واشاد به على صفحاتها ونوه بعلمه وفضله وتقديسه للحرية (٢٦) .

٣ - ذكره انيس الخوري المقدسي في كتابه « الانجاءات الأدبية في العالم العربي الحديث » . ويتبين من فهرس الاعلام المئب في نهاية هذا الكتاب ان الخالدي مذكور في الصفحتين ٢٢ - ٢٣ ، ولكن بعد الرجوع إلى هاتين الصفحتين لم أجد سوى اقتباس بسيط في أول صفحة ٢٢ من مقال لروحي الخالدي في الهلال (١٧ - ١٤٥) حول السلطان عبد الحميد وبدء تنكبه طريق الاستبداد (٢٧) وليس للخالدي ذكر في ص ٢٣ أو في سواها .

٤ - أما الاشارة الرئيسية له في كتب الأدب والنقد فقد وردت ، على نحو ما يذكر الدكتور ناصر الدين الأسد ، في كتاب الدكتور اسحاق موسى الحسيني المسمى « النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين » ، وفيه عرض لأراء الخالدي ونظراته في النقد الأدبي ، وبعده الدكتور الحسيني من أوائل الذين استخدموا مصطلح « النقد الأدبي » ترجمة للكلمة الفرنسية Critique Litteraire ، ويشيد بسعة افقه في تعريف مصطلح الأدب إذ تناوله بمعناه الشامل وأدخل فيه القصص والروايات والحكايات والأغاني والتاريخ والسياسة والرحلة ، كما ينوعه بدعوة الخالدي القوية إلى اطلاع الأديب على آداب الامم الأخرى وإلى ذمة الافراط في المحسنات البديعية والتكلف والتقليد (٢٨) .

ويمكن ان يلحق بما تقدم اشارة الدكتور اسحق موسى الحسيني إلى الخالدي في كتابه الصغير : « هل الأدباء بشر ؟ » ، ويقدم الأديب المقدسي سلفه المقدسي تقديراً موجزاً ولكن حميماً وبعده من « زعماء النهضة الحديثة » ، ويشير إلى كتابه في « علم الألسنة » ، بتقدير شديد كما ذكرنا آنفاً (٢٩)

وهناك اشارات اخرى عابرة للخالدي في بعض المقالات النقدية لم نجد ضرورة

(٢٦) انظر تفصيل ذلك في كتاب « روعي الخالدي » لناصر الدين الأسد ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢٧) الخوري المقدسي ، انيس .

الانجاءات الأدبية في العالم العربي الحديث ، منشورات كلية العلوم والأداب ، جامعة بيروت الأميركية ، ج ١ ، ط ١ ، ص ٢٢ ، والجزء الأول خال من أية اشارة إلى مكان الطبع وتاريخه ، ولكن الجزء الثاني يشير في عنوانه الانكليزي إلى بيروت ١٩٥٢ ، في حين ان الغلاف العربي يذكر التاريخ دون المكان (٢٨) يتوسع الدكتور ناصر الدين الأسد نسبياً في شرح اراء الدكتور الحسيني في موطنه المقدسي واليه يرجع الفضل في لفت النظر إلى كتاب الحسيني الذي لم اعرفه من قبل ، والحق ان كتب معهد البحوث والدراسات العربية محدودة الانتشار ، وليس من السهل دائماً الحصول عليها . ص ٧٥ - ٧٨ .

(٢٩) الحسيني ، د . اسحاق موسى . هل الأدباء بشر ؟ ص ٣٣ - ٣٤ .

للتوقف عندها

في مراجع الأدب الفلسطيني :

ونأتي أخيراً إلى المراجع الخاصة بالأدب العربي الفلسطيني ، فنجد ان الخالدي يلقي اهتماماً طيباً بوصفه رائداً من رواد النهضة الأدبية بوجه عام والنقد الأدبي بوجه خاص ، ولكن ريادته للأدب المقارن لا تخطر لأحد ، ربما لأنه هون نفسه لم يقدم كتابه في نطاق هذا الحقل ، وربما أيضاً لأن العناية بالأدب المقارن تأخرت في البلاد العربية حتى نهاية السبعينات على الأقل على أي حال ينبغي ان يشير المرء بتقدير شديد إلى جهود ثلاثة من الباحثين في هذا المجال بوجه خاص

١ - وأولهم هو الدكتور ناصر الدين الأسد ، الذي لفت النظر عام ١٩٧٠ إلى مكانة روجي الخالدي في تأسيس البحث التاريخي الحديث في فلسطين ، وأتى كتابه عن روجي الخالدي عملاً جاداً مخلصاً في مجال انصاف هذا الرائد الكبير ونظراً لأن هذا الكتاب مفقود منذ زمن فسوف يجري هنا تقديم فكرة موجزة عنه بقدر ما يسمح المجال طبعاً .
ويقع هذا الكتاب في مئة وثمان وخسين صفحة ويتحدث مؤلفه في القسم الأول عن البيئة الثقافية في فلسطين وعن الاسرة الخالدية وعن سيرة روجي وآثاره ، وعن شخصيته الثقافية وعوامل تكوينه الفكري وخصائصه الفنية . ويقدم في القسم الثاني أربعة من كتب المؤلف الأساسية وهي

- « تاريخ علم الأدب . . . » .

- « رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي

- « الانقلاب العثماني »

- « الكيمياء عن العرب » .

ويضم الكتاب خمسة ملاحق منها نموذج من خط الخالدي وصورة شمسية له .
ويعيننا من كتاب الدكتور ناصر الدين بالدرجة الأولى الفصل الرابع الذي خصصه للكلام على كتاب « تاريخ علم الأدب » . ويمتد هذا الفصل بين ٦٧-١٩٨٩ ، وفيه تعريف موسع بالكتاب ونظرة وف تاليفه ثم تركيز على الملاحظات الثلاثة التالية :
أولاً - آراء ونظريات في النقد الأدبي :

ويستند في هذا الباب إلى آراء الدكتور الحسيني التي ذكرت قبل قليل .

ثانياً - المقارنة بين ما عند الافرنج وما عند العرب
من فنون القول وانواع الموضوعات والمعاني ويقدم خلاصة عامة لآراء الخالدي في هذا الباب

ثالثاً - ما اقتبسه الافرنج من آداب العرب وعلومهم .

ويقول الدكتور الأسد في هذا الباب .

« وننتقل الآن إلى الموضوع الثالث من موضوعات الكتاب التي رأينا انها من اهم اصوله ، ولكنها جاءت منشورة في ثنياه ، وان كان هذا الموضوع احسن حفظاً من الموضوعين السابقين ، إذ جاءت بعض اجزائه مجموعة معاً في فصول خاصة ، وبقيت أجزاء اخرى متناثرة (٣٠)

ويلخص الدكتور ناصر الدين آراء الخالدي هنا ، ويختتم ملاحظاته بالكلام على مزايا الكتاب ، مستنداً في ذلك إلى تعريف محرر مجلة الهلال بالطبعة الثانية من الكتاب ، وأهم هذه المزايا وأولها في رأيه « مادة الكتاب في موضوعين من موضوعاتها جديدة على القارئ العربي آنذاك » ، هذان الموضوعان هما .

المقابلة بين الآداب العربية والآداب الافرنجية ، وما اقتبسه الافرنج من آداب العرب وعلومهم فكان روعي الخالدي أول من كتب كتاباً فبهما ، او من أوائل الذين تصدوا للبحث فيها : (٣١)

ويؤكد الدكتور ناصر الدين ان موطن الريادة يكمن في هذا الباب بالذات ، ويأخذ على كتاب الخالدي تفككه أحياناً واستطراداته وانتقالاته .

ونود ان نشير هنا إلى ان هذه الريادة التي لم يصنفها الدكتور الأسد في حقل معرفي معين بل ربما نسبها إلى التاريخ كما يوحي عنوان كتابه هي بالضبط التي ترشح الخالدي لأن يكون رائد الأدب العربي المقارن ولعل القارئ قد تبين في القسم الثاني من هذه الدراسة حقيقة قيمة كتاب الخالدي من خلال مصطلحات الأدب المقارن وموزة ، ثم ان المستويين الأخيرين من البحث اللذين اشار اليهما الدكتور ناصر الدين هما مستويان متكاملان في البحث المقارني الحديث ، اما ظواهر التقطع والاستطراد التي اشار اليها استاذنا الفاضل

(٣٠) الأسد ، د ناصر الدين محمد روعي الخالدي ، ص ٨١ - ٨٢ ،

(٣١) المصدر السابق ، ص ٨٧ ، ويرجح الأسد أن حورحي زيدان هو كاتب المقدمة

فيرجع جزء منها إلى أن المؤلف كان (يقارن) وبالتالي كان عليه ان يرتاد آفاق التأثير والتأثير او التماثل على نحواً مما تلمبه كل واقعة ، مما يدفع المرء دفعاً إلى الميل ذات اليمين وذات الشمال ، ومعظم باحثي الأدب المقارن يشكون من اضطرابهم المستمر لركوب هذا المركب الخشن (٣٢) .

٢ - وإلى جانب كتاب ناصر الدين الأسد كان هناك الكتاب الرائد للدكتور عبد الرحمن ياغي حول الأدب الفلسطيني الذي أشار فيه إلى ظاهرة روجيه الخالدي وكتابه « تاريخ علم الأدب . . . » ، وأشاد بمستواه النقدي المتطور وعرض محتواه وأهم القيم الأدبية التي اهتمت بها (٣٣) .

وقد خطا بعد عبد الرحمن ياغي شقيقه الدكتور هاشم خطوة أخرى في مجال تقديم الخالدي فإشار إلى موقف الاستاذين السابقين وآرائها ثم قدم بضع ملاحظات انتقادية تمحيصية أهمها :

١ - ان الخالدي كان من أبرز الكتاب العرب الذين اسهموا في بناء الجسر الضخم بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية .

٢ - كتاب الخالدي مشرب بالسماط التي تسلفت إليه من المدرسة الرومانسية .

٣ - كتاب الخالدي رائع في مستواه النظري متعثر بعض التعثر في مستواه العلمي

٤ - تناقض الخالدي سياسياً حين انكر على البلغاريين والأرمن واليونانيين طلبهم الحرية السياسية من العثمانيين .

٥ - الخالدي (ألح كثيراً على اهتمام الاوربيين بالمعنى وذهب إلى ان هذا الاهتمام بالمعنى يفوق كثيراً الاهتمام باللفظ ، ولكن المسألة ليست عند الرومانسيين الاوربيين بهذا اللون من التجريد ، فهم لا يفرقون بين الشكل والمضمون بل انهما عندهم كالروح

(٣٢) تقتضي الدقة والامانة رسماً التبرؤ من شبهة العقوق أن أشير إلى أنني لم اطلع على كتاب الدكتور ناصر الدين إلا بعد ان كتبت دراستي الكاملة عن مضمون كتاب (تاريخ علم الأدب) ومتحاه المقارن وريادته للأدب العربي المقارن ، وهذا ما يفسر جريئاً عدم ورود اشارات لكتاب الدكتور ناصر الدين في صلب الدراسة ، اما السبب الاساسي لذلك فهو اختلاف مذهب الذي اردته ان يكون مركزاً تركيزاً شديداً على مسألة الريادة المقارنة للخالدي ، وهو ما يلتصق إليه أي من الاساتذة الذين سبقوا إلى الاشادة بالخالدي ، وأرجو أن أسجل هذه المناسبة شكرى للدكتور ناصر الدين لانه ارسل لي نسخة مصورة عن كتابه (المفقود) واعترافي بفصله وسبقه واستاذيته

(٣٣) ياغي ، د عبد الرحمن حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة ، بيروت ١٩٦٨ ص

٥٣٢ - ٥٢٧

والجسد اللذين لا سبيل إلى التفريق بينهما دونما إخلال بكل واحد منهما) (٣٤) .

٦ - الخالدي خلط بين مفهوم الأدب ومفهوم اللغة .

٧ - وقع الخالدي في تعميمات كثيرة .

على ان هذه الملاحظات - التي هي في رأيي قابلة للنقاش وتكاد تخرج بالمرء عن الجو الخاص للكتاب - لم تمنع الدكتور هاشم من ان يؤكد ريادة الخالدي النقدية وان يشيد بها قدمه ولاسيا من ناحية فهم الأدب الاوربي .

« ولعل نقد الخالدي اول نقد عربي في نهضتنا الحديثة كانت صورة المدارس الأدبية من الناحية النظرية واضحة ومتبلورة فيه » (٣٥) .

ثم يصف الدكتور هاشم كتاب الخالدي بأنه : « كان قفزة عالية رائعة في حياة النقد الأدبي الفلسطيني خاصة ، لا بل هو قفزة عالية أيضاً في حركة الأدب العربي الحديث عامة . » ، ويفضله على كتابات المهجريين من حيث العمق وفهم الثقافة الأجنبية . ومع ذلك يعود بعد صفحات الى التأكيد أن طفرة الخالدي كانت نسبية بالقياس إلى ما سبقها لا إلى ما لحقها من حركة نقدية في فلسطين .

(ان الطفرة النقدية التي رأيناها في كتاب روعي الخالدي لم تكن طفرة الا بالقياس لما سبقها من تيارات نقدية . أما ما جاء بعد هذه الطفرة من نقد فقد كان في مستوى رفيع كذلك لا يقل عن مستوى روعي الخالدي إن لم يفقه) . (٣٦)

ومرة أخرى ، ومع تقدير رأي الدكتور هاشم ، يود المرء أن يذكر بأن هذه الملاحظة ، شأنها شأن الملاحظات السابقة ، قد تكون ناجمة عن اختلاف الحقل المعرفي والمناخ بين الناقد والمنقود وهذا هو السبب الذي جعل طريقة تحديد طبيعة اسهام كتاب (تاريخ علم الادب .) في النهضة العربية محفوفة باللبس والتداخل . ذلك انه بدون الاستعانة بموقف مقارني منهجي يصعب الدخول في جو محاولة الخالدي الرائدة ويتعذر

(٣٤) تبدو هذه المناقشة بعيدة نسبياً عن مناخ كتاب الخالدي وأغراضه ، كما ان تحديد الموقف الروماني من قضية الشكل والمضمون هنا لا يطبق ما تعرفه عن عدم احتمال الرومانيين بالنواحي الشكلية ، فالروماني تصنف في عداد المذاهب (الاشكالية Informalist وهذا ما رمى إليه الخالدي في كلامه

(٣٥) ياعي ، د هاشم حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ،

١٩٧٣ ، ص ٤٠ ، وانظر مجمل البحث في ص ٣٥ - ٤٣

(٣٦) المصدر السابق ، ص ٤٧ .

تحديد طبيعة اسهامه ومداه . ان الخالدي قد لا يكون الرائد الوحيد للأدب المقارن العربي في فترته ، وهذه مسألة تحتل النقاش ، ولكنه جتاً لم يقدّم نفسه بوصفه رائداً نقدياً او منظرًا أو حتى متذوقاً في مجال التطبيق ولقد تناول بعض المسائل من الناحية المقارنة فأخذت عليه مأخذ نقدية . ولعل خطأه يقع بالضبط في انه لم يقدم كتابه مقدمة توحى إحياء كافيًا بإعداده المقاري ، مع انه كتب الكتاب في فرنسا أيام كانت قد بدأت معركة إدخال الأدب المقارن في الجامعات ، وأيام كانت فتنه الابحاث المقارنة قد بدأت تتجلى في كتابات اساتذة موهوبين مثل جوزيف تكست وإدوارد رود ، ولوي بول بتس ، وفرنان بالدنبسرجر ، وبول هازار وغيرهم .

ويرجى الا يفهم من كل ما تقدم أي اعراض ، بل اية نية للاعراض ، على ما قدمه الاساذ الكبار حول مكانة الخالدي النقدية ذلك أن حفول المعرفة الأدبية متداخلة وليس لها حدود واضحة ، وكتاب الخالدي نفسه رباده مبكرة متعددة الجوانب ، ويرجع الفضل في اكتشاف أهميته الأدبية العامة إلى الاساتذة الكبار : د . ناصر الدين الأسد ، د . اسحاق موسى الحسيني ، د . عبد الرحمن ياغي ، د . هاشم ياغي . . وهي حفصة ناصبة لامراء فيها .

وختاماً ، لا بد من التوجه بالشكر الخالص لاتحاد الكتاب الفلسطينيين لما يقدمه من خدمة وطنية كبرى في اعادة نشر التراث العربي الفلسطيني ، وان اعادة نشر كتاب الخالدي بالذات تشكل خطوة مهمة باتجاه ترميم اللوحة العامة لاسهام ادباء فلسطين في مسيرة الأدب العربي الحديث من جهة ، وبإعاجاه تصحيح بعض النواحي المتعلقة بتطور الحقول المعرفية للأدب العربي الحديث .

المراجع

- الأسد ، د ناصر الدين
محمد روجي الخالدي ، رائد البحث التاريخي في فلسطين ،
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٠ .
الأمين ، عز الدين :
نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر ،
دار المعارف بمصر ١٩٧٠ .
- الحسيني ، د . اسحاق :
هل الادباء بشر ؟
دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥٠ .
الحمصي ، قسطنطي : منهل الورد في علم الانتقاد ،
ج ١ - ٢ مطبعة الأخبار بمصر ١٩٠٦ .
ج ٣ ، مطبعة العصر الحديث بحلب ١٩٣٥ .
الخالدي ، روجي : تاريخ علم الأدب عند الافرنج والعرب وفيكتور هوغو ، مطبعة الهلال
بالفجالة بمصر ، ١٩١٢ (ط ٢)
الخطيب ، حسام : « الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الانساني »
- المعرفة ، دمشق ، الاعداد ٢٠٤ - ٢٠٧ ، شباط - أيار ١٩٧٩ .
- « ملتقى الأدب المقارن في عنابة » ، ع ٢٥٧ ، س ٢٢ ، تموز ١٩٨٣ .
الحوري المقدسي ، انيس : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، منشورات كلية
العلوم والأداب ، جامعة بيروت الاميركية ، ج ١ ط ١ الجزء الأول خال من أية اشارة
إلى مكان الطبع وتاريخه ، ولكن الجزء الثاني يشير في عنوانه الانكليزي بوضوح إلى بيروت
١٩٥٢ ، في حين ان الغلاف العربي يذكر التاريخ دون المكان
داغر ، يوسف اسعد
مصادر الدراسة الأدبية ، بيروت ١٩٥٦
دسوقي ، عمر :

في الأدب الحديث ، جزءان ط ٦ ، القاهرة ١٩٦٤ .
دياب ، عبد الحى :
التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد ،

القاهرة ١٩٦٨ .

الزركلي ، سليم :
معجم الاعلام ، ط ٣ ، بلا تاريخ ، بلا مكان
زيدان ، جرجي :
تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤
دار الهلال ، بلا تاريخ

عامر ، د . عطية
« نشوء الأدب المقارن في مصر »
ورقة قدمت إلى ملتقى عناية للأدب المقارن (أيار ١٩٨٣) ، ونشرت في فصول ،
القاهرة ، مجلد ٣ ، ع ٤ ، يوليو - سبتمبر ١٩٨٣ ، ص ١٣ - ٢٢
العودات ، يعقوب (البدوي المثلث)
من اعلام الفكر والأدب في فلسطين ، عمان ١٩٧٦ .
غربال ، محمد شفيق (إشراف) :
الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، بلا تاريخ
غويار ، م . ف :
الأدب المقارن ، ترجمة د . محمد غلاب ، سلسلة ١٠٠٠ كتاب رقم ٤٤ - القاهرة ،
١٩٥٦ .

الفاخوري ، حنا :
تاريخ الأدب العربي ،
المكتبة الوطنية ، بيروت ، ط ٧ ، بلا تاريخ
كفاي ، د . عبد السلام .
الأدب المقارن ، . دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢

لجنة الثقافة العربية في فلسطين :

الكتاب العربي الفلسطيني ، القدس ١٩٤٦ .

نجم ، د . محمد يوسف : من بحثّ الفنون الأدبية في كتاب (الأدب العربي في آثار

الدارسين) تأليف د . صالح العلي وآخرين ، بيروت ، ط ١ شباط ١٩٦١ .

هلال ، د . محمد غنيمي :

الأدب المقارن ،

دار العودة ودار الثقافة ، بيروت ط ٥ ، بلا تاريخ

(مقدمة ط ٣ مؤرخة في ١٩٦٢)

ياغي ، د . عبد الرحمن :

حياة الأدب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة ،

بيروت ١٩٦٨ .

ياغي ، د . هاشم :

- النقد الأدبي الحديث في لبنان ، ج ١ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ .

- حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين ، معهد البحوث والدراسات العربية ،

القاهرة ١٩٧٣ .

مراجع أجنبية :

L'encyclopedie de l'Islam, nouvelle edition, paris - london 1978,

P. 969.

Weisstein, Ulrich,

Comparative Literature and literary Study, Indiana University

Press, Bloomington - London 1973.

مقدمة الناشر

للطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٠٤ والمؤلف يومئذ قنصل جنرال الدولة العثمانية في بوردو وقد نال الاستبداد من نفوس العثمانيين وقيد اقلام احرارهم فلم نعد نسمع غير اصوات المتزلفين او المتملقين . وإذا تكلم الحر تكلم همساً وإذا كتب أخفى اسمه ولا سيما إذا كان من موظفي الحكومة ولو كان موضوعه في الأدب او الطب لأن الجواسيس يحولون كل معنى إلى المكائد والدسائس . وابت نفس صديقنا الخالدي مؤلف هذا الكتاب إلا أن ينشر ثمار درسه وبحنه فعهد بذلك إلى «الهلال» على أن تنشر بلا توقيع . فنشرنا هذا الكتاب مقالات متوالية والقراء يسألوننا عن اسم كاتبها ويتشوقون لمعرفة . فلما طبعناها في كتاب على حدة تقدمنا إليه ان يأذن بنشر اسمه في صدر الكتاب فاكتمى بالاشارة إلى موطنه فوضعنا بدل اسمه لفظ « المقدسي » نسبة إلى القدس الشريف مسقط رأسه .

فأحرز هذا الكتاب اعجاب القراء الأدباء في العالم العربي وغيره فحملنا ذلك على اعادة طبعه رغبة في نشر علم الأدب بين قراء العربية ونحن في أشد الاحتياج إليه . ولا سيما على الاسلوب الذي توخاه المؤلف من المقابلة بين الآداب العربية والافرنجية وذكر ما اقتبسه الافريج من آدابنا واساليبنا مما لم يتصد للبحث في احد قبله . ولم نرا احداً تصدى له بعده . فضلاً عما يتخلل ذلك من الفوائد التاريخية والقواعد الاجتماعية عن الأدب العربي وتاريخه وما تغلب عليه من الاطوار تبعاً للسياسة والاجتماع وتاريخ الادب الفرنساوي من أول عهده إلى زمن فيكتور هوغو وما ادخله فيه هذا الناعية من التعديل نقلاً عن الأسلوب العربي في الشعر والأدب وصل إليه عن طريق اسبانيا . وناهيك بسهولة عبارة الكاتب وتناسقها مما يرتاح اليه القارئ ويجد فيه لذة وتشوقاً للمطالعة ، غير ما عني بتلخيصه ووصفه من مؤلفات هوغو وبسط ما حوته من الموائد الفلسفية والأدبية ومقابلة ذلك بما عند أدباء العرب

وبالجملة فان هذا الكتاب من الذخائر النفيسة التي لا يستغني عنها اديب .
فلما نفذت نسخ الطبعة الأولى استأذناه في اعادة الطبع فأذن لنا خدمة للأدب
العربي ، وقد اعلن الدستور وصار المؤلف من اعظم اركانه فلم يبق ثمة باعث على
التكتم فطبعناه وصدرناه باسمه وزيناه برسمه ليتم التعارف بينه وبين القراء المعجبين
بأدبه وفضله .

القاهرة في ١٥ يناير سنة ١٩١٢ .

وهذه صورة منشور كان قد وزعه بالافرنجية بعد صدور الطبعة الأولى يحاطب
به ادباء الافرنج على الخصوص قال :

AU LECTEUR

L'editeur de ce livre a bein voulu l'illustrer de quatre gravures et lui donner
le titre flatteur d'Histoire des Litteratures.

L'auteur lui sait gré de sa bonne intention. mais il doit s'excuser auprés du
lecteur. Habitant Bordeaux, loin des bibliothéque orientales ou se trouvent les
documents necessaires pour écrire une pareille histories, il n'a jamais pesé
se donner une tâche si lourde. Il a écrit seulement des melanges historiques
let teraires et il les a fait paraître sous le titre de:

فيكتور هوغو وعلم الأدب عند الافرنج والعرب

Etudes sur Victor- Hugo et sur la littérature chez les Européens et chez
les Arabes» Il les a signé EL- MAQDISI, Hierosolymite qui designe sa ville
natale.

En publiant ce recueil en 1902- 1903 dans la revue arabe al- Hilal, fondée
au Caire par DJORDJI ZAIDAN, L'auteur a voulu prendre part à la manifesta-
tion littéraires qui s'est produite dans le monde civilisé a l'occasion du cen-
tenaire du grand poète De la, la hâte de cette publication dont l'actualité ne
donna pas le temps d'approfondir le sujet et d'y apporter les corrections néces-
saires,

L'auteur a eu d'autres buts encore c'est de propager les idées modernes parmi ses coreligionnaires et tous les lecteurs de la langue du Coran et de donner aux jeunes poètes arabes une idée précise de la littérature française en particulier et des littératures européennes et mondiales en général. Enfin, il a voulu faire connaître aux écrivains orientaux de la nouvelle génération les différents genres et les multiples sujets que peut traiter un poète moderne.

C'est ainsi que l'auteur a été amené à résumer l'histoire de la littérature arabe et à parler de la conquête musulmane en Europe, afin de prouver l'influence de la littérature arabe sur les littératures européennes du moyen-âge, Il a développé ensuite la différence qui existe entre l'Ecole classique et l'Ecole romantique et traduit littéralement des morceaux choisis de Victor Hugo en les comparant avec quelques poésies d'EL- MA'ARRI, d'EL- MOTENEBBI et d'autres poètes arabes.

Ce volume aurait pu être écrit en prose rimée à l'imitation des séances de Hariri, mais était-il nécessaire de le faire briller par un vain luxe de mots inutiles? Il est préférable d'être clair, précis et accessible à la masse des demi-Lettrés sortis des écoles, d'Orient organisées à l'Européenne, C'est ce qui a été fait,

Bordeaux, 5 Juin 1906

MOHAMMED ROUHI EL- KHALIDY

EL- MAQDISI

فيكتور هوكو

احتفال الفرنسيين له باليوبيل القرنى

احتفل الفرنسيون في اوائل سنة ١٩٠٢ بالشاعر فيكتور هوكو في البانتيون كما احتفلوا في اواخر العام السابق بيوبيل الكيماوي برتلوي الصوربون . والبانتيون هكل فخيم على رابية من روابي باريس بالقرب من الصوربون . وهو اليوم مدفأ اعظم الرجال الذين يعترف لهم الوطن الفرنسي بالفضل والحسنى .

ففي السادس والعشرين من شباط الماضي (فراير) الموافق لخنالم القرن الأول من ميلاد فيكتور هوكو ابتداء موسم الاحتفال بيوبيل هذا الشاعر واجتمع في البانتيون الرؤساء والسفراء والعلماء والشعراء والمشخصون والمشخصات وكل من اشهر في باريس من الرجال والنساء وأكثرهم باللبسة الرسمية والعسكريه والكساوي العلمية والقضائية موشحون بوسامات الافتخار او متمنطقون بمناطق الحرير المثلثة الالوان او مكتفون بتزيين صدورهم بازرار الوسامات واشارات المديات على اختلاف درجاتها واشكالها . وافتتح هذا الاحتفال الموسيو جورج ليغ ناظر المعارف الفرنسيه بخطبة شائقة .

وتلاه في الخطابة السياسي الشهير الموسيو غابريل هانونو بالنيابة عن الاكادمية الفرنسيه فاختلف الاسماع بجواهر لفظه واجندب الفلوب ببلاغة معانبه فانفل كلامه بالتلغراف والتلفون لجميع المدن الفرنسيه وربما تجاوزها إلى كثير من البلاد الأجنبية لان الموسيو هانونو بعد ان حاز قصب السبق في مبدان السباحة وحل عقدة ماداغسکر واحققها ببلاده وفك العراقيل السياسية في افريقيا الغربية ونهر النيجر نحى عن كرسي الوزارة وقد شغله مدة تزيد على اربع سنوات وجلس على كرسي الاكاديمية وأقبل على نشر الكتب وطبع المقالات التي اشتهرت في العالم كله وكان هن شأن في مصر وغيرها من بلاد الشرق . وهو على رفعة قدره وعلو شأنه لم يرل كما كان في صباه مقيماً في الطابق الخامس من بت سس طرق بانه على بولغار سن جرمس وبصعد

إلى مسكنه بدون مصعدة (اسانسور) مائة درجة .

ثم أنشد بعض المشخصين والممثلات شيئاً من قصائد فيكتور هوغو وتلوا اجزاءً من احاديثه وانفض الجمع ليستأنفوا الاحتفال في مواضع اخرى من باريس لان حفلة البانتيون لم تحن الا افتتاح موسم ادبي في عموم البلاد الفرنسية ودامت الزينات والافراح فيها سبعة ايام ولياليها وهم في كل يوم وليلة يرفعون الاعلام ويضيئون الانوار ويجمعون الجموع ويلقون الخطب ويأدبون المآدب ويشربون النخب ويمثلون على المراسح الروايات . وينشدون الاناشيد ويحرون المقالات المبتكرة ويصرون الرسوم البديعة ويعملون انواعاً كثيرة من المظاهرات والزينات احتفالاً بهذا الموسم وقرر مجلس نواب الأمة اتفاق ثمانين الف فرنك لهذا الاحتفال عدا ما تنفقه مجالس البلدية والجمعيات الخيرية والعلمية مما يفوق اضعاف هذا المبلغ .

فجاء هذا الاحتفال على اتم منوال وأحسن نظام لان الفرنسيين اقدر الأمم المتمدنة على اتقان الزينات واتمام معدات الاحتفال للطافة اذواقهم وخفة ارواحهم وميلهم إلى الهرجة والزينة . وهم يتهافتون على تعظيم رجال العلم والأدب وبالعون في اجلالهم حتى كادوا يعبدونهم من دون الله ويتنسكون في ادخار آثارهم وجمع مناقبهم وحفظ اخبارهم ورفع الهياكل والتماثيل والانصاب لهم . كان الواحد منهم معبود من معبودات قدماء المصريين أو الهة اليونان أو الفينيقيين . وهم راللة أعلم يعتاضون بهذه الاحتفالات عما فاتهم من الاحتفال بتتويج الملوك ويوبيل القياصرة . وقد رفعوا لفكتور هوغو تماثلاً عظيماً بل تماثيل وسموا باسمه الشوارع والميادين واتخذوا داره متحفاً سموه باسمه وسيجمعون فيه متاع الشاعر واثاث بيته وكل ما له ادبي علاقة به واذكر في أشعاره ولم يفرطوا شيء من ذلك . ولا اضاعوا له قلماً ولا دواة ولا ورقة من الاوراق التي تعلم بها وهو في المدرسة وقد كتب على واحدة منها « أريد ان اكون شاتوبريان أولاً شيء » ولا الاوراق التي كان يلاعب بها اولاده ورسم لهم فيها الرسوم الهزلية والمضحكة ولا الكيس الذي وضع فيه مبلغ المائة وخمسة وعشرين فرنك ثمن المجلدين الأولين من تأليفه المسمى ميرابيل

ولو اردنا وصف هذه الاحتفالات وايراد الخطب التي تليت فيها والاتيان على ما حررته الجرائد من الفصول الطوال لاستغرق الكلام مجلداً ضخماً لان هذه الاحتفالات كان لها رنة عظيمة في اوربا كلها . وقد نشرت جريدة التيمس الانكليزية

ترجمة هذا الشاعر بالفرنساوية اعظماً لشأنه لان شهرة فيكتور هوكر ليست في فرنسا وحدها بل هي طائرة في آفاق العالم المتمدن . وقد وصلت إلى بلادنا الشرقية منذ سنين . أتذكر اني قرأت في « المقتطف » وهولا يزال في سورية ابياتاً لفاضل من الأدباء لخص فيها فكراً من افكار فيكتور هوكر المذكورة في كتابه المشار اليه وصف بها حالة البائس المسكين الذي اشتدت حاجته واضطره الجوع حتى كسر قفل الخبز واخذ رغيماً لسد رمقه فانتبه له الخفير وانقض عليه انقضاض البازي على العصفور وقاده إلى حبس التوقيف ثم رفعه إلى محكمة العدل فلم يشفق عليه حكام العدالة ولا رحمه قضاة الحقانية فارتعدت نفس الشاعر من هذا الظلم القاهر حتى صرخ قائلاً : « اين العدالة في أوهام شرعكم » .

ثم لما اتيت الاستانة وجدت ادباء الاتراك وشعراءهم ترجموا كثيراً من نظم فيكتور هوكر ونشره في ما نشر من مؤلفات كمال بك وعبد الحق حامد بك واكرم بك ومدحت افندي صاحب جريدة « ترجمان حقيقة » وفي « مجموعة الضياء » و« كتيبة خانة ابو الضياء » وترجم شمس الدين سامي باشا صاحب قاموس الاعلام جزءاً كبيراً من كتاب (ميزيرابل) وسماه باضافة اداة الجمع التركية على كلمة (سفيل) العربية فقال « سفيلر » اي السفلة من الناس . ثم بلغني ان بعض ادباء مصر شرع في ترجمة هذا المؤلف الجليل وسماه « البؤساء » أونحو ذلك فجمعت شيئاً من أخبار فيكتور هوكر ليحصل لنا علم اجمالي بترجمة حياته وحقيقة فلسفته وسبب شهرته .

الدور الأول من حياته

من ولادته سنة ١٨٠٢ إلى نفيه سنة ١٨٥٢

كانت فرنسا في افتتاح القرن التاسع عشر في هرج ومرج من هول الانقلاب الكبير الذي حدث فيها فغير معالمها وتل منها عرش الاستبداد وحرر العقول وبذل الطلام بالنور ووضع العدل في موضع الظلم وجرى سبب ذلك من الفطائع الدموية ما تقشعر من سماع حديثه الجلود . لبث الانقلاب من سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٧٩٥ ثم نبغ بوناپرت واكتسح بالعساكر الفرنسية ايطاليا ثم مصر وفلسطين وطاف

اوربا من مشرقها إلى مغربها وقهر الملوك والامبراطور والقيصر استقدمه البابا من روميه إلى باريس ليلبسه تاج الامبراطورية ويسميه نابوليون الأول واجلس زوجته جوزفين على سرير الملكة ماري انطوانيت ثم لم يستحسن التاج على رأسها لأنها ارملة الجنرال بوهارنه فابدها بهاري لويز بنت امبراطور المانيا وجعل اخاه الأكبر يوسف بونابارت ملكاً على نابولي ثم ملكاً على اسبانيا وحشد عساكره في هاتين المملكتين . وكان سيجسر هوكو والد صاحب الترجمة ضابطاً في عسكر الفرنسيين ومأموراً مع جنودهم بالمحافظة على بيزانسون وهي مدينة على طريق السكة الحديدية بين مرسيليا وباريس وكان ابوه نجاراً وجده فلاحاً .

وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٠٢ وضعت امرأته ماري في تلك المدينة غلاماً نحيفاً ضعيفاً فقيدة في سجل نفوس البلدة باسم « فيكتور ماري هوكو » وكان له ولدان أكبر من فيكتور احدهما يسمى أبيل والآخر أوجين . وبعد شهرين من ولادة فيكور تلقى والده الأمر بالمسير إلى جزيرة كورسيكا ومنها إلى جزيرة ايليا فحمل إليها امرأته واولاده واقام فيها إلى سنة ١٨٠٥ . ثم دعي سيجسر هوكو إلى باريس فذهب إليها بعائلته ودخل في خدمة الملك يوسف بونابرت ورافقه إلى نابولي ومعه عائلته فشاهد فيكتور بركان فيروف وهو في السادسة من عمره وانطبع في ذهنه صورة هذا الجبل وما يتصاعد من فوخته من اللهب والدخان . وارتسمت في مخيلته مناظر ايطاليا الطبيعية وجوها الصافي . فلما كثر ربطهم هذه الرحلة وصف هذه المناظر في اشعاره أحسن وصف .

ولما ذهب يوسف بونابرت إلى اسبانيا ليلبس فيها تاج الملك اصطحب سيجسر هوكو وعاد فيكتور مع امه واخويه إلى باريس وسكنوا في دير فيليانتين بجوار مدرسة الطب العسكرية التي يقال لها « فال دوغراس » وهي قرية من البانتيون فكان فيكتور يقرأ مع اخويه اشعار فرجيل على راهب متضلّع في الآداب اللاتينية واستمر على ذلك إلى سنة ١٨١١ وقد رقي والده وصار قائداً على الجيش وبلغ راتبه إلى ثلاثين ألف فربك اسبانيولي (ريوس) ومسح الملك يوسف لقب كونت وعينه ناظراً على مطبخه العام فاحضر حينئذ امرأته واولاده إلى مادريد . فاستفاد فيكتور هوكو من هذه الأسفار فوائد كبيرة وتمكّن مع حداثة سنه من مراقبة جمال الطبيعة وحفظ أسماء المدن والبقاع التي مرّ بها . وشاهد في قصور مادريد آثار العمران السرقى وصور

اعاظم الرجال الذين قامت بهم القرون الماضية فاتسعت مخيلته وانفتق ذهنه وفتح بنفحات شعرائنا الاندلسيين فرقت الفاظه وراقت معانية وظهر النفس الاندلسي في اشعاره وسمعت النفحة الاندلسية من اكثر قوافيه وذكر في قصيدته التي سماها غرناطة اكثر مدن الأندلس ووصف ما فيها من المباني والقصور وذكر في غير هذه القصيدة جميع المدن التي مرَّ بها في طريقه مثل ابيرون وعين العرب التي يقال لها اليوم « فونت أراسي » وقلعة ايرناني وجعل اسم هذه القلعة عنواناً لرواية من رواياته . ودخل وهو في مادريد مدرسة اولاد الاشراف وخالط فيها أبناء الامراء من الاسبانوليين وعرف اخلاقهم وعاداتهم فنظمها في رواية (ايرناني) و(ريوبلاس) وغيرهما من مؤلفاته واستعار اسماء كثير من رفاقه ليشخصهم في قصصه ورواياته وكان يدقق في احوال الجند ويتأثر باصوات ابواقهم وصدى موسيقاهم فأبدع في وصف حركاتهم العسكرية وفتحهم القلاع ونزولهم مساء ورحيلهم صباحاً وسيرهم ليلاً إلى غير ذلك من الاوصاف التي شخص بها حال العساكر تشخيصاً تاماً .

ولما انقلبت السياسة في اسبانيا واشتد الخطر على عساكر الاحتلال اعاد الجنرال هوكون عائلته إلى باريس ولم يبق عنده الا ابنه الأكبر أبيل فأدخله في خدمة الملك ورجع فيكتور هوكون مع امه واخيه إلى الدير الذي كان فيه وعكف على مطالعة ما عند امه من الكتب كمؤلفات فولتير وجان جاك روسو وديدرو احد مؤلفي الانسلكوبيدي ومؤلفات السائح كوك وغيرهم . وكان لاه الفة بعائلة فوشر احد مستخدمي نظارة الحربية فكانت مدام فوشر تكثر التردد عليها ومعها ابنتها الصغيرة عادلة (اديل) لتلعب مع فيكتور واخيه اوجين وتسمنشق الهواء الصافي في بستان الدير . ولما ضببطت الحكومة هذا الدير في جملة ما ضببطته من املاك الرهبان سكنت زوجة الجنرال هوكون بالقرب من دار فوشر فكثر اختلاط فيكتور هوكون بعادله والفها حتى صارت فيما بعد زوجته

ولم يمض كثر من الزمان حتى اشتدت الازمات السياسية وتوالت الحوادث المرهبة وعاد نابوليون بالخبية من سفر موسكو وعاد اخوه يوسف بعساكره من اسبانيا ومعه الجنرال سيحسر هوكون فالتمس الرجوع لمأموثيته والدخول في سلك العساكر الفرنساوية فلم يقبلوه الا برتبه السابفة . وبعد ان دارت الدائرة على نابوليون الأول وحبطت اعمال الحكومة الامراطورية وعاد آل بوربون إلى كرسي المملكة الفرنساوية

تقرب الجنرال هوكو إلى لويس الثامن عشر وتعلق اليه حتى صار من المقربين لديه فخلع عليه رتبة الجنرالية وسلمه قيادة العسكر . فأراد ادخال ولديه الأصغر في هذا السلك كما ادخل اخاهما الأكبر من قبل فوضع فيكتور واخاه اوجين في مدرسة (لوي لوغران) ليدخلهما فيما بعد مدرسة الفنون الحربية وهما من المدارس التي لم يزل يتردد اليهما بعض ابناء الشرق في باريس . فاقبل فيكتور هوكو على تحصيل العلوم الرياضية ولم يترك مع ذلك نظم الاشعار فنظم عدة قصائد في الغزل والمدح والهجو والهزل والرثاء وقصيدة في الطوفان ولم يرمية بين العلوم الرياضية المسية على حقائق البرهانية وبين علوم الشعر التي كان يظنها الناس حيالات باطلة واوهاماً كاذبة وان اعذب الشعر اكذبه . بل كان يعتقد بان الشاعر لا بد له من تعلم العلوم الرياضية والطبيعية وكان يعتبر تصور حوادث الكون وتحليل مناظر الطبيعة وجمع معاني ذلك في الذهن ثم افراغ المعاني في قوالب الالفاظ ونسجها في ابيات الشعر كل ذلك اشبه بتصوير المسائل الحسابية والهندسية وحل المعادلات الجبرية . ولذا قال ان صباه لم يكن إلا تخيلاً طويلاً ممزوجاً بدرس مدقق وان لا مباينة بين التدقيق والشعر لان القواعد الرياضية تطبق في الشعر كما تطبق في هذا العلم وقال أيضاً « أن الكلمة كائن حي فاعلموه »

وكان شاتوبريان من أفحل ادباء العصور له مؤلفات جلييلة في النظم والنثر وقد طاف بلاد الشرق وزار مصر وسوريا واليونان والف بعد ذلك كتابه المسمى (روح النصرانية) وبحث عن حكمة الديانة المسيحية فطالبه فيكتور هوكو واعجب به وتشرب منه آراء المذهب الكاثوليكي وسياسة الحزب الملوكي فكتب على دفتره وهو في المدرسة بتاريخ ١٠ يوليو سنة ١٨١٦ « أريد ان اكون شاتوبريان أو لا شيء » وبعد سنة من هذا التاريخ فتحت الاكاديمية الفرنسية مسابقة للشعراء وجعلت موضوع السباق « فوائد المطالعة » فنظم فيكتور هوكو في هذا المعنى ٣٢٠ بيتاً عرضها على لجنة التحكيم ولم يكن له من العمر الا خمس عشرة سنة فاستحسنوا ابياته واستصغروا سنه وظنوه سارقاً شعره فلم يعطوه الجائزة واكتفوا بقيد اسمه في دفتر الشعراء . وفي السنة التالية بعث إلى جمعية « لعب الأزهار » - وهي جمعية ادبية تأسست قديماً في طولوز - القصيدة التي سهاها « عدارى فيردون » وتشبب فيها ببنات تلك المدينة التي على الحدود الألمانية وبعث أيضاً بقصيدة أخرى في مدح هنري الرابع فال سهاها حائزة

الجمعية . وفي سنة ١٨١٨ اكمل فيكتور هوغو دروسه في مدرسة « لوي لوغران » واستنكف من الدخول في امتحان المسابقة لاجل قبوله في المكتب الحربي وكتب لاييه بانه عدل عن سلك العسكرية واتخذ الشعر صنعة يتعيش منها وان لاجحة له بالراتب القليل المعين له واقبل على الجد والاشتغال ومثابة الاعمال واشترك مع أخيه الكبير ابييل وكان له مشاركة في علوم الأدب فأسس جريدة ادبية عنوانها « المحافظ الأدبي » ونشر فيكتور هوغو الاشعار البديعة والمقالات الانتقادية .

وكان لويس الثامن عشر الذي جلس على سرير الملك سنة ١٨٢٤ عاقلاً ماهراً لم يصغ لاقوال الذين يريدون اطفاء نور العلم والحرية واعادة المظالم القديمة بل أعطى الشعب حقوقه وسن لبلاده القوانين وكان ولي عهده أخاه شارل العاشر وله ولد اسمه دوك دوبري قتله احد الرعاع وهو خارج من مسرح الاوبرة سنة ١٨٢٠ وخلف دوك دوبري طفلاً صغيراً اسمه دوك دووردو فنشر فيكتور هوغو في جريدته قصيدة هنا فيها بالمولود وأخرى رثى فيها الوالد والقصيدتان موافقتان لسياسة الحزب الملوكي فاستحسنهما لويس الثامن عشر واجازه عليهما بخمسمائة فرنك . وفي تلك السنة بعث فيكتور هوغو إلى جمعية لعب الازهار في طولوز بالقصيدة التي عنوانها « موسى على النيل » فكافأته عليها بالميدالية الذهبية وكانت على شكل الزهرة ومنحته لقب الاستاذ في جمعيتها .

فاشتهر هوغو وانتشر شعره ولقبه شاتوبريان بالولد النجيب وفتحت الشعراء له ابوابها فتعارف على الفريد دوفينييه ولامارتين مؤلف « الرحلة الشرقية » وسومه واميل دوشان وغيرهم من شعراء العصر وفتحول ادبائه وفرح به جميع المنتصرين للحزب الملوكي لانه على مذهبهم السياسي ودينهم الكاثوليكي وترنموا بأبياته في مجامعهم وانشدوا قصائده في نوادي سمرهم وكان ينظم لهم القصائد الهزلية والمدائح الملوكية على ما يوافق مشربهم مثل « التلغراف » و« المقيد السياسي » و« القريحة » وغيرها . فانشرح صدر الشاعر بهذه الشهرة وارتاح باله من جهة تأمين معاشه في المستقبل ولعب الهوى في رأسه فرأى بجانبه صاحبه من الصغر قد انتقلت إلى سن الشباب وانتصبت قامتها كالغصن ولبست أثواب الجمال والحسن فهم في حبها واراد الاقتران بها فمنعته امه لفقر البنت وعدم وجود مهر كاف (دوته) معها وقطعت علائقها مع عائلة فوشر فتألم الشاعر بالم الفراق واخذ يرسل حبيبته برسائل الحب والاشتياق

وبشرت هذه الرسائل بعد موته تحت عنوان « مراسلات الخطيئة » .
وفي سنة ١٨٢١ توفيت والدته فحزن عليها حزناً شديداً لزيادة حنوها عليه
وكثرة احسانها اليه ولم يمض شهر على وفاتها حتى تزوج والده بواحدة من الغنيات
الشريفيات لقلة وارده وكثرة نفقاته وبقي فيكتور هوكو وحيداً فريداً وانتقل من الدار
التي كان فيها مع امه الى مسكن صغير وتضايق في امر معاشه لقلة ما في يده
ولا احتياجه لمن يدبر له البيت ويهيء له الطعام . واخذ يفكر في معشوقته وفي الوصول
للاقتران بها لان اباه افتقر بعد سقوط الحكومة الامبراطورية وابو محبته لم يكن من
اصحاب الثروة العظيمة فاجتهد فيكتور هوكو في تحصيل المال وأقبل على النظم
والتأليف ونشر سنة ١٨٢٢ ديوان قصائده فكان له رواج عظيم وقرأه لويس الثامن عشر
وأعجب به واحسن على الشاعر من خزينته الخاصة براتب سنوي قدره الف فرنك
ففرج الشاعر بهذا المعاش وتزوج بعادلة فوشر ولها من العمر ١٩ سنة . وبينما هم في
حفلة العرس على مائدة الطعام نهض اخوه اوجين واجرى افعالاً منكرة وفاه بكلام
غير معقول فحملوا ذلك أولاً على اكثاره من شرب المدام وذهبوا به الى بيته وفي
الصباح وجدوه مختل الشعور وفهموا انه يحب عادلة محبة شديدة وكان يخفي حبها فلما
تزوجت باخيه هاجت عواطفه وذهب عقله فوضعه في بيارستان سارانتون وهو في
ارباض باريس واستمر فيه الى ان مات . وكانت عادلة بديعة الحسن رقيقة الخواس
غير انها سيطرة الفكر غير مفرطة الذكاء وكان زوجها متيماً في حبها فسكن مدة عند
حمه ولما بلغ راتبه من الملك ٢٠٠٠ فرنك في السنة خرج بها من دار أبيها وسكنا في
بيت على حدة فولدت له أولاداً كبيراً وماتوا في حياته وهم ليوبولدين ماتت غريقة في
نهر السين وشارل مات فجأة عند صاحبة له في بوردو وفرنسوا مات في باريس وعادلة
تزوجت على كره من ابوها واصيبت بداء الجنون مثل عمها وهي لم تزل في قيد
الحياة . فكانت هذه المصائب باعثة على نظم القصائد التي عنوانها « أولادي »
ورثاهم أيضاً في كتاب (التأملات) وغيره بأدق المراثي . وكان موحداً بالاعتقاد ولم
يتبع مذهب المسيحيين في البقاء على زوجة واحدة بل شغف بعد ذلك بحب احدي
الممثلات واسكنها مع زوجته وعمل عمل القائلين بتعدد الزوجات مع رعايته
واحترامه لزوجته الاولى

واخذ فيكتور هوكو يحرر في مجلة « الموز الفرنسية » التي انشأها الاديان سومه

وديشان ويتردد على بيت شارل نورية وكان هذا الفاضل مديراً لمكتبة ارسنال وهي احدى المكاتب الاربع الكبيرة في باريس . ونال معاشاً وافراً بسبب هذه الوظيفة وفتح بيته للعلماء والشعراء حتى صار مجمعاً للأدباء واسسوا فيه سنة ١٨٢٤ جمعية ادبية على الطرز الجديد . وفي هذه السنة توفي لويس الثامن عشر وليس اخوه شارل العاشر تاج الملك فمدحه الشاعر بقصيدة عنوانها « التتويج » فحازت القبول وانعم عليه الملك بوسام الافتخار من رتبة شيفاليه كما أنعم بذلك على الشاعر الشهير لامارتين . ولما نشر فيكتور هوغو ديوانه في المدح والغزل وحاد فيه عن مسلك الشعر القديم المسمى (كلاسيك) وسلك في النظم مسلكاً جديداً انتقد عليه اصحاب الطريقة القديمة وسلقوه بالسنتهم . ونشر الشاعر « سنت بوف » في جريدة الغلوب بتاريخ ٦ كانون ثاني سنة ١٨٢٧ مقالة انتقادية كانت سبباً لتحويل انظار الناس إلى الطريقة الجديدة ولتعارف الشعارين حتى صاروا من اعز الاخوان .

وكان شارل العاشر قد حاد عن طريقة اخيه العادلة في سياسة الملك ومال الى الاستبداد فنفر منه الادباء والاحرار . واغتم سفير النمسا في باريس هذه الفرصة وندد في امراء العساكر الذين خدموا مصالح نابوليون الأول وأهانهم في الكلام فانتصر لهم فيكتور هوغو لان اباه كان في زميرتهم ونظم قصيدة في مدح (العمود) أي العمود الذي رفع لنابوليون في ميدان فاندوم وطلي بنحاس المدافع التي غنمها في حروبه ونقش عليه اسماء المواقع الحربية والامراء العسكرية . وكان الشاعر في ذاك التاريخ قد بلغ سن الرجولية وهو السن الذي يتأهل فيه الرجل لحقوق الانتخاب فظن كبقية ادباء العصر المتخوفين من استبداد شارل العاشر ان الحكومة الامبراطورية اكثر عدلاً وحرية من الحكومة الملوكية ولذا أقبل على اظهار فضل نابوليون واشهار مجده بدون ان يتعرض بالمدح لآل بوربون . ونشر عقب مدحه العمود قصة كرومول . وشرح في مقدمتها طريقته الجديدة في علم الادب وشكل جمعية من انصار هذه الطريقة وفي مقدمتهم الفرد دوفيني وستانبوف وأميل دوشان والكساندر دumas وبولانجه وغيرهم مثل لامارتين وسموا طريقته « روماتيك » كما كان المتقدمون يسمون طريقته « كلاسيك » وصار فيكتور هوغو امام المدونين في هذه الطريقة الجديدة . فانتقد عليه كثير من ارباب السياسة وحلة الاقلام ولاموه من وجهين احدهما لمدحه نابوليون واشهاره مجد الحكومة الامبراطورية وثانيهما لعدوله عن مذهب الشعر القديم وسلوكه

في النظم والنثر مسلماً جديداً .

غير ان الشاعر لم يصغ للوم اللائمين واستمر يتردد على بيت صاحبه شارل نوريه وينشد قصائده امام الحاضرين . ويستميلهم لطريقته واحداً بعد واحد ولما اتجهت انظار العموم نحو الشرق بسبب ثورة اليونان وذهاب العساكر المصرية للموره وغدر الدول في وقعة نافارين نشر فيكتور هوكو ديوانه المترجم « بالشرقيات » ولم يزر الشرق ولا رأى نساء مثل شاتوريان ولا مارتين ولكنه درس احواله درساً مدققاً وقرأ ما ترجم من كتب ادبائه مثل كلستان سعدى وديوان حافظ شيرازي وما ترجم من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فراج ديوان الشرقيات لحدائث موضوعه ويبحث فيه عن الممالك العثمانية والعوائد الشرقية وعن بلاد اليونان وإيطاليا واسبانيا وكانت النفوس متشوقة للاطلاع على ما في زوايا الشرق من الخبايا .

ثم نشر قصة عنوانها « آخر ايام المحكوم عليه » وصور فيها الاضطراب الذي يحصل للمقتول قبل قتله . وفي سنة ١٨٣٩ وجه الشاعر التفاته نحو المسرح الفرنسي (كوميدي فرانس) وشرع في اكتساب الرزق من تحرير الروايات المحزنة التي يسمونها « درام » وحرر رواية « ماربون دولورم » وهي غانية من غواني باريس احبها احد الرهبان وكان لها نبأ عجيب على عهد لويس الخامس عشر ولما أراد مدير المسرح تشخيص الرواية منعه المراقب فرفع الشاعر شكواه من ظلم مراقب المطبوعات إلى الملك فلم يأذن له بتشخيصها ومع ذلك قرّبه اليه ولاطفه بالكلام وقال « أحب قريبتك الشعرية وليس عندي أشعر منك ومن ديروجيه » و زاد في راتبه حتى بلغ ٤٠٠٠ فرنك فرفض فيكتور هذا الراتب مع شدة احتياجه اليه وشرع في تحرير رواية « ايرناني » فأكملها في بضعة اسابيع وشخصت على المسرح الفرنسي ليلة ٢٥ شباط سنة ١٨٣٠ واشتد بسببها القيل والقال وعلا في المسرح الصغير والجدال بين اصحاب المذهب القديم والمذهب الحديث في علم الأدب . وتم النصر في تلك الليلة لهوكو وشيعته ولم يبق معه من النقد سوى حسين فرنكاً . فتقدم اليه ملتزم الطبع وبارك له بنجاح الرواية ونقده في مقابلة حق طبعها ستة آلاف فرنك واستلم منه النسخة الخطية وعقد معه مقالة على تحرير قصة « نوتردام دوباري » وتسليمها في ظرف ستة أشهر . فأكتب الشاعر على المطالعة والتحرير واكمل القصة قبل انتهاء الأجل المحدود فطبع وكان لها رواج عظيم واسم الرواية مأخوذ من كنيسة باريس الجامعة

وهي بناء فخيم بالقرب من دار البلدية ودار الحفانية .

ولما اصدر شارل العاشر امره بالغاء الحرية التي منحها سلفه للشعب وبتعطيل احكام القانون الاساسي هاج اهالي باريس وحدث انقلاب تموز سنة ١٨٣٠ وسالت الدماء في العاصمة ثلاثة أيام بلياليها ففر شارل العاشر من فرانس وتنازل عن الملك لابنه ووليّ عهده دوک انكوليم - وانكوليم بلدة بين بوردو وباريس - غير ان هذا الدوك استعفى أيضاً وانتقل الملك بالارث الشرعي إلى دوک بوردو وهو حفيد شارل المشار اليه . فالجمهور من الفرنسيين لم يلتفتوا إلى حقوق هذا الصبي وانتخبوا ملكاً عليهم لويس فيليب ابن عم شارل العاشر لقبوله اعطاء الاهالي حقوقهم وتعهده بحماية القوانين . فهو - شاعر الملك والمدافع عن حقوق الملكية وناظم القصائد الغراء في ولادة دوک بوردو صاحب الميراث الشرعي وفي رثاء ابيه دوک برّي - لم يهتز لهذه الحوادث بل اظهر استحسانه لما فعله الشعب ولم يعبأ بالمسائل السياسية . وظل يشغل في فنون الأدب فنشر ديوانه المسمى « أوراق الخريف » وشخص عليّ المرسح الفرنسي سنة ١٨٣١ رواية ماريوم دولورم التي منع تشخيصها سابقاً ثم رواية « الملك يتسلى » وهي رواية تاريخية موضوعها فرانسوا الأول الذي التجأ إلى ساكن الجنان السلطان سليمان القانوني من شر عدوه شارل كين . فمنع مراقب المطبوعات اعادة تشخيص هذه الرواية للتعريض فيها بالملوك . فرفع الشاعر شكواه إلى محكمة التجارة ودافع عنها بنفسه امام المحاكم فلم يسمحوا له بالتشخيص . ولم يجر تشخيصها مرة اخرى الا سنة ١٨٨٢ وكان الذي ربحه فيكتور هوغو من مؤلفاته كافياً لانقاذه من مخالب الفقر وسعادة حاله ففتح بيته للزائرين حتى صار مجمع الأدباء ومركز الشعراء . وفي جملتهم الكاتب الشهير تيوفيل غوتييه إلا أن الشقاق وقع بينه وبين صاحبه القديم الكساندر دوماس ودام الخصام أعواماً كثيرة . لان غير الشعراء والعلماء بعضهم من بعض اشد من غير الأمراء . .

وجفاه أيضاً حبيبه سنت بوف الماهر في فن الانتقاد وقال عن مؤلفاته بانها ممزوجة بآراء السياسة الملكية والديانة الكاثوليكية والفلسفة السيمونية - وهي التي وضعها الكونت سن سيمون في واخر القرن الثامن عشر وفرض فيها تعلم الصنائع على كل فرد من افراد الأمة . فلم يتبعه الا القليل من الناس مثل كارنو والد رئيس الجمهورية الاسبق - فعمل برأيه ومع جلالته قدره جعل أحد اولاده نجاراً والآخر

مهندساً وكلاهما من اكابر رجال الدولة . ثم الف فيكتور هوكتور رواية « لوكريس بورجيا » وهي اخت قيصر بورجيا الشهير بالاسراف وفساد الاخلاق وكانت بديعة الحسن ولها حديث غريب فشخصت هذه الرواية في ٢ فبراير سنة ١٧٣٣ فاقبل الناس على استماعها ثم شخصت مراراً على المسرح الذي بباب سن مارتن وكانت الممثلة التي شخصت دور الأميرة نيكروني هي ماداموزيل جوليت دروه التي سبت الشعراء بحسنها وعقلها . فشغف فيكتور هوكتور بحبها وبعد ان تردد على بيتها كثيراً اسكنها في بيته عند زوجته فلامه أحد اصحابه فحرر اليه يعتذر بان زوجته اذنت له وسأحته على ما فرط به من حب جوليت ولم تزل زوجته تحبه وتعزه . . واستمرت في صحبة الشاعر ورافقته في منفاه وكانت تحرر له القصائد وهو يملئ عليها ودامت معه إلى بعد وفاة زوجته ورافقته أيضاً في سن شيخوخته ونشر فيكتور هوكو أيضاً رواية « ماري تيدور » وهي ملكة الانكليز ورواية « انجلو » وهو امير ظالم من امراء الطليان ورواية « ربوبلاس » وهو اسم خادم الوزير الذي خدعت به ملكة اسبانيا وكثيراً ما تشخص اليوم على المراسح الفرنسية هي ورواية « ايراني » . ورواية « كلودكو » وهي مما ترجم من مؤلفات هوكو إلى التركية وفيها دفاع بليغ عن المحكوم عليهم بالاعدام وتشنيع هذا القصاص .

ومما نشره في هذا التاريخ من الأشعار الموسيقية غير اوراق الخريف « أغاني الشفق » و« الاصوات الداخلية » و« الأشعة والظلال » وغير ذلك فصار فيكتور هوكو بهذه التآليف يعد من فحول ادباء العصر وانتسب لدوك اورليان وزوجته ووجه عليه لويس فيليب نشان الافتخار من درجة اوفيسيه واهداه صورته وانتخبته الاكاديمي الفرنسية عضواً في جمعيتها باكثرية صوتين فقط بعد ان عارض أعضاءها زماناً طويلاً في قوله لشدة تمسكهم بالقواعد واساليب الانشاء القديمة . ولم يدخلوه بينهم إلا بعد أن اشتهر فضله كالشمس في رابعة النهار . وسنة ١٨٣٩ ساح فيكتور هوكو في جبال الالب على حدود ايطاليا وسويسرا وشاهد مناظرها البديعة وزار بعد سنتين صيفاف اليرين ودرس احوال بلاد الالمان وكتب سياحته في محلدين نشرها بعد موته . وألف أيضاً رواية « بورغراف » التاريخية ويين فيها اخلاق امراء الالمان في القرون الوسطى . فشخصت على المسرح الفرنسي سنة ١٨٤٣ ولم يقبل عليها الجمهور ولا حصل منها ارباح للمشخصين فتكرر الشاعر من سوء طالعها وعدل عن تأليف

الروايات وترك رواية « التوأم » التي شرع في تأليفها بدون ان يكملها . وكانت الافكار العمومية تحولت عن طريقة الأدب الجديدة (رومانتيك) وعادت للاقبال على طريقة (كلاسيك) القديمة لظهور بعض المؤلفات الجديدة فيها . وبمناسبة ذلك هزأت بعض الجرائد الهزلية بفكتور هوكو وصورته برأس كبير وهو واقف امام المسرح بجانب اعلان هذه الرواية ينظر إلى السماء وقد طلع ذو ذنب وكأنه يناجي ربه وهو يقول « لماذا جعلت للنجوم اذناً وتركت البورغراف بلا اذنان » وتطلق كلمة بورغراف على ذوي الآراء السخيفة في ضروب السياسة . والمقصود تركت الرؤية بلا جمهور يزدهم على باب المسرح فيتألف منه ذنب طويل كما هي العادة في اقبال الناس على الروايات المهمة واصطفافهم الواحد وراء الآخر لا شراء أوراق الدخول . وخرج فيكتور هوكو من باريس إلى جبال البيرنة على حدود اسبانيا يروض فيها افكاره ويزيل اكداره . ولم يلبث فيها كثيراً حتى فاجأه مصابه ببنته وكانت في التاسعة عشرة من عمرها وقد فارقتها وهي في اثواب العرس فخرجت بزوجهات تنزه في زورق على نهر السين في مدينة فيلكيه فانقلب بهما الزورق وماتا غريقين قبل ان يمضي على زفافهما اربعة اشهر . وزوجها شارل فاكيري هو اخ الاديب المشهور اوغست فاكيري . فزاد كدر فيكتور هوكو واختبر بهذه المصيبة آلام الحياة وهمومها ودخل الحزن قلبه . ولعلمه افانين الرثاء فاجاد وابدع في المراثي التي نظمها واكثرها مدرج في كتاب « التأملات » غير انه من هول هاتين المصيبتين وهما موت ابنته وعدم رواج روايته يئس في بادىء الأمر من هذا العالم الفاني وانقطع رجاءه بالله وضعف اعتقاده ورفض الشعر مدة واقبل على الاشتغال بالعلوم السياسية ودرس المسائل الاجتماعية . فنشر كتاباً عنوانه « مكاتيب على الرين » حاول فيه حل مسألة الموازنة الاوروباوية وتوهم تقسيم ممالك اوربا بين فرنسا وبروسيا واراد تقليد لامارتين في الدخول لميدان السياسة - لأن الشاعر لامارتين بعد ان خدم طويلاً في كتابه السفارات الفرنسية وصار سفيراً في طوسقانة واثينة ترقى إلى مسند الوزارة ولما زار الشرق نال شرف المثول بين يدي السلطان عبد المجيد خان وحاز على الالتفات الشاهاني وأحسن اليه بأبعدة (جفتلك) في ولاية أزمير فأقام فيها وحرر تاريخ الممالك العثمانية في ثمانية مجلدات - ففتح لويس فيليب باب الحكومة ليفيكتور هوكو وعينه عضواً لمجلس الاعيان سنة ١٨٤٥ فجلس مع اصحاب اليمين واصم لحزب الاكثرية وهو حزب الوزارة وقال بقولهم وتكلم في بعض المسائل فحط حصّة

في « ماركة الفابريكات » واخرى في « المسألة البولونية » ومدح البابا الحروطلب ارجاع عائلة بونابرت فلم يكن لكلامه تأثير على اعضاء المجلس كما كان لاشعاره ورواياته تأثير في نفوس الجمهور عند صدورهما على المراسح من افواه الممثلين والمشخصات لانه لم ينل من القوة النطقية ما ناله من القلمية والفكرية .

ولما قوي حزب الجمهورية وحدث انقلاب سنة ١٤٨٨ وانزل لويس فيليب عن عرش الملك واعلنت حكومة الجمهورية الثانية على فرنسا انتخب فيكتور هوغو عضواً في مجلس الامة من ايلة السين واسس في تلك السنة جريدة الوقائع (ايفنيان) وكتب عليها « البغض الشديد للفضوية والهيام في الشعب والحنو عليه » وكان يعينه في تحرير الجريدة ابنه شارل وفرنسوا وأصدقائه من افاضل المحررين مثل بول موريس واوغست فاكري وتيوفيل غوتيه والبر لوقروا وغيرهم وكان المترشح لرئاسة الجمهورية اثنين وهما نابوليون الثالث والجنرال كافينيك فمالت جريدة الوقائع في خطتها السياسية لنابوليون لان فيكتور هوغو كان يترنم في قصائد « المدح في العمود » ويطرب لذكر مجد نابليون الأول ولذا فانه احب في بادىء الامر ابن اخيه نابوليون الثالث وظن انه يتقرب اليه ويكون مستشاراً له فرجحه في الانتخاب على الآخر . . واكتسب نابوليون الثالث اكرثية الاصوات وكانت تزيد على خمسة ملايين ونصف مليون فاعلن رئيساً على الجمهورية واستلم زمام الادارة ولم يلتفت ليفكتور هوغو . فلما خاب ما امله الشاعر انقلب عن اصحاب اليمين الى اصحاب الشمال وصار من أكبر رؤساء الحزب المخالف . فاتهمة العقلاء بانه مذئذب يتردد بين اليمين والشمال ودافع عنه اصحابه بقولهم ان الشاعر لا يهتم بالاحزاب وانما يرى مصلحة الامة فيسير معها . وكان كلما خطب في المجلس خطبة شددوا عليه النكير وذكره بسوابق اعماله واشعاره . ولما تمت الرئاسة لنابوليون مالت نفسه للبس التاج وشرع في اعداد المعدات وتهيئة الاسباب فتظاهر فيكتور هوغو له بالعداوة ونشر في تقييح سياسته فصولاً وعرض باسمه في جريدة الوقائع فسهاه نابليون الصغير ، فاتهم مراقب الجرائد ابنه المحررين لتلك الجريدة وحاكمهما والقاهما في السجن . ثم استبد نابليون بالامر واجرى حادثة ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ وألقى القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية وكان اسم فيكتور هوغو في رأس قائمة المتهمين فساعده حبيته الممثلة جوليت دروه على الاختفاء واستحصلت على تذكرة مرور فخرج من باريس فاراً وهنا تم الدور الأول من ادوار حياته .

الدور الثاني

وهو مدة وجوده منفياً من سنة ١٨٥٢ إلى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠

بعد ان فر فيكتور هوكو من باريس تجاوز الحدود الفرنسية واتي بروكسل عاصمة البلجيك وكان في غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته يوصيها بالتدبير والتقتير ويعرفها بان مصروفه في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك . واقبل على التحرير والتأليف وهو يستشيط غضباً فنشر كتابه « نابليون الصغير » وكان اول صاعقة من الصواعق التي رماه بها . ثم نشر « تاريخ جرم » فتهاقت الناس في فرنسا وعموم اوروبا على مطالعة هذين الكتابين . فمنع نابليون دخولها لمالكه وامر سفيره في بروكسل بان يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوكو عنها فلم تجسر الحكومة على ذلك الا بعد اخذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج . فذهب إلى جزيرة جرسى التابعة لانكلتره وهي جزيرة في بحر المانش بين فرنسا وجزائر بريطانيا العظمى . وجلب اليها عائلته وكانت حبيبته جوليت سبقتهم واقامت معه في بروكسل وشاركته في السراء والضراء وكان في ضيق من جهة المعاش ولم يكن معه الا سبعة آلاف فرنك فعرف الجوع بقوله « ان المخمصة تثقب في قلب الانسان ثقباً وتملأه بالحقد » ونشر كتاب « القصاص » سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابليون اشد من الاولى وراج رواجاً عظيماً في فرنسا واوروبا وربح ملتزم طبعه في بروكسل ربحاً وافراً لم يعد منه على المؤلف إلا اليسير .

ولم يزل نابليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري وينفيهم من الأرض فعارضه فيكتور هوكو ونظم عدة قصائد في وصف حالة اولئك المضطهدين الذين اخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً فطلب سفير فرنسا في لوندرا اخراج هوكو من جزيرة حرسى وابعاده فاخرجته الحكومة الانكليزية ارضاء لنابليون ولكنها لم تضيق عليه فذهب إلى جزيرة كيرنيزي وهي بجوار الجزيرة الاولى في بحر المانش وتابعة مثلها للانكليز . واشترى فيها داراً خربة مهجورة مبنية على صخرة عالية مطلية على الاوقيانوس المحيط وتسمى « هوت فيل هوس » فرمها وسكنها واتخذ الطبقة العليا منها غرفة لاعماله فكان

يشتغل فيها بالنظم والتأليف ويفكر في تقلبات الدهر واحوال العالم وبصره شاخص إلى
 لجنة البحر المحيط . وكان يعينه في التحرير والمطالعة ابناه وزوجاته وصاحبه الشاعر
 اوغست فاكييري فنشر سنة ١٨٥٦ كتاب التأملات وعرفه بسانحات البال . ثم أخذ
 يسلي همومه بمطالعة اخبار المتقدمين ودرس سير الانسان في مدارج الترقى والعمران
 فنشر القسم الأول من كتاب « سير الدهور » سنة ١٨٥٩ ثم ألف قصته الشهيرة المترجمة
 « بالبؤساء » وكان له صديق حميم وهو موسيولوقروا ناظر البحرية في الوزارة الفرنسية
 السابقة أي وزارة الموسيوميلىن فكان هذا الأديب يعين الشاعر على طبع مؤلفاته في
 البلاد الاجنبية . فلما بعث اليه بالمجلدين الاولين من كتاب البؤساء باعهما ملتزم الطبع
 في انكلترا بمبلغ قدره ١٢٥ ألف فرنك ذهب انكليزي .

ولما نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ أقبل المترجمون على ترجمته ونشروه في تسع لغات
 من لغات اوربا في آن واحد . وكان اصحاب المطابع يستدعون الموسيولوقروا من جميع
 الجهات في انكلترا والمانيا والنمسا ليشتروا منه حق الترجمة والطبع ولما ذهب إلى لوندرة
 عند الكتيبي الشهير في بترنوستر رود سأله بعنف : -

- كم تطلب بحق نشر كتاب البؤساء في اللغة الانكليزية ؟ : - فأجاب : -

- ثلاثة آلاف ليرة انكليزية . فتناول دفتر الشك وحرر المبلغ والاسم وقال له خذ

نحن على وفاق .

فسعد حال فيكتور هوكو من جهة المعاش وذهب عنه الضيق فنظم دارة وغرس
 ارضها بالاشجار والرياحين وطار ذكره في العالم المتمدن وقصده الزوار وكاتبه الرجال .
 وكان البعض يحمر عنوانه « فيكتور هوكو في الاوقيانوس » فكانت تصله بهذا العنوان
 المبهم لسعة شهرته واشتهر اسمه لاقتراانه باسم نابليون وكبره البعد والاعتزال في
 مخيلات الناس حتى اعتقدوه من اكبر العقول البشرية . وكانت العيون ترقب طلوع
 مؤلفاته كما ترقب شمس الشتاء . وفي سنة ١٨٦٤ نشر كتاب « وليم شكسبير » في
 الفلسفة وبعدها بسنة نشر « ديوان اغاني الشوارع والاحراج » وفي سنة ١٨٦٦ نشر قصة
 « المشتغلين في البحر » وصف فيها ما يكابده الفلاحون من المشاق وما يتورطون فيه من
 الاخطار . وفي سنة ١٨٦٩ نشر قصة « الانسان الضاحك » . ولم يأل جهداً وهو في
 تلك الجزيرة عن الانتصار للاقوام الذين غدر بهم الزمان ورماهم سوء الطالع
 بالخسران . وفعل ما فعله فولتير وهو في فيرين فدافع عن عصاة ايرلانده وعن

مكسيميليان امبراطور المكسيك وهو اخ امبراطور النمسا اغراه نابليون الثالث على لبس التاج وامده بالعساكر الفرنسية ثم تخلى عنه فحاكمه المكسيكيون وقتلوه .

ثم ان المسائل العائلية اخلت براحة الشاعر واقلقت افكاره وذلك ان ابنته عادلة احبت قومندان المركب المحافظ على الجزيرة وتزوجت به رغماً عن والدها وذهبت معه إلى الهند منشأ الطاعون ومهب الريح الأصفر فمات فيها وعادت لفرنسا مختلة الشعور سنة ١٨٧٢ فادخلوها البيمارستان مثل عمها وهي التي ورثت اباه . وفي سنة ١٨٦٨ توفيت زوجة فيكتور هوغو في بروكسل بعد ان كفّ بصرها وذهب ابنه في السنة التالية إلى باريس مع صاحبهما اوغست فاكير ي لينشوا فيها جريدة « رابل » وينددوا بالحكومة الامبراطورية وذهب فيكتور هوغو إلى بلاد سويسرا ليحضر مؤتمر لوزان ويخطب فيه خطبته المشهورة . ولما جرت الانتخابات في أوائل سنة ١٨٧٠ نشر فيكتور هوغو رسالة اعتراضية عنوانها « لا » ثم انتشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا ودارت الدائرة على نابليون الثالث فسلم سيفه في ميدان القتال إلى ملك بروسيا وطار الخبر إلى باريس فاجتمع رؤساء الحزب الجمهوري في دار البلدية واعلنوا الحكومة الجمهورية مكان الامبراطورية في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ وهي الحكومة الجمهورية الثالثة الحالية ولم يعد مانع لفكتور هوغو من الرجوع إلى فرنسا . وبذلك انتهت ايام نفيه .

الدور الثالث

وهو دور شيخوخته أي من رجوعه إلى فرنسا سنة ١٨٧٠ إلى وفاته سنة ١٨٨٥

بعد ان قام فيكتور هوغو في منفاه ثماني عشرة سنة عاد إلى باريس مع من عاد من أركان الحزب الجمهوري واستقبله احباؤه وأشياعه وانزلوه على السعة والرحب فحرر خطاباً بليغاً للامانيين يحضهم فيه على الصلح وترك الحرب وكان من رأيه السياسي وضع اتفاق بين الامة الفرنسية والبروسانية وتقسيم البلاد بينهما . فلم يصغ الالمانيون لخطابه وظلوا هاجمين حتى بلغوا خنادق باريس والقوا الحصار عليها فترك فيكتور هوغو القلم من يده وامسك السيف وانتظم في سلك الجنود المحافظين من الاهالي ودافع عن اوطانه وتآلم بالآلام اخوانه . ولما احتلت العساكر البروسانية باريس هاجر منها أهلها واتخذت الحكومة الجمهورية مدينة بوردو مركزاً لها عوضاً عن باريس . وانتخب ايلالة السين فيكتور هوغو مبعوثاً لها في مجلس النواب فلما قام يخطب عارضه اصحاب اليمين واكثروا اللغط وابوا الانصات له فقال لهم « منذ ثلاثة أسابيع رفض المجلس الاصغاء لغاريبالدي واليوم يرفض الاصغاء لي فافدم استعصائي » غاريبالدي هو من القواد الذين حاربوا لاجل استقلال ايطاليا وهاجم رومة العدمي وانتزعها من يد البابا وسلمها إلى ملك ايطاليا ليتحاذها عاصمة للملك فلما انتهت الحرب بين فرنسا وبروسيا دخل متطوعاً في العسكر الفرنسي ودافع عن فرنسا عند المدافعة فانتخب مبعوثاً في مجلس النواب مع كونه طبيب الاصل وكانت الاكثريه في المجلس من حزب الملوكيين وشره يبين فاتهموه بالتمتر والاحاد لتجاوزهم على ... ونزعه سلطة البابا منها ولذا لم يمتد اركلامه

وفي ذاك التاريخ اعيد طبع كتاب « القصاص » نكالا من حزب الامبراطورية وكان يباع بالمائة الف نسخة معاً ولما كان ابن فيكتور هوغو المسمى شارل في بوردو دخل عند صاحبة له يقضي ليلته فتوفي فجأة في فراشها وحزن ابوه حزناً شديداً فجاء بجثته إلى باريس ودفنها يوم حدوث ثورة الكومين وأنعطف بالحنو والرأفة على ولده

الصغيرين وهما جورج وجان وبالغ في دلالهما حتى أثر هذا الدلال في اخلاقهما واصبحت جان لا تستطيع معايشرة زوجها حتى طلقها لشدة ميلها إلى اللهو والخلاعة . وبعد وفاة شارل تزوج الموسيولوقروا بزوجته لتربية الولدين لحياء بيت فيكتور هوغو فتنهه الشاعر وأحبه حباً شديداً .

ولزم فيكتور هوغو الحيادة في المسائل السياسية لحزنه على ولده وفلذة كبده غير انه لم يطق الصبر على ما شاهده من فظائع الرعاع فلامهم على قلبهم العمود المنسوب لنابليون الأول كما لام حكومة فرسايل على اطلاقها القنابل على قنطرة النصر المنصوبة له . وبرأ نابليون الأول مما جناه ابن اخيه على البلاد من الحرب التي جلبت عليهم الويل والدمار وذهب هوغو في اثناء تلك المعامع إلى بروكسل وإلى لوندرة ونشر كتابه المعنون بالسنة المهولة وشدد فيه النكير على دخول الاجانب لفرنسا وعلى الفظائع التي اجراها الرعاع والسفلة وهم الكومين . ثم عاد فيكتور هوغو لباريس وانشأ فيها جريدة سماها « الشعب الحاكم » وجعل ثمنها خمسة سنتيمات لكل نسخة ليتمكن الفقراء من مطالعتها . ولم يهدأ بال الشاعر برجوعه لاوطانه واجتماعه على احبابه وخلانه الا واصيب بموت ابنه الثاني فرانسوا فصبر على مصائب العمر ونكبات الزمان وسلم الأمر لله لأنه كان من الموحدين وعكف على النظم والنثر فنشر سنة ١٨٧٤ قصة عنوانها « ثلاث وتسعون » وتكلم فيها عن الانقلاب الفرنسي الكبير . وفي سنة ١٨٧٥ انتخب فيكتور هوغو عضواً لمجلس الاعيان (سينا) فجلس في نهاية اصحاب - لسماء - ولم يتكلم في المجلس الا قليلاً مثل طلبه العفو عن مجرمي الكومين - والكومين - هم اتوة المخربة او الادارة العرفية التي تشكل في العاصمة وتحدث انقلاب الدولة ويحصل بسبب ذلك من تعدي الرعاع وتسلط السفلة ما تقشعر من سماعه خدود - وقد تأسست هذه الادارة المرهبة في باريس مرتين احدهما سنة ١٧٩٢ والأخرى سنة ١٨٧١ واستمرت هذه السنة من ١٨ مارس إلى غاية مايو وجرى في اثناء ذلك كثير من التعديات والمظالم فكان فيكتور هوغو يشير في المجلس بالعفو عما مضى ولم يظهر له اقتدار كبير في السياسة ولا في فن الخطابة مثل غامبتا وامثاله من فحول السياسيين . وانما صرف كل قواه في الاشتغال بعلم الأدب والتاريخ ونشر « الأقوال والاعمال » و« أولادي » و« معرفة ما يكون به الانسان جداً » . وفي سنة ١٨٧٧ نشر القسم الثاني من « سير الدهور » و« الاملاك العمومية

التي تدفع الرسوم « ونشر من سنة ١٨٧٨ إلى سنة ١٨٨٥ اربع منظومات فلسفية وهي « البابا » و« الرحمة العالية » و« الاديان والدين » و« الحمار » . وحاز في شيخوخته احتراماً كبيراً وثروة عظيمة زادت على ثلاثة ملايين فرنك ولما بلغ الثمانين من عمره احتفل به اهالي باريس احتفالاً عظيماً وزينت له المدينة في ٢٦ شباط سنة ١٨٨١ وفد عليه المهنتون من جميع الولايات والنواحي واكثر الممالك الاجنبية . فاستقبلهم وهو واقف بين حفيده جورج وحفيدته جان وكان مغرمًا في حبهما وفي حب جميع الاطفال وقد خصهم بالذكر في اشعاره وتغزل بهم . ولذا كان في جملة الوفود المهنتين وفد من أجمل الاطفال الصغار يحملون له باقات الازهار . ولم يبق احد في باريس الا ومربابه وصاح جمهورهم بالدعاء له . فوقف في نافذته وحياهم كما يحمي الملك شعبه ودموعه تذرف من شدة التأثر والاشفاق . وكان مشاهير الرجال وامراء الناس واعيانهم كلما جاؤا باريس زاروه في داره وحضروا مجلسه . وكان في جملة من زاره إمبراطور البرازيل فكان الاحتفال ببلوغه الثمانين من أجمل الاحتفالات التي لم يسبق مثلها الا للشاعر الفيلسوف فولتير قبل موته بقليل . ونشر فيكتور هوغو في آخر ايامه منظومة طويلة سماها « رياح العقل الرابع » ورواية « توركماده » والقسم الثالث من « سير الدهور » و« أرخبيل بحر المانش » .

وغير ذلك من الآثار التي نشرت بعد وفاته وسيأتي وصفها في أواخر هذا الكتاب .

ولما توفي فيكتور هوغو سنة ١٨٨٥ لبست باريس عليه أثواب الحداد والتبس فيها الأمر على الغرباء حتى لم يعلموا هل القوم في مأتم عظيم ام في عيد كبير وجيء بجثته فوضعت في تابوت عال تحت قنطرة النصر بعد ان كسيت بالسواد وزينت بالازهار والرياحين واصطف الشعراء حولها صفوفًا واحتاط بهم الفرسان يحملون بايديهم المشاعل وسهروا عليه طول ليلتهم والناس يمرون امام تابوته افواجاً افواجاً ولما أصبح الصباح اجتمعت الجموع وزينت الصفوف وكانت اكثر المدن الفرنسية والممالك الاجنبية قد بهتت بالوفود والأكاليل فحملوا الجنازة من تحت قنطرة النصر الى البانتيون . وصار له مشهد لم يسبق لشاعر قبله ولا لفولتير . وكانت وصية هوغو أن لا يحضر جنازته راهب ولا أحد من الاكليروس وان يدفن كالفقراء . ولذا كانت العربة التي حملوه عليها من عربات الفقراء لا تناسب دبابة هذا الاحتفال ولم يجر له احتفال ديني بل كان الاحتفال بجنازته اهلياً .

فيكتور هوغو

وعلم الأدب عند الافرنج والعرب

١

أدب كل لسان ما حصل فيه الاجادة من الكلام المنظوم والمنثور ، ويشتمل على فنون الشعر والأغاني والروايات والقصص وضروب الامثال والحكم والنوادر والحكايات والمقامات والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك . وقد جمع نخبة من كلام العرب المتقدمين كتاب مجاني الأدب المطبوع في بيروت . والأصل في الكلام للمعاني لا للالفاظ . لأن اللفظ قالب او ظرف للمعنى يتخذه المتكلم او الكاتب لسبك ما يصوره في نفسه ويشكله في قلبه من المعاني فينقل بذلك مقصوده للسامع أو القارئ حتى يعلمه كأنه يشاهده . قال الشاعر :

ان الكلام لفسى الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
فالاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس يسمى « الفصاحة »
و« البيان » لأن المتكلم يفصح عما في ضميره ويبينه بكلمات عذبة سلسلة وبعبارات
جلية خفيفة على القلب واللسان . فالتكلم على هذا النسق « فصيح » وكلامه
ملفوظاً كان أو مكتوباً « كلام فصيح » . وحيث كان المعنى سابقاً للفظ وجب ان
تكون الالفاظ تابعة للمعاني وخادمة لها . وليس المعنى تابعاً للفظ كما حكى عن
بعض الامراء انه ولّى احدهم قضاء « قم » وهي من مدن العراق العجمي بين طهران
وكاشان ثم كتب اليه بلا سبب موجب « أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم » يعني بلفظ
« قم » . فقال القاضي والله ما عزلني الا محبة الامير في التزام السجع . ولا يكمل
علم الادب للمتبحر فيه الا بعد ان ينظر في أدب الامم المتمدنة ولو نظرة عامة يطلع
بها على مجمل تاريخ ادبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم
فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الادراك وبلاغة المعاني ويعرف أساليبهم
في النظم والنثر وتصرفهم في الكلام ويميز بين المتقدمين والمتأخرين منهم .
فاذا احاط علمه بذلك فهم الغرض الذي يتطلبه أئمة البلاغة من أي لسان

وملة ورأى الهدف الذي يروم كل منهم اصابته فيصوب نحوه القلم عسى ان يكون له مع الخواطىء سهم صائب . لان البلاغة لا تختص باللسان العربي وحده . وكلما ارتقت الامة في سلم الحضارة كان لسانها أبلغ وأدبها أوسع واكمل ليهافت أدبائها على تنميق الكلام وتهذيب مناحيه وفنونه فيدركون بالتدريج حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤهم واجدادهم في غير مواضعها بسبب الجهل الناشيء من ضيق العمران وقلة العلوم . ويفرغون ما اوجدوه وما اصلحوه من المعاني في قوالب تناسبها من الالفاظ والتراكيب . « فالبلاغة » هي مطابقة اللفظ للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في افادة المعنى المقصود الذي يقتضيه الحال والمقام . وفي المثل لكل مقام مقال . سواء كان المقال أي اللفظ عربياً فصيحاً باعراب أو حضرياً بلا اعراب أو عجمياً بان كان عثمانياً^(١) أو انكليزياً أو فرنسائياً أو فارسياً . أو غير ذلك . فالتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى التركيب المفيد المقصوده على اساليب العرب وانحاء مخاطباتهم . وينظم الكلام على ذلك الوجه قدر ما يتيسر له . فاذا لازم قراءه الطبقة العالية من كلام العرب الاقدمين حصلت له ملكة فيه وسهل عليه التركيب على اسلوبهم حتى لا يكاد ينحوفيه غير منحى البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى نبا عنه سمعه . وإذا كثرت اشتغاله بالترجمة والكتب المترجمة كانت اساليبه اعجمية مع بقاء الالفاظ في كلامه عربية . كما يتضح لمن أمعن النظر في رسائل ابن رشد المطبوعة في اوربا ومنها ما طبع في مصر . وفي رسائل غيره من فلاسفة الاسلام وأهل المنطق . فانه يرى فيها الاساليب الاعجمية واللهجة التي لم يلهجها ادباء الجاهلية .

وامتاز لسان العرب وخصوصاً لغة مضر بخاصتين : الاولى تشمل حركات الاعراب في اواخر الكلم وكيفية تركيب الالفاظ . فالحركات هي التي تدل في لغة مضر على تعيين الفاعل او المفعول . واما في غيرها من لغة الحضرو ببقية اللغات فيدل على ذلك التقديم والتأخير أو القرائن المبنية لخصوصيات المقاصد . وكيفية التركيب هي التي تدل في لغة مضر على ما تقتضيه الاحوال من التأكيد والتعريف والتشكيك مثل

(١) اللسان العثماني هو المسمى باصطلاح الناس « اللسان التركي » ويتألف من ثلاث لغات احداها لسان جغتاي وهو أصل اللسان التركي ، وثانيها اللسان العربي وثالثها الفارسي . وأول من وضع قواعد اللسان العثماني في عصر الاصلاح هو جودت باشا المؤرخ الشهير

تقديم لفظ أو تأخيره لوصف المعنى وتكيفه ومثل زيادة حرف أو تنقيصه لزيادة شيء في المعنى الأصلي لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كقولنا زيد قائم وإن زيدا قائم وإن زيدا قائم . وفي القرآن الكريم حكاية عن الرسل قولهم في المرة الأولى « إنا اليكم مرسلون » وفي المرة الثانية « ربنا يعلم إنا اليكم مرسلون » فالألفاظ بأعيانها تدل على المعاني بأعيانها في كل لسان . وخواص التركيب في لغة مضر من تقديم وتأخير وزيادة حرف تدل على الاحوال المكتنفة بذلك المعنى . واما في لغة الحضروفي اللسان الأعجمية فاكثر ما يدل على هذه الاحوال بالفاظ وكلمات مخصوصة ولذا كان الكلام العربي أوجز وأقل الفاظاً وعبارة من غيره . ولهذا اشار نبينا محمد عليه السلام بقوله « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » على ان بقية اللسان لم تخل بالكلية من هذه الخاصة الاولى للسان مضر وحركات الاعراب موجود منها في اللسان العثماني . تقول « زيد كلدي » بسكون آخر زيد ومعناه جاء زيد . و« زيدي جلب ايتدم » بكسر آخر زيد ومعناه جلبت زيدا . وإن لم يكسر آخر زيد لا يستقيم المعنى . وأما في لغات اوربا فالاعراب من خصائص اللغتين اليونانية واللاتينية واللغة الألمانية . غير ان الخاصة ربما كانت في لسان مضر اكثر واعرف واثبت . وإذا لم يراع الانسان هذه الخاصة في اللسان الذي يتكلمه وقع لها ما وقع للوليد مع الاعرابي . وذلك ان الوليد بن عبد الملك بن مروان كان لحناً وكان ابوه عبد الملك فصيحاً فعرف بلحن ابنه وقال له انك يا بني لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب فمكث كذلك مدة ثم خرج وهو أجهل مما دخل . فلما بويع الوليد وجلس على كرسي الخلافة دخل عليه اعرابي يشكو صهره له . فقال الوليد : ما شأنك (يفتح النون) .

فقال الاعرابي : - أعوذ بالله من الشين
فقال له سليمان بن عبد الملك : - أمير المؤمنين يقول لك ما شأنك (بضم النون) .

فقال الاعرابي : - ختني ظلمي
فقال الوليد : - من ختنتك (يفتح النون)
فقال الاعرابي : - انها ختني الحجام ولست اريد هذا
فقال سليمان بن عبد الملك . - امير المؤمنين يقول من ختنتك (بالصم)

فقال الأعرابي : - هذا . وأشار الى خصمه .
والخاصة الثانية هي ما في لسان مضر من الاستعارات والتشبيهات والمجازات وأنواع البديع من الكلام وورد أحسنه في القرآن الكريم مثل « اشتعل الرأس شيباً » ومنه في الشعر كقول ابن المعتز « والشمس كالمرآة في كف الأشل » فجمع ذلك أتم واكمل في لسان العرب . ويعدون من الكلام البديع لفيكتور هوكو تشبيهه موج البحر بقطيع الغنم وقوله غنم البحر . وقول كمال بك إمام الادب في اللسان العثماني « برق الحقيقة يلمع من تصادم الافكار » . فهذه البلاغة والبيان ديدن العرب . وفي كلامهم كثير من البديع أتوا به بغير تكلف ولا تعمل . وبعضهم تصنع له وتكلف ظناً بأنه اساس البلاغة والمقصود منها بالذات فملأوا بالبديع والاستعارات النظم والنثر وصرفوا الذهن وأجهدوا العقل حتى قالوا :
مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم
وتغافلوا عن ايضاح معنى المودة وهو من المعاني الكلية الجلية التي اوضحها ادباء اليونان والرومان والافرنج فيما القوه من الروايات المضحكة او الفاجعة وعرضوه في المراسح على انظار الجمهور فقدره الخواص حق قدره واستفاد منه العوام .
على ان تلك الحسنات البديعة والخصائص اللسانية وان كان لها تأثير عظيم على النفس فهي لم تنزل في نظر العقلاء كالحلي والمصوغ للعروس . فالعاقل يجتهد بان تكون عروسه من ربات الجمال والدلال والأدب والكمال فان وجد معها شيء من الحلي فنعم . والا فالمقصود منها هو نفسها وذاتها . فهي الضالة التي ننشدها ونأتي بها ولو من جبال القوقاس فنعلمها لساننا ونلبسها ما عندنا من اللباس ونتمتع بها فهذا اولى من اللباس الجارية السوداء الحلي والحلل وصرف النقد والوقت في تزيينها . ولللناس فيما يعشقون مذاهب .
فالتكلف في زماننا لتقليد الانشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع او سجع مقامات ثلاثة لمقامات الحريري والهمداني ليس فيه كبير فائدة ما دام الاصل في الكلام للمعاني والمقصود من المعاني اظهار اسرار هذا الكون الذي نصب في ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه . ولا ندرى باي عبارة نترجم عنها ولا كيف نوضح شعورنا واحساسنا بهذا الوسط الذي نحياه وهو سجن لنا . والدنيا سجن المؤمن . فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لادباء العصر سبكها في السهل الممتنع عن

الكلام الفصيح بغير تهافت منهم على الكلمات اللغوية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وقراءة الكلام طرداً وعكساً . وامثال ذلك مما يعده العقلاء من الملاعب البيانية اذ ليس هذا غاية الادب والغرض منه . وخير اللفظ ما جاء بالطبع والبداهة بلا تكلف ولا تحر في القواميس والمنشآت . فخطبة ناظر المعارف الفرنساوية التي تلاها بمناسبة يوبيل الكيماوي برتلوهي نموذج في بلاغة المعاني لمطابقتها لمقتضى الحال وايجاب المصلحة . وهي من احسن ما يقال في مثل تلك الجلسة وفي مناسبة ذلك الاجتماع . غير ان ذوقنا ربما يمجها لركاكة الترجمة . فان الالفاظ وان كانت عربية فتركيب هذه الالفاظ بعضها مع بعض لم يجز على اسلوب قس بن ساعدة او سحبان وائل ولا على طريقة الجاحظ امام الأدب ولا يشبه رسائل عبد الحميد أو ابن العميد اللذين قال فيهما الثعالبي : « فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بأبن العميد » بل جرى تركيب الفاظ تلك الخطبة على الاسلوب الفرنساوي المترجمة عنه . فكثر الالفاظ في موضوعاتها التي وضعها فيه العرب الاولون . والركاكة بالنظر إلى التراكيب . وربما كانت بالنظر إلى بعض المفردات أيضاً لأن مفردات الفاظها لم تنتخب من القاموس المحيط ببلاغة اللسان كالذي الفه الزخشي وسماه اساس البلاغة وطبع بمصر .

ثم هناك اسباب اخرى أيضاً تحول بيننا وبين ادراك بلاغة تلك الخطبة وهي عدم وقوفنا على دقائق تاريخ القوم ومزايا لغتهم وتعبيراتهم وفقداننا الملكة في هذا الاسلوب من الخطابة . ولذا ينبو سمعنا عما لم يأت على أساليب بلغاء العرب و بما لم يحرر على وفق مذهبهم في فنون الادب . حيث لكل قوم منهج معروف ومسلك مألوف . بل كل امام في الأدب من أي امة كان يذهب فيه مذهباً جديداً ويستخلص لنفسه طريقة مخصوصة يخالف فيها طرق المتقدمين ومذاهبهم . ولذا فاهل الذوق في الكلام إذا عرض عليهم شيء منه قالوا هو على طريقة فلان واسلوب فلان وهو من انشاء فلان دون فلان كما لو عرضت خمر من خمر بوردو على أهل الذوق المشهورين باسم « ديكوستاتور » لقبض الواحد منهم بكفه على الزجاجة حتى اذا سخنت بحرارة اليد وفاح منها الشذا المعروف عندهم باسم (بوكة) هزأ ونظر فيها فاذا الخمر في الزجاجة ياقوتة سيالة ثم جرع منها جرعة ذاقها بطرف لسانه وقال لك هي من كرم « شاتولافيت » أو « شاتولاتور » أو « شاتومارغو » وفي هذه الثلاثة انحصرت الطبقة

العليا من طبقات الخمر المعصور بارض « ميدوق » وأتفق اهل الذوق والطب على انها من أطيب البقاع وابركها لانبات هذا الشراب الذي فيه منافع للناس واثمه اكبر من نفعه . لانه من جهة ترياق نافع ومن جهة أخرى سم ضار .

٢

والشعر كالشعر لا يختص بلسان العرب فقط بل يوجد في كل لسان من السن الامم المتمدنة والهمجية فان لاهالي افريقيا اشعاراً يمدحون بها على آلات طربهم ويرقصون على انغامها . وكان في الأمم السالفة شعراء مجيدون مثل قياسه صاحب ديوان ماهابهاراته ومثل فالميكي صاحب ديوان راماياته وهما من شعراء الهند وكهنتها نظما الديوانين المذكورين باللسان السانسكريتي قبل الميلاد بقرون كثيرة وترجمها العلماء في زماننا إلى اكثر اللغات الاوربية فوجدوا اشعارها حماسية دينية . وفي الديوان الأول نحو مثنى الف بيت أو قطعة . وهما عند الهنود بمثابة ما عند اليونان من الايلياذة والاوليسية نظم هوميروس الشاعر الشهير . ولعل البستاني يتحفنا بنشر ما جناه من ادبه (١) فان هوميروس شيخ الشعراء باجمعهم . ومثل شعراء الروم الذين كانوا في القسطنطينية وما حولها من أرض الروم قبل ان يفتحها الفاتح . وشعراء الرومان السلاتينيين وشعراء الفرس وامامهم الحسن بن اسحاق الفردوسي ناظم الشهامة في القرن الرابع للهجرة . وهو عند العجم كهوميروس عند اليونان وفرجيل عند الرومان ودانتي عند الطليان وميلتون عند الانكليز . وتشتمل الشهامة على تاريخ اكاسرة الفرس وأخبارهم وقد طبعت مراراً في الفارسية وترجمت للانكليزية والفرنساوية . وترجمها نثراً للعربية الفتح بين على البنداري الاصبهاني وقدمها لخزانة احد الملوك الايوبية .

ذكر الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين » « ان الفارسي سئل قيل له ما البلاغة فقال معرفة الفصل من الوصل (٢) وسئل اليوناني عنها فقال تصحيح الاقسام واختيار الكلام وسئل الرومي عنها فقال حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة .

(١) ان الايلياذة نظم سليمان الخندي البستاني صدرت مطبوعة في مطبعة الهلال سنة ١٩٠٤

(٢) الوصل عطف بعض الحمل على بعض والفصل تركه

وسئل الهندي عنها فقال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة وقال مرة التماس حسن الموقع والمعرفة بساحات القول » .

وفي الأمم الأوروبية والأميركية اليوم شعراء أعلى طبقة وابلغ كلاماً ممن تقدمهم من شعراء الأمم السالفة . ومما يزين الشعر في جميع اللغات على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن . والشعر الفرنسي تنى اعاريضه على عدد الهجاء فالبحر الاسكندري (الكساندري) على اثني عشر هجاء في الأصل . والروي أي القافية - وهو الحرف الأخير من كل بيت - موجود في لسان العرب وفي السن غيرهم . ولكن الفرنسيين قبل اختلاطهم بعرب الاندلس لم يكن لا شعاعهم روي ولا قواف فآخذوا عن جيرانهم الاندلسيين علم القوافي كما سيجيء تفصيله . فقبل الشروع في بيان الطريقة التي سلكها فيكتور هوغو في علم الأدب وشرح أساليبه في النظم والنثر وفي تصوير القصص والروايات نذكر شيئاً من احبار العرب ليتبين لنا التأثير الذي أثره ادبهم على أشعار الافرنج وقوافيهم بوجه العموم وعلى فيكتور هوغو بوجه الخصوص . لان هذا الشاعر الحكيم نفح بنفحة من النفس الاندلسي واغتذى بلبان من ارتضع قديماً ندي الادب العربي . وبيان ذلك ان مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوغو دخلت في حوزة الاسلام حينما قطع أهله حبال البيرينه واغاروا على مملكة اكيثانيا وليون وفتحوا ما في شهاها من المدن مثل ماقون وديجون . ثم دخلت بيزانسون في طاعة شارل كان صاحب الوقائع الشهيرة مع فرانسوا الأول ملك الفرنسيين ومع تعاذه وحاميه السلطان سليمان القانوني وذلك في القرن السادس عشر للميلاد . فنقل الامبراطور شارل كان عائلات كثيرة من الاسبان وانزلهم بيزانسون فاستمروا زمناً طويلاً وامتزجوا باهلها ولم يزل لاهل بيزانسون شبه بالاسبان في ملامح الوجوه وفي اللهجة وفي كثير من الكلمات والتعابير مع ان مدينتهم لا تبعد عن باريس اكثر من أربع مئة كيلومتر . وقد أشار فيكتور هوغو إلى ذلك في القصيدة الأولى من ديوان اوراق الخريف ووصف بيزانسون بالمدينة القديمة الاسابية فذهبت مثلاً . وصار الكتاب لا يفتر عن وصفها بهذا الوصف . وعلاقة الاسبان بالعرب وباللسان العربي معلومة لا تحتاج إلى ايصاح .

أما العرب فلو نظرنا إلى تاريخ ادبهم لوجدنا في مقدمته اشعار الحماسة كما نجد ذلك عند بقية الأمم كالفرنساويين مثلاً فان النظم في لسان ادبهم دُونَ قبل النشر . لأن النظم يحصل التأنيق في تأليفه والعناية في جمعه فيضم اطراف الكلام وحواشيه ويكون في بادىء الأمر أبلغ مما عاصره من النشر فيحفظ في الصدور ويتداول على اللسان . ثم تزيد العناية به فيدون بالنقش أو الكتابة ويعلق على الجدران . وهذا معنى قولهم النظم في تاريخ الأدب سابق للنشر . وإلا فاول ما يبدأ من الكلام بالنثر لقرب تناوله وسهولة استعماله . ذكر الباقلاني في اعجاز القرآن المطبوع في مصر أن العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر وكان عشورهم عليه في الأصل بالاتفاق غير مقصود اليه . فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الاسماع تألفه والنفوس تقبله تتبعوه وتعلموا وتكلفوا له . فنبغ فيهم الشعراء واقبل الناس رجالاً ونساءً على حفظ أشعارهم ورواية أخبارهم والتفاخر بانشاد القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة والاستشهاد بكل بيت من ابياتها عند الحاجة . فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم واخبارهم وحكمهم وشاهد صوابهم وخطئهم وانزلوا الشاعر البليغ منزلة الامام العالم الذي يهتدي بنبراس قريحته ويفزع لرأيه في مشاكل الاقضية ومعضلات الامور . فكانت كلمة الشاعر هي الكلمة العليا وقوله امضى من السيف واحدٌ من السنان وحكمه نافذ كحكم الشرع في القضاء . وربما رفع الشاعر بالبيت الواحد عز القبيلة أو هدمه . كما وقع لشاعر قبيلة انف الناقة بعد ان كان اسمها مجلبة للعربيين القبائل . وكان السجع من الكلام يجري على السنة الكهان والحكماء والعرفان واهل الزجر (١) والفال وأنواع الحكم والطب مثل شق وسطيح وحنظلة بن صفوان كاهن حمير وخالد بن سنان العبسي الذي قالت ابنته حينما سمعت قراءة « قل هو الله أحد » كان ابي يقرأ مثل هذا . وامية بن ابي الصلت الثقفي وكان افتتاح كلامه « باسمك

(١) وهم صنف من المتكلمين بالعيب يزحرون انفسهم في مسموع او مرثي كسنوح طائر او حيوان يفكرون فيه بعد

مغيبه .

اللهم « وقس بن ساعدة ورياح بن عجلة عراف اليمامة والابلق الاسدي عراف نجد وغيرهم .

غير ان تاريخ ادب العرب قبل الاسلام لم يزل في حيز الخفاء لعدم تمكن العلماء من درس اللغات أو اللهجات العربية السابقة على لغة مضر كلغة حمير مثلاً فإنه لم يشتهر عندنا من قواعدها اكثر من حديث « أمن امبر امصيام في امسفر » حيث استعمل فيه (أم) عوضاً عن (ال) التعريف . ولا يكشف الغطاء عن هذا القسم من تاريخ الأدب الا بعد استخراج ما في أرض اليمن من اللوح التي تدعى بالمسند الحميري وما في خرائب مدائن صالح وأرض الحيرة وسائر جزيرة العرب من الآثار القديمة العادية التي كان لاصحابها نصيب من الحضارة وكان لادبهم تأثير على ادب مضر . وقد تفرغ نخبة من مستشقي الافرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية . ولعل التشبث باتمام السكة الحديدية الحجازية يسهل لهم هذا البحث . فمن عرفت من اولئك المستشرقين ادوارد غلازر من الالمانيين وكان اطلعني ونحن في الاستانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء به من ارض اليمن . والمسند لوح من الحجر عليه كتابة باحرف مقطعة قائمة الزوايا وبعضها مدور كالدائرة . وحدثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب وهويتكلم العربية بلهجة يمانية بدوية . وفي سنة ١٨٩٥ نشر في مونخ كتاباً بالالمانية عن مأرب وحمير والخبشة ثم نشر كتاباً آخر في برلين وقدمه لمؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ . ولما اتيت هذه المدينة حضرت الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون وهويلقي دروسه في اللغة الحميرية ويفسر المسندات ويترجمها للفرنساوية وله رسالة ترجم فيها ما في متحف اللوفر من آثار حمير وسبأ . ومن المشتغلين باللسان الحميري هالبفي الفرنسي مدرس اللغة الحبشية في الصوربون . وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع أهل سبأ على اهل حمير النازلين في شرقي حضرموت .

وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في انكلترا وايطاليا أيضاً لاهتمام الاولى بجمع ما يتعلق بالعالم الاسلامي والعربي ولناسبة بين الثانية وبين الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير . الا ان هذا العلم لم يزل في النشأة الأولى محتاجاً للتدقيق والتمحيص حتى يتيسر للعلماء أن يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان

المضري . فان ابن خلدون يقول في مقدمته « ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اليوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد - وهي التي بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد - وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته . تشهد بذلك الانتقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على انها لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وفوانيتها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري انه من القول وكثير من اشاء هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر . الا ان العناية بلسان مضر من أجل الشريعة اي القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء . ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بامور اخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تحصرها وعالها تكون في اخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر » .

فأخذ ذلك المستشرقون من الآرنيم واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العامي واستقراء احكامه كما فعل موسيو هوداس انترنساوي في لغة الجزائر العربية ونشر فيها كتاباً ولم يرل يدرسها في مدرسة اللسان الشرقية في باريس كما تدرس أيضاً في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها . ولهم في ذلك مآرب سياسية لا نخوض فيها . الا ان تدوين اللغات العامة - بالنظر إلى انتشار العلم وتوسع الحضارة - له محاذير كثيرة وموجب للنفرة ونصب الحواجز بين امم هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي إلى بلاد العجم والمهد . والعلماء في عصرنا يجتهدون في ازالة المواع التي استلزمها تباين اللغات بين الأمم ويسعون في ايجاد لغة عامة لعموم بني البشري في جميع افراد الانسان على لسان واحد . فكيف يجوز حينئذ تفريق لسان امّة كبيرة على السنة همجية عامية ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر وتونس مصر وسوريا وبغداد والموصل والهند واندونيسيا ثم لمراكش وغيرها من المتكلمين بلسان حريّة العرب وتدوين كل واحد من هذه اللسان التي يراد وضعها كما تدون اللسان العامة المهمة مثل لسان حوصه وغيره من لغات أفريقية .

وإنما نجد اللغة الفرنسية على ما فيها من التنايس بين ما يتكلمه سكان المدن وما يتكلمه أهل القرى وعدم فهم الباريري الس الباتوا التي يتكلمها القطر في جبال البرينه واقيرنيه وفي الايالات العربية والجنوبية من أراضي فرنسا لم يعيروا فيها تدوين لغة الايالة بروفانس أو بريطانيا مثلاً ولا سمحوا بإنشاء جريدة فيها .

وانتهى بهم التعصب إلى محوما كتب بلسان الباسك وهم سكان جبال البرينه من جهة المحيط مع ان المتكلمين بها يفتخرون بتقديمهم على سائر الامم الاوروبية فكيف يصوغ إذا تدوين لغة الجزائر ؟ واهلها لا يتعذر عليهم فهم (قفا نك من ذكرى حبيب ومنزل) لاستعمالهم مواد هذه الكلمات الاصلية من وقوف وبكاء وذكر وحب ونزول ، وإذا لم يفهموا ما بعد ذلك فالحقصور ناشيء من الجهل بالجغرافية لا باصل اللغة التي لم يزل لهم باصولها وموادها ملكة راسخة . فان سقط اللوى ، والدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة المذكورة في قول امرىء القيس :

قفا بك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال هي اماكن معروفة عند اهل الحجاز كما ان مقرة ومقطع الحديد من الاماكن المعروفة عند اهل الجزائر لشهرتها باستخراج معدن الحديد . فبدلاً من تدوين لغة الجزائر العامية كما دوت لغة حوصه ومن نشر المؤلفات والمطبوعات فيها والاجبار على تعليمها في المدارس للأطفال - لوسعى اهل العلم وارباب القلم في التقرب من لغة مضر المدونة وازالوا منها (العامية) كما ازيلت (الباتوا) من اللغة الفرنسية وهذبوها من الجاسات والتشابه الغامضة واختاروا فيها السهل من الالفاظ والتراكيب واصلحوا املاءها وكتابة اسماء الاعلام فيها لكان فعلهم على ما نظن اسهل وانجح من تدوين لسان عامي بل السن همجية واقامة الحواجز بين المتكلمين بها . مع ان ازدياد وسائل النقل والمخابرة يستدعي كثرة اختلاطهم بعضهم ببعض . وعما قريب سيتم مد الخطوط الحديدي ويصبح السفر من مراكش إلى بغداد والهند أو الى الحجاز أسهل مما كان قديماً بين مصر القاهرة والاسكندرية . فلا يحتاج المسافر إلى استصحاب كتاب « حامع اللغات » ليعلم منه السن الجزائر وتونس وطرابلس ومصر وفلسطين وسوريا وبعدها والحجاز . أما انتشار المطبوعات العربية فهو آخذ بالتزقي ونجد لمطبوعات مصر رواجاً في تونس والجزائر ولا بد ان تمتد يوماً على عموم سكان القارة الافريقية .

أما لغة مضر فبدون ان نقف على حقيقة الادوار التي دارت عليها ولا على الاطوار التي تقلبت فيها نجدها في العصر السابق للإسلام على جانب من الفصاحة والبلاغة مشتملة على انواع التشبيه والاستعارة والبديع وأكثر حماسية وفيها من التصورات البديعة والتخيلات الشعرية واللفظ والرقعة والأدب ما يدلنا على ان اللغة لم تكن اذ ذاك في عهد الطفولة فان الفرق بين أشعار المعلقات وبين اشعار « التروبادور » الفرنسية عظيم . لما في الأخيرة من الحشونة وعدم الرقة . وإذا غازل شاعر الجاهلية فتاة الحلي حسبته أديباً من أدباء باريس . . .

ونجد للعرب قبل الإسلام انواعاً كثيرة من فنون الأدب والشعر منها القصيد والرجز والاعاني ومنها ما ينشد في الحرب على الدفوف . ومنها ما يتحدث به للعيس أو يغنى به للرقص وتسكيت الاطفال ومنها السجع والترسل والخطب والرسائل وضروب الامثال والحكم . والحاصل كانت فنون أدبهم أتقن من معيشتهم البدوية . وكان لهم مؤتمر اكاديمية للتفاخر باللسن والفصاحة . وكانوا يقيمون لذلك المواسم والاعياد فيجتمعون أولاً في سوق عكاظ وهو واد بين مكة والطائف فيه ماء وظل وخضرة فيقيمون فيه شهراً ويذهبون منه إلى سوق مجنة ثم إلى سوق ذي المجاز وهما بناحية مكة . ثم يذهبون في ذي الحجة إلى البيت الحرام ، موضع حجهم . فكان أدباؤهم وهم ذوو الرئاسة والمكانة فيهم يتنافسون بالأدب والحكم . وهذه الاسواق لانشاد الشعر واللقاء الخطب فاذا اجتمعوا بسوق عكاظ ضربت قبه لانبر الشعراء في عصره كالناتعة الذياني الذي سمي أشعر العرب فجلس في القبة وجاءته الشعراء كما جاءه حسان مثلاً وعرضوا عليه انفس أشعارهم . وقام الحارث ابن حلزة يتبخر بين الحموع الجاهلية ويقول

آذاننا بيها اسماء رب ثاوي يمل منه النواء
بعد عهد لها برقة سمراء فأدنى ديارها الحلواء
حتى يأتي عنى أحد مرءى نيتكم في مقالته أولو الذوق الصحيح والطبع
السليم ويميزون فيه بين العبد لسمير ويفالونه بغيره من كلام المعلقات . ثم وقف
قس بن ساعدة على غير أنه حمر وقال « أيها الناس اجمعوا وإذا اجتمعتم فاسمعوا
وإذا سمعتم فعدوا - إذا - عدوا - إذا - إذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات ومن مات
فات وكل ما هو آت . » . ثم قد اجتمعوا حوله فبدأ بهم في قوله

« أما بعد . . . الخ » كأنه خطيب فرنساوي بل انكليزي يخُطب في هايدبارك .
 وكان لكل شاعر مبلغ يبلغ عنه الجمهور ورواية يروي له الاشعار . فكانت
 الرواة في ايامهم كالجرائد في يومنا ولذا كانت الاشعار تنتشر وتشتهر في مدة قليلة بين
 جميع القبائل في جزيرة العرب . وانتهوا في العصر السابق للهجرة إلى المناغاة في كتابة
 قصائدهم بالذهب وتعليقها باركان الكعبة كما فعل اصحاب المعلقات السبع وهم :
 (١) امرؤ القيس واسمه جندح بن ححر الكندي وكان ابوه يملك في جهة
 الحيرة على بني اسد ويضرب المثل في شهرة معلقته فيقال « أشهر من قفا نك » وله
 غيرها ديوان مشروح ومطوع ومترجم إلى اللغات الاوربية . ويقال ان احسن ما في
 شعره وصفه الفرس (١) ولذا ضرب المثل بامرء القيس إذا ركب والناطقة اذا رهب
 وزهير اذا رغب . وقيل ان امرء القيس توفي سنة ٥٤٠ م وكان مغرماً باللهو الزهو
 والخمر والنساء وكلاهما في المعلقة منادمة ومداعبه ومدح في شعره تغلب على بكر .
 (٢) طرفة بن العبد وديوانه ترجم للفرسساوية في الصوريون وطبعه الموسوي
 سليغسون (Seligsohn) ومعلقته تبحث في النساء والخمر واللهو وطيب العيش (٣)
 عمرو بن كلثوم (٤) والحارث بن حلزة اليشكري من قبيلة بكر بن وائل وله ديوان وفي
 معلقته الحمزية وفي معلقة عمرو المذكور من بيت البسوس التي وقعت بين بكر
 وتغلب (٥) زهير بن ابي سلمى (٦) عنزة بن شداد في معانتهما ذكر حرب داحس
 التي وقعت بين عس وديان . وقصة عنتر الشهيرة المطبوعة في ديوانه ومصر ترجمها
 سابقاً للامانية المشرق النمساوي هم (Jahmar) صاحب تاريخ الدولة العثمانية
 وتاريخ الأدب العثماني وتاريخ الأدب العربي . وفي نسخة من نسخة عنتر للفرنساوية
 مارسيل ديفيك (Devic) معلم العربية في كلية بون سليه وهي من أقدم مدارس
 الافريق . وكان اطباء العرب واليهود المسيحيون يدرسون فيها الطب .
 (٧) ليبيد بن ربيعة العامري الصائلي « الأكل شيء ما خلا الله باطل » وفي
 كلامه كثير من الحكم ووصف في اشعاره احداث عمره وادوارهم وعاداتهم وله

(١) بقوله

وقد اعتدى والطير في وكنائهما بمنحرد قيد احوال هكل
 مكبر مصر مقبل مدر معاً كحلمود صم حظه السبل من على
 له يطلا ظي وساقا نعامه وارحم سرحا وسرب سمل

غير المعلقة ديوان أشعار طبع منه الجزء الأول في فينا عاصمة النمسا الشيخ يوسف ضياء الدين باتشا الخالدي المقدسي سنة ١٨٨٠ وجعل له مقدمة وشرحاً .
وظهر من فطاحل الشعراء غير من ذكر النابغة الذبياني وطبع ديوانه الاستاذ هارتويخ ديربنورغ (H. Derenbourg) سنة ١٨٦٩ وفسره وحشاه . ومنهم حاتم طي الشهير بالسخاء وقد جمع اشعاره غضبان افندي وطبعها في لوبدره وسماها ديوان حاتم طي . ومنهم دريد بن الصمة والشنفرى الازدي والاعشى الاكبر وتأبط شراً وكثير سيرهم يحكى عن حماد الراوية انه انشد بحضرة الوليد من كلام الجاهلية مئة قصيدة لكل قافية من قوافي الحروف العربية لا تنقص القصيدة عن عشرين بيتاً وفيها ما يربو على المئة بيت . فمهما بالغ الحاكى لا تنكر كثرة ما قرص من الشعر على عهد الجاهلية . ولهم غير الشعر والرجز خطب ورسائل وكثير من ضروب الامثال التي نملئ بهم ورويت في المجاميع .

يسمى كرام هذه الطبقة من الأدباء « كلام الجاهلية » لجهلهم بما جاء به الاساطير والافهم أئمة في الأدب يقتدى بهم . ولذا اتخذ من جاء بعدهم كلامهم منوالاً يسجوا عليه مثله وقالوا فرغوا فيه شبهه من الالفاظ والتراكيب . ولم يزل الادباء على ذلك إلى يومنا هذا كما فعل اصحاب « عكاظ الأدب » المطبوع في الاستانة عقب الحرب اليونانية الأخيرة . وإذا تأملنا كلام الجاهلية نجدهم وصفوا الطبيعة أحسن وصف وصوروها اكمل تصوير بالنسبة لحالتهم البدوية ولصحاريهم الرملية ودميرها بين انواع الرمل وسموا كل نوع باسم مخصوص مدر (الخفف) وهو الرمل المنخفض و(العقل) الرمل المعقد الداخلى بعصده في بعض و(البطن) من الأرض والملتصقات من الأرض كل ذلك من أشكال الأرض المختلفة . قال امرؤ القيس في

البيت

و ما شئني تجر وراءنا على اثرنا اذ سال مرط مرجل
فلما احسرت ساحرة الحي واستحي بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل
والمرط نوع من اثوابهم يقال إنه يتساقط جيل ح (هـ) ذاك الرمان . وقد
وصفوا في هذا النمط جميع ما شاهدوه في انطبعة و و في قلوبهم
ووحده في انفسهم من التأثير الحسي را و لم يتركوا شكلاً الا
م مفضلاً . فحيت كائب الفصاحة هي الافتداز على الالامة عن المعاني

الكامنة في النفوس التي كانت غاية الاديب منهم اثبات اقتداره على ايراد صور مختلفة للشيء الواحد واظهار تعمقه في معرفة اللغة وحسن تصرفه في استعمال الكلمات المترادفة المتقاربة . وكان لهم نظرجيد في العوالم والكائنات كقول قس في بعض الروايات « ليل داج وسباء ذات ابراج ونجوم تزهو وبحار تزخر وجبال مرسة وأرض مدحاة وانهار محرمة الخ » ولهم اساليب بديعة في ذكر البرق والسحاب والمطر وسائر التغيرات الجوية وكذا في ذكر الرسوم والطلل والمنازل والروض والاشجار ومنابت العشب إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ومعروف .

ولغزارتهم وتمكنهم من اللغة لم يكتسبوا يتصنعون لتأليف المحاسن البديعة في الكلام انما كانت نوابغ الكلم تتفق لهم اتفاقاً وتطرد في كلامهم اطراداً بخلاف من اتى بعدهم فانهم صنّفوا المحاسن البديعة تصنيفاً وتحرروا عليها . ومع ذلك فالبلع من الكلام لم يصدر من افواه الجاهلية الا بعد التروي والتصنع والتنقيح والتهذيب وقد تعبوا وكدوا أنفسهم وحاهدوا خواطرهم . وكان زهير يسمى كبير شعره الخوليات المنقحة .

وقال عدي بن الرقاع :

وقصيدة قدت اجمع بيتها حتى اقيم ميلها وسادد .
نظر المنقف في كعوب قاته حتى يقيم ثقافتها ومادها
وقال سويد كراع :

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش برعا
وسموا زهير والخطيئة واشباههما عبيد الشعر لأنهم بقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب
المطبوعين . قال الباقلاني « وكانت العرب تعلم اولادها قول الشعر بوضع غير معصوم
يوضع على بعض وران شعر كانه على وزن (قفه) من ذكرى حبيب ومبرل ،
ويسمون ذلك . انوسع المير واشتقاقه من المتر وهذا الحد او القطع يقال مترت حتى
بمعنى قطعتة او حدبته » . والترساويون يسمون العروض ميتر وميتر بك ويقولون
انه مشتق من معنى القياس نايونية وله دررس مخصوصة واساتذة في الصوروب
والف في العروض العربي المستشرق استاذنا كثيرا معلم العربية في كلية مرسة
عدة رسائل واستطاع فيه قواعد جديدة نال عليها الخائره وتاء العموم . وعمر العبد
عن قول الشاعر طمعه بالقبح ، ، ، ، ، . ومعنى القرض ان يقرض

الشعر مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة . وكانت عنايتهم في الجاهلية مصروفة للكلام على المنظوم من شعور وسجع لان تأثيره في النفوس اشد لما يحدثه من النغمة التي تطرب لها الأذن وتلهو بها عن تمحيص الحق من الباطل في الكلام . وذلك ان الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم أي المسبوك تنقسم إلى اعراض الشعر على اختلاف انواعه . ثم الى انواع الكلام الموزون غير المقفى . ثم إلى اصناف الكلام المعدل المسجع . ثم الى معدل موزون غير مسجع . ثم الى ما يرسل ارسالاً وتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعاني على وجه بديع وترتيب لطيف . وهذا القسم الأخير شبيه بالكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . بخلاف القصيد من الشعر فانه يلتزم فيه قافية واحدة إلى آخر الكلام ويشترط ان يكون كل بيت كلاماً وحده مستقلاً عما قبله وما بعده وإذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح أو غزل أو رثاء أو هجاء أو حماسة . والرجز ضرب من الشعر ولولم يلتزم فيه أن يكون على قافية واحدة . والسجع يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ويذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء . والمقفى قد انتصر له في زماننا عبد الحق حامد بك مستشار السفارة العثمانية في لوندرة والف فيه رواية اللسان التركي على الطرز الجديد . وأما المرسل فهو الذي يرسل فيه الكلام ارسالاً بدون تقييد بقافية أو سجع أو وزن أو شيء ما بل يطلق اطلاقاً . ويتأتى في هذا القسم من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في السجع ولا في الشعر لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع أو القافية وكذلك الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على قواعده . ومن يلتزم في كلامه السجع أو الوزن أو القافية فهو يلقق بهما ما ينقصه من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال ويجره بذلك القدر من التزيين بالاسجاع ورن الصوت بالوزن والنغمة كما يرينه ببغية الصنائع البديعة ويغفل عما سوى ذلك من بلاغة المعاني فلما سلك الشعراء في الجاهلية على حفظ الالفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها عرض بهم القرآن الكريم فقال « والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون » قال الباقلاني « فاخر انهم يتبعون القول حيث توجه هم واللفظ كيف اطاعهم والمعاني كيف تتبع المظاهر وذلك خلاف ما وضع عليه الاساة عن المقاصد بالخطاب » ولما شرعت دية الحين جاء بعض العرب إلى النبي عليه السلام وكامه

في هذا الشأن ولفقوا كلامهم بالسجع ليجعلوا فيه قوة الحجة الدافعة والبرهان القاطع فقالوا :

- كيف ندي من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل اليس دمه قد بطل .
- فقال : - اسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ اسجاعة كسجع الكهان ؟
نعم ان الشعر اذا تهذب ووفي له بجميع الاسباب لم يقاربه من كلام الادميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب . ولكن قلما يفلح الشاعر المحيد الا في بعض الابيات لاسباب في الشعر العربي حيث ضيعة فيه النطاق على الشعراء والزمو باتباع القواعد التي تخطاها شعراء الافرنج . على أن اكثر فحول الادب في البلاد المتعدنة صارفون عنايتهم في يومنا الى النشر المرسل دون النظم كما فعل فيكتور هوكون في آخر عمره وكما يفعل اليوم اميل زولا وغيره مثل تولستوي اديب الروس .

٤

ثم ظهر الاسلام وجاء القرآن بافصح لفظ وأبلغ معنى على اسلوب جديد يخالف اساليب العرب في النظم والشرفلا هو مرسل ولا مسجع بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطيع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها . ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى من غير التزام حرف يكون سجعاً أو قافية . وسميت آخر الآيات فواصل لانها ليست اسجاعاً ولا التزام فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف ووقع اللفظ في القرآن تابعاً للمعنى ولذا فاق كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والفصيد وغير ذلك من انواع بلاغتهم . لان الواحد منهم ان برع في فن من فنون النظم او النثر قصر فيما دونه والقرآن أبدع في جميع ضروب الكلام وطرق الافادة واستعمل على قصص واخبار وشرائع واحكام ووعد ووعيد وترهيب وترغيب وتنزيه وتحميد وحجج على التوحيد وامثال سائرة ومواعظ زاجرة وأصول ادارية وسياسية وغير ذلك مما لم يحط بنصفه بل ولا بربعه اديب من الادباء ولا شاعر من الشعراء وباصل عن الحرية وخفف اذى العبودية وندد بالظلمة وتوعدهم بما تقشعر منه جلود الذين يحدون ربه . فقال في الوعيد « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » و« تبداد المستبد من الملك والسلطين وكيفية ايقاعهم التفرقة بين رعاياهم ثم يصاد الجور والأذى اليهم

فرقة بعد اخرى كما كانت سياسة فراعنة مصر ونهارة بابل وقياصرة الرومان والروم
واكاسرة الفرنس فقال في تصوير هذا الاستبداد :

« ان فرعون علا في الأرض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح
ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمنّ على الذين
استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري
فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

قال الباقلاني (١) : « ذكر العلوي في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي
النساء واذا تحكم في هذين الامرين فما ظنك بما دونها لان النفوس لا تطمئن على هذا
الظلم والقلوب لا تقر على هذا الجور . ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد وكفت
في التظلم وردت آخر الكلام على أوله وعطفت عجزه على صدره . ثم ذكر وعده
تخليصهم وجعلهم مستقلين بأمرهم وارثين لارضهم » ومما ورد في القرآن الكريم في
السياسة والمناسبات الدولية التي كانت بين مملكة فلسطين وعاصمتها اذ ذاك اورشليم
وبين مملكة سبأ وعاصمتها مأرب وما كتب به سليمان بن داود عليها السلام إلى
بلقيس وما اشتغلت به من التدبير والمشورة واستطلاع عواقب الامور وارسال الهدية
لفك عراقيل السياسة بالوسائط الدبلوماسية إلى غير ذلك، ما نصه : (١)

قال - اذهب بكتابي هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون .
قالت - يا ايها الملأ اني القي اليّ كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن
الرحيم إلّا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين .

قالت - يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون
قالوا - نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين .
قالت - ان الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك
يفعلون . واني مرسله اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان .
قال - اتمدوني بما آتاني الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون .
ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون - إلى
اخر القصة - وترى فيها مجيء اهل سبأ مسلمين إلى اورشليم والاحتفال

(١) إعجاز القرآن .

(١) سورة النمل والذي قال هو سليمان عليه السلام وقالت هي بلقيس وقالوا هم رجال دولتها واعيان بلادها

باستقبالهم . واراتهم عز الملك وارتقاء الصنائع وما اتى به الذي عنده علم من الكتاب من عرش للكتهم حتى قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو . واصطناعهم لها صرحاً يذكرنا قصر الزجاج الذي أنشئ في معرض باريس الأخير . وقيل لها ادخلي الصرح فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال انه صرح ممد من قوارير قال الباقلاني - وهو القاضي أبو محمد بن الطيب الأشعري المعروف بابن الباقلاني وكان ملك الاسلام في بغداد عضد الدولة من آل بويه ارسله سنة ٣٧١ هـ سفيراً إلى قيصر الروم في القسطنطينية وهو قسطنطين التاسع من سلالة مكدونيا وكانت السفارة في جواب رسالة وردت عليه منه - قال : « متى تهيأ للأدبي ان يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية » ألاّ تعلوا عليّ وأتوي مسلمين » . والخلوص من ذلك إلى ما صارت اليه بلقيس من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة . ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها « يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امرأ حتى تشهدون » وذكر قولهم « قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » لا تجد في صفتهم انفسهم ابداع مما وصفهم به وقوله « الأمر اليك » تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاهه في هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله « فانظري ماذا تأمرين » ثم إلى هذا الاقتصار وإلى البيان مع الایجاز فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والایجاز وهذا ما يزيده الاختصار بسطاً لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الایجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه . وكم جئت إلى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ثم لوقع على الافهام . . . فما يجب فيه من شروط الاحكام كله أو بمعاني القصة وما تقتضي من الاعظام . ثم لوظفرت بذلك كله رأيته ناقصاً في وجه الحكمة . أو مدخلاً في باب السياسة . أو مصفوفاً في طريق السيادة . أو مشترك العبارات ان كان مستجود المعنى . أو جيد البلاغة مستجلب المعنى أو مستجلب البلاغة جيد المعنى أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة . أو مستبهم الجانب مستكره الوضع . وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك الا ما اذا بسط افاد وإذا اختصر كمل في بابه وجاد وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره وبعث العليم في اطرافه عيون مباحثه لم يقع إلا على

محاسن تتوالى وبدائع تترى . ثم فكر بعد ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله « أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره وكالياقوت يتلألأ بين شذوره . ثم تأمل تمكن الفاصلة وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها . وان شرحت لك ما في كل آية طال عليك الامر ولكن بينت بها فسررت وقررت بها فصلت الوجه الذي سلكت فيه والنحو الذي قصدت والغرض الذي اليه رميت والسمت الذي اليه دعوت . ثم فكر بعد ذلك في شيء ادلك عليه وهو تعادل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة فاجل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والبوادي والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ثم اقض ما انت قاض . وان طال عليك تأمل الجميع فاقصر على سورة واحدة أو على بعض سور . ما رأيك في قوله « أن فرعون علا في الأرض . وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات سنأوها وضياؤها على ما ترى . وسلاستها وماؤها على ما تشاهد . ورونقها على ما تعاین . وفصاحتها على ما تعرف . وهي تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلوي الأرض الخ » .

ومن ذلك يعلم اقتدار هذا السفير الكبير في « الانتقاد الأدبي » (١) الذي له المقام الأسمى بين علوم الأدب . وللافرنج فيه عناية زائدة وجرائدهم تنسرفيه المقالات الضافية . ولجريدة الطان محرر ماهر في « الانتقاد الأدبي » وهو « غاستون ديشان » وإذا امعنا النظر في القرآن الكريم نجده مملوءاً بالمحاسن والبلاغة ولكننا نتلوه في الغالب تلاوة تعبد بدون نظر في حقائق معانيه وتاريخه . والا تأمل قوله « لهم مالنا وعليهم ما علينا » تجد في هاتين الكلمتين من البلاغة والفصاحة ما لم يأت بمثله غابرييل هاسوتو على ما هو عليه من الاقتدار في الأدب والعلم والسياسة والحرية الفرنسية . وما ادراك ما الحرية الفرنسية - هي الحرية التي انقذت امماً كثيرة من الظلم الاستبداد . وجل ما اتى به في الخطبة التي خطبها أخيراً في الجزائر عن سياسة الاستعمار في افريقية وعما يجب على الدولة المتقدمة في جانب اهلها المسلمين

(1) critique litteraires

« يجب لهم علينا الأمن ، يجب لهم علينا العدل ، يجب لهم علينا كذلك التساهل » أي بالدين . وقد نشر ملخص هذه الخطبة في جريدة طرابلس الشام . فقابل بين تينك الكلمتين وبين هذه الكلمات الثلاث وحكم ضميرك الخزان كنت من الاحرار واحكم بعد ذلك بما شئت . لو قرأنا القرآن وفهمناه كما ينبغي لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد وميلاً زائداً للعدل والحرية . ولقد رفع الاستبداد بسببه يوماً ولكن الأمم الاسيوية والافريقية أبت الخروج من تحت نير العبودية . أو كما عبر أحد الافاضل بقوله « لما ساد عليهم الجهل ولم يستطيعوا ان يصعدوا إلى القرآن بعقولهم انزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستر واحد » .

٥

وبظهور الاسلام ظهرت طبقة جديدة من الادباء قيل لهم اهل الطبقة الاسلامية وهم الذين كانوا في صدر الاسلام وایام الدولة الاموية التي امتدت إلى سنة ١٣٢هـ وفي اوائل الدولة العباسية وسمي المتأخرون منهم شعراء الدولتين الاموية والعباسية ولخص حسام بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم الطريقة المثلى في الشعر بقوله :

وانما الشعر عقل المرء يعرضه على البرية ان كيساً وان حمقاً
وان احسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقاً
وفي مقدمة هذه الطبقة عمرو بن ابي ربيعة كبير قريش وكان له في الشعر مقامات عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به . ومنهم الخطيئة العبسي المشهور في الهجاء وحكم عليه بقطع اللسان في خلافة عمر (رضه) ثم عفا عنه . وكان جرير والفرزدق والأخطل من اعظم شعراء الدولة الاموية وحصل بينهم محاورات ومهاجاة وكان لكل منهم فرقة من الناس تفضل شعره وتطرب لقوله وتتنصر لرأيه وكثيراً ما كان يفضي بينهم الجدل على تفضيل الشعر إلى القتال . والمشهور بين الأدباء ان جرير مرجح على الفرزدق في اكثر انواع الشعر وعلى الأخطل في جميع انواعه . وكان الفرزدق والأخطل متفقين على هجاء جرير ومعاداته واستخرج المستشرق بوشه من مكتبة جامع ايا صوفيا بالاسطانة ديوان الفرزدق وطبعه وحشاه وترجمه للفرنساوية وحرر شيئاً عن عروة بن الورد أيضاً .

ومن عاصر الفرزدق غيلان ذي الرمة الثقفي صاحب مي بنت مقاتل . ومن هذه الطبقة نصيب وبشار المتوفى سنة ١٦٧هـ وهو القائل «والاذن تعشق قبل العين أحياناً» وكثير غيرهم ويجمع كلامهم كتاب الاغانى الذي الفه ابو الفرج الاصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦هـ . وكان من نسل مروان الحمار آخر ملوك بني أمية وكتابه هذا مطبوع في بولاق . ومختصره أي رواياته مطبوع في بيروت . ومن اشتهر بالثر وكتابة الرسائل عبد الحميد الكاتب وكان كاتباً لمروان الحمار فمات منكوباً حينما انقرضت الدولة الاموية . وجمعت رسائله في كتاب .

فأهل هذه الطبقة وان نسجوا على منوال شعر الجاهلية فكلامهم اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهلية في منظومهم ومنشورهم وخطبهم وترسلهم ومحاوراتهم للملوك . والسبب في ذلك حصول الانقلاب في الأمة وتأسيس الملك والدولة وتوسع حدود المملكة بالفتوحات واختلاط الاقوام بعضها ببعض فانتسخت بذلك دائرة العقول ونهضت طباع اهل الطبقة الاسلامية وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من انفتاح الذهن وتوسع دائرة الفكر وبما سمعوه من الكلام العالي الطبقة في القرآن والحديث .

٦

ثم حصل انقلاب كبير في الأمة وقامت الدولة العباسية مقام الدولة الاموية وترجمت كتب العلم والحكمة عن خمس لغات اعجمية وهي :

(١) الفارسية او البهلوية

(٢) الهندية او السنسكريية

(٣) السريانية

(٤) العبرانية وسمي المترجم عنها بالاسرائيليات

(٥) اليونانية

وعكف اهل العلم والفضل على النظر في هذه الكتب ونقلوا للعربية شيئاً قليلاً من أدب اللغات الاعجمية وكان في مقدمة الناقلين ابن المقفع (١٠٩ - ١٤٥هـ) واسمه عبد الله بن داذه وأصله من مجوس الفرس أسلم ودخل في خدمة عيسى ابن

علي عم السفاح اول الخلفاء العباسيين . وأشتهر ابن المقفع بالفصاحة والبلاغة حتى قيل بانه ألف كتاباً يعارض فيه القرآن كما فعل المتنبي . قال الباقلاني : فليس له كتاب يدعي مدح انه عارض فيه القرآن بل يزعمون انه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحى لنفسه من اظهاره . . الخ . ثم ذكر له الدرة اليتيمة وقال انها كتابان احدهما يتضمن حكماً منقولة عن كتاب بزرجمهر في الحكمة والآخر في شيء من الديانات وقد تهوس فيه بما لا يخفى .

على ان الكتاب المشهور لابن المقفع هو كتاب كلیلة ودمنة المطبوع في بيروت وهو قصة ادبية فلسفية سياسية أول من وضعها أحد ادباء الهند وفلاسفتها ويدعى بيدبا أو بيدبائي وحررها باللغة الهندية فترجمت عنها إلى اللغة البهلوية على عهد انوشروان ثم جاء ابن المقفع وترجمها للعربية نثراً . ثم ظهر على عهد هارون الرشيد ابان بن عبد الحميد من شعراء العرب وانتسب للبرامكة وغمر بانعامهم ونظم لهم كتاب كلیلة ودمنة فقال بعد المقدمة :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كلیله دمنه فيه احتمالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند وكان لابان نظر جيد في العلم والحكمة ونظم قصيدة فلسفية في مبدأ العالم نسبت لابي العتاهية . وكان ابونواس يأنف من معاشرته لان كلامه كلام فلاسفة وحكماء لا كلام شاعر اديب متخصص بعلم الأدب . واسترحم ابان بن عبد الحميد يوماً من يحيى بن خالد البرمكي بادخاله على الرشيد وعرض اشعاره عليه فاشار عليه يحيى بنظم قصيدته السياسية التي قال فيها :

نشدت بحق الله من كان مسلماً اعم بما قد قتلته العجم والعرب
اعم رسول الله أقرب زلفة لديه ام ابن العم في رتبة النسب
وأيهما أولى به وبعهدده ومن ذا له حق التراث بما وجب
فان كان عباس احق بترككم وكان علي بعد ذاك على سبب
فابناء عباس هم يرثونه كما العم لابن العم في الأثر قد حجب
فلما سمعها الرشيد تهلل وجهه بالبشر وأنعم على الشاعر بعشرين ألف
درهم ، ثم ظهر سهل بن هارون الكاتب وصنف للمأمون كتاب قلة وعفرة يعارض به
كتاب كلیلة ودمنة في أبوابه وامثاله ويزيد عليه في حسن نظمه . ثم جاء ابن الهبارية

واسمه الشريف ابويعلي محمد بن محمد ونسبه يتصل بعبيد الله بن عباس رضي الله عنه . وكان ابن الهبارية من شعراء نظام الملك وزير الب ارسلان ثم انتسب لابنه ملكشاه ومدحهما بقصائد ونظم كليله ودمنة وسماه نتائج الفطنة في نظم كليله ودمنة وله كتاب آخر على هذا الأسلوب سماه الصادح والباغم ونظم فيه الفي بيت . وأشعاره سلسلة سهلة ومنها :

يقول ابو سعيد إذ رأي عفيفاً منذ عام ما شربت
على يد أي شيخ تبت قل لي فقلت على يد الافلاس تبت
توفي سنة ٥٠٤ هجرية .

وترجم غير كتاب كليله ودمنه من لغات الأعاجم أمثال لقمان الحكيم ولطائف الوزراء ولطائف الملوك وكثير من النصائح والمشورات السياسية والادارية وشيء من كتاب زرادشت وكتاب ماني - قال المسعودي في مروج الذهب « وانتشر بأيدي الناس في ذاك الوقت كتاب اصله من بلاد العجم واسمه الف ليلة وليلة غير أن حكاياته لا تشبه حكايات الكتاب المعروف بهذا الأسم المتداول بيننا » واشتهر في الكتابة والانشاء أيضا الجاحظ (١٦٥ - ٢٥٥هـ) وهو ابن عثمان الكناني الليثي البصري . له طريقة في الانشاء يقال لها طريقة الجاحظ كما ان له مذهباً في الفلسفة وقيل لاتباعه الجاحظية . وله مؤلفات كثيرة في الأدب منها كتاب البيان والتبيين وكتاب الامصار وكتاب الحيوان . وقد اختصر المؤلف هذا الكتاب الأخير ويوجد نسخة من المختصر في مكتبة اسكوريال باسبانيا وهي التي طبع فهرست كتبها المستشرق الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ . ويوجد نسخة أصلية من كتاب الحيوان في مكتبة هامبورغ . وقد سلك مسلك الجاحظ وأخذ طريقته ولم يقصر عنه ابو الفضل محمد بن العميد (توفي ٣٦٠هـ) وكان مؤدباً لعصدة الدولة ومن أعظم وزراء آل بويه وله رسائل كبيرة وأشعار وكتاب (الخلق والخلق) لم ينقحه واثنى عليه الباقلاني فقال : انه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهب الجاحظ ويكملها على شروط صنعتها ولا يقتصر على ان يأتي بالاسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعل في كتبه متى ذكر من كلامه سطراً اتبعه من كلام الناس اوراقاً وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً . وكان ابن عباد وزير فخر الدولة يصحب ابا الفضل ابن العميد ولذا قيل له الصاحب ابن عباد .

ومن اشتهر من الشعراء أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (١٩٠ - ٢٣١هـ) وهو مبال للتصنع والتكلف والتعويض في المعاني . وأحسن ما ألفه كتاب الحماسة وهو مختار من كلام الشعراء المتقدمين . ومطبوع وله أيضاً كتاب فحول الشعراء وكتاب الاختيارات . ومنهم ابونواس (توفي ١٩٥هـ) وله سبك جيد وحلاوة ورقة . ومنهم ابن الرومي وابن المعتز وأشعرهم البحري (٢٠٤ - ٢٨٤هـ) وفضله الباقلاني على جميع اهل عصره لبهجة كلامه وبديع رونقه وديباجة شعره وكثرة مائه . وقال المعري : أبو تمام والمتنبي من الحكماء واما الشاعر فهو البحري . قالوا والبحري يغير على أبي تمام اغارة ويأخذ منه صريحاً وإشارة ويستأنس بالأخذ منه بخلاف ما يستأنس بالأخذ من غيره وقد طبعت الموازنة بينهما في مطبعة الجوائب . وكان الخلفاء والرؤساء يشوقون شعراء الطبقة الاسلامية ويحيزونهم بأعظم الجوائز كما يفعل في يومنا الا فرنج ولو كان فعلهم مقيداً بالقواعد والنظامات . فان الاكاديميات تحكم في كل سنة بتوزيع الجوائز النقدية التي تقرر صرفها نظارة المعارف أو يتبرع بها أصحاب الخير ومحبو العلم من ذوي الثروة . فهذا الامر شائع بينهم وله دائماً ذكر في جرائدهم . وكان للخلفاء معرفة بفنون الأدب وتبصر بجيد الكلام ورديته ويحفظون اشعاراً كثيرة ويعانون النظم والنثر لتقوى ملكتهم في اللغة حتى إذا رقوا منابر الخطابة أو تكلموا في صدور المحافل تمكنوا من استمالة الناس اليهم وألفوا بين قلوبهم كما يفعل ملوك الا فرنج في زماننا ولا سيما خطيبهم الشهير امبراطور المانيا فانه من ابلغ الخطباء في الملوك . وهكذا كان الخلفاء يستجلبون القلوب ببليغ الكلام لا بحد الحسام . وظهر في ذوى الرياسة فحول من الادباء مثل ابن الخليفة العباسي المعتز بالله بن المتوكل واشتهر بابن المعتز (٢٤٧ - ٢٩٦هـ) وتولى الخلافة يوماً واحداً وقتل وهو افضل شعراء بني هاشم . ومثل ابي فراس الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة من آل حمدان المتتبعين لبني تغلب من قبائل العرب وامتدت حكومة آل حمدان في حلب والموصل نحو ٦٠ سنة .

ومن شعر ابي فراس الحمداني قوله :

نطق بفضلي وامتدحت عشيرتي وما أنا مداح وما أنا شاعر
وطبع ديوانه في بيروت وكان المتنبي يفضل على نفسه .
ومن اشتهر في الأدب ابوبكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني وكلاهما من

ادباء القرن الرابع للهجرة ونشرت الجوائب رسائلها . ونسج الحريري على منوال الهمذاني في تأليف مقاماته المشهورة ولم تزل تدرس في الصوريون وقد شرحها شيخ المستشرقين في فرانسوا سيلفيستر دوساسي . وينتقد عليها ادباء الافرنج من جهة قصر المقامات وعدم اعتناء المؤلف في تصوير الحكايات وتشخيصها على نسق ما الفه الافرنج او اليونان قديماً وانما صرف الحريري عنايته إلى سبك الالفاظ . وتصنيعها وكانت ولادته في البصرة ثم نفي إلى مشان بقرب البصرة (٤٤٦ - ٥١٥ هـ) .

ومن المعلوم ان ايراد خلاصة تاريخ ادب اللسان العربي وذكر المشاهير من الادباء وتعيين طبقاتهم ليس بالامر السهل . ولذا نكتفي بالاشارة إلى بعض من دون أخبار الشعراء . فمنهم ابن قتيبة المروزي (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) صاحب « أدب الكاتب » وله « ديوان الكتاب » و« طبقات الشعراء » وغير ذلك . ومنهم المبرد الأزدي (٢١٠ - ٢٨٦ هـ) وله كتاب « الكامل » و« المتقضب » و« الروضة » . ومنهم ابن المنجم (٢٤١ - ٣٠٠ هـ) وكان ابوه من كتاب المأمون ومن نسل يزدجرد آخر ملوك فارس فألف هو في تاريخ الأدب كتاب « الباهر » أو « البارع في أخبار الشعراء » . ثم جاء ابو منصور الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) وهو عربي النسب نيسابوري المولد وكان يحترف بعمل فراء الثعالب فوضع للكتاب المذكور ذيلًا في ٤ مجلدات سماه « يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر » وجمع فيه أخبار شعراء زمانه ونواديرهم وأشعارهم . ثم جاء ابو الحسن على الباخري نسبة لباخري ناحية بالقرب من نيسابور بخراسان وكان من ذوي المراتب العالية وأهل الديوان وتوفي مقتولاً سنة ٤٦٧ هـ فحرر ذيلًا لتيمة الثعالبي سماه دمية القصر وعصرة اهل العصر ومنه نسخة في الاستانة . وزاد عليه ابو الحسن ابن زيد البيهقي - ويهق ناحية بالقرب من نيسابور أيضاً - ذيلًا سماه وشاح الدمية ثم جاء عماد الدين الكاتب الاصفهاني (٥١٩ - ٥٩٧ هـ) وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي وألف كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ومنه نسخة في الاستانة وأخرى في باريس وفيه تراجم الشعراء وأشعارهم من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٧٢ هـ وألف أيضاً كتاب السيل على الذيل وجعله ذيلًا لخريدة القصر . ثم جاء الوراق وهو ابو المعالي سعد بن علي الانصاري المتوفى سنة ٥٦٨ هـ وذيل ما تقدم بكتابه زينة الدهر وعصرة اهل العصر

فهذه المدونات من أهم الاجزاء في تاريخ الأدب العربي ويمكن اتمامها باخسار

ما يروق من مؤلفات ابي شامة (٥٩٦-٦٦٥هـ) وابوه المقدسي . نشأ هوفي مصر وكتابه « كتاب الورضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية » يدرس في الصوريون وطبع في مصر . ومن مؤلفات الكاتب الدمشقي (٧٠٠-٧٥٩هـ) وكتابه مسالك الابصار في الممالك والابصار لا يقتصر على التاريخ والجغرافيا بل فيه كثير من التراجم أيضاً ومجلداته نحو ثلاثين وقيل اربعين وهو مرقم في كتبخانة أيا صوفيا في الاستانة من عدد ٣٤١٥ إلى ٣٤٣٩ ومنه نسخة في مكتبة باريس الأهلية والهمم جارية في طبعه . ولما كنت في الصيف الماضي بالاستانة شاهدت في كتبخانة الكورييلي أحد المستشرقين من الانكليزيستنسح بآلة التصوير الشمسي كتاباً كبير الحجم حسن الخط ليس فيه من التراجم الا حرف العين فسألت فاذا هو « ارشاد الالباء في معرفة الادباء » تأليف ياقوت الحموي الرومي (٥٧٤-٦٢٦هـ) صاحب « معجم البلدان » الذي طبعه المستشرق ووستنفلد في ليزيك سنة ١٨٦٩ في أربعة مجلدات وطبع حاشية له في مجلد خامس . وللحموي من المؤلفات النافعة معجم الأدباء (١) ومعجم الشعراء وكتاب اخبار المتنبين وعنوان كتاب الاغاني ومجموع كلام ابي علي الفارسي فاذا كان حرف العين من ذاك السفر الجليل لم يكمل في مجلد ضخيم فما بالك في بقية اجزاء هذا الكتاب . ومما يمكن مراجعته من الكتب في هذا الموضوع نزهة الالباء في طبقات الادباء لمحمد بن شاعر الانباري ونسخته في الاستانة وقد طبع على الحجر . وكتاب ريحانة الالباء المطبوع في بولاق . ونفحة الريحانة في طبقات الشعراء للمحبي ووفيات الاعيان لابن خلكان وفوات الوفيات للكتبي والوافي بالوفيات لصلاح الدين بان ابيك الصفدي واعيان العصر واعوان النصر له أيضاً . ثم تاريخ المحبي في أعيان القرن الحادي عشر والمرادي في أعيان القرن الثاني عشر . وهكذا ينتهي الباحث إلى العصر الذي نحن فيه فيجد شيئاً من آثار المعاصرين في الجزء الأول من عكاظ الادب المطبوع في الاستانة عقب الحرب مع اليونان . وقد استعار صاحب عكاظ وهو أبو النصر السلوي باشا لكل واحد من شعراء العصر لقباً من القاب المتقدمين وسمى به أصحاب معلقات هذا القرن الرابع عشر للهجرة . فامرؤ القيس الثاني لنقيب الاشراف السيد توفيق افندي البكري . وابو العلاء الثاني للاستاذ عبد الجليل افندي براده المدني . ونابغة العراق لجميل افندي الزهاوي ونابغة مصر لاحمد بك شوقي

(١) هو ارشاد الالباء او ارشاد الليب إلى معرفة الأديب وقد عني بطبعه الاستاذ مرجليوث وصدر منه بضعة أجزاء .

وزهير البلاغة لمحمد ولي الدين بك يكن . وصاحب المعجز لاهم محرم افندي .
وحسان الموصل لشاعر العراق عبد الباقي افندي العمري . وشيخ الادبا لاهم عزت
باشا الفاروقي الموصل . وليد العصر للفيلسوف يوسف ضياء الدين باشا الخالدي .
ودريد الحكم لحسن حسني باشا الطويراني . وأبو الثناء للشيخ محمود قبادو التونسي .
وأما اللغويون والنحاة فاحسن جامع لاهم خبرهم ما ألفه جلال الدين السيوطي
المتوفى سنة ٩١١هـ وسماه « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ورأيت نسخة منه
في مكتبة يكي جامع وهي عند الجسر في الاستانة العلية . وطبع في مصر وسوريا
وأوروبا كثير من مؤلفات الاصمعي وابي زيد الانصاري البصري وأبي عبيدة
النحوي وابن السكيت وغيرهم من اللغويين الافاضل .

٧

لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الاسلامية من الامويين إلى
العباسيين وترجمت كتب العلم والحكمة إلى لسان العرب قرأ ادياء المسلمين كتاب
المنطق لارسطو ورأوا فيه ذكر اومير وس الشاعر والثناء عليه فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر
أحد من الأعاجم ولا التفتوا إلى اساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات
التشخيصية ولا قدروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حق قدره . لاشتغالهم عن
ذلك بما لديهم من فنون الشعر وانواع الخطب والرسائل والدواوين والمعلقات ولا سيما
ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن . فترجموا كتب المنطق والنجوم والطبيعات
والطب والهندسة ولكنه لم يترجموا لاديب من أدياء اليونان ولا أدياء الرومان لا قصيدة
ولا خطبة ولا رواية ولا حكاية من حكايات أساطيرهم . ولعلمهم خافوا على الناس
من الرجوع إلى عبادة الأوثان ان بحثوا لهم في آلهة اليونان . ومع ذلك فترجمة كتب
العلم والحكمة إلى لسان العرب ظهر لها تأثير في توسيع افكار الشعراء الاسلاميين
وظهر فيهم طبقة جديدة هي طبقة المتنبي والمعري في الشرق وابن هانيء في اشبيلية
وهو المسمى بمتنبي الغرب . فحيث كان لاهل هذه الطبقة نظر في كتب العلم
والحكمة فكلامهم ابلغ معنى وأكثر فوائد لاشتغاله على آراء فلسفية وسياسية ومباحث
عقلية وعلمية غير اهم خرجوا عن اساليب الشعر القديم ووضعوا من عندهم

أساليب مخصوصة . فقام عليهم المتعصبون لأساليب العرب الأقدمين وسلقوهم بالنسبة حداد وشدودا عليهم النكير كما فعل أصحاب طريقة كلاسيك مع فيكتور هوغو حينما شهر طريقة (رومانتيك) .

فالتمسكون بالأساليب القديمة من ادباء العرب يقولون ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لأنها لم يجريا على أساليب العرب المخصوصة اذ ليس كل كلام منظوم عند العرب يسمى شعراً . بل الشعر هو « الكلام البليغ » المبني على الاستعارة والالفاظ ، المفصل باجزاء في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله ويعدّه ، الجاري على اساليب العرب المخصوصة « فلا بدّ ان تجتمع هذه القيود في الكلام المنظوم حتى يسمى شعراً . فما خلا عن الاستعارة والالفاظ مثل منظومات المتون العلمية المدرسية والارجوزات الاخلاقية وقول العامي « أغلق الباب واتني بالطعام » أو ما خلا عن تساوي الاوزان واتحاد الروي كقولهم « رب أخ كنت به مغتبطاً أشد كفي بغري صحبتي تمسكا مني بالود ولا احسبه بغير العهد ولا يحول عنه أبداً فخاب فيه أمني . . . » لان الوزن لم تتساو اجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات . أو لم يجز على أساليب العرب المعروفة فهو حينئذ لا يكون شعراً وإنما هو كلام منظوم (١) . أما الأسلوب في عرفهم فهو القالب الذي يفرغ فيه الشعر او المتوال الذي ينسج عليه . وذلك انهم يقولون اذا أراد الطالب قرض الشعر ينبغي له ان يكثر من مطالعة أشعار العرب الأقدمين وان يحفظها ويرتاض فيها حتى تصير له ملكة في كلامهم فحينئذ يحصل في ذهنه قالب كلي من التراكيب التي رآها في كل شعر من اشعارهم . وهذا القالب الكلي ينطبق على تلك التراكيب فسؤال الطلول قالب كلي يكون بخطاب الطلول كقوله : « يادارمية بالعلياء فالسند » ويكون باستدعاء الصبح للوقوف والسؤال كقوله : « قفا نسأل الد ر التي خف اهلها » أو باستبكاء الصبح على الطلل كقوله : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله : « ألم تسأل فتخبرك الرسوم » . وكذا تحية الطلول قالب كلي يكون بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله : « حى الديار بجانب الغزل » أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله : استقى طلولهم اجس هذيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

او بسؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

يا برق طالع منزلاً بالابرق واحد السحاب لها حذاء الأنيق
وكذا التفجع في الجزع قالب كلي يكون باستدعاء البكاء كقوله :

كذا فليجل الخطب وليقذع الأمر وليس لعين لم يفيض ماؤها عذراً
أوباستعظام الحادث كقوله « أرأيت من حملوا على الأعواد » .

أوبالتسجيع على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله :

منابت العشب لاحام ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع
أوبالانكار على من لم يتفجع له من الجهادات كقول الخارجية :

أيا شجر الخابور مالك موقراً كأنك لم تجزع على ابن طريق
أوبتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله :

ألقي الرماح ربيعة بن نزار أودى الردى بفريقك المغوار
وأمثال ذلك . . فمن أراد قرص الشعر كان هو كالبنا أو النساج والصورة
الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه . فان
خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسداً . ولذا رأى أهل الذوق
في قول الشاعر :

لم أدر حين وقفت بالاطلال ما الفرق بين قديمها والبالى
كلام فقيه لقوله ما الفرق بين قديمها لأن هذا من تعبيرات الفقهاء
واصطلاحاتهم لا من تعبيرات الأدباء مع ما فيه من الوقوف بالاطلال . فلم
يستحسن أهل الذوق هذا البيت ولا وجدوا فيه رقة ولا بهجة ولا ماء ولذا لم
يستحسنوا في الأدب كلام الفقهاء ولا الفلاسفة مع ما في كلامهم من المنطق والحكمة
لخلوه من هذا النور الذي يتلألأ في كلام الأدباء ويخرج من نفس الأديب ومن قلبه
وروحه . وأما كلام الفقيه أو الفيلسوف فيخرج من عقله ومحكمته ومقايسته . فهو وإن
كان برهانه قاطعاً إلا أن تأثيره على النفوس أقل من تأثير كلام الأديب . ومن كثرة
حفظهم لاشعار المتقدمين رسخت لهم ملكة في كلامهم حتى كاد ذوقهم يمجج الأسماء
التي لم ترد في اشعار الجاهلية . روي ان جرير انشد بعض خلفاء بني امية قصيدته :

بان الخليط برامتين فودعوا او كلما جدوا لبين تجزع
كيف العزاء ولم أجد مد بنتم قلباً يقر ولا شراباً ينفع

قال وكان الخليفة يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزيت بغيرنا يا بورع

فقال الخليفة افسدت شعرك بهذا الاسم . لان سمع الأديب لم يألّف اسم بوزع كما ألّف هندومي أو فاطم التي مشى بها امرؤ القيس حتى اجاز ساحة الحي وهي تجر اذيال المرط الموشى بالذهب ولا مشية فيكتور هوكو بمعشوقته جوليت في مراقص باريس ومراسحها . ولم يزل الأدباء يبنون كلامهم في ذاك القلب وينسجونه على ذاك المنوال حتى يومنا هذا . كما فعل اصحاب المعلقات السبع التي نشرها صاحب عكاظ . وكلما تم السبع التي خصت بكرامة التعليق هي :

كلمة نقيب الأشراف السيد توفيق افندي البكري ومطلعها :

أما ويمين الله حلفة مقسم لقد قمت بالاسلام عن كل مسلم

وكلمة عبد الجليل افندي براده المدني :

كذا فليكن ما يحرز المجد والفخر كذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر

وكلمة جميل افندي الزهاوي البغدادي :

هو الفتح ألقى في قلوب العدى هولا واثبت ان الحق يعمل ولا يعلم

وكلمة احمد شوقي بك المصري :

بسيفك يعملو الحق والحق أغلب وينصر دين الله ايان تضرب

وكلمة محمد ولي الدين بك يكن المصري :

ابت ضيمها في الناس كيف اضيمها حياة تساوي بؤسها ونعيمها

وكلمة احمد محرم افندي المصري :

منازل سلمى لاعدتك الغنائم ولادرس بالجزع منك المعالم

وكلمة ابي النصر السلاوي باشا المصري :

على متلها فلتحمد المم الغر فما هي الا الحرب اعقبها النصر

فالمتنبي والمعري خرجا عن هذا القلب وذاك المنوال الذي وضعه شعراء الجاهلية وجعل كل منهما له مذهبا مخصوصا في الأدب وأساليب . معروفة في الشعر ولذا قال ابن خلدون « وكان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على اساليب العرب » .

وبعد ان كان حسان يقول :

ا وان احسن بيت انت قائله بيت يقال إذا انشدته صدقاً

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه - صار أهل هذه الطبقة من الشعراء المستنيرين بنور ما ترجم من كتب العلم يمدحون بأشعارهم أمراء العجم الذين لا يفقهون دقائق البلاغة العربية طالين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الأغراض كما فعله حبيب والبحري والمتنبي وابن هاني ومن بعدهم . فان حبيباً الملقب بأبي تمام ولد في قرية بجوار دمشق ونشأ في مصر وطاف الشام والعراق وخراسان ومدح الخلفاء والملوك والأمراء بقصائد كثيرة . والبحري ولد في قرية بجوار حلب ثم ذهب لبغداد ومدح الخليفة المتوكل ثم طاف بلاد الشام ومدح الأمراء واجتمع في حمص على أبي تمام . والمتنبي ولد في الكوفة وأبوه سقاء من قبيلة جعف فجاء دمشق ومدح سيف الدولة من آل حمدان ثم ذهب لمصر ومدح كافور الأخشيدي الخصي الأسود . ثم ذهب لبغداد وخراسان ومدح عضد الدولة من آل بويه وغيرهم وهو ممن حاول ان يأتي بمثل القرآن كابن المقفع ولكنها عجزاً وبطلا ما كتبه ولذا هجا بعضهم المتنبي فقال :

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشياً
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء حيناً يبيع ماء المحيا
وكذا ابن هاني متنبي الغرب ولد في اشبيلية وطاف بلاد افريقية ومدح أمراء البربر وهو القائل في المعزلدين الله :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار
فصار عرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للأولين وصار يقال احسن الشعر اكذبه . وقلد شعراء العرب العجم في مبالغتهم وتملقهم للأمراء دفعاً للشر واستجلاباً للاحسان والخير . واستبد الرؤساء بالامر وقويت فيهم الشوكة والسلطة فلم يبق بهم حاجة لاستعمال فن الخطابة وطلاقة اللسان لاجتذاب قلوب الأمة اليهم بل رأوا من المصلحة الذاتية قهرهم بالقوة وارهابهم بحد السيف فاستخفوا بالامة وبالرأي العام وتمثلوا بقول أبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب .
وبقول عمارة اليميني السياسي :

وشفرة السيف تستغني عن القلم (١)
 وفعلوا بالامة ما قاله لها الحجاج سابقاً « لا عصبينكم عصب السلمة وألحونكم
 لحو العصا ولا ضربنكم ضرب غرائب الأبل يا أهل العراق . يا أهل الشقاق
 والنفاق . ومساوىء الاخلاق . اني والله سمعت لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي
 يراد به الله في الترغيب . ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب . يا عبيد العصا
 واشباه الآماء انما مثلي ومثلكم ما قاله بن براءة الحمداني :

وكننت إذا قوم غزوني غزوتهم فويل أنا في ذا يا أهل همدان ظالم
 متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حمياً تجنبك المظالم
 وقال المعتضد عند وفاته في سنة ٢٨٩ هـ وهو سادس عشر الخلفاء العباسيين
 ولعله ندم على هذا الاستبداد :

ولا تأمنن الدهراني امنته فلم يُبق لي خلاً ولم يرع لي حقاً
 قتلت صناديد الرجال ولم أدع عدواً ولم أمهل على طغيه خلقاً
 واخليت دار الملك من كل نازع فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقاً
 فلما بلغت النجم عراً ورفعةً وصارت رقاب الخلق اجمع بي رقا
 رماني الردى سهماً فاخمد جهرتي فها انا ذا في حفرتي عاجلاً ألقى

ولكن الرؤساء من الأعاجم فعلوا فعلاً بلا قول لعجمة لسانهم واصبح تعاظمي
 الشعر هجنة في الرئاسة ومذمة لأهل المناصب الكبيرة وقدموا الجهلاء على الشعراء
 ودعوههم بالظرفاء واهملت فنون الأدب وبلغ التفريط في جانب الفصاحة اللسانية إلى
 درجة كاد فيها الرؤساء لا يفوهون بكلمة في المجالس ويعتبرون السكوت عين الأدب
 وإذا اجتمعوا في حفلة اكتفوا بسماع الدعاء المأثور . وكثيراً ما يتلوه أجهل المجتمعين
 ويكون قد حفظ الدعاء من الصغر بالسماع .

(١) والشطرة الأولى « العلم مد كان محتاج الى العلم » أو « العلم اول محتاج الى العلم » وهو مطلع قصيدة حرص فيها
 شمس الدولة على تملك اليمن ومن أبياتها الملتبة الحمر قوله
 ان المعالي عروس غير وامقة ان لم تحلق رداثيها برشح دم
 ومنها :

وكان أول هذا الدين من رجل سعى الى دعوة سيد الأمم
 وقد طبع ديوانه الاستاذ هارنوبغ ديرنبورغ سنة ١٨٩٧ مع « كتابه النكت العصرية في اخبار الورداء المصرية

شاهدت أحد الولاة انخدع بمن يتلو الدعاء المأثور وظنه من العلماء لطول لحيته وكبر عმته فاراد تعيينه في منصب فقيل له امي فلم يصدق ودعاه ليلة وطلب منه ان يقرأ عليه ما كتبه جريدة الجوائب إذ ذاك فلما أمسك الجريدة بالعكس فهم الوالي وتلاهى عنه ولم يعينه . ولقد دقق في هذا المبحث عبد الرحيم افندي احمد مبعوث مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ ووجد نسبة تامة بين الحرية وبين ارتقاء لسان العرب فكلما اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع معه نطاق الأدب في العربية وزادت فصاحة هذا اللسان وبلاغته وكلما زاد الاستبداد تقيدت عقول الأدباء بالسلاسل وصاروا ينطقون بما يوافق الزمان والمشرّب لا بما يشعرون به ويعلمونه ويرونه .

قال مبعوث مصر المشار اليه ولقد لاحظت في المتكلمين بلسان العرب ان الحرية إذا فقدت منهم كثر في كلامهم تكرار (اللازمة) مثل نعم وفاهم . هكذا احلم يا سيدي . الخلاصة . النتيجة وأمثال ذلك من الكلمات التي يرددها المتكلم . هذا في المخاطبات بين اثنين وأما في الاجتماعات العمومية كالأفراح والعزاء واستقبال الولاة والقضاة فاما ان ينقضي الاجتماع بالسكوت والهمس أو بتلاوة الدعاء المأثور . واذ جعل للأدب حرمة فيتلى في ذاك الاجتماع قصيدة مدح أو تبريك أو عزاء وينفضر الجمع بغير أن يفوه الرئيس بما يقتضيه الحال والمقام ويصور بكلامه حالة تلك الهيئة المجتمعة .

٨

أما أهل الاندلس فلما وجدوا في جزيرتهم سماء صافية وأرضاً طيبة وهواء نقياً واشجاراً مزهرة وانهاراً جارية وجبالاً راسية وسهولاً واسعة أتسعت أفكارهم واستبحر عمراهم وراقت أشعارهم ورقّت معانيهم وتهذبت فنون الشعر ومناحيه في قطرهم وبلغ التنميق فيه الغاية وكثر فيهم الأدباء والشعراء . فوسعوا دائرة الأدب ونظموا الشعر في جميع الاعاريض المعروفة عند العرب . وأتوا بالمطولات في جميع مذاهب الشعر واغراضه من نسيب ومدح ورثاء وهجاء . ثم لم يكتفوا بكل هذا بل وجدوا الزمان والمكان يقتضي لهما فنوناً جديدة من الشعر ينسج على منوال غير المنوال الذي وضعه عرب الجاهلية ويقرض في عروض غير عروضهم فغيروا اسلوب العشر

وعروضه كما فعل فيكتور هوكو واهل طبقته في تغيير عروض الشعر الفرنسي وعروضه وأستحدث المتأخرون من الاندلسيين الموشح والزجل والمربع والخمس والمعصب على أربعة اجزاء والمزدوج والكارى والملعبة والغزل وعروض البلد والاصمعيات والخوراني والمواليا والدوبيت وهما لاهل الشرق وغير ذلك من التفنن الذي لا يدخل تحت حصر . فاول من وضع الموشح مقدم بن معافر الضريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله احمد بن عبد ربه (٢٤٦-٣٤٨هـ) صاحب كتاب « العقد الفريد » . وقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً عجبياً ولم أدخل مكتبة من مكتبات الاستانة (١) الا واجد فيها نسخة او أكثر من هذا المؤلف . ثم شاع استعمال الموشح في الاندلس واستظرفه الناس ونظم كثير من الأدباء ونسج على منوالهم أدباء الشرق وطبع كثير من الموشحات واشتهر . فمنها ما نظمه الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب وكان معاصراً لابن خلدون وكأنه ندب حضارة الأندلس بمطلع هذا الموشح حيث قال :

جاذك الغيث إذا الغيث هما يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس
ومن أبدع ما أتوا به من الموشحات قول بعضهم :

كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلل خضر من البطاح
ثم نسج أهل الامصار على منوال الموشح ونظموا مثله بلغتهم الحضرية من غير التزام اعراب وسموا هذا النوع من الموشح بالزجل وأول من أبدعه أبو بكر ابن قرمان . ومع انه قرطبي الدار كان يتردد كثيراً إلى اشبيلية مركز الأدباء ومجمع الظرفاء وهي على نهر الوادي الكبير تشبه حصص القرية من نهر العاصي . ولذا اطلقوا عليها اسم حصص فكان أبو بكر ابن قرمان يركب مع اصحابه في النهر للتنزه والصيد وتدور بينهم المحاضرات الشعرية والمحاورات الأدبية وهم في الزورق . وقد استخرج

(١) في الاستانة ما يقرب من الخمسين مكتبة تختلف في الجسامة والأهمية ومجموع ما فيها من الكتب أقل من ثمانين ألفاً بقليل . وكتب فهرستها مطبوعة ولكن فيها خطأ كثيراً وربما قيد في الفهرست المجموع المشتمل على عدة رسائل باسم الرسالة الأولى . وفيها من نفائس الكتب ما لا يقدر .

صاحب جريدة الأرز من مكتبة رومة شيئاً من زجل الاندلسيين ونشره في مجلد . وأما الاصمعيات فهي الشعر البدوي وسميت « اصمعيات » نسبة للاصمعي راوية العرب (١٢٢-٢١٦هـ) وهي قصيدة طويلة بلا اعراب بل هي بلغتهم الدارجة ويتبدأ فيها غالباً باسم الشاعر وفيها كثير من البلاغة والفوائد التاريخية والمعصب يجثون فيه على أربعة اجزاء يخالف آخرها الثلاثة في راوية ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة . والخوراني بارض الشام . ولا نطيل الكلام ببيان هذه الفنون وأقسامها وفيها من البلاغة والفوائد التاريخية ما لا ينكر . بخلاف ما أحدثوه من الصنائع اللفظية .

وبيان ذلك ان ادباء العرب في الجاهلية والاسلام صرفوا عنايتهم في النظم والنثر إلى الالفاظ لا الى المعاني فالهدف الذي كان الأديب منهم يروم اصابته هو التفنن في طرق الافادة وبيان المعنى الواحد بأساليب مختلفة من الكلام . وشبهوا المعنى بالماء والالفاظ والتراكيب بالاناء فمنه آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف . فغرض الشاعر منهم اسقاء سامعه الماء الواحد الذي لا يختلف ولا يتغير باجل اناء يصوغه له حسب قدرته . ولم يكن غرضه اسقاء سامعه انواع المياه الخفيفة المهضمة من منابع مختلفة معدنية ولا اسقاءه انواع الخمر او المرطبات والبزورات بأي اناء كان . ولذا اظهر الادباء كل مهارتهم في الالفاظ وبيّنوا اقتدارهم في معرفة اللغة وحفظ الاسماء الكثيرة والمترادفات وافادة المعنى الواحد بطرق مختلفة فكانت الالفاظ طوع قريحتهم يتصرفون بها كما يتصرف الصائغ في سبك الفضة . فالفوا في الالفاظ المهمل والمنقوط والمشجروما يقرأ طرداً وعكساً ولزموا في القوافي ما لا يلزم ونظموا الخالية وامثالها - يروى عن اديب انه اجاب من شتمه بقوله الكلب من لا يعرف للكلب مائة اسم . وحفظوا اسماء كثيرة للبعير والناقة والسيف وكل ما اشتهر بالخشة والشرف . وقالوا كثرة الاسماء تدل على شرف المسمى او خسته . ونجد امراً القيس إذا وصف الفرس لم يدع عضواً من اعضائه الا شرحه تشريحاً وألفوا كتباً كبيرة من الاحرف المهملة أو المعجمة مثل التفسير الذي الفه مفتي الشام السابق المرحوم محمود افندي حمزه بالحروف المهملة . ولما طبع هذا التفسير بدمشق بعثني والذي بنسخة منه إلى المرحوم مفتي الخليل التميمي وكان علامة الديار المقدسية . فنظر في التفسير طويلاً ثم رده إلي وقال لوم يقيد قلمه بالاحرف المهملة لافادنا باكثر من هذا . وكتاب عنوان

الشرف المشتمل على عدة علوم في متن واحد يقرأ بصور مختلفة وهو مطبوع في مصر . وعلى نسقه كتاب آخر مطبوع في الاستانة . ولما قال العماد الكاتب « سرفلا كبا بك الفرس » أجابه القاضي الفاضل « دام علاء العماد » . والجملتان مما يقرأ طرداً وعكساً . وكان القاضي الفاضل رئيساً للمراسلات السياسية عند السلطان صلاح الدين الايوبي والعماد الكاتب بمعيته رئيساً لقلم المصالح الشامية وكتابه الفتح القدسي طبع في السنين الأخيرة . وقال ابو عبد الله ابن بيس من علماء الأندلس وهو شيخ لسان الدين بن الخطيب المشهور :

اساجعه بالسوادين تبوأي ثماراً جنتها حاليات خواضب
دعن ذكر روض زانه سقي شربه صباح ضحى طي ظباء عصائب
غرام فؤادي قاذف كل ليلة متى ما نأى وهناً هواه يراقب
فجمع في أول الكلمات حروف الهجاء من الألف إلى الياء على الترتيب .
فادباء الافرنج يقولون . نعم ان الشعر العربي فيه كثير من الصنائع البديعية وله رونق وبهجة وفيه تهيج للمسامع وهو على اسلوب التوراة وعلى نسق اللغات السامية ولكن الكلام الذي فيه تصنع في الالفاظ وتعمل في الشكل الخارجي لا يكون فيه حركة ذهنية ولا تخيل فكري . وما لم يكن فيه ذلك ليس فيه احساس ولا عظمة مطلقاً وإذا ارتفع نفس الشاعر او الكاتب في الكلام الذي فيه تصنع وتعمل لم يبق على ارتفاعه بل ينقطع حالاً وينتقل إلى غير ما هو فيه . بخلاف الشعر اليوناني او الافرنجي كرواية ايرناني مثلاً فان فيكتور هوكونظمها على نفس واحد ونسق واحد وأبدع فيها بما قاله عن لسان شارلكن من الكلام العالي الملوكي فاذا نطق به المشخص على مسرح التشخيص أخذ بمجامع القلوب واستمر المشخص يهدر كما يهدر النهر حتى يصل كلامه لاعناق افئدة السامعين ويؤثر فيها تأثيراً عظيماً ، ومن قاس بنظره بين مقامات الحريري وبين رواية مضحكة من روايات مولير التشخيصية فهم معنى اعتراضهم وحقيقة انتقادهم على مقامات الحريري والهمذاني وامثالهما . ويتقدون على المقامات أيضاً من جهة التهتك بالاخلاق والتغزل بالبنين كالتغزل بالبنات ووضع الحب في غير موضعه الطبيعي مما لم نعهده في كلام ادباء الافرنج المشهورين الا من ندر منهم مثل الاديب الانكليزي الذي حكم عليه منذ سنوات في لوندرا ودافع عن نفسه بمشروعية هذا الحب في أصل الخلقة والطبيعة وبوجوده عند اليونان والرومان .

والحق ان هؤلاء الافاضل لم يقصدوا بتأليف المقامة تصوير رواية مضحكة على أسلوب الكوميديّة ولا رواية محزنة على نسق التراجميّة وانما قصدوا اظهار المقدرة على تصنيف الكلام وتدبيجه بديباج الاستعارات والباسه حلل التشابه وترصيعه بلآلىء البديع كقول الحريري في وصف الخطيب « يختلب الاسماع بجواهر لفظه ويجتذب القلوب بزواجر وعظه » من الكلام المديج المصنع المرصع الذي لولنطق به على مرسح التشخيص لا يفهمه العوام ويحتاج الخواص إلى النظر في صنائعه واعمال الفكر في بدائعه . والا لو صرف الواحد من اولئك الافاضل عنايته لتصوير رواية على نسق روايات اليونان أو الرومان أو الافرنج لسقانا بكأس من الزجاج الشفاف أطيب الخمر واعلاها طبقة . ولكنه أراد أن يغترف من ماء البحر باناء صاغه لنا من الذهب الخالص وطلاه بالميناء الثمينة ورصعه فوق ذلك بعروق واوراق من الجواهر والآلي ليخفي لنا الماء بابى اناء ويرينا أحسن المصوغ والمجوهر . وقد يغرق فكر الكاتب العربي الملتزم للصنائع البديعية في لجج تلك الاستعارات والجناسات ويحتاج في استخراجها إلى غواص ماهر له ملكة راسخة في اصطلاحهم . لان الكاتب منهم لم يكتب للعوام واهل السوق وانما يكتب للخواص من علماء الرجال وأدبائهم ولاصحاب الذوق منهم في الكلام وفي معانيه . ولذا فهو يتجنب الكلمات السوقية المبتذلة ويتقي أعلى طبقات الكلام واعوصها في اللغة . فالمعري على ماله من جلالة القدر في الأدب لم يسقنا الحكمة من كأسه إلا وهو يغوص في المباحث اللغوية ويأتي بالشواهد والامثال كما يتضح لمن طالع رسالة الغفران وهي التي شبهها مندوب مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر برسالة الجحيم التي ألفها الشاعر دانتي الطلياني . ومن طالع رسالة دانتي أو ترجمها رآها تسيل على نسق واحد كما يسيل الماء ليس فيها تصنع في الالفاظ والتراكيب ولا فيها احتياج الى تفسير الالفاظ اللغوية والاستشهاد بالكلام المعترض .

فالاندلسيون أصلحوا كثيراً من الخلل الموجود في أدب العرب وجاءوا بالمطولات في فنون كثيرة من الشعر والنثر وأوجدوا فناً مستحدثاً واتبعوا في الكلام شعورهم واحساسهم القلبي فطافوا على قرائحهم بصحاف من ذهب وأكواب فيها بعض ما تشتهي الانفس . ونرى في توصيفهم المناظر الطبيعية وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة بأشعار الافرنج كوصف حمدونه وهي من بنات الاندلس الشوارع

لوادي آش وهو في آيالة غرناطة قالت :

وقاها لفحة الرمضاء وإِدِ سقاه مضاعف الغيث العميم (١)
حللنا (٢) دوحه فحنا علينا حنو المرصعات على الفطيم
ورشفنا على ظمأ زلالاً الذُّ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية العذارى فيلمس جانب العقد النظيم
وقال أبو الفداء لابل الايبات لاحد بن يوسف المنازي المتوفى سنة ٤٣٧هـ وزير
ابي نصر احمد بن مروان الكردي صاحب ديار بكر وترسل إلى القسطنطينية ومرفي
بعض اسفاره بوادي بزاعا فاعجبه حسنه فقال فيه الايبات . ووادي بزاعا في ولاية
حلب واليه ينسب أبو فراس الحمداني وغيره من الشعراء .

ولو طال على الاندلسيين الامد في الحضارة وتعاقبت الادوار على اللغة وتوالت
عليها الانقلابات لاتوا باحسن مما جاء به فيكتور هوكو وأميل زولا من محصول العقل
ويجتني الفكر البشري . ولكن عاجلهم الانقراض وفاجأهم الاستبداد فاحلت
عقولهم وسدت قرائحهم . وقد اجتمعت في باريس بوفد السلطنة المراكشية وهو
ذاهب لحضور الاحتفال ببويل فيكتوريا ملكة الانكليز فوجدت رئيس الوفد الذي هو
السفير الكبير أمياً .

ثم ان العارفين باللغات نصوا على ان لادب اللسان العبراني تأثيراً على أدب
العرب قبل الاسلام وبعده وذكروا مشابهة وتوارداً في الخواطين ما جاء في شعر
امرئ القيس الذي ضرب فيه المثل إذا ركب وبين ما ورد في سفر ايوب من التوراة في
وصف الفرس . ونقل بعد الاسلام من العبرانية إلى العربية ما سمي بالاسرائيليات
مثل التواريخ وقصص الانبياء ومناقب الصالحين مما هو في التوراة والتلمود . وكان
نقلها عن احبار اليهود الذين اسلموا مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالهما رضي
الله عنهم ، وقد رأينا فيما سبق كيف ترجم عن اللغة الفارسية والهندية كتاب كليله
ودمنة وما شابهه وكيف نسج الأدباء على منواله واعتنوا بنظمه مما كان له مفعول قوي
في الحركة الذهنية والتصورات الأدبية والاختلاقات الفكرية . ومع ذلك فجميع ما
ذكر لم يكن له كبير تأثير على الشعر العربي ولم يعبر شيئاً من اساليبه القديمة ودامت
اساليب شعراء الجاهلية هي الهدف الذي يصبو نحوه كل شاعر بالعربية في قديم
الزمان وحديثه .

(١) نسخة وقاه مضاعف النبت العميم (٢) نزلنا

فيتضح مما تقدم ان العرب لم يأخذوا من الأمم الذين ترجوا كتبهم الا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجموا شيئاً من ذلك . مع انهم رأوا في كتاب المنطق لارسطو تناء طيباً على اومير وس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المتنبي والمعري وابن هاني الا من جهة افادتهم الاراء الفلسفية لا من جهة افادتهم اساليب النظم وطرق الكلام .

ومن فحول هذه الطبقة ابو العتاهية وكان في أيام المهدي وهارون الرشيد والمأمون وأكثر في اشعاره من ذم الدنيا لغدرها بانيائها ومن تذكير الغافلين بالموت وتشويقهم للآخرة ونعيمها ومن لطيف شعره :

الا أننا كلنا بائدٌ وأيّ بن آدم خالد
وبدوهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد
فيا عجب كيف يعصى الال له أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد
ومن فلاسفة الشعراء أيضاً ابن الشبل ابو علي حسين بن عبد الله البغدادي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ وكان له وقوف على كثير من علوم الحكمة والفلسفة وله ديوان وقصيدة فلسفية يقول فيها :

بربك أيها الفلك المدار اقصد ذا المسير ام اضطرار
مسيرك قل لنا في أي شيء ففي افهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار
وعندك ترفع الارواح أم هل مع الاجساد يدركها البوار
الخ . .

ولابن سينا والرازي اشعار فلسفية وقصيدة ابن سينا في النفس مشهورة ومنها :
هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع
الخ . .

وله اشعار بالفارسية أيضاً يرد بها على من اتهمه بالكفر والالحاد .

ومن كلام أبي بكر الرازي محمد بن زكريا قوله :

لعمري ما أدري وقد آذن البلى بعاجل ترحال إلى أين ترحالي
وأين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المنحل والجسد البالي
إلى غير ذلك مما أتى على هذا النسق من كلام أهل هذه الطبقة ، فإن لم يكن
لفنون الأدب الأعجمية تأثير كبير على شعر العرب ونثرهم فهل لفنون الأدب العربي
تأثير على شعر الافرنج ؟

بينما أنا أبحث عن جواب هذا السؤال رأيت في جريدة طرابلس الشام عدد
٤٦٢ مقالة في الزجل والتوشيح وكتاب العذارى المائسات الذي استخرجه صاحب
جريدة الأرز من سفر قديم العهد مخطوط بالحرف المغربي المشج . عثر عليه في خزانة
كتب بدير القديس انطونيوس للرهبانية الحلبية في رومة وقال فيه :

« فتصفحته فإذا فيه طائفة كبيرة من الشعر الفائق مقطعات ومختارات خرج بها
ناظموها عن اوزان الشعر العربي المعينة واجزاء بحوره المفروضة واحكام أعاريضها
وضروبها المطردة ، بيد انهم اجادوا في ذلك منتهى الاجادة فانتقيت مما عثرت عليه كل
نفيس . . . خدمة لأهل الأدب واثباتاً لسبق العرب اليها . . . » وبعد ان ذكر
صاحب المقالة تعريف الموشح والزجل وعروض البلد والمزدوج والكارى والملمعة
والغزل وغير ذلك قال :

« وقد استحسن شعراء الافرنج من الاسبان والالمان والاطليان والفرنساويين
هذه الضروب من فنون الشعر العربي ونسجوا وعلى منوالها كما يرى ذلك في دواوين
شعرائهم . ولا مراة بان ذلك انتقل اليهم من العرب حيث لم يأنسوا بانوار هذه
المستحدثات الا في اواخر القرن الثالث عشر . والمتصفح لكتب العرب والافرنج يرى
شذرات من هاتيك العذارى ولكن قل ان يراها مجتمعة في صفحات عديدة أو كتاب
واحد مع انها في درجة عليا من الحسن والجودة وتطريب السامع » (انتهى) .
فايضاحاً لمجمل هذا القول رأينا ان نبحت في منشأ الأدب الافرنجي وفي دخول
العرب بلاد الافرنج .

كانت فرانساً في قديم الزمان تسمى أرض الغول وكان يسكنها قبائل الغولوا والسلت (القلت) من البربر المتوحشين . فلما استبحر عمران الرومانيون في رومة وقويت شوكتهم ساقوا العسكر من ايطاليا على سواحل فرنسا الجنوبية واستولوا على اسبانيا لجودة الهواء والأرض فيها . وشكلوا في اطراف مرسيليا ومصب نهر الرون ولاية سموها بروفانس ومعناه الايالة وجعلوا عاصمتها مدينة اكس وهي في شمالي مرسيليا . وينوا على الحدود الاسبانية مدينة نربون بالقرب من مستنقع على شاطئ البحر واتخذوها محطاً لرحالهم في سفرهم إلى اسبانيا وإلى الحمامات المعدنية التي في جبال البيرينة . وقبل الميلاد بخمسين سنة تعين يوليوس قيصر والياً على بروفانس فوسع حدود الولاية وفتح أرض الغول والحقها باملاك الدولة الرومانية فصارت الولاية ترسل إليها من رومة ومعهم العسكر والمأمورون . فنظموا ادارتها وفتحوا طرقها وعمروا فيها القلاع والحصون والمدن ونشروا فيها شيئاً من حضارتهم ومن لغة عوامهم وهي اللغة اللاتينية الدارجة . وادخل المبشرون بالمسيحية الدين فيها فصارت اللاتينية لغة الدين والدولة واستمرت بلاد الغول في ايدي الرومانيين نحو اربعمئة سنة .

وحينما انقسمت دولة الرومان الى شرقية مقرها القسطنطينية والى غربية مقرها رومه وذلك في سنة ٣٩٥ م كانت فرنسا في قسمة الغربية ضرورية . غير ان تشتت الولاية وضعف قوتهم العسكرية اباح لقبائل الجرمان التجاوز الى أرض الغول والاستيطان فيها كما استوطن من قبلهم قبائل القوط والفاندال ارض اسبانيا وسموا الاندلس باسمهم فقالوا فاندالوسيا أو اندالوسيا . ففي اوائل القرن الخامس للميلاد نزلت قبائل الويزي قوط في جنوب نهر لوار المار في وسط فرنسا والمنصب في المحيط بالقرب من مدينة نانت . ونزلت قبائل البورغوند في وادي الرون وجبال جورا ونزلت قبائل الفرنك في شمالي أرض الغول أي في بلاد البلجيك ونزلت الالمان على ضفاف الرين العليا . واستمرت حكومة الرومانيين محصورة وسط بلاد الغول على ضفاف نهر السين . غير ان القبائل النازلة سالوا الحاكم الروماني وقاتلوا تحت قيادته قبائل

الهنون الاسيوية وكانت قد هجمت على غربي اوروبا وخربت البلاد واراقت الدماء فهزموا رئيسهم اتيلا سنة ٤٥٠ م امام مدينة شالون على نهر مارن . فلمت قبائل الهنن شعثها وجمعت جموعها وفاضت على الممالك الرومانية في ايطاليا كالسيل الجارف واستولوا على رومة سنة ٤٧٦ م وابادوا ملكها . فتفردت قياصرة الروم في القسطنطينية بالحكم على الرومانيين واستقلت القبائل النازلة في أرض الغول وكان أشجعهم وأقدرهم قبائل الفرنك فاستبدوا بالأمر وطردهم قلوبيس الوالي الروماني وقام مقامه في حكومة الغول وتزوج بمسيحية من البورغوند فنصرته هو وقومه ونصره الرهبان على قبائل البورغوند والويزي قوط فحكم عليهم واسس سنة ٤٨١ الدولة التي سميت باسم جده « مير وفة » فقبل لها (مير وفينجيان) أي آل مير وفة وهي أول دولة من الافرنج ودام حكمها ثلاثة قرون . وحيث كان ملوك الافرنج يقسمون الملك بين أولادهم انقسمت دولة المير وفينجيان إلى أقسام متفرقة فضعفت قوتها وتضعضعت واصبحت ايام دخول العرب اليها منقسمة إلى اربع ممالك يملكها ملوك من آل مير وفة وهي

(١) اوسترااليا أي المملكة الشرقية وهي عبارة عن الالزاس واللورين وما جاورهما من ضفاف نهر الرين . ولم يكن للملكها من آل مير وفة نفوذ فيها بل كانت الكلمة فيها لاعيائها وكبيرهم دوق أوسترااليا ومقرهم مدينة مج .

(٢) نوستريا أي المملكة الغربية وهي على ضفاف السين إلى أورليان جنوباً وعاصمتها باريس وكذا أورليان والمالك عليها من سلالة مير وفينجيان أصحاب الملك الشرعي على عموم فرنسا .

(٣) بورغونيا وهي على ضفاف الرون والسون وعاصمتها ديجون .

(٤) اكيثانيا وهي ما بين جبال البيرينة ونهر غارون المنصب في المحيط بعد مروره بطولوز وبوردو . وكانت إذ ذاك تحت حكم الدوق أو الملقب بدوق اكيثانيا وهو من نسل مير وفة ومقره طولوز . وتسمى الايالة المحيطة بها لانغيدوق وما في جنوبها سبتانيا كما يسمى القسم الذي على ساحل الاوقيانوس المحيط غسكونيا وأطلق عليه في كتب العرب أرض غشكونية .

ففي سنة ٦٨٧ م تدأخل دوق استرااليا المسمى بيبين دريسنال في شؤون مملكة نوستريا لغفلة ملوكها من آل مير وفة واهمالهم مصالح الملك حتى اطلق عليهم اسم

الملوك البطالين لقعودهم وتخنثهم . وجعل بين نفسه مشيراً للملك في باريس وإميراً
للأمراء في المملكة على مثال ما حدث في عهد الخلفاء العباسيين ثم انضمت اليهم
بورغونيا فصار لدوق اوستاليا نفوذ في أكثر المملكة وهياً الأم لابنه شارل مارتل
صاحب الوقائع مع العرب ولحفيدة من بعده . فحقد بين الأمراء من آل ميروفة
لاسيما اود ، دوق ايتانيا لتفوقهم عليه في الأصالة وشرف النسب .

وقبل دخول الرومانيين أرض المغول كان لسكانها من قبائل الغولوا والسلت
النازلين أرض بریطانية السن مخصوصة همجية فلما انتشر بينهم عسكر الرومانيين
ومأموروهم ومن تبعهم من التجار والسوقة صاروا يتكلمون لغة عوام اللاتين وسوقتهم
أي اللاتينية الدارجة ويلوكون بها ألسنهم كما يلوكون الرنحي لسانه بالعربية أو السنغالي
بالفرنساوية . فلما استولت قبائل الفرنك على أرض الغول وطردها منها والي الرومان
اقتبسوا لسان اهلها وما لديهم من الحضارة الرومانية وضموا إلى هذه اللاتينية المحرفة
كلماتهم الفرانكية البربرية فظهر من هذا الاختلاط لغة سميت (رومان) وهي لاتينية
سوقية تحرفت بلسان الغولوا والسلت ثم امتزجت بلسان الفرانك . وحيث كان
اللسان والدولة تابعين لقانون واحد في الترقى والانحطاط والانقسام انقسمت لغة
رومان بانقسام الدولة إلى قسمين احدهما كان يتكلم به أهل الجنوب ويسمى (أوق)
ومنه لسان بروفانسك المنسوب لايالة بروفانس وهو أقرب للسان الطليان والاسبانيول
منه إلى اللسان الفرنسي الجديد . والثاني كان يتكلم به أهل الشمال ويسمى
(اويل) . ثم انقسمت لغة أهل الشمال إلى لهجات متعددة غلبت على الجميع لهجة
جزيرة فرانسك وهي الايالة التي عاصمتها باريس وتعممت في الولايات الشمالية حتى
صارَت اللغة الفرنسية الحالية . ثم انتشرت في الايالات الجنوبية حينما استولى
عليها سنة ٩٨٧ م هونغ قابت مؤسس الدولة الثالثة من دول الافرنج في فرنسا . ولم
تزل الحكومة الفرنسية تسعى في نشرها وتعميمها واصلاحها إلى يومنا هذا . ومع ما
تصرفه من العناية في تعليمها لم يزل في أهل القرى من لا يعرف منها الكلمة
الواحدة . ونزلت ذات يوم قرية من قرى الفرنسيين في جبال البيرينة فلم استطع
التفاهم مع اهلها حتى جاءني رجل من القرية المجاورة وله تردد على الامصار
الفرنساوية ومدنها العامرة

فالفرنساويون اخذوا لسانهم من قوم ليس لهم به قرابة جنسية وسموا انفسهم

باسم قبيلة اجنبية من قبائل الجرمان الذين خرجوا من المانيا وتغلبوا على فرنسا
واسسوا فيها حكومتهم وسموها باسمهم وتناسوا اسمها القديم وهوارض الغول واسم
سكانها الغولوا .

ولما دخل العرب فرنسا كان أهلها يتكلمون لغات كثيرة همجية غير مدونة إذ
كانت القراءة والكتابة باللسان اللاتيني الفصيح في فرنسا وفي عموم أوروبا الغربية بما
فيه انكلترا . فمن تلك اللغات التي لم تدون حينئذ لغة الباسك وكان يتكلم بها قبائل
الواسكون سكان البلاد في قديم الزمان ومنهم سميت اكيثانيا بارض غسكونية ولم يزل
من المتكلمين بلسان الباسك نحو ١٢٠ ٠٠٠ في فرنسا ونصف مليون في اسبانيا .
ومنها لغة بروفانسال ولم يزل لها عدة لهجات (باتوا) يتكلم بها أهل القرى في الولايات
الجنوبية وفي ضواحي مرسيليا . ومنها لغة بريتون وهي بقية لغة القلت أو السلت ولم
يزل من المتكلمين بها نحو مليون ونصف في شبه جزيرة بريطانيا غربي فرنسا . ومنها
لغة فلاماند وهي نوع من الالمانية ولم يزل يتكلم بها نحو ١٦٥ ٠٠٠ من سكان الحدود
الشمالية ، وغير ما ذكر من اللغات التي انقرضت بدون ان يبقى لها اثر في اللغة
الفرنساوية كلغة اكيثانيا أو بقي لها اثر فيما يسمونه (باتوا) من لغات أهل القرى . إذ
لكل ناحية (باتوا) مخصوصة بها لا يفهمها أهل الناحية الاخرى بخلاف اللغة العربية
الدارجة فان المرسيني والاسكندروني والبيروتي واليافي والاسكندري والطرابلسي
والتونسي والجزائري والطنجي يفهم بعضهم بعضاً بادننى تأمل وافل فكرمها تحرفت
كلماتهم . وكذا أهل المدن في داخل تلك السواحل فلا يتعذر عليهم فهم لهجات
بعضهم بعضاً مع انه لم يحصل عناية ولاهمة في نشر اللغة العربية وتعليمها بل الهمم
مصروفة في تلك البلاد العربية لنشر غير العربية من اللغات الاعجمية كالفرنساوية
والانكليزية والاطليانية والتركية . فبينما كانت فرانساً متفرقة الكلمة لغة وسياسة اذ
دهمها العرب واستولوا على اكثرها .

لما جلس الوليد بن عبد الملك بن مروان (ولد ٤٨-٩٦هـ) سادس الخلفاء الامويين والثالث من آل مروان كانت افريقية ولاية ملحقة بامارة مصر والعامل عليهما عبد العزيز بن مروان فلما اتاه الحسن بن النعمان بالغنائم التي غنمها من البربر طمع فيه فشكاه الحسن بن النعمان إلى الوليد فسلخ عن مصر افريقية وولاه موسى بن نصير . وكانت مملكة القوط في اختلال من استبداد رودريك بالامرو تغلبه على طليطلة عاصمة الملك وظلمه في قبائل القوط وتسلبه على اعراض بناتهم . فاستجار الاسبانيول بالعدالة الاسلامية واغتنم موسى الفرصة وكتب للخليفة يستأذنه في فتح بلاد « أطيب هواء من الشام واخصب أرضاً من اليمن وأعطر زهراً من الهند » . وبعد استحصاله على اذن الخليفة سير طارق بن زياد بجيش من البربر فاجتاز بحر الزقاق على المراكب من اضيق محل فيه ونزل بساحل اوربا عند صخرة هائلة كانها الجبل فسميت باسمه . وقيل لها جبل الطارق وقيل لمجمع البحرين المتكنفين بها بوغاز جبل طارق (جبر التار) وكان ذلك سنة ٩٢ للهجرة وسنة ٧١٠ م والى عبد الحق حامد مستشار سفارة لوندرة رواية تشخيصية باللسان العثماني سماها طارق وأبدع في نظمها ونشرها وبين فيها هذا الفتح المبين . فانتصر طارق في محاربة وادي لينة بالقرب من جزيرة قادس . ولحقه موسى بن نصير بجيوش من العرب وأشراف قریش وفتحوا مالقه واشبيلية وهي على شاطئ الوادي الكبير وقرطبة وطليلة عاصمة ملوك القوط وهي على نهر باجه المسمى بنهر التاج . وظلوا سائرين حتى بلغوا أسفل جبال البيرينه الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا وفتحوا استورغة وهي في أسفل تلك الجبال وهذه أول مرة رأى فيها القرشيون جبال البيرينة وهم تحت قيادة موسى بن نصير وسموها (جبل البرنات) بكسر الراء - هذا من جهة الغرب .

وأما من جهة الشرق فسير الحجاج إلى العراق جيشاً عقد لواءه لابن عمه محمد بن القاسم الثقفي تجاوز به نهر السند وفتح الهند وسير جيشاً آخر تحت قيادة قتيبة ابن مسلم تجاوز به نهر جيحون من خراسان وفتح ما وراء النهر وتقدم حتى بلغ كاشغر وأخذ الجزية من ملك الصين - وأصبح ما بين المشرق والمغرب تابعاً للوليد وهو منعم في

قصره لم يخرج في غزوة ، واستوثقت له الأمور ولم تتغلغل عساكره المنصورة الا في بلاد الترك وهي في قيادة الحجاج وفي بلاد الروم وهي في قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك . وبلاد الترك هي تركستان وما بين بحر الخزر وبحر خوارزم (بحيرة ارال) وما في شمالها من أراضي سبيريا وكانت في حكم خاقان الترك كما هي اليوم في حكم قيصر الروس . وبلاد الروم هي بر الاناطول والروم ايلي وكانت تابعة لقيصر الروم أي لدولة الرومان الشرقية كما هي اليوم من اجزاء الممالك العثمانية . ومن حسن حظ الوليد توفيقه لبناء المسجد الأقصى ومسجد المدينة وجامع دمشق وفي كل بنيان منها دليل شاهد على حضارة ذلك الزمان وترقي أهله في الصنائع وال عمران .

ثم جلس على كرسي الخلافة أخوه سليمان (ولد ٥٤ - ٩٩ هـ) بن عبد الملك بن مروان وجازى قتيبة بن مسلم فاتح الشرق بما جازى به أخوه الوليد فاتح الغرب وهو موسى بن نصير . وهكذا كانت الخلفاء تجازي فاتحي الممالك الاسلامية باشنع مما جوزي به سنهار . فماتوا منكوبين قهراً لا يملكون شيئاً مما جنته أيديهم من أموال الغنائم . وزادت نكبة موسى بن نصير بقتل ولده عبد العزيز مكافأة على حسن ادارته في ولاية اشبيلية . وكان موسى متأهباً للاغارة على الأمم التي بين جبال البيرية وخليج القسطنطينية وأدخلها جميعاً في الاسلام كما دخلت أمم آسيا وأفريقيا ولم يكن هذا الامر على موسى بعزيز لوجود الاختلاف والفرقة بين امراء الافرنج وعدم النجاة في ملوكهم الملقبين بالبطالين . ولكن سوء تدبير الامويين صده عن هذا العمل العظيم ومكن الافرنج في فرانسما مما لم يتمكن منه القوط في اسبانيا من الائتلاف والاتحاد وصد هجمات العرب . وبسوء تدبير الخلفاء أيضاً وعدم غرسهم المعروف في أهله وعدم مكافأتهم المخترعين والمكتشفين كما كانوا يكافئون الشعراء والمغنين التحق البعلبكي مخترع النار اليونانية بقيصر الروم وأسر كيفية عمل هذه النار فأمر باصطناعها في معامل القسطنطينية برأ وبحراً . لان مسلمة ابن عبد الملك أخا الخليفة اخترق بعسكر الاسلام بر الاناضول وعبر من مضيق الدردنيل المسمى (بوغاز جنا قلعه) وطلع لاوريا وأتبع ساحل بحر مرمره حتى وصل أسوار القسطنطينية ووضع الحصار عليها كما حاصرها من قبل سفيان بن عوف الازدي في خلافة معاوية سنة ٤٧ هـ واستشهد اذ ذاك ٣٠ ألفاً من أهل الاسلام وفيهم خالد أبوأيوب الانصاري . ولم يزل ضريحه يزار في الحي المسسوب اليه على ساحل الخليج المسمى بقرن الذهب . وبينما

كانت عساكر مسلمة تحاصر من جهة البر كان أسطول الاسلام المجهز في سواحل سورية ومصر من خشب احراج لبنان راسياً في مياه القسطنطينية . فالذي منع العرب من فتح القسطنطينية هي النار اليونانية لانها أضرت بعسكر المسلمين وأحرقت مراكبهم وكانت عدتها الف وثمانماية مركب والكبار منها عشرون مركباً أمام عاصمة الروم كأنها الغاب من الصواري والكمة فيها كالاسود ، فاحترقت باجمعها ولم يعد منها للاسكندرية سوى خمسة مراكب - فالمخترع لهذه النار السيالة على ما ذكره المؤرخ الانكليزي جيون هورجل من بعلبك يسمى كالينيقيوس كان يصطنعها من النفط والكبريت وفحم الصنوبر بطريقة مخصوصة ومقدار معين فكانت تشتعل في الماء والهواء وتدمر ما تنصب عليه ولذا سميت أيضاً النار البحرية . وما زال العسكر في الحرب يعملون عليها ويتقون ضررها إلى أن اكتشف العرب على ما يظن بارود المدافع باضافهم إلى مسحوق الفحم والكبريت ملح البارود . ونقله عنهم في القرن الثالث عشر للميلاد روجر باكون الانكليزي (١٢١٤ - ١٢٩٤م) وغيره من كيمائيي الافرنج واشتهر استعمال البارود في المدافع سنة ١٣٤٦ في المحاربة التي وقعت بين فرنسا وانكلترا في قريسي وهي في شمال باريس على نهر صوم . فكان ملك الانكليز ادوارد الثالث يقود العساكر هو وأبنة دوغال وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب ومعهم بعض المدافع التي ظهر استعمالها في ذلك الوقت فغلب الانكليز مع قلة عددهم بسبب الانتظام والترتيب العسكري . فهذه اول محاربة في أوروبا استعملت فيها المدافع ولكن المظنون ان العرب استعملوها قبل هذا التاريخ أي في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢هـ - وعلى كل فلا ندري كيف ترك هذا الكيمائي البعلبكي خدمة الخلفاء الامويين والتحق بقيصر الروم . وفي الدولة الأموية في ذلك العصر من يحرص على الكيمياء وعلى تفرعات مسائلها مثل خالد وجعفر وجابر ومن أخذ عنهم .

توفي سليمان بن عبد الملك مرابطاً في مرج دابق من أرض قنسرين وأخوه مسلمة منازل القسطنطينية . ثم جلس عمر (٦١-١٠١هـ) بن عبد العزيز بن مروان وأبقى ابن عمه مسلمة على حصار القسطنطينية وتجاوزت عساكر الاندلس إلى وراء جبال البيرينه من أرض فرنسا ليحققوا آمال موسى بن نصير في الذهاب براً إلى القسطنطينية . وكانت مدينة نربون تفوق مرسيليا في العمران وتتصل في البحر الشامي

بترعة طولها ثمانية كيلومترات فتدخلها المراكب كما تدخل اليوم حاضرة تونس الخضراء . فحاصرها علقمة بجيوش المسلمين من البر والبحر وأمتد الحصار سنتين لتحصنها بالمستنقعات وبالقلاع الرومانية .

ثم جلس يزيد (٧٦ - ١٠٥) بن عبد الملك بن مروان تاسع الامويين وسادس المروانيين وفي أيامه دخل علقمة بالسيف إلى نربونه فرمها وزاد في تحصينها واتخذها مركزاً لحركاته العسكرية في فرانسوا وصار العرب يسمونها أربونة وأفتتحوا ما حولها من القرى والقصبات التي في أرض سبتمانية وظلوا سائرين حتى دخلوا ايلالة لانغيدوق والقوا الحصار على مدينة طولوز (طلوشة) وكانت اذ ذاك مقر دوق اكيثانيا المسمى أود . فخرج لهم الدوق بجيوشه من الويزي قوط والواسكون والفرانك وأقتلا قتلاً شديداً قتل فيه كثير من الجانبين . وكان علقمة يستشيط غيره وحمه ويكر بنفسه ويشجع الابطال بكلامه فاصابه سهم قضى به نجه . وافترق الجمعان وكان ذلك في شهر مايس سنة ٧٢١ م وسنة ١٠٣ هـ . فاستلم قيادة الجيش عبد الرحمن من ذوي الحمية والاقتدار ومن اصحاب عبد الله بن عمرو وانقلب راجعاً إلى ضواحي نربون وإلى مصب نهر الرون .

وفي سنة ١٠٥ هـ أو سنة ٧٢٤ م توفي يزيد بن عبد الملك حزناً على حباية فجلس على كرسي الخلافة أخوه هشام (٧٠ - ١٢٥ م) بن عبد الملك بن مروان وعين والياً على الاندلس عنبسة فأراد الاخذ بشار سلفه علقمة وتجاوز بالعساكر جبال البيرينة ونزل ايلالة سبتمانية . وهي اليوم ولاية البيرينة الشرقية وولاية أود وما جاورها وافتتح مدينة قرقسون وسموها (فرقشونة) وهي في غرب نربون وعلى سكة الحديد الواصلة بين مرسليليا وطولوز وبوردو . وتقدم عنبسة بالعسكر فجاء أهل مدينة نيم وهي في الشبال الغربي من مرسليليا وطلبوا منه الامان فأمنهم ودخل مدينتهم بالصلح وسموها نيمة وأخذ أبناء اعيانها رهناً على طاعة ابائهم وحفظهم في برسلون (برشلونة) وهي على ساحل البحر الشامي في ايلالة قطالونيا المشرفة عليها جبال البرينة . وتقدمت جيوش عنبسة على ضفاف الرون حتى دخلت مملكة برغونية وغزت مدينة أتون سنة ١٠٧ هـ سنة ٧٢٥ م . وفي هذه السنة قتل عنبسة في احدى المعارك وبلغ ما غنمه المسلمون في زمن ولايته ضعف ما غنموه في السنين السابقة من بلاد فرنسا . واستلم قيادة الجيش بعده حديثة ورجع بالعسكر إلى الحدود الاسبانية فلاقى

بها المدد الذي بعث به المرابطون في الاندلس فكُربهم على بلاد الافرنج وألقى الرعب في قلوب أهلها . وأوغل في الأرض الشمالية وفي مملكة برغونية . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب اكثروا في هذه الحروب من أراقة الدماء وعدم البناء واحراق الكنائس والاديرة وتخريبها واتلاف الاموال وغصبها . ومنهم من يعترف بان العرب اخف وطأة على بلادهم من قبائل الهون الاسيوية الذين اتوهم من الشمال الشرقي تحت قيادة أتيل ودمروا بلادهم تدميراً . ولم يزل الفرنسيون ينسبون إلى العرب تخريب كل خرابة يشاهد أثرها في الأراضي الجنوبية من فرنسا .

ويظهر من تواريخ الافرنج ان العرب بعد فتحهم هذه البلاد قسموها إلى ايلات وجعلوا الأرض التي على جانب البرينة في فرنسا واسبانيا من جهة البحر الشامي المتوسط ولاية اسمها سبردانية وهي اليوم عبارة عن قطلونيا في اسبانيا وعن ولاية البرينة الشرقية في فرنسا . وكان الوالي عليها قائداً من البربر مثل طارق بن زياد يسميه الافرنج مونيذا . فاتفق الدوق أود مع هذا القائد المسلم وزوجه بنته وعاهده على عدم الغزو في بلاده فاصبح في جبال البرينه حاجزاً أمام غزاة المسلمين فاغتاظوا من هذا الاتفاق واطهروا ميلهم لعبد الرحمن الذي كان قد استلم قيادة الجيش بعد قتل علقمة . وكان عبد الرحمن من اصحاب عبد الله بن عمر متخلقاً باخلاق الخلفاء الراشدين واکابر الصحابة والتابعين حريصاً على اعلاء كلمة الله وعلى نشر الدين في جميع اقطار الارض . فكان يجتهد في تحقيق امال موسى بن نصير والاستيلاء على اوروبا والوصول منها إلى القسطنطينية . فعينه الخليفة هشام والياً على الاندلس سنة ١١٢ هـ أو سنة ٧٣٠ م فدخل بالعسكر مدينة بويسردا وهي عاصمة ولاية سبردانية وقتل القائد المتفق مع أود وبعث بزوجه وهي بنت الدوق إلى دمشق . وقيل بل انتحر هذا القائد المسمى مونيذا خزيّاً وحياءً . وكانت مدينتا نيم ومون بيليه تابعتين للمسلمين فتقدم عبد الرحمن بالعسكر إلى ضفاف الرون وعبر إلى شاطئه الايسر وألقى الحصار على مدينة آرل فانجدها الفرنسيون بمفرزة من العسكر وحيت نار الحرب وكثرفيها القتلى حتى امتلأ النهر بجسادهم . ثم سار على ضفاف نهر الرون صاعداً في الشمال وألقى الحصر على مدينة افيون وافتتحها . وهذه المدينة هي التي صارت في القرن الرابع عشر للميلاد مركزاً للبابوية بدلاً من رومة واستمرت تابعة للباباوات إلى ما بعد الانقلاب الكبير أي لسنة ١٧٩١ م .

وكانت فرنسا إذ ذاك في حكم الملوك الذين هم أواخر سلالة مير و فينيجيان ويلقبون لبطالتهم وعطالتهم (فينيان) أي الذين لا يعملون شيئاً بل كانوا يملكون بلا حكم ولا قدرة ويموتون بلا عز ولا نصرة كما وصفهم المؤرخون . وكانوا يقيمون في قصر بجوار مدينة كومبينية في شمال باريس وفيها حصلت ملاقات قيصر الروس في زيارته الأخيرة لفرنسا . فكانوا كأنهم في حبس لا يأتون عاصمة الملك الا مرتين في السنة مرة في شهر مارس وأخرى في مايس لحضور المجلس المؤلف من اعيان الافرنج أولملافات السفراء . فاذا انعقد المجلس اركب الملك في كارة يجرها ستة رؤوس من فحول البقر لا من عدم وجود الخيل والبغال وانما للراحة وعدم الانزعاج بكثرة الحركة والجري وأتى به إلى المجلس ليصدق على المقررات التي يتخذها ناظر السراي أو امير الامراء وهو في ذاك التاريخ دوق اوستريا المسمى شارل مارتيل . وكانت بقية الامراء أشبه بالمستقلين في اماراتهم يعضون بعضهم بعضاً وكلمتهم متفرقة . ولودخل عليهم موسى بن نصير سنة ٩٢هـ حينما افتتح اسبانيا لامتلك أوروبا باجمعها ولأدخل جميع القبائل الجرمانية الوثنيين في الدين الاسلامي .

غير ان الافرنج لما سمعوا بظهور العرب ومحاصرتهم القسطنطينية وكانوا يترقبون ورودهم من شرق أوروبا فلما رأوهم نازلين عليهم من جبال البيرينة أخذهم الرعب فانضموا باجمعهم إلى امير الامراء شارل مارتل وكان اشدّهم بأساً واداهم سياسة وأحسنهم رأياً وعقلاً . فلم يدر عبد الرحمن بان الوقت فات على فتح بلاد الافرنج وأخذ يتأهب لقتالهم وحشد العساكر من الشام ومصر وافريقية والمغرب وسار بهم من جهة المحيط لا من جهة البحر الشامي المتوسط على سابق العادة في دخول غزاة المسلمين لفرنسا ومربهم من رونسيفو وهو ممر ضيق في جبال البيرينه تمر منه جيوش الفاتحين في قديم الزمان وحديثه . فمنه مرّ هنيبال القائد القرطجني ومنه مرت جيوش شارلمان حينما قاتل العرب . ومنه مرت جيوش نابليون حينما فتح اسبانيا ومنه مرّ فيكتور هوغو في ذهابه لاسبانيا واياه منها . فمر رونسيفو واقع بين مدينتي بامبلونه في اسبانيا وبايون في فرنسا وهي التي سماها العربي « بيونه » ويقطع المسافر منها بالقطار ستين كيلومتراً إلى منتهى الحدود الفرنسية ثم يسير على الخيل والعجل ١٥ كيلومتراً أخرى فيصل حلق الوادي المسمى رونسيفو . فسار عبد الرحمن في هذا الطريق وخرج لأرض غسكونيا التي سموها غسكونية وهي سهول واسعة كثيرة المياه

والاحراج والقسم الساحلي منها أسبه بتهامة من جزيرة العرب ولدا سماها بعض الجغرافيين تهامة الافرنج . غير ان الوديان التي تسيل في تهامة العرب تبتلعها الرمال المحرقة أو ما المياء التي تسيل في رمال تهامة الافرنج التي تدعى لاند فروي ارضها وتكثر عشبها واسجارها .

فطل عبد الرحمن سائراً في الأراضي المخصبة آمناً على عسكره ودوابه من العطش حتى بلغ نهر غارون المار بطولوز وبوردو عرضه وبما يغرب في بعض الأماكن من عرض النيل . وطول الجسر الذي عليه في مدينة بوردو ٤٨٧ متراً فهو أطول من جسر القاهرة الذي على النيل نحو مائة متر . فلمي عبد الرحمن على صفاف النهر الدوق أود بما جمعه في العسر من قبائل الواسكون وبعية اهالي اkitايا وانتسب الفسال بين الفريقين وكانت معركة سديدة انجلت عن انهزام الدوق وعسكره وتحصنهم في قلعة بوردو . فلحقهم عبد الرحمن وحصر المدينة ، وفتحها بالسيف وأباح الغزو فيها لعسكره فكانوا يسمونها مدينة برغتت ، واصبح ما بين مصب نهر غارون في المحيط وما بين مصب نهر الرون في البحر الشامي داراً للاسلام تلقن فيه الشهادة ويعلم القرآن . وهذا القسم العظيم من اوربا قد أصبح اليوم جزيره بسبب قناة الجنوب التي أنشأها الفرنسيون ويسمونها أيضاً قناة لاندوف باسم الابالة القديمة والضاعة الواردة من البحر المحيط تدخل نهر غارون وتتم بوردو ثم تدخل هذه القناة عند طولوز على مراكب مخصوصة تسير موازيه لنهر أود حتى تخرج في شمال نربون للبحر الشامي . وهم يتحدثون اليوم في توسع هذه القناة وجعلها صالحة لسير السفن الكبيرة لتمر منها وهي آتية من قنال السويس وتستغنى عن المرور في جبل طارق والطواف حول اسبانيا .

فاشر جبر فتح بوردو في بلاد الافرنج ودخل العرب في قلوب الناس وفرح اكبرهم بمشغل الدوق أود لمظالمه - لان المظلومين من الأهالي يفرحون دائماً بنكبة الجبابرة المستبدين الذين يحكمون فيهم ولا يراعون حقوقهم ويسومونهم انواع المصداق لمنافعهم وأغراضهم . ولدا كان الكنير منهم يهرعون لعبد الرحمن وسوفويه للدخول في بلادهم واجراء العدالة الاسلامية فيما بينهم . أما الدوق أود فلما رأى ذهاب ملكه هضم نفسه واستجار بربييه سارل مارتل وطلب نصرتة رغم بحضه اياه لان الدوق أود وان لم يرق الى رتبة ملك إلا انه كان

مسنبدًا في اكيثانيا كالملك يفعل ما يشاء ويختار وهو ذو اصاله وينتسب الى قلو فيس مؤسس سلالة مير و فينيجيان صاحبة السيادة والحق الشرعي في الملك على قبائل الافرنج وعموم فرنسا ، فاصالته كانت فائقة على اصاله شارل مارتل لأن شارل لم يولد من زوجة شرعية وانما زني بامه بيبين دوق اوستراسيا فولدته وكبر حتى خلف والده في مسنده ورتقلب على ملوك اوستراسيا ونوستريا وبورغونيا من آل قلو فيس حفيد ميروفه وكان في الظاهر امير الامراء وناظر السراي الملوكية وفي الباطن صاحب الامر والنهي في عموم فرنسا سيما بعد استيلاء العرب على مملكة اكيثانيا . فلما استجار الدوق اود بشارل اجابه : دعهم الآن فانهم كالسيل الجارف لا يصطدمون بشيء إلا ابادوه وفيهم حمية تغنيهم عن التدرع بالدروع وفيهم شجاعة تكفيهم عن التحصن في داخل القلاع ولا يزالون على ذلك الى أن تمتلئ ايديهم بأموال الغنائم فاذا تنعموا بنعيم الدنيا وذاقوا لذات الحياة وقع الطمع في رؤسائهم فانقسموا وتفرقوا فحينئذ نهأ جمعهم ونخر جهم من ديارنا » . وكان الامر كما قال . فان عبد الرحمن بعد فتحه بوردو رأى الاهالي مائله اليه ووعده بالتسليم والانقياد وشوقه بعض رؤسائهم الى فتح توروبوانيه لما فيهما من الاموال والخيرات . لان البلاد لم تكن في ذاك الوقت غنية ومعمورة كما هي اليوم . وانما الاموال والخيرات كانت مكدرة في الكنائس والاديرة وقصور الحكام الجبابرة . فتجاوز عبد الرحمن بالمسكر نهر غارون ووطىء بخيله ورجله تلك الاراضي المخصبة والكروم التي يعصر فيها احسن خمر في الدنيا . وعبر نهر دوردونيا وهو يجتمع في نهر غارون بقرب بوردو ويسميان حينئذ نهر جيروند كما يجمع الفرات ودجلة ويمال لمجتمعها شط العرب . ويصب لاجيروند في المحيط القربى عند مدينة روابان الشهيرة بحماماتها البحرية والتي ينسب اليها سمك روابان المشابه للسردين . وتسمى ضفة لاجيروند اليسرى من بوردو الى البحر ارض مدوق وفيها شاتولافيت وشاتوالانور وشاتومارغو وجميع كروم العنب والعصور الى يعصر فيها اطيب الخمر وتنتلى اسمائها المتنوعة على الزجاجات التي تاع في اوتيلاب الازبكية وتفتح على موائد اعظم الرجال . وعلى ساطىء نهر غارون قبل دخوله بوردو ارض سوتين وفيها شاتوايكيم وبقية العصور الى يعصر فيها الحمر السواء التي تشرب في اوائل الطعام عند اكل لحوم السمك .

ولما وصل عبد الرحمن مدينه انكوليم وجد جيشاً من الافرنج ففرق جمعهم ودخل المدينه منصوراً طافراً . وفي غربها مدينه كونيالك المنسوب اليها حمر الكونياك

المعروف . وظل عبد الرحمن سائراً بعساكره المظفرة في تلك المروج والغابات الكثيرة المياه . وكانت كجنان تجري من تحتها الانهار بالنسبة لصحاري افريقية ولجزيرة العرب . والفرسان ترتع وتلعب على خيولها ومعهم نساؤهم واولادهم حتى وصلوا مدينة بواتيه ففتحت لهم ابوابها . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب سلبوا ما في كنيسيتها من أواني الذهب والفضة والاقمشة المزركشة . والمنصفون من هؤلاء المؤرخين يعترفون للعرب بالعدل والحق والرفق بالمغلوبين . ثم عبر عبد الرحمن نهر فينا المار بإيالة فينا وهي التي مركزها بواتيه بخلاف فينا عاصمة النمسا التي حاصرها الاتراك واقاموا عساكرهم المظفرة على ابوابها . وفي جنوب إيالة فينا إيالة أخرى يقال لها فينا العليا ومركزها ليموج . وما زال عبد الرحمن يتقدم حتى وصل مدينة تور وهي على نهر لوار المنصب في المحيط . وألحق أكثر من نصف فرنسا بممالك الدولة الاموية الحاكمة إذ ذاك على الهند وما وراء النهر إلى كاشغر والصين وتركستان وكان الفاتح لها سنة ١١٩ هـ اسد بن عبد الله القسري فانه أدخل المسلمين بلاد الترك وقتل ملكهم خاقان وغنموا شيئاً كثيراً .

فتمت هي الحدود التي وصل إليها العرب في اوربا هي نهر لوار ومدينة تور . وفي شريقيهما مدينة ديجون ثم مدينة بزانشون . والخط المار بهذه النقط يقسم فرنسا إلى قسمين شمالي وجنوبي . فالجنوبي باجمعه دخل في ملك المسلمين وأقاموا في بعضه قليلاً وفي بعضه كثيراً واستسلموا كثيراً من أهله وتزوجوا بناتهم وأعقبوا منهم ولم يزل لأهل الجنوب من الفرنساويين شبه بالعرب في سياء الوجوه .

قال المؤرخ الانكليزي جيبون في ذكر حوادث سنة ٧٤٢ م « تقدم العرب في اوربا أكثر من ثلاثمائة مرحلة Lignes من صخرة جبل طارق إلى مصب نهر لورا كلها مظفرات ولو تقدموا ثلاثمائة مرحلة أخرى لوصلوا حدود بولونيا في شرق اوربا أو جبال أيقوس من انكلترا ولسهل عليهم عبور نهر الرين المار بالمانيا كما سهل عليهم عبور الفرات والنيل وكان الاسطول العربي من جهة أخرى دخل نهر التيمس بلا محاربة بحرية - لعدم وجود اسطول انكليزي في ذاك الوقت يضاهي أسطول مصر وسوريا أو اسطول تونس - ولربنا اليوم العلماء يفسرون القرآن في مدارس او كسفورد ويفقهون افراد أمة الانكليز المختنين ويشرحون لهم وهم مرتفعون على كراسي الوعظ معجزات النبي العربي . فالذي خلص العالم المسيحي من ذلك هواين الزانية

شارل مارتيل ناظر سراي الملوك الفرنسيين من سلالة ميروفينجيان . آه
وذلك أن شارل المذكور لما رأى المسلمين لم يبق بينهم وبين باريس الا ٢٣٤
كيلومتراً حشد اليه العساكر الجارية من القبائل الشمالية الالمانية وهم يمتازون عن
سكان الايلات الجنوبية في فرنسا بطول القامة وزرقة العين وشقرة اللون وبالصبر في
الحرب والمهارة في الطعن والضرب ولم يزالوا متصفين بهذه الاوصاف إلى يومنا هذا .
ولذا اختار مقام السر عسكرية العثمانية منهم المعلمين للمكاتب الحربية في الاستانة
مثل غولج باشا وقبله مولتكه باشا مرتب حركات الجيش في حرب السبعين
الفرنسية .

وكان عبد الرحمن نازلاً بالعسكر امام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر
لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تتقاربان كلما قربتا من المدينة . فبغت شارل مارتيل
المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من أعالي التلال وانتشب القتال بين
الفريقين . وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش وسوق الفرسان ما حير
أخصامه واضطر أخيراً على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع إلى سهول بواتيه
وفيها التقى الجمعان وأصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له الى (موسه - لا -
باتايل) ويراه المسافر من بوردو إلى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين
كيلومتراً عن بواتيه شمالاً أي على الضفة اليمنى لنهر كلين المنصب في نهر فينا المنصب
في نهر لوار . واستمر الفريقان بضعة أيام على أهبة الحرب والطعان وشارل لا يجسر
على الهجوم خدعة منه وحذراً ، ففتح عبد الرحمن الحرب وأنزل للميدان مفرزة من
فرسانه ودام القتال ستة أيام والنصر فيها للمسلمين وفي اليوم السابع هجمت عساكر
شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم فشغلت أفكار المسلمين على
أموالهم وعيالهم . وقتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة
وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة ٧٣٢ م وسنة ١١٤ هـ ورجعت بقية السيوف من
أهل الاسلام لا عن طريق رونسيفوبل عن طريق طولوز وقرقشون ونربون لرسوخ
قدمهم في تلك الجهات . ولحقهم شارل مارتيل وأسترجع مدينة افينيون ولم يقدر على
استرجاع نربون فهدم ما في شمال نهر اود من الحصون والقلاع وصيرة قفراً لكيفا
يطمع فيه العرب . وقد نظم أحد شعراء الفرنسيين المسمى (قارل دوست غارد) في
حدود سنة ١٦٨٤ ديواناً عنوانه اخراج العرب من فرانس وجعل فيه البطل المغوار في

هذه الحروب شيلوبراند أخ شارل مارتيل فنكت عليه الشاعر بوالو وجهله على مدحه
بطلاً لم يحقق التاريخ وحوده بين أبطال تلك الحروب .

فاشتهر شارل في البلاد وصار الناس يتحدثون به في فرانس وإيطاليا وعموم
أوروبا ويروون عن شجاعته احاديث ملفقة . ويزعمون ان بلطته أوفأسه المسمى
مارتو أو مارتل قتل بها ما يربو على ثلاثمائة ألف من العرب . غير ان واقعة بواتيه على
التحقيق لم يكن فيها تغلغل كبير على عساكر الاسلام ولوبقي في شارل بعدها قوة
لاخرجهم من ناربون ورمى بهم إلى ما وراء جبال البيرنيه وحصن منافذ الجبال
وجعلها مانعة لهجومهم ولكنه لم يستطيع ذلك . وأستمر العرب في جنوب فرنسا حقبة
من الزمان سيما في اطراف مرسيلية . ولم نزل نشاهد في متحف نربون كثيراً من اثارهم
وأوانيهم الخزفية . واليهم تنسب (جبال المور) (١) وهي في شمال طولون ومارسيلية .
كما نسبت اليهم قسطل سارازين وهي مدينة بين بوردو وطولوز والقسطل هو
الحصن أو القلعة . ولم يزل في ضواحي القدس قرية يقال لها القسطل . فقسطل
سارازين معناها حصن العرب وقيل غير ذلك والله أعلم .

وكان هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الأمويين قد عين على أفريقية عبيدة بن
عبد الرحمن بعد استشهاده واليهما بشر بن صفوان الكلبي في فتح صقلية وهي جزيرة
سيسيليا التابعة اليوم لإيطاليا . غير ان ولاية عبيدة لم تطل بل عزل ونصب مكانه عبيد
الله بن الحبصاب وهو الذي زين تونس بالمباني الفاخرة وأنشأ في ساحلها دار صناعة
للسفن أي (ترسانة) كما يسميها الاتراك أو (شانية) كما يقول الافرنج . فلما بلغ عبيد
الله وفاة عبد الرحمن في واقعة بواتيه بعث والياً على جزيرة الاندلس عبد الملك بن
قطن فاصالح حال الجيش وزوده وساقه على فرنسا سنة ١١٧ هـ سنة ٧٣٥ م فاسترد
الايالات الجنوبية التي في أطراف نربون وقرقسون وعلى ضفاف أود وعبروا نهر الرين
وضبطوا إيالة بروفانس باجمعها سنة ١٢٠ هـ أو سنة ٧٣٧ م من حاكمها مورونت ومركزه

(١) يسمى الافرنج عرب اسبانيا مور (Maurs) نسبة إلى موريتانيا القديمة وهي عبارة عن تونس والجزائر ومراكش
ويسمونه أيضاً (Sarrasins) سارازين واختلفوا في أصل هذه الكلمة فقال بعضهم من (سارقين) العربية وآخرون
بل نسبة إلى (سارا) زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام لأنهم أولاد جارياتها (هاجر) أم اسماعيل جد العرب وقال غيرهم
إنها تحريف لشرقين

اكس في شمال مرسليليا . وظلوا سائرين على سواحل البحر الشامي حتى دخلوا
ايطاليا وأغاروا فيها على مملكة لومبارديا التي عاصمتها ميلان فاتفق ملكها لوي
بران مع المتغلب على ملك الافرنج وهو شارل مارتيل دوق أوستراسيا وناظر السراي
الملوكية وأرجعا العرب إلى قرب جبال البيرينة سنة ١٢٢ هـ أو سنة ٧٣٩ م ولم يقدرا
على اخراجهم من نربون ولا من قرقسون

ثم ان عبيد الله بن الجحباب والي افريقية عين عقبة بن الحجاج على الاندلس
فحضر اليها واستلم زمام الامر فيها فحصلت فتنة وتغلب عليه عبد الملك بن قطن
الفهري فذهب عقبة بن الحجاج الى قرقسون في فرانس وكانت عامرة بالمسلمين وبقي
هناك إلى ان مات ودفن في تربة قرقسون . فغضب هشام وعزل عبيد الله وولى
مكانه كلثوم بن عياض والياً على افريقية وبعث معه اثني عشر الف فارس من فرسان
الشام يقودهم بلج بن بشر . فقتل كلثوم في المغرب الأقصى في واقعة جرت له مع
البربر ودخل بلج بن بشر بعسكره جزيرة الاندلس وقاتل عبد الملك بن قطن وتولى
مكانه . فبعث هشام لافريقية حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر فجاء القيروان
سنة ١٢٤ هـ أو سنة ٧٤١ م وأصلح ما فسد في قبائل افريقية والغرب الأقصى وبعث ابا
الخطار الكلبي والياً على الاندلس فورد اليها ونزل قرطبة وفرق عساكر الاسلام في
البلاد فانزل الدمشقيين في البيرة (الويرة) وهي الولاية التي عاصمتها غرناطة وتكثر
فيها المياه والغوطات والرياض . ومدينة غرناطة مبنية على ثلاث تلال يمر من وسطها
نهر حدار (دارو) المنصب في نهر شنيل وهو ينصب في الوادي الكبير (غواد الكبير)
المارباشيلية . ولذا دعاه العرب نهر اشبيلية . وفي غرناطة قصر الحمراء الشهير
وغرناطة في جنوب مادريد وعلى خط الطول المار منها . وأما خط الحديد بينهما
فمسافته ٦٩٦ كيلومتراً ولذا أطلق على البيرة وغرناطة دمشق . وانزل الحمصيين في
اشبيلية (سفيلة) ويمر منها الوادي الكبير وفيها القصر المشهور عند الافرنج باسم
(القارار) وكان داراً لملك بني عباد . ولذا أطلق على اشبيلية حمص . وأنزل أهل
قسرين على ضفاف الوادي الابيض (غواد لفياد) المنصب في البحر الشامي قرب
لنسية فاطلق على تلك النواحي قنسرين . وانزل أهل الاردن في مالفه (مالاغه)
وهي على ساحل البحر الشامي شرقي جبل طارق ويمر منها (وادي المدينة) واليها
يسب الحمر المعروف باسم (مالاغه) . وانزل أهل فلسطين في سيدونيا أي مدينة

شريش (اكسيرس) وما جاورها وهذه المدينة بالقرب من قادس على مسافة ٢٢ كيلو متراً عن البحر المحيط وإليها نسب كثير من الأدباء فليل لهم التريشي ومنهم شارح المقامات وكتابه مطبوع في مصر . وينسب إليها اليوم الخمر المشهور باسم (شري) و(اكسيرس) . وفيها فاز طارق بن زياد على رودريك ملك القوط وشتت عساكره واخذ ملكه

وانزل ابو الخطار الكلبي المصريين في تدمير وهي الايالة المشتملة على مرسية وهي على نهر بنفوره تبعد عن ساحل البحر الشامي المتوسط بين البحور ٣٥ كيلومتراً بجانبها سهول هورته المشابهة لوادي النيل في بركة المحصول وقوة الانبات ولذا أطلق عليها مصر . ولم يزل فيه بقايا الترع العربية والقنوات . وبينما كان المسلمون في الاندلس ينظمون شؤونهم ويستعدون لفتح بلاد الافرنج ونشر الدين الاسلامي فيها ظهر الفساد في دمشق عاصمة الممالك الاسلامية ودار خلافتها واختلت امور الدولة بعد وفاة هشام وجلوس الوليد (٨٤-١٢٦هـ) بن يزيد بن عبد الملك بن مروان حادي عشر خلفاء بني أمية . وجلس بعده في تلك السنة يزيد (٨٠-١٢٦هـ) بن الوليد بن عبد الملك ثم اخوه ابراهيم . ثم رابع عشر خلفاء بني أمية وأحرهم وهو مروان الحمار (٧٠-١٣٢هـ) بن محمد بن مروان بن الحكم . ولم ينتظم الأمر ولا لواحد منهم بعد موت هشام ولا سكنت الفتنة في أيامهم ولذا لم تتقدم الفتوحات في بلاد الافرنج .

١٢ - داخلية أوروبا بعد رجوع العرب عنها

أما فرنسا فاستيقظت بسبب هذه الحروب من غفلتها واجتمعت كلمتها على شارل مارتل ناظر سراي الملوك من آل فلوفيس حفيد مير وفه فاستبد بالأمر وصار الأمر النهائي في المملكة وزال نفوذ الملوك من سلالة مير وفينجيان واصبحوا كالحلفاء العباسيين في آخر أمرهم . ولم يستطع شارل مارتل ان يملك على الفرنسيين لشدة ظلمه وسوء سيرته وتعديه على املاك الاديرة والراهبين ولكنه هيا الملك لولده ولخفيده من بعده . وأما هو فلم يرض بعمله المسلمين ولا النصراني لانه ضبط أوقاف الاديرة والكنائس ليجوز العساكر ويقوم بنفقات هذه الحروب العظيمة فاغضب بذلك الاساقفة والراهبين المتمتعين بهذه الأموال فلم يغفروا له هذه السيئة واغضبوا العين

عن جميع حسناته عليهم . وحكموا في مجتمعهم الرهباني (قونصل) في فرنسا بكفره وأدخلوه في نار جهنم . وراه احد اوليائهم بعين الكشف وهو يعذب في النار والافاعي تنهش من جثته المتننة . فشارل مارتل واضع اساس الدولة الثانية في ملك الافرنج لم يرض عنه المسلمون ولا النصارى .

ولما مات قام بالأمر بعده ابنه بين القيصر وحارب قبائل الجرمان في المانيا وقبائل اللومبارد في ايطاليا وكانوا معادين للباباوات في رومة فاكسب بذلك نفوذاً وقوة وانتخبته قبائل الافرنج ملكاً عليها . وأمر البابا بدهنه بالزيت المقدس وتتويجه فدهنه وتوجه القديس بونيفاس أسقف ماينس سنة ٧٥٢ م وانقرضت دولة مير وفينجان بعد ان ملكت (٤٤٨ - ٧٥٢ م) ثلاثة قرون . وسميت الدولة الثانية قارلوفينجيان نسبة إلى شارلمان بن بين القيصر وحفيد شارل مارتل وملك الدولة الثانية (٧٥٢ - ٩٨٧) قرنين ونصف قرن تقريباً وفي سنة ٧٦٠ م أو سنة ١٤٣ هـ اغار بين القيصر على بلاد المسلمين واسترجع منهم نربون وجميع ايالة سبتانيا . فلم يستطيعوا الدفاع عنها لاشتغالهم بما حدث عندهم من الانقلاب العظيم بسبب سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية مقامها . فقتلوا بني أمية واستخفى من سلم منهم فهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ودخل الاندلس سنة ١٣٩ هـ أو ٢٥ أيلول (سبتمبر) سنة ٧٥٩ م فاطاعه بعض المسلمين فيها واستولى على اشبيلية وجعل قرطبة دار المملكة واخضع لحكمه جميع جزيرة الاندلس وكنل بالمتشيعين منهم للخلفاء العباسيين - فيلفهم السبب الذي مكن الافرنج من استرجاع نربون وقرقسون .

ولما مات بين سنة ٧٦٨ م أو سنة ١٥١ هـ جلس مكانه على كرسي ملك الافرنج ابنه شارلمان (سنة ٧٤٢ - ٨١٤ م) ومعناه شارل الكبير فنسبت اليه السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج وقيل لها (قارلوفينجيان) أي آل قارلolan اسم شارل يلفظ بصورة مختلفة حسب اللغات واللهجات . فالالمان يلفظونه قارل وعند

نقلنا هذه الخلاصة التاريخية عن كتاب « بلاد العرب » (Arabie) الفرنساوي تأليف نوثيل ديفرجه (Noel desvergers) المطبوع في باريس سنة ١٨٤٧ ونقل هو عن المستشرق (Renaud) مؤلف كتاب « هجوم العرب على فرانساً » المطبوع سنة ١٨٣٦ في باريس واعتمد في ما كتبه على تواريخ العرب المحفوظة في المكتبة الأهلية وكانت تسمى قبلاً المكتبة الملوكية ولاسيا على « تاريخ المقرى » وعلى « تاريخ النويرى » وغيرها .

الاسبانيول قارلوس وعند الانكليز جارلس بالجيم الفارسية . ففتح شارلمان ممالك لومبارديه وعاصمتها ميلان وهي القسم الشمالي من ايطاليا وكان بين ملوكها وبين باباوات رومة ضغائن وعداوة فامتن البابا من ذلك وبارك شارلمان ورضي عنه ثم فتح بافاريا وساقسونيا وهما من ممالك المانيا . واخضع ايلالة اكيثانيا التي كانت ميدانا ترمح فيه غزاة المسلمين . فجمع شارلمان في حكمه بين فرنسا ومانيا وايطاليا ومزج الاقوام الجرمانية بالاقوام الرومانية الذين كانوا في حكم دولة الرومان .

ولما تولى شارلمان كان مشتركاً في الملك مع اخيه اتباعاً للقواعد المرعية في ذاك الزمان وهي تقسيم الملك بين الاولاد . ففي سنة ٧٧١ م استقل بالملك وجعل عاصمته اكس لاشابل وهي على نهر الرين في المانيا وزينها بالباني والقصور ولذا يعتبره الالمانيون في عداد ملوكهم كما يعتبره الفرنسيون . وفي سنة ٧٧٨ م وسنة ١٦٢ هـ تجاوز شارلمان بعساكره جبال البيرينه من ممر وونسيغو الذي مر منه عبد الرحمن حينما فتح بوردو وبوانيه وتور وور منه قبلاً هنيئال القائد القرطاجني حينما قهر الرومانيين ، هو ممر صعب في جبال البيرينه قريب من البحر المحيط . ولذا لم يرجع العرب منه بل كانوا يتجاوزون على فرنسا من جهة البحر الشامي عن طريق (بويسيردا) و(نربون) فضبط شارلمان ولاية نافار وولاية قطولونيا وتقدم على ضفاف ايبير حتى بلغ مدينة سرقسطة مركز ولاية اراغون والقي الحصار عليها وكانت بيد المسلمين . فبعث اليه عبد الرحمن الأول سنة ١١٣ - ١٧١ هـ (٧٣١ - ٧٨٧ م) الملقب بالعدل . بجيش منظم طرد عساكر شارلمان من اسبانيا وارجعها الى ما وراء البيرينه . وكان المسيحيون من النفاريين والواسكون أي الباسك متفقين مع المسلمين حباً في العدل الاسلامي وكرها في ظلم شارلمان لوطئه بالعسكر بلادهم وقتله رجالهم وأولادهم ولذا رجحوا الاتفاق مع المسلمين مع انهم على غير دينهم وانتقموا من شارلمان وجنوده وهويدين بما هم يدينون به :

والدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لأبي الحق ان وجبا والمرء يعييه قود النفس مصحبة للخير وهويقيود العسكر اللجبا فلما ارتدت جنود شارلمان على عقبها خاسرة اغتتم أهل نافارا وغسكونيا المسيحيون هذه الفرصة وانقضوا عليهم وهم في ممر وونسيغو وبادوهم عن آخرهم . وقتل في هذه المعركة رولان قائد الجنود البريطانية نسبة إلى ايلالة بريطانيا في غرب

فرانسا ورفيقه اوليفية ونظمت في هذه الواقعة أغاني رولان الآتي ذكرها . وهي عند الفرنسيين كقصيدة عنتر لا بل كقصيدة بي هلال أو الزير . واسترد عبد الرحمن العادل وهو المعروف بالداخل ولاية أراغون وقطالونية واسترد ابنه هشام (١٤٠-١٨٠هـ) مدينة جير ونيه ونربون وجميع إيلالة سبتمانيا سنة ٧٩٢ م (سنة ١٧٦هـ) واستخدم الأسرى في بناء جامع قرطبة وكان أبوه قد باشر عمارته فنصب شارلمان ابنه لويس ملكاً على إكيتانيا وأمره بمحاربة العرب . فكانت بينهما حروب على سفح جبال البيرينه من سنة ١٨٠هـ (٧٩٦م) وهي السنة التي توفي بها هشام وجلس فيها ابنه الحكم خلفاً له وخرج عليه عمه سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن وتحاربوا مدة وكان النصر للحكم على عميه . ودامت الحروب مع الأفرنج إلى سنة ١٩٧هـ (٨١٢م) واخذ الأفرنج في هذه الحروب ولاية نافارا وسبتمانيا وجزءاً من قطلونيا وهو المشتمل على مدينة برشلونه التي على ساحل البحر الشامي . فشارلمان لم يتمكن من إسبانيا ولكن حكمه كان نافذاً في عموم أوروبا الغربية وكان البابا وعموم الكهنة يميلون إليه ويرغبون في إعادة نفوذ امبراطورية الرومان الغربية ليضاهوا بذلك الامبراطورية الشرقية القائم بها قياصرة الروم ويحصلوا على العز الذي حصل عليه بطاركة القسطنطينية وكهنتها المنشقون ولذا دهن البابا شارلمان بالزيت المقدس وألبسه تاج الامبراطورية في آخر القرن الثامن أي سنة ٨٠٠ م (سنة ١٨٤هـ) .

وكانت الخلافة العباسية في بغداد قد بلغت منتهى العز وأوج الرفعة على عهد الرشيد فاخذ شارلمان يتقرب منه وبعث إليه بسفارة مؤلفة من سفيرين فرنساويين يصحبهما يهودي اسمه اسحق وكان الخليفة يحارب قيصر الروم فأرى من السياسة التمايل الى الأفرنج اعداء الامويين فاحسن ضيافة الوفد الأفرنجي واكرم مثواه وأجاب طلبه بالرخصة لحجاجهم في زيارة بيت المقدس وبعث الى شارلمان بهدية فاخرة منها سرادق كبير من الحرير وساعة دقاقة وشطرنج لم يزل بعض احبائه محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس وهي من العاج دقيقة الصنعة والقطعة منها كبيرة الحجم . وكان ذلك قبل موت الرشيد بسنة أي في سنة ١٩٢هـ (٨٠٧م) وتوفي شارلمان بعد ذلك بسبع سنين أي سنة ٨١٤م وجلس في مكانه ابنه لويس الى سنة ٨٤٠م ثم انقسمت المملكة الى ثلاثة أقسام المانيا وفرنسا وإيطاليا وضعف حال ملوك فرنسا وجمع عليهم الأقوام الشمالية الذين يسمونهم نورمان من بلاد اسوج ونروج والدانيارك وأسسوا في

شمال فرنسا دوقية نورماندية وانقسمت المملكة الى دوقيات وكونتيات وكان حكامها أشد نفوذاً من الملك . وصارت السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج الى ما صارت اليه السلالة الاولى فاستبد بالامردوق فرنسا كما استبد قبله دون اوستراسيا . وفعل هونغ قابت ما فعله ابن شارل مارتل وأحدث السلالة الثالثة في مملكة الافرنج وهي سلالة قابتيان . وملاكت هذه السلالة من سنة ٩٨٧ م إلى سنة ١٤٢٨ م وفي زمنها ظهرت فرنسا للوجود وسميت مملكة فرنسا نسبة إلى هونغ قابت دوق فرنسا . وانتقل الملك بعد ذلك إلى فرع ثان من تلك السلالة وهو المسمى فالوا ثم إلى فرع ثالث وهو آل بوربون .

١٣ - فتوح المسلمين في جنوب اوربا والحروب الصليبية

ثم ان المسلمين عدلوا عن فتح فرنسا ولعلمهم فعلوا ذلك لشدة البرد في الاقاليم الشمالية وعدم توسع العمران فيها اذ ذاك ولصعوبة المرور من جبال البيرينه وهي أشد برداً من جبال لبنان التي يقول المتنبي :

وجبال لبنان وكيف بقطعها وهى الشتاء وصيفهن شتاء

ومالوا الى فتح جزر البحر الشامي فاستولوا على جزائر باليار وهي مايورقة ومينورقة وأفس وما يتبعها سنة ٨٢٠ م (سنة ٢٠٥هـ) وكانوا يسمونها (مايرقه) و(منرقه) ويابسة . واستمروا فيها إلى سنة ١٢٣٢ م واستولوا سنة ٢٢٦هـ على جزيرة قورسيقة فبقيت مستقلة عن غيرها بالحكم إلى سنة ٢٣٦هـ (٨٥٠م) واغاروا على سواحل مرسيليا مراراً وأسسوا سنة ٢٧٦هـ (٨٨٩م) مستعمرة فراقسيه فيسا بين ويس وطولون . وكان الفينيقيون اسسوا قلعهم مستعمرة في جوار موناكو . ومكث المسلمون في فراقسيه طول القرن العاشر وتزوج بعضهم بنساء تلك الايالة الفرنسية واشتعلوا بفلاحة ارضها حتى أصبحت زاهية بحضارتهم . ثم جالوا سنة ٣٢٤هـ (٩٣٥م) في اقليمي تارنتيزه ووالس ثم في بلاد السويس (سويسرا) التي نهبها المجر قبل ذلك ومدوا نفوذهم سنة ٣٣١هـ (٩٤٢م) على فريجي ووطولون وجميع سواحل البحر الشامي في فرنسا . ولم يزل يقال للجبال التي في شمال مرسيليا وطولون (جبال المور) ومدوا نفوذهم على ايطاليا أيضاً . فان بني الاغلب استولوا على جزر سيسيليا (صقلية) ومالطة وسردانية وجميع القسم الجنوبي من ايطاليا في حدود سنة ٢١٣هـ (٨٢٨م) الى

سنة ٢٦٥هـ (٨٧٨م) ورسخت لهم قدم في جميع هذه البلاد واستبحر فيها عمرانهم وحسنت بهم الزراعة والصناعة وكانت مدينة امالفي ومدينة ساليرم وهما في جنوب نابولي (وكتبوها نابل) زاهيتين حضارتهما وهما اليوم قريتان خربتان لم يزل يشاهد فيهما آثار العرب وبقايا الطواحين التي عمروها ولسان الحال يقول . ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار . واستولوا على اوستيه وكانت مينا رومة العظمى وهي بقرب مصب نهر التير و على بيزا ذات البرج المائل وكانوا يسمونها (بيش) وعلى جنوه التي في شمالها وبقي المسلمون في جزيرة (سردانية) سردينيه إلى سنة ٤٠٨هـ (١٠١٧م) وفي طارانت التي في جنوب ايطاليا الى سنة ٣٩٦هـ (١٠٠٥م) وفي جين (جنوه) الى سنة ٣٢٥هـ (٩٣٦م) (انظر خريطة مملكة العرب في اطلس شرادر الفرنساوي المطبوع في باريس) .

واختلف المؤرخون في التاريخ الذي أغار فيه العرب على ليون وما في شمالها من الايالات الفرنسية - لا ليون التي في شمال اسبانيا الغربي وتكتب (Leon) ويكثر ذكرها في تواريخ العرب - هل كان في عهد شارل مارتل فقط أم في عهده وبعد ذلك أيضاً حينما دخلوا من سواحل طولون وتقدموا في الشمال حتى بلغوا بلاد السويس . ولكن المؤرخين متفقون على ان المسلمين ضبطوا ايالة دوفينة وهي في شمال بروفانس على ضفة الرون اليسرى وضبطوا في شمالها ايالة بورغونية وسموها (أرض بورغونية) وايالة فرانك كونتة وايا التي فينا - وفينا هذه ايالة في وسط فرنسا الغربي بخلاف سميتها عاصمة اوستريا والمجر وكان حاصرها الاتراك - وضبطوا في فرنسا جميع ضفاف الرون وغزوا القرى والمدن التي في تلك الايالات . وأمها هذه المدن هي : ليون وهي على نهر الرون وأول مدينة في فرنسا بعد باريس ثم ماقون واليها ينسب الخمر المسمى باسمها من خمور بورغونية ، وتسالون التي على نهر السون ، وبون وسماها العرب (بونة) واوتون واحترقت فيها كنيسة عظيمة حينما هاجمها العرب ، كنيسة سان ناظير وكنيسة سان جان وكذا دير سان مارتن ، وديجون وهي منتهى ما أخذوه في الشمال من المدن العظيمة وفي شرقي ديجون وبالقرب منها مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوغو ، وجميع هذه المدن هي في ممر السكة الحديدية من باريس - ليون - البحر المتوسط أي مرسيليا وما جاورها من المواني البحرية . ولم يجد العرب أموالاً كثيرة في غزواتهم لان البلاد لم تكن في التروة والعمران التي هي عليها اليوم ولكن مقصدهم

الاصلي كان اعلاء كلمة التوحيد ودعوة الامم بقولهم « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلا الله ولا نُشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

الحروب الصليبية

فجميع الحروب التي وقعت بين المسلمين والنصارى من ابتداء ظهور الاسلام بمكة وفتح المسلمين للقدس على عهد ثاني الخلفاء الراشدين هي من نوع الحروب الصليبية . الا ان المؤرخين اصطالحوا على اطلاق هذا الاسم على الحروب التي وقعت بين المسيحيين من الأمم الاوربية وبين المسلمين من الأمم الشرقية وامتدت من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر للميلاد وكان الباعث عليها التعصب الديني والغاية منها تخلص قبر السيد المسيح عليه السلام . واتخذ المحاربون من الامم الاوربية الصليب شعاراً لهم ونقشوه على اثوابهم وجلودهم . ولذا قيل لهم الصليبيون . وعدد الحروب الصليبية ثمانية وهي :

الاولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م) - الحرب التي دعا اليها بطرس الناسك وقرر إجراؤها البابا اوربين الثاني في المجمع الروماني المنعقد سنة ١٠٩٥ م في مدينة كليرمون فيران وهي بالقرب من مدينة ليون في فرنسا . وكانت النتيجة ارسال جيشين للشرق احدهما تحت قيادة بطرس الناسك والقائد غوتييه وكان مؤلفاً من ناس لاخبرة لهم في الحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم بغير تأهب للسفر فمات أكثرهم في الطريق وقتل آخرهم السلجوقيون في بر الاناضول . والثاني جيش متأهب للسفر ومتسلح للحرب تحت قيادة غودفروا دويوليون دوق ايبالة اللورين . عبروا بوغاز الدرديل واستولوا في بر الاناضول على ازنيق وطرسوس وهي مينا اطنة وعلى انطاكية وكانت هذه المدن تابعة للدولة السلجوقية ومركزها قونية . ثم استولوا على القدس وكانت تابعة لخليفة مصر العلوي وقتلوا فيها كثيراً والبسوا غودفروا تاج الملك . وذهب المستنفرون إلى بغداد فلم يستطع أهلها غير البكاء وقال المظفر الايبوردي ابياتاً منها :

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات ايقظت كل نائم
واخواسكم بالشام يضحى مقيلمهم ظهور المذاكي أو بطون القشاعم

الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) الحرب التي دعا اليها القديس برنار وقادها كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا فوصلوا دمشق الشام وحاصروها ورجعوا عنها .

الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٣) الحرب التي دعا اليها غليوم أسقف صور بسبب استرداد صلاح الدين الايوبي للقدس . وقادها فريديك بابلوس امبراطور المانيا من جهة وفيليب اوغست ملك فرنسا وريشار قلب الأسد ملك انكلتر من جهة اخرى . فالأول غرق في النهر بعد اخذه قونية . والآخران اخذا قلعة عكا وعقدا الصلح مع صلاح الدين .

الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤م) الحرب التي دعا اليها فولك وقادها بغدوين وهو بودوين التاسع كونت ايبالة فلاندر وكانت ايبالة مستقلة بين فرنسا وبلجيكا . فلما وصلت هذه البعثة إلى فينيسية (البندقية) استدعاها قيصر الروم في القسطنطينية لنصرته على اخيه وكان قد اراد التغلب عليه فاجابت دعوته وأيدته على كرسي مملكته . وبعد وفاته انتخب الصليبيون مكانه بودوين المذكور بعد أن خربوا المدينة وأتلفوا ما فيها من الآثار النفيسة والمباني الظرفية واستمرت دولة اللاتين في القسطنطينية ٥٧ سنة (١٢٠٤ - ١٢٦١) .

الخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١) الحرب التي اشهرها جان دوبرين ملك القدس واندريه الثاني ملك هونغارية وذهبوا فيها إلى مصر وعادوا منها خائينين . السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩م) الحرب التي قادها فريديك الثاني امبراطور المانيا لادعائه بميراث مملكة القدس عن جان دوبرين . فعقد مع الملك الكامل معاهدة الصلح واستلم بموجبها القدس .

السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٤م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا ايفاءً بنذر نذره . فخرج لمصر وغلبه الملك الكامل خامس الملوك الايوبية في محاربة المنصورة واسره فاخلى دمياط وسلمها للمسلمين فكافأ لاسره .

الثامنة (١٢٧٠م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس لويس ومات فيها امام اسوار تونس الخضراء . فاسترجع المسلمون حينئذ مدن فلسطين وسوريا من الافرنج واحدة بعد الاخرى . وكان آخرهن فتح عكا سنة ١٢٩١ م وانتهت بذلك الحروب الصليبية .

وكان هذه الحروب نتيجتان احدهما مادية عسكرية والاخرى معنوية أدبية فالنتيجة المادية رجوع الافرنج عن الغنيمة بعد الكد بالقفل وتحليلتهم القدس وجميع ما ملكوه في الشرق . والنتيجة المعنوية انتباههم من الغفلة التي كانوا فيها بمخالطتهم المسلمين وأهل الشرق وسلوكهم منذ ذاك التاريخ سبيلي « الانتظام » و« الترقى » ويسميهما الافرنج (اوردر وبروغره) . قال رينان « حدث بعد الحرب الصليبية الثامنة التي قام بها لويس التاسع ومات على ابواب تونس حركتان واضحتان من جهتين مختلفتين الاولى انحطاط العالم الاسلامي والاخرى نهوض العالم المسيحي لان العلوم الاسلامية لما لقحت جراثيم الحياة في جسم البلاد الاوروبية انطفأت جراثيم حياتها . واخذ العالمان يسيران في وجهتين متعاكستين علواً وهبوطاً . سارت مشرقة وسار مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

١٤ - ما اقتبسه الافرنج من قواعد الشعر العربي

فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعارضة في هذه الرسالة ان الاختلاط بين العرب والافرنج لم ينقطع لا في الحروب الصليبية ولا قبلها حينما دخل العرب ارض فرنسا وتوطنوا في جنوبها وحرثوا ارضها وتزوجوا بناتها وتاجروا مع أهلها وعمروا مدن نربون (نربونه) وقرقسون (قرقشونه) وفرافسينه واخذوا الاسرى من الافرنج وشغلوهم في عمارة جامع قرطبة القائم ليومنا هذا على ألف وثلاثة وتسعين عموداً وفي غيره من المباني الفاخرة كالقصر والزهراء والحمراء والقنطرة . فكانت الافكار تتبادل بين الفريقين ضرورة ولو كانا على طرفي نقيض . وحيث كان المسلمون في ذاك العصر أرقى حضارة وأدباً من جيرانهم المسيحيين كانت الافرنج تقتبس من معارف المسلمين وتحصل العلم في مدارسهم وجوامعهم كما فعل البابا سيلفستر الثاني . واسمه الذي سماه به ابوه جريبر (٩٣٠ - ١٠٠٤م) فانه بعد ان حصل مبادئ العلوم اللاهوتية باللغة اللاتينية في مدينة أوريياق التي ولد فيها وهي بالقرب من طولوز وفي شمالها الشرقي ارتحل في طلب العلم إلى الاندلس فقطع عقاب الأيرينه والوادي الكبير المار بجوار قرطبة ومن اشبيلية والمنصب في خليج قادس من المحيط غير بعيد عن شريش وجاور في مدرسة اشبيلية ثلاث سنين وعاد لاوروبا متبحراً في العلوم والمعارف حتى

حسبه الناس ساحراً واتخذهُ الملوك مؤدباً لاولادهم وتقلب في المناصب حتى احرز رتبة الباباوية . وقيل انه اول من ادخل لبلاد الافرنج ما يسمونه الارقام العربية ونسبوه الارقام الهندية وهي التي تدل بذاتها على عدد وبمنزلتها على عدد آخر . وكانوا لذلك العهد يستعملون الاحرف اللاتينية التي هي بمثابة الحروف الابجدية .

واقتنى طلاب العلم أثر هذا البابا الحكيم وكذا المنتحلون منهم للشعر والأدب كانوا يقلدون شعراء العرب وأدباءهم . وكان المجاورون للعرب من أهالي فرنسا وشمال اسبانيا يحيدون عن تعلم اشعار اللاتين ويكون على تعلم اشعار العرب وأزجالهم . وكان فقراؤهم في القرن الحادي عشر للميلاد ينشدون الأناشيد والمدائح العربية وهم يستعطون على الأبواب وفي الطرقات فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم لا لفهمهم ما يقولون وانما شوقاً منهم وحناناً للآحان والانغام والقوافي الرنانة كما كانت العربية هي اللسان الرسمي في صقلية على عهد رجارو ومن خلفه من الملوك بعد انقراض الحكومة الاسلامية منها وكانوا يحررون بالعربية على المباني العمومية في تلك الجزيرة .

وذكرنا فيما تقدم ان لغة « رومان » وهي لاتينية سوقية محرفة بكلام الغولوا والفرنك انقسمت إلى شعبتين (١) لسان أوق تكلم به أهل الجنوب لاسيما سكان بروفانس (٢) لسان أويل تكلم به أهل الشمال لاسيما سكان جزيرة فرنسا وهي الايالة التي عاصمتها باريس وكان في الشمال شعراء يقال لهم (تروفير) وفي الجنوب شعراء يقال لهم (تروبادور) . فالتر وبادور الذين كانوا في ايالة بروفانس هم صنف من المداحين يطوفون من قصر لقصور ومن قلعة لاخرى يغنون قصائدهم ويمدحون الامراء وذوي الوجاهة ويسمون ادبهم بالعلم المطرب . ولم تكن اشعارهم ذات قواف كاشعار العرب وانما لها بدل القافية مراكز ومواقف كاشعار التي يتغنّى بها رعاة الغنم . وكان لهم فن من الشعر يسمونه تنسون (Tenson) على شكل المخاطبات يشابه ما أوجده الاندلسيون من الفنون الشعرية . واجمع العارفون على ان القوافي اول ما ظهرت في الشعر البروفانسال وانما مأخوذة من العرب . فالقافية عند الفرنسيين هي اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة وما يتبعها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين أو قطعتين من الشعر مثل ساج وباج (Sage, Page) فالذي أخذوه عن العرب بالسجع والتقليد هو علم القوافي . وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن القافية ما يسمونه

(اسونانس) وهو اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة بقطع النظر عما بعدها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج (Sâge) وآرم (ârme) وكان استعمالهم للقوافي في القرن الثالث عشر واخذوا عن العرب في المنظوم أنواع المدح والغزل والنسيب والهجو والهزل أي ما يسمونه ليريك وما يسمونه ساتيريك . كما اخذوا عنهم في المنشور القصص والملح وضروب الامثال ومنها ما نقلوه نشرأ ثم نظموا في لغتهم . وجاروا العرب في الفكاهات أيضاً فألفوا حكايات وتظريفات على اقسى القرى وخدمة الكنائس ليضحكوا منهم الامراء والفرسان الذين يسمونهم « شيفاليه » . وفي هذه الحكايات والنوادر المأخوذة عن العرب ما أصله الأول من حكايات الفرس والهنود وترجمت إلى العربية ثم نقلت للأفريقية . فلو كان الحكم والغلبة لأهل الجنوب المجاورين للعرب وللغتهم المسماة « أوق » لوجدنا في اللغة الفرنسية الحالية شيئاً كثيراً من فنون الأدب العربية . ولكن الحكم والغلبة كانتا لأهل الشمال وللغتهم المسماة « أويل » وكان شعراؤهم التروفيرو لا يعرفون غير اشعار الحماسة وقصائدهم قصيرة والبيت مؤلف من عشرة هجاءات ليس له قافية وانما له (اسونانس) كما في اغاني رولان الآتي ذكرها واستمروا على هذا النظم إلى آخر القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر أخذ شعراء الشمال وهم التروفيرو ينسجون على منوال (التروبادور) وتعلموا منهم القوافي ورقة الغزل واللحن الموسيقي وصار فرسان الافرنج يقلدون فرسان العرب في انتحال الشعر فكانت فضائل الفارس المهارة في الفروسية وحفظ الشعر والتمثل به وفي لعب الشطرنج . فتحسن الشعر الافرنجي بادخال القوافي العربية فيه وباقتباس أدب الاندلسيين ورقة غزلهم .

١٥ - اقتباس الافرنج اقاصيلهم عن العرب

والحاصل ان الرومانيين لما فتحوا أرض الغول ادخلوا اليها مدنيهم ولغة عوامهم وهي اللاتينية الدارجة فلما استولى قبائل الافرنج على أرض الغول اخذوا ما وجدوه فيها من اللسان والمدنية فنتج من هذا الاختلاط لغة جديدة قيل لها « رومان » . وأقدم المدونات في هذه اللغة هريمين ستراسبوع وهو صورة القسم الذي أقسم به العسكر لاحفاد شارلمان حينما عقدوا معاهدة فيردون وقسموا مملكة شارلمان

إلى ثلاثة أقسام فراسا وجرمانيا وإيطاليا وأخذ كل منهم قسماً وذلك في سنة ٨٤٣ م أو سنة ٢٢٩هـ أي في خلافة الواثق بالله هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد في بغداد وعبد الرحمن بن الحكم في قرطبة فهذه أول مرة دوت فيها لغة رومان وقامت مقام اللغة اللاتينية ثم انقسمت لغة رومان إلى لسان أويل وإلى لسان أوق وانقسم لسان أويل وهولسان الشمال إلى لهجات غلب على الجميع لهجة جزيرة فرانسـا وهي الجزيرة المحاطة بالأنهار المشتملة على باريس وما في جوارها - فصارت اللغة الفرنساوية . ثم عم استعمال هذه اللغة في الأيالات الجنوبية وغلبت على لسان أوق سنة ٩٨٧م حينما تأسست الدولة الثالثة من دول الأفرنج وهي الدولة التي دامت إلى حدود الانقلاب الكبير وظهور الحكومة الجمهورية . وكان مؤسس الدولة الثالثة هو غرغ قابت دوق جزيرة فرانسـا فاطلق هذا الأسم على عموم المملكة وعلى اللغة .

ولما كان اتساع دائرة النظم في تاريخ الأدب سابقاً لاتساع دائرة الشركان الكلام المنطوم أساساً للأدب الفرنساوي وأقدم نظم فيه هو « أغاني رولان » وتاريخ نظمها في النصف الأخير من القرن الحادي عشر ونظمها أوناظموها مجهولون ولا دليل على أنه ير ولد المذكور اسمه في آخر بيت منها . ورولان هو قائد جنود شارلمان الذين حاربوا الأندلسيين . وذلك ان شارلمان لما فتح الفتوحات العظيمة وتتوج بتاج الامبراطورية واستحصل من الخليفة العباسي على الاذن لحجاج النصارى في زيارة بيت المقدس طار له ذكر في الافاق وتحدث الناس به ونظموا فيه القصائد وقصوا عنه القصص والحكايات وانشدوا الاناشيد وفعل الأفرنج له ما فعله العرب لهارون الرشيد . غير ان فنون الأدب الأفرنجية لم تكن زاهرة كفنون الادب العربية بل كانت حديثة النشأة لم تهذب بعد وكانوا يكتبون باللغة اللاتينية ما يحتاجون إلى كتابته وتدوينه ولم يكن الملوك والامراء ولا الرعية يفهمون اللاتينية الفصحى وانما كان يفهمها بعض الاساقفة والرهباين فنظمت (اغاني رولان) و (حج شارلمان) باللسان الفرنساوي الذي كان يتكلمه أهل ذاك العصر أي بعد شارلمان بأكثر من قرن . وفي اغاني رولان من المبالغات ما في قصة عنتر وجمست فيها الحرب التي حصلت بين الأفرنج وعرب الأندلس وجعلت رولان عنتر زمانه والحقت به بنسب شارلمان وادعت بانه ابن اخيه وذراعه اليمنى . وذكر في هذه الأغاني ان سبب هزيمة رولان هو خيانه غانيلون . وذلك ان رولان بعث بتابعه غانيلون إلى والي سرقسطة مركز ولاية اراغون بهمة حربية

وكان في ذهابه إليها خطر على حياته فاغتاز هذا المأمور من أمره وانضم إلى المسلمين ودبر في قتل رولان وانهمزاه فلما رجع رولان ببقية الجنود إلى فرنسا ووصل مضيق رونسيغو في جبال البيرينه هجم عليهم أهالي نافارا وغاسكونيه المتفقون مع المسلمين في جيوش جراحة عدتها اربعمائة الف فارس . وكان لرولان مستشار ورفيق اسمه اوليفيه فنصحه بالاستمداد من شارلمان واستدعائه لنجدته فلم يصغ في بادئ الامر لمقاله . ولما أراد ان يعمل برأي اوليفيه العاقل ويتبع مشورته فات الوقت وذهب الاوان وغلبهم العدو بكثرة عدده وامسوا متخبطين في ظلام النقع وقتل بعضهم بعضاً وضرب اوليفيه صاحبه رولان بالسيف ضربة خطاء لاعمد فجرحته وسببت موته فصورت تلك الاغاني موت رولان ثم موت اوليفيه وطلب كل منهما السماح من الآخر ومباركة الاسقف توربين عليهما وغفران ذنوبهما . واراد رولان قبل موته ان يكسر سيفه المسمى (دوراندال) لثلاثي يقع في أيدي اعدائه أو يصل إلى مارسيل (Marcile) وإلى المسلمين في سرقسطة فلم يستطع كسر هذا السيف لانه من السيوف التي لا تكسر ولا تفل ولعله من المعدن المسبوك منه صمصامة عنتره وذو الفقار علي رضي الله عنه وهو الذي قيل فيه لا سيف الا ذو الفقار . وقد تهور الفرنج في وصف (دوراندال) كما تهورت الشيعة في وصف ذي الفقار وجعلوا القوة والشجاعة باجمعها في السيف حتى لم يبق منها شيء لصاحب السيف ولم يزل أثر الضربة التي ضرب بها رولان الصخرة بسيفه باقياً إلى يومنا هذا يشاهده السائحون والمارون بمضيق رونسيغو كما يشاهدون تل العلائف في جوار قرية اريحا من فلسطين وهو التل الذي احدثه على زعمهم جيش ابي زيد الهلالي حينما مروا بقرية اريحا وارادوا الصعود إلى جبل القدس فنفضوا مخالي الشعر في اسفل العقبة فتكوم من الغبار الذي فيها هذا التل العظم لانهم كانوا لا يحصون عدداً لكثرتهم . هذا ما تتناقله اللسنة ويرويه الابهاء عن الاجداد ولعل الباحثين في الآثار القديمة لو حفروا في تل العلائف لوجدوا فيه أثراً من الآثار كما لو بحث العارفون بطبقات الأرض وبشكل الجبال لذكروا سبباً (لضربة رولان) في صخرة رونسيغو . ولرولان حصان كأنه هو وابحر عنتره بن شداد فرسا رهان . ولم يفت ناظم اغاني رولان ذكر الملائكة وكيفية نزولهم واصطفافهم حوله لقبض روحه . فصور في منظومته الجهاد المسيحي وجعل فضائل المجاهدين الشجاعة العسكرية والطاعة لأولى الامروهم (السوزيرين) والتصلب في الدين المسيحي وبغض من لم

يعتقدوا بما امر به وينتهوا عما نهى عنه بغضاً لوجه الله لا لعداوة دنيوية ولا لمال ودولة .
وهذه الاغاني مطبوعة ومترجمة للفرنساوية العصرية . ومنها يظهر اعتقاد الافرنج اذ
ذاك في الاسلام والمسلمين فانهم كانوا يحسبون المسلمين دعاة إلى عبادة الاصنام
ويعدون من اصنامهم ابولون ولم يزل الكثير من أهل القرى الفرنسية يعتقدون هذا
الاعتقاد إلى يومنا هذا كما تبين لي من محادثة الكثيرين منهم . وكان لاغاني رولان
شأن في عموم اوربا وفي انكلترا وترجمت في القرن الثاني عشر للميلاد للغة الالمانية
ولغة السويد والنرويج .

ومما نظم على نسق اغاني رولان حج شارلمان الى بيت المقدس وقصائد
وحكايات كثيرة في الحروب الصليبية ربما يعني في المستقبل بترجمتها ومطالعتها
المشتغلون بالتاريخ العربي كما يعني الافرنج في زماننا في استخراج الكتب العربية
وطبعها وترجمتها ليقفوا منها على حقيقة تاريخية يوضحون فيها ما غمض من تاريخهم
وفي اواخر القرن الثاني عشر واول القرن الثالث عشر قبل شعراء الشمال ينسجون
على منوال شعراء الجنوب يقتبسون منهم المحسنات الشعرية ورقة الغزل والقوافي
العربية ووضعوا الالحان الموسيقية وتغزلوا بها وطبع من ذلك داووين ورسائل كثيرة
لا حاجة لذكرها . ثم ظهرت الاشعار الهجوية والهزلية والملح والفكاهات مما هو على
نسق قليلة ودمنة وضروب امثال لقمان وبقية الحكايات المؤلفة على السنة الحيوانات
فمن ذلك (رومان الثعلب) و(امثال ايزوب) و(رومان روز) وغير ذلك وقيل للمنظوم
من ذلك (الاغاني) أو (اغاني القصص) .

١٦ - اقتباس الافرنج العلوم عن العرب

ولما اختلط ملوك اوربا وأمراؤها بملوك الشرق وامراء المسلمين في اثناء الحروب
الصليبية رأوا باعينهم ادباء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم واطباءهم وحكماءهم سيما
من كان منهم بمعية صلاح الدين الأيوبي مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب
وعلماء اليميني الشاعر والطبيب الخاذق الذي طبب ريشار قلب الاسد فقدروا الادب
حق قدره واعترفوا بلزوم وضع تاريخ لدولتهم . فالف بعض الرهبان السالكين طريقة
القديس ديني (St. Denis) تاريخاً لدولة الافرنج . وكان ذلك على عهد لويس

التاسع الملقب بالقدّيس وهو المتوفى سنة ١٢٧٠ م في تونس اثناء الحرب الصليبية الثامنة . فكان هذا التاريخ أول سجل لضبط وقائع ملوك الافرنج وتاريخ جلوسهم ووفاتهم وذكر شيء من اخبارهم وحروبهم . وداموا على هذا السجل إلى ان ملك لويس الحادي عشر المتوفى سنة ١٤٨٣ . وأنشأوا في مدينة مون بيليه مدرسة للطب وذلك في القرن الثالث عشر وهي أقدم مدرسة طبية في أوروبا بعد مدرسة ساليرن التي بجوار نابولي . وكانت الاندلس في منتهى عزها وحضارتها فجلبوا منها المدرسة مون بيليه المعلمين والمدرسين من العرب واليهود المستعمرين . وفي سنة ١٣٢٣ م أنشأوا في مدينة طولوز جمعية أدبية دعوها مدرسة العلم المفرح (College du gai savoir)؛ وجعلوا جوائز الشعر ازهاراً مصبوغة من الذهب والفضة تفرق على نوابغ الشعراء بعد تقدير الجمعية وحكمها ، وفي أواخر القرن الخامس عشر للميلاد أوقفت إحدى المحسنات من نساء طولوز أموالها على هذه الجمعية فأتسعت ثروتها وزادت رغبة الشعراء فيها وأقبلوا على انتحال فنون الادب وحسنوا المنطق والكلام باللسان الفرنسي . ولم تزل هذه الجمعية الأدبية زاهرة إلى يومنا هذا وتسمى جمعية أو (أكاديمية لعب الازهار) وتتألف من أربعين محافظاً ومن معلمين كثيرين . وسمي أعضاء هذه الجمعية بالمحافظين إشارة إلى ما يجب عليهم بحسب قانونهم من المحافظة على قواعد اللسان وفنون أدبه . ويحتفلون في اليوم الثالث من شهر مايو في كل سنة ويوزعون الجوائز والنقود على مستحقيها ولهم تسع جوائز من الذهب والفضة كل جائزة على شكل زهرة مخصوصة مثل الاقحوان والياسمين والسوسن ومنها ما هو للشعر ومنها ما هو للنثر والخطب - ورأينا فيما سبق كيف نال فيكتور هوغو جائزة هذه الجمعية .

وفي القرن الرابع عشر للميلاد ترجم الافرنج الكتب اللاتينية للفرنساوية ونقلوا علوم اليونان وفلسفتهم عن العرب ولم يكن لهم معرفة باللغة اليونانية ولا بها دون فيها فترجموا كتب ارسطو عن اللاتينية المترجمة عن العربية والعربية مترجمة من اليونانية أو السريانية . ثم ظهر فن التشخيص وكان منشأه من الكنيسة ومن تشخيص آلام المسيح عليه السلام وما شبه لهم فيه من القتل والصلب . فهذا اساس فن التشخيص ثم وسعوا دائرة هذا الفن ووضعوا فيه المؤلفات الكثيرة واستحدثوا فيه أنواعاً مختلفة وطرقاً متنوعة وأقبلوا على درس أدب اللغة اللاتينية وأدب اللغة اليونانية وتبحروا فيها

وانتقشت اساليب هاتين اللغتين في نفوسهم وحذوا حذو شعراء الرومان واليونان واتخذوا أشعارهم ورواياتهم منوالاً نسجوا عليه امثالها من كلمات أخرى فرنساوية ولم يزالوا كذلك حتى بلغوا شأواً كبيراً على عهد لويس الرابع (١٦٣٨ - ١٧١٥م) الملقب بالكبير وأصلحوا فنون الأدب وهذبوها وفتحت الماركيزة رامبويه دارها للأدباء من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٦٥ م وكانت تستقبلهم هي وبناتها ويعقدون في حضرته منتدى ادبياً يحضره الشعراء والادباء والظرفاء ويتسامرون فيه وينشدون الاشعار ويقصون القصص والنوادر الادبية والعلمية . فكان اول ناد في باريس خدام انتشار الادب والمعارف وساعد على ترقى اللغة وعلى اجتماع الرجال بالنساء في جلسة ادبية محترمة وتقرب الادباء من الامراء وأرباب الوجاهة بعد ان كانوا مختصرين لا يحترفون بالادب الا لاستجداء المعروف وطلب الاحسان . وصارت السيدات الفرنساويات يقلدن الماركيزة في الاقبال على تحصيل الادب والمعارف وفتح ابوابهن للشعراء والكتبة . وأرادت بعض سيدات الاستانة قبل اعلان الدستور تقليد الماركيزة في حماية الادب فنجح عملهن مدة ثم أقفلت دورهن . وفي سنة ١٦٣٥ أسس الكاردينال ريشيليو الاكاديمية فرنساوية من اربعين عضواً وفوض اليهم جمع قاموس اللغة فرنساوية ثم أسست اكاديمية الفنون والآداب واشتغلت بالتاريخ والآثار القديمة ثم اكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية واشتغلت في الفلسفة وعلوم الاقتصاد ثم اكاديمية العلوم الرياضية والطبيعية واكاديمية الصنائع النفيسة وغير ذلك من المؤسسات العلمية النافعة وظهر من الأدباء بالزاق وفواتير وديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) وهو الذي أحيا الفلسفة وأوجد التعبيرات الفلسفية في اللغة فرنساوية . وكان اماماً في الأدب فسلك فيه مسلكاً جديداً واتخذ لنفسه طريقة مخصوصة تنسب إليه وتسمى باسمه . ثم أنشأ الكساندر هاردي مسرحاً في باريز شخص فيه روايات كثيرة أخذ موضوعها من اسبانيا لتقدم فنون الأدب فيها لسبب مجاورتهم للعرب . وظهر من الأدباء بيرقورنيل (١٦٠٦ - ١٦٨٤م) صاحب رواية هوراس التي صور فيها فضائل الرومان ومحبتهم لاطنانهم وبذلهم دونها المال والبنين . وأبدع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخاً من قبيلة هوراس تخبره بموت ابنه في حرب لهم مع قبيلة كورياس وبنجاة ولده الثالث بالفرار من ميدان الحرب فتجلد الشيخ على موت ابنه وغضب من فرار ولده الثالث . فقالت له المرأة « ماذا تريد ان يفعل وهو

وحده مع ثلاثة من اعدائه « فاجأها الشيخ » أريد ان يموت » . ومن أئمة الأدب المؤسسين لطريقة (كلاسيك) راسين (١٦٤٩ - ١٦٩٩) وكان معاصراً لقورنيل ورقبياً له . نظم رواية اندروماخه ونسجها على منوال رواية بهذا الاسم لاحد شعراء اليونان الاقدمين ثم درس تاريخ العبرانيين ونظم رواية (استير) ورواية (أتالي) التي قال فيها فولتير بانها أحسن ما ألفه العقل البشري وسموا هذا النوع من الروايات الفاجعة التاريخية (تراجيدي) ومن مشاهير أدبائهم المتقدمين بواولو الشاعر الهجاء مؤلف الهزليات وصاحب المذهب في فن الأدب . ومولير مؤلف المضحكات المسماة كوميدي وفنلون مؤلف تيلمك المترجم للعربية والمطبوع في بيروت وترجمه للتركية يوسف كامل باشا بالفاظ لغوية وعبرة عويصة وترجمه احمد وفيق باشا بالفاظ سهلة . ولا فونتين مؤلف الحكايات المنظومة على السنة الحيوانات وكانت المدارس الابتدائية تعول عليها في تدريس اللغة الفرنسية وتحفظها للأطفال وأما اليوم فقلت الرغبة فيها . ثم مونتيكيو مؤلف (أسباب اعتلاء الرومانيين وسقوطهم) و(روح القوانين) و(الرسائل العجمية) . وبوفون مؤلف التاريخ الطبيعي وفولتير الشهير الذي لم يدع باباً من أبواب الكتابة وفنون الشعر والانشاء الا طرقه . وديدرو صاحب الانسكلو بيديا وجان جاك روسو الذي هيج الافكار بمؤلفاته وهيا حدوث الانقلاب الكبير وبرناردن دوسن بير مؤلف بول وفرجينى وغيرها من القصص والسياحات .

١٧ - الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في أدب الافرنج

وما أخذوه من ذلك عن العرب

أدب كل لسان - كما لا يخفى - هو مجموع ما حصلت الاجادة في تأليفه بذلك اللسان من في المنظوم والمنثور . فمن أمعن النظر في أدب اللسان العربي وجد فيه طرقاً كثيرة ومداهب شتى ورأى فريقاً من الذين أحرزوا قصب السبق في أدب العرب يتوحى حفظ الالفاظ وتصنيعها وفريقاً آخر يختار ضبط المعاني وترتيبها . وعلم ان لكل واحد من أئمة السلاغة وامراء الفصاحة منهاجاً معروفاً وطريقة مألوفة . فلوراجعنا المصر في رسائلهم المتورة وتأملنا طرز انشائها لتبين لنا ان منهم من سلك طريقة

الأصل أو طريقة السجع أو طريقة الجاحظ أمام الادب . ومنهم من جمع بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى حلص لنفسه طريقة . ثم لو أعدنا النظر ثانية في نظم اشعارهم لظهر لنا ان منهم من نسج على منوال شعر الجاهلية ولم يخرج عن الاساليب التي راعوها ومنهم من لم يخرج على أساليب العرب المتقدمين كالمتنبي والمعري بل اتخذ كل منهما منوالاً خاصاً لنسج كلامه وأوجد قالباً جديداً لبناء شعره فاصبح في الأدب اماماً يقتدى به ، ثم اذا بحثنا في مؤلفات اولئك الأئمة باعتبار آخر رأينا منهم من اطلق العنان للمخيلة الشعرية فاتى بالمعجز من آيات البيان ومنهم من استغرق في الحب استغراق ابن الفارض وتجليه . وإذا وصفوا الامكنة والاشخاص أو المواد والمعاني منهم من يصور لك الموصوف على حقيقته بلا خلف فيه ومنهم من يجعل وصفه يربو على الموصوف ويتعداه أو يقصر عنه . ثم اذا استقصينا البحث نجد طائفة من امرء البلاغة قد تركوا لغة مضروما فيها من الاعراب ونظموا اشعارهم بلسان الحضرة وهي اللغة الدارجة في امصارهم لان البلاغة لا تختص بلسان مضر بل توجد فيه وفي لسان الحضرة وفي غيرها من اللسان الاعجمية . ونجد منهم أيضاً طائفة اخرى في الاندلس وغيرها خرجوا عن أوزان العروض المعروف عند العرب إلى اعاريض مختلفة ومقاطيع متفاوتة . إلى غير ذلك مما هو مفصل في مواضعه ومعلوم عند اربابه سيما بعد طبع كتب الباقلاني والجرجاني وغيرهما من الأئمة الواضعين لفن الانتقاد الأدبي .

فالأمم الأوروبية على اختلاف قومياتهم وتفرق لغاتهم ظلوا لاواخر القرن الحادي عشر لميلاد محرومين من الأدب وفنونه ولم يكن فيهم الا أفراد من القسوس والاساقفة يحفظون في الاديرة شعر فرجيل اللاتيني ولا يفهمون مغزاه كما يحفظ مشايخ الاعاجم في زماننا شعر المتنبي والمعلقات . ففي أوائل القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد اخذت الافكار تتبادل بين المسلمين وبين أمم أوروبا من الاسبانيين والاطليان والافرنج ودامت الصلات لا تنقطع بين الفريقين المتحاربين لا في الحرب بواسطة الاسرى والسفراء - ولا في السلم بسبب الأخذ والعطاء . وكان الأرسخ قدماً في الحضارة يكسب جاره ادباً وعرفاناً . وفي القرن العاشر للميلاد تغلب البابا سيلفستر الثاني على التعصب الديني وخرج من مدينة أوريياق مسقط رأسه وقطع عقاب البيرينه ومياه الوادي الكبير وجاور في اشبيلية ثلاث سنوات . وفتح لقومه باب العلم

والمعارف فدخلوه طوعاً أو كرهاً وارتحل الافرنج في طلب العلم الى مدارس الاندلس وحضروا على مشايخها وعادوا لاطنائهم متنورين يلقون الدروس في ساحات المدن الكبيرة وتجتمع حولهم الطلبة والعوام على مألوف العادة الجارية ليومنا في المدارس والجوامع الاسلامية . فادرك الناس فوائد العلم وقرب الملوك والامراء منهم علماء المسلمين وأغدقوا عليهم . فكان الشريف الادريسي صاحب الجغرافية عند رجار المعروف عندهم بروجر الشابي ملك صقلية ونابولي وهو من سلالة الملوك النورمانيين . وكان احفاد ابن رشد المتصلعون في علم الحيوان والنبات عند خلفاء رجار في مملكة صقلية ونابولي المعبر عنهما بالصقليتين ، فكان مثل هؤلاء كمثل الاوروبيين المستخدمين اليوم في الممالك الشرقية . وظل الافرنج بعد استرداد صقلية يكتبون بالعربية على المباني العمومية والعمارات الملوكية واستعمل علماءهم اصطلاحات العرب العلمية في جميع أوروبا . وفي القرن الثالث عشر للميلاد فتحو مدرسة للطب والعلوم في مدينة مون بيليه القريبة لمرسيليا وجاؤا لها بالمعلمين من عرب الأندلس ويهودها المستعربين . فكانت تلك المدرسة أقدم المدارس في أوروبا بعد مدرسة ساليرن القريبة لنابولي . ولم تزل مدرسة مون بيليه عامرة يقصدها طلبة العلم من الاساتذة ومصر وغيرهما من بلاد الشرق ثم في سنة ١٣٢٣ أنشأ أدباء الافرنج في مدينة طولوز التي فتحها العرب سابقاً جمعية ادبية لم تزل زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية لعب الازهار وتفرق في كل سنة على نوابغ الشعراء عشر جوائز مصوغة من الذهب والفضة على هيئة الأزهار . وكانت لفيفكتور هوكونها أوفرنصيب كما تقدم . ومعلوم ان العرب اقاموا مدة بتلك الاصقاع وحرثوا أرضها وتزوجوا بناتها وعمرت بهم مدينة اربونة (ناربون) وقرقشونة وقرقسون وفراقسنة وكانت مستعمرة للعرب في شرق مرسليليا . وقسطل سارازين معناها قلعة العرب وهي في الشمال الغربي من طولوز . فتعلم الافرنج من العرب القوافي ورقة الغزل وأداب النظم والشعر وتلحين الاغاني والشعر ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وصروب الامثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في تواريخ الأدب الفرنسي . والى ذلك أشار الموسيوريه دوميك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس الفرنسية . وبعد ان اطلع الافرنج من كتب الاسلام على ما عند اليونان من الفلسفة والحكمة اقبلوا على درس اللغة اليونانية ولم يهتموا كتب ادبها كما اهتمها العرب

من قبلهم . بل تماهتوا على درس أدب اليونان واللاتين وعلى حفظ أشعارهم والتمثيل بها . وهاموا في قص قصصهم وفي تشخيص رواياتهم لان فن التشخيص او التمثيل كان شائعاً عند اليونان والرومان . وألف أدباؤهم كثيراً من الروايات واشتهر منها مؤلفات اوريبيد لاسيما رواية اندروماق التي نسج راسين على منوالها . ولا يزال السياح يشاهدون في أثينة على سفح الجبل تحت قلعة الافروبول اثار المسرحين العظمين اللذين هما من بقايا التمدن القديم .

وكان أسبق أمم أوروبا إلى تحصيل فنون الادب الاسبايول والطلبيان المجاورون للعرب . فظهر في الاولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه ونظم نحو ألف وثمانماية رواية تمثيلية . وظهر فيهم أيضاً الشاعر قالدديرون ولوقين وغيرهم . وفي الطليان ظهر الشاعر دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) وطار له ذكر في العالم وهو يعد في مصاف اكبر شعراء الامم القديمة والحديثة . وسبب شهرته كتابه الموسوم بالكوميديّة الالهية - ديفين كوميدي - الفه في غضون سنة ١٣٠٠ م وجعله على ثلاثة أبواب باب في جهنم وباب في الاعراف وباب في الجنة . وسمى الباب منها بالنشيد وقسمه إلى مائة غناء وكل غناء يشتمل على ١٣٠ أو ١٤٠ بيتاً . وافتتح كتابه بباب جهنم وصور نفسه مشرفاً على غابة مظلمة تقشعر الجلود من وصفها وهم بدخولها لولم يعترضه ثلاثة سباع كاسرة . وبينما هوبين أظفار المنية ظهر له فرجيل الشاعر اللاتيني وعرض عليه ان يكون قائداً له في الاعراف والسعير فقط لانه لا يستطيع دخول الجنة ولا وطء عتاهل لكونه من عبدة الاوثان فقبل دانتي بقيادة فرجيل له وساراً معاً في عالم أهل النار . وأطرب الشعراء في وصف اصحاب السعير وصور عذاب الدين مرهم من الظلمة والجبارين . وأتى على قصة ايكولين وكان جباراً عنيداً في مدينة بيرا فوقع بايدي أعدائه فوضعوه مع اولاده في برج وسدوا عليهم جميعاً فاشتد به الجوع وأكل اولاده ثم هلك . فوصف دانتي جميع ذلك بصورة هائلة على الاسلوب المعروف بالدراماتيقي . ولما أدته خاتمة المطاف إلى الجنة وجد بابها بياتريس وكانت من ربات الحمال المشهورات بمدينة فلورانس وقيل كانت معشوقته فتلقته واخترقت به طبقات الحسة المسيحية او طباق السموات فلقى فيها كثيراً من الابرار والقديسين والملائكة المقربين وساحتهم بالمسائل اللاهوتية والعلوم الالهية والكلامية وجمع دانتي في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه ووضع به اساس اللغة الطليانية فكان كتابه كدائرة

المعارف والأدب . ولم يزل يستوقف انظار الادباء بحس ترتيبه وجودة سبكه وبها فيه من المهارة العجيبة في التنقل من مبحث إلى آخر . فالكوميديّة أو المصححة الالهية اشبه برسالة الغفران التي حررها المعري قبل تأليف الكوميديّة بأكثر من قرنين وقدمها جواباً لرسالة وردت عليه من أحد اصحابه الافاضل في حلب وانتقل فيها لذكر اللجنة ونعيمها وذكر من دخلها من الشعراء الذين يتبعهم العاؤون وفي كل واد يهيمون . وما كانوا يدخلونها الا بعمل صغير كان له عند الله أجر كبير فغفر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر وقالت لهم الملائكة طهّتم فادخلوها خالدين .

واقفت الامم الاوروبية أثر الاسبانين والطلّيان في العدول عن اللغة اللاتينية الى وضع لغاتهم القومية وتدوينها . واقبل الادباء في انكلترا على التأليف باللغة الانكليزية واصلح الفرنسيون لسان رومان وهذبوه فاصبح اللغة الفرنسية . واقتفى الالمان أثر من ذكر من الأمم ودونوا لغتهم الالمانية . وكان فن الأدب محصوراً في الخواص شأنه عند العرب ولا نظر للعوام فيه ولذا اختار الادباء اصطلاحات مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتعملوا له . لان الخواص من الناس يأفنون من استماع الكلام السوقي المبذل ويألفون الغوص على المعاني وأعمال الذهن في استخراجها . ثم ظهر في فرنسا الكسندر هاردي وهو أول من اصلح فن التمثيل واللعب على المراسح . واتخذ الروايات الاسبانية نموذجاً له ونظم على منوالها كثيراً من الروايات الفرنسية وتخصها على مسرح باريس في حدود سنة ١٦٠٠ م . وفن التمثيل كما لا يخفى هو من أكبر العوامل على ترقى فنون الأدب واصلاح طرق النظم والنشر . لان الادب يحاطب بهذا الفن الجمهور واصناف الناس فيتحرى في كلامه التعبير الذي يستلعيون فهمه والاساليب التي لها وقع في نفوسهم بحلاف من يؤلف كلامه للخواص فانه يتعمل في التأليف ويتصنع ليظهر تفننه واقتداره على ايراد النكت والدقائق التي لا يفهمها إلا أصحاب الغوص على المعاني .

والتمثيل كما لا يخفى مشتق من ضرب المثل فان الرواية التمثيلية ما هي الا ضرب مثل جامع للاطراف والتفاصيل واحسن ضروب الامثال وابدعها وردت في القرآن الكريم الذي تحدى به النبي عليه السلام العرب وقال اتوني سورة من مثله فقالوا انت تعرف من احبار الامم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال فهاتوها مفتريات فالرواية هي أسلوب من أساليب المفتريات . واساس فن

التمثيل عند الاوروبيين مستفاد من أعمال المعدين في الكنائس ومن تشخيص ما شبه لهم في المسيح بن مريم عليهما السلام من القتل والصلب ومن تمثيل آلام الذين اقتدوا به من القديسين والشهداء في سبل النصرانية . ولما درس الافرنج اليونانية واللاتينية وانتشقت اساليب هاتين اللغتين في نفوسهم حذوا حذو شعراء اليونان والرومان واتخذوا رواياتهم منوالاً نسجوا عليه امثالها من كلمات اخرى فرساوية وربما ترجموا ابيات شعرهم وسرقوا معانيهم وصاغوها في الفاظ فرنساوية من الطبقة العليا وتألقوا فيها نهاية التألق وراعوا قواعد النحو والصرف والعروض وبقيت علوم الآلات المدرسية والاساليب المتعارفة فجاءت ابياتهم متينة وقوافيهم عامرة . وكل بيت منها كلام تام في مقصوده ويصلح ان ينفرد دون ما سواه . ولم تحصل الملكة في ذلك الا لمن هو على جانب من العلم وله الحظ الأكبر من الذوق السليم لاحتياجه إلى تلمظ كثير في استحصال الملكة حتى يبرز الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له .

وبلغ الأدب الفرنسي في عصر لويس الرابع عشر أي من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٧١٥ أوج الكمال ومنتهى السلاغة . واصلح الأدباء فنون الأدب ورتبها على القواعد وهذبوها ووضعوا المؤلفات الجليلة والروايات البديعة وظنوا بانهم لم يتركوا شيئاً للمتأخرين . فكان عصر لويس الرابع في الأدب عصر مدرسياً (كلاسيك) أشبه بعصر أوغسطس عند الرومان وبعصر بيرقلس عند اليونان . ونبغ من شعراء الفرنسيين في فن الفاجعات (تراجيدي) الأديب بيير كورنيل والشاعر المفلت راسين . ونبغ في فن المضحكات (كوميدي) الأديب مولير . ونبغ في فن الهجويات (ساتير) الأديب المدقق بوالو . فهؤلاء من نواصع العصر المذكور الذي بلغ اللسان فيه منتهى الفصاحة والسلاطة . ومن احسن مؤلفات بيير كورنيل رواية السيد والكلمة عربية لقبها احد ابطال الاسبانيين في القرن الحادي عشر للميلاد . وبيان ذلك :

ان العرب بعد استيلائهم على جزيرة الاندلس (١) التجأت بقية السيوف من القوط إلى جبال استوريا وتحصنوا فيها ولموا شعثهم وشكلوا حكومات وإمارات صغيرة فلم يعبأ بهم العرب وحسبهم من قطاع الطرق المشتريين في الجبال وتشاغلو عنهم

(١) قالت العرب جزيرة الاندلس وجزيرة العرب وذلك أحف من قولنا شبه حرية الاندلس وبحيث جزيرة

العرب والاندلس تطلق على مملكة اسبانيا ومملكة البورتغال ما عدا حرر صغيرة في الشمال العربي من مملكة اسبانيا

بتعمير تلك السهول وتمتعوا برياضها الغناء . فمن الامارات التي اسسها القوط في شمال الاندلس استورية وليون وقشتالة وكان المالك عليها في ابتداء القرن الحادي عشر للميلاد فرديناند الأول فأوصى بتقسيم الملك بعد وفاته بين أولاده فكان ابنه الفونس السادس على ليون الاسبانية وابنه الثاني سانش على قشتالة . فالسيد صاحب الرواية ولد سنة ١٠٣٠ وسمي رودريك وكان أبوه الدون ديغوا من اشراف القوط فادخله في سراي فرديناند الأول . وبعد وفاته دخل في خدمة ابنه سانش ولما اقتتل الاخوان وانهزم سانش في احدى المواقع قوى السيد عزمه و اشار عليه بالمشورات الحسنة فاتبع رأيه وانتصر على اخيه وحبسه وتفرّد بالملك على ليون وقشتالة . فكان السيد له نديماً ووزيراً وناصحاً ومشيراً . ثم حدثت فتنة وقتل سانش في محاصرة زاموره وخلفه اخوه الفونس السادس فأمن السيد واقسم له الايمان المغلطة بأنه لا مدخل له في قتل اخيه سانش وقربه منه وزوجه بواحدة من قريباته وكانت على رواية التاريخ عجوزاً شنعاء ولم يتزوجها السيد الا طمعاً في مالها . وبعد ان تم الامر للفونس السادس وأمن غوائل الرقباء فعل بالسيد ما يفعله المستبدون من الملوك من فتك^(١) ومصادره واراد الفتك به فقر من ملكه الى الحدود الاسلامية وعمر قلعة على قلعة بالقرب من سرقسطة (ساراغوس) بين دارقة والقنيز . ولم يزل اثر تلك القلعة على صخرة عالية تسمى صخرة السيد كما تنسب الصخرة التي في رونسيقواي في مدخل جبال البيرينة الى رولان . واستقل السيد بحكمه في تلك القلعة وكان يتعيش هو ورجاله من النهب والغارة على القرى المجاورة ومن قطع الطرق على القوافل الاسلامية والمسيحية . فاشتهر خبره وتحدثت الركبان بشجاعته ثم اتفق مع امير سرقسطة وامير البراسين وهما من امراء المسلمين وقاتل معهما امير اراغون المسيحي وحارب كذلك عسكر الفونس السادس والمتفقين معه من امراء المسلمين لانهم كانوا متفرقي الكلمة يقاتل بعضهم بعضاً . فجاءهم يوسف بن تاشفين بعساكر المرابطين من افريقية ووجد كلمة الاسلام في عموم جزيرة الاندلس مع انه كان أمياً بربرياً . فوقف السيد أمام المرابطين ودفع هجماتهم عن بلنسية ولم يمكنهم من الاستيلاء عليها الا بعد وفاته في سنة ١٠٩٩ م . فتحدث القريب والبعيد شجاعة السيد وثبات عزمه وطار له ذكر بين الفرسان ونظمت فيه القصائد العنترية أو الهلالية بلسان رومان . ثم جاء قوريل

١ - عبارة « من فتك » غير موحودة في الأصل ولعلها سقطت مطبعية

ونظم فيه روايته المشهورة بدون الثمات للتاريخ ولا تعمق فيه بل نسج على منوال القصائد الرومانية وتخيل فيها تخيلاتة الشعرية وجعل تلك المرأة التي تزوجها السيد بديعة الحسن والجمال . ولما عشقها وعشقتة اتفق ان والدها اهان والده فانقض عليه السيد وقتله وتمكن من تسليط ارادته على عشيقه . أما اسم « السيد » فأطلق عليه حينما كان متفقاً مع امير سرقسطة وأمير البراسين وحارب معها ولم تعمق في التاريخ لنفهم هل دخل السيد في الاسلام أم لا . ومن أبيات قورنيل في روايته المذكورة قوله : (كلاهما سميأك سيدهما بحضوري لان السيد بلسانهم تعادل كلمة سنيور) .

أما ما ألفه راسين من الروايات الموافقة تماماً للقواعد المدرسية فاحسنها رواية (اندروماق) ونسجها على منوال سميتها الرواية اليونانية المؤلفة قبل الميلاد باربعة قرون وتخالف رواية السيد في وحدة الزمان وفي اخلاق بطلمها لتغلب العشق عليه واتصاره على ارادة العاشق . ومن روايات راسين استير الاسرائيلية ويشخصها احياناً طلبة المدارس في بيروت . ورواية اتلي وهي من الاسرائيليات ايضاً .

قال فولتير انها احسن محصولات العقل البشري . ومن احسن ما ألفه مولير في المضحكات رواية تارتوف وهو رجل مرائي في نسكه وعبادته أغفل بخبثه أحد الممولين من البسطاء واستولى على امواله وعياله فصار اسم تارتوف كناية عن الرياء والخبث . وقد اتى المعري بابيات كثيرة تشتمل على مضمون هذه الرواية كقوله :

وليس عندهم دين ولا سك (فلا تعرك أيدي تحمل السحاح)
وكم شيوخ غدواً بيضاً مفارقهم يسبحون ويساتوا في الخناسبحا
والف نوالو كتاب الهجويات (ساتير) ووضع في قواعد الشعر كتاباً سماه الفن او الصناعة الشعرية (آرويتيك) وانكر الشعراء الذين جاءوا قبل دخول القرن السابع عشر لا بشاعر قبل (ماليرب) أي ان الشعراء الذين جاءوا قبل دخول القرن السابع عشر لا يستحقون الذكر في مصاف الشعراء لعدم اتيانهم بالكلام المدرسي المنتظم المعقول ولتهافتهم على التصنع البارد في الكلام واطهار الروب الكاذب فيه وبيان مهارتهم وعلمهم بكل ما هو من فضول الكلام ولذا فكلامهم لا طعم له وفيه كثير من الغرور والاعجاب . فبوالبالغ في كلامه وحط كثيراً من كرامة المتقدمين ولكنه أصلح اساليب الشعر الفرساوي كما اصلح باسكال أساليب النثر . وكان باسكال اماماً في العلوم الرياضية والطبيعية . واقتفى اثر نوالو في انتقاد كلام المتقدمين الوزير صيا باتشا

وألف مجموعة سماها الخرابات خرب فيها كثيراً من اشعار الفرس والترك والعرب المتقدمين عليه وكانت وفاته في بروسة سنة ١٢٩٥ هـ فجاء كمال بك امام الأدب في اللسان العثماني وكتب عليه انتقاداً سماه تخريب الخرابات ونشره في مطبعة ابو الضياء . فالغاية التي يطلبها أئمة الادب العثماني كاللذين ذكروا وعبد الحق حامد بك مستشار سفارة لوندرة واكرم بك وسعيد بك من اعضاء الشورى والمعلم ناجي افندي المتوفى منذ بضع سنين وبقية النشأة الجديدة - هي تخلص لسانهم من مبالغات الفرس الاعاجم والسلوك فيه منهج بوالوراسين وقورنيل ومولير وبقية ادباء عصر لوليس الرابع عشر . لان هؤلاء الادباء يذهبون إلى أن التخيل الشعري ينبغي ان يكون مقروناً بالتعقل . فعندهم ان الشعر ليس أعذبه اكذبه بل احسنه اصدقه كما قال حسان : وان أحسن بيت انت قائله بيت يقال إذا اشددته صدقا واشترطوا في الروايات التمثيلية ثلاثة شروط :

وحدة الزمان

وحدة المكان

وحدة العمل .

أي ان الحادثة الممثلة على المراسح يشترط تصور حدوثها في زمن واحد أي في ظرف ٢٤ ساعة مثلاً ليكون التمثيل أقرب الى الحقيقة واشبه بالواقع لان حوادث الاربعة والعشرين ساعة يمكن اختصارها وتمثيلها في ساعتين . فراسين راعى هذا الشرط في رواية اندروماق وقورنيل خالفه في رواية السيد ونقل بطل الرواية من سنة الى اخرى . فالقائلون بهذا الشرط تنقبض نفوسهم من تمثيل الحوادث التي حدثت في ازمان متطاولة . وقصدهم من وحدة المكان اشتراط وقوع الحادثة في مكان واحد لئلا ينتقل ذهن السامع من مكان لآخر فيبتعد بذلك عن الحقيقة . ولذا كانت مراسح القائلين بهذا الشرط ثابتة المناظر من أول اللعب إلى آخره . بحيث اذا رفع الستار عن مكان يبقى المكان بعيه في الفصل الثاني وما بعده من فصول الرواية لمراعاة شرط وحدة المكان . والمراد من الشرط الثالث ان يكون بطل الرواية واحد وعروسها واحدة ثم السعي وراء عمل واحد وهو الحب مثلاً وينتهي بفناء المحبين أو أحدهما أو انتصارهما أو تغلب ارادة العاشق على عشقه كما فعل السيد وقتل ابا معشوقته أخذاً بثار ابيه أو بالعكس كما قتل سفير اليونان زوج محبوبته في رواية اندروماق وخان بذلك وطنه ولم يرع عهد من ائتمنه كل ذلك مرضاة لمعشوقته .

فمصدر هذه الشروط والقيود امثالها هو التعقل في الكلام الأدبي وتحكيم الذوق السليم في فنونه . ولم يكن الأدباء قبل عصر لويس الرابع عشر يتعقلون في نظمهم ونشرهم لا يحكمون الذوق السليم فيها . ولذا كانت فنون ادبهم مشحونة بالخرافات والباطيل وبما هو خارج عن الطبيعة والاعتدال وخارق للعادة ومشمئط على المبالغات العجمية وعلى زخرف القول . فلما تعقل الادباء في كلامهم وجدت الطريقة المدرسية التي قيل لها (كلاسيك) . والكلمة كما هو معلوم مشتقة من الصف والدرس والمدرسة . لان السالكين هذه الطريقة لا بد لهم من درس آثار الواضعين لقواعدها والارتياض في كلامهم لتحصل لهم ملكة في النظم والنثر . وأمام الطريقة المدرسية وشيخها الاكبر راسين .

١٩ - الطريقة المدرسية عند الافرنج

فروايات الادباء والشعراء المتقدم ذكرهم يقال لها روايات مدرسية كما يقال للكتاب الذي يدرس في المدارس كتاب مدرسي . ويقصد به الكتاب الاقرب الى مرتبة الكمال في الفن الذي هو مؤلف فيه . فرتبة الكمال يمكننا تصورهما والاحاطة بها في العلوم المدرسية كالنحو والصرف والبيان والمعاني والعروض أو الفقه والحساب . ولكن في الأدب وفي الروايات التمثيلية ليت شعري ما هي مرتبة الكمال ؟ ففي جواب هذا السؤال وقع الاختلاف بين مشايخ الطرق الأدبية من مدرسية ورومانية وحقيقية أو طبيعية . وفي نهايتهم الطريقة الانسانية وهي موضوع حديث القوم في يومنا بسبب كتاب نشره المسيو فيكتور بيرار مستشار نظارة البوسنة والتلغراف وبحث فيه عن الاوديسة التي نظمها اومير وس الشاعر اليوناني . وكان المسيو بول ادم بحث عن هذه الطريقة الادبية الجديدة في مقدمة قصته التي عنوانها اسرار الجمهور (مستير دوفول) وبول ادم يجرر اليوم في جريدة الجرنال الباريسية .

فاصحاب الطريقة المدرسية يذهبون إلى ان مرتبة الكمال في الادب هي « أولاً » تمام النسبة التي بين اساس الفكر وبين شكل التعبير . اي بين المعاني التي يختلقها الشاعر وبين قوالب الالفاظ التي يسكب تلك المعاني فيها . فعلى مذهبهم لا يكفي ان يكون المعنى حسناً بل ينبغي ان يكون الحسن ايضاً في كيفية اداء هذا

المعنى . فالكلام الجاري على الطريقة المدرسية هو معنى بديع في لفظ حسن (١) فهذه الموازنة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير هي الخاصة المميزة لمؤلفات العصور المدرسية كعصر لويس الرابع عشر وعصر اغسطوس وعصر بيرقلس . والعصر المدرسي لا يوجد عند جميع الاقوام بل بعض الامم ليس لهم عصر مدرسي ولا أدب مدرسي مطلقاً ولا يتيسر لهم الوصول الى مرتبة الكمال في الادب أبداً . لانهم إذا تمكنوا من الاتيان بالمعاني البديعة فلا يتمكنون من اداء هذه المعاني بالالفاظ الحسنة ولا يقدرّون على الترجمة عن أفكارهم حتى الترجمة لاحد السبيين : اما ان اللسان الذي يتكلمون به لم يزل على خشونته ولم يكتسب بعد الشكل البديع . وأما ان تكون اساليب الفن ولوازم الصناعة الادبية لم تعرف بعد عند المتكلمين به . ثم انهم يشترطون في التأليف المدرسي ان يكون ظهوره في الزمن التي بلغت فيه اوج الكمال ويقولون لا بد من هذا الشرط . ويعترضون على أصحاب الطريقة الرومانية لانهم تجاوزوا النسبة التامة التي بين اساس الفكر وشكل التعبير . ولم يكتفوا بالتعبير البسيط الذي يؤدي معانيهم تمام الاداء . بل أرادوا زيادة عن هذه النسبة التامة . بل تطلبوا أزيد من ذلك أيضاً . فارجعهم تهافتهم إلى وراء وساقهم إلى الاساليب الاجنبية وأوصلهم إلى طريقة لوب دوفيكه الاسباني وإلى طريقة بايرون وشكسبير الانكليزيين .

ويذهب أصحاب الطريقة المدرسية إلى ان مرتبة الكمال في الأدب هي « ثانياً » وجود موازنة بين التخيل الشعري وبين التعقل . بل يشترطون وجود هذه الموازنة بين جميع الحواس فإذا كان التخيل الشعري في التأليف الأدبي منافياً للتعقل فلا يعتبرون ذلك

(١) قال ابن خلدون . الذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ . واما المعاني فهي في الصائير فالمعاني موحدة عند كل واحد . وفي طوع كل فكل منهما ما يشاء ويرضى فلا محتاج إلى صناعة ٩٩ وتأليف الكلام للمعاني عنها هو المحتاج لصناعة (Art) وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما ان الاواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه . وتختلف الجودة في الاواني المملوءة باختلاف اجناسها لا اختلاف . آه كلامه . وفي بعضه بطر ولا يحكي أن الشاعر المفلح أقدر من غيره على تصوير الأشياء بصره وباصبرته وعلى التعبير عنها بلسانه فالمعاني المتحصلة في ذهنه لا توجد عند كل واحد .

التأليف على نهج الطريقة المدرسية . مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب . ومبالغات العرب أقل من غيرها لاسيما في كلام الجاهلية وأهل الطبقة الأولى من الاسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم ولا حصلت لهم الفة بفنون أدب الفرس ولا بتعبيراتهم . ومن هذه المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني . . إلى أن قال : لولا مخاطبتي اياك لم ترني . فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ولا تحدث في العادة والمتنبي ولد في الكوفة وذهب إلى فارس واختلط بأدباء العجم . ومبالغات نفعي كبير شعراء الترك المتقدمين (القرن الحادي عشر للهجرة) قوله بالالفاظ الفارسية والتركي التركي يصف يوماً شديداً الحر :

(. . . . كيم برمور بردم كرم ايله ايلريدي درياي سراب) ومعناه ان النملة بنفس حار تجعل البحور السبع سراباً . ومن قرأ ديوان نفعي حسب ناظمه من زمرة عوج بن عناق وظن تمثال رودس الذي كانت المراكب تمر من بين ساقيه صورة له ومنها قول ضيا باشا - وهو في مقدمة ادباء النشأة الجديدة العثمانية وله وقوف على الفرنساوية - باللسان العثماني الجديد الذي يكثر فيه استعمال الالفاظ العربية . (سرولر افلاكه سرجكمش مثال قديار) . ومعناه مثل قد الحبيب كأشجار سروتناطح برؤ وسها الافلاك . ويذكرني هذا ما قاله احد الواعظين في جامع ايا صوفيا بان ن صام كذا وصلى كذا وسبح كذا في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر رزقه الله في الجنة حورية طولها ما بين بعد المشرقين . فان كنا نستعجن طول الانسة ايلابوين أطول نساء العالم ولا تتوق النفس إلى قربها وهي لا تزيد عن الطول المعتاد باكثر من قدمين فما بالك ان زاد قد عروسنا عن ذلك ؟

ويقسم علماء المعاني المبالغة إلى ثلاثة أقسام : وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً وعادة ويقال لها التبليغ . ومعقولة وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً لا عادة ويقال لها الاغراق . وغير معقولة وهي ما لا يجوز وقوعها العقل ولا العادة ويقال لها الغلو . فاهل الطريقة المدرسية يرفضون الغلو والاغراق في الكلام . ويقولون بان بعض الامم أو بعض العصور في الامة الواحدة لها تخیل شعري وليس لها تعقل . وقد جاءت هذه الامم او هذه العصور بكثير من المؤلفات البديعة التي لا تخلو من الفوائد ولكن

مؤلفاتهم ليست بمدرسية لوجود التخيل الشعري فيها بدون تعقل . كما هو الحال في ماهاهاراته وراماياته من أشعار الحماسة الهندية وفي الشعر الفارسي والتركي القديم وبعض اشعار العرب المحالطين للعجم . فمن خصائص العصور والآداب المدرسية تحكيم الدوق السليم في مؤلفاتها والدوق السليم لا يميل طبعاً إلا للجمال والتناسب والقياس ولا وجود لما ذكر في زمن تشكل اللسان ولا في زمن انقراضه

ولاصحاب الطريقة المدرسية مسألة ثالثة أيضاً وهي محبتهم الصدق والحقيقة . فهم يذهبون إلى ان احسن الشعر أصدق له لا أكذبه . ولكنهم لا يقصدون باتباع الحقيقة تصوير الحقيقة بعينها تصويراً تاماً كما ذهب إليه أصحاب الطريقة الحقيقية وورد في مؤلفات امامهم اميل زولا . كلا بل يقولون فقط بلزوم ارتباط التصوير الذهني وحده في الشعر لا يكفي . ★

وعندهم أيضاً ان التأليف المدرسية يجب ان تكون منحصرة في تصوير الحميل والبديع فالتأليف المغايرة للآداب الاخلاقية والموجبة لاشمئزاز النفس يندرج فيها الجمال فلا تكون مدرسية . فهم لا يطالبون الكاتب الذي يسلك طريقتهم بان لا يحرك قلمه الا في المواعظ الحسنة والاخلاق المستحسنة ولا يصور فيها شيئاً غير الجمال . ولكنهم يندرونه بسقوط مؤلفاته ان ملأها بوصف الاشياء القبيحة والافعال الشبيعة . كما فعل زولا في كتاباته وصور فيها بؤس المعيشة وسفالة الحياة . ونظم احد الادباء في العام الماضي رواية صور فيها الامراض الزهرية والعلل الافرنجية التي تحدث من الانهماك في العهر وشرح ذلك على مسرح اللعب شرحاً يليق ان يكون في غرفة الطبيب المختصة لمعاينة الامراض السرية . فمنع المراقب تمثيلها في باريس كما منع رقصة الشربة والشمعة من المسرح المصري في المعرض الأخير . ويقال بان الرواية المذكورة في غاية من البلاغة وباعثة على التعفف .

ويسرطون في الطريفة المدرسية شرطاً آخر وهو ان تكون المؤلفات فيها ملية قومية أي مصورة لأفكار القوم الفلسفية ولاحوالهم الاجنماعية . فان كان التأليف الأدبي وضع تقليداً للاجانب فلا يكون مدرسياً . فبناء عليه يكون هذا الشرط مرعياً في المؤلفات التي استخرج صاحب (مجانى الادب) زبدتها في كتابه لانها من المؤلفات المختصة بالعرب قبل الاسلام وبعده . بخلاف المؤلفات العربية الموضوعة في زماننا على الاسلوب الافرنجي - وربما كانت مترجمة عن لسان من اللسة الاجنبية فانها ★ هكذا في الأصل ؟ .

ليست على وفق الطريقة المدرسية . مع ما فيها من الفوائد التي سنذكرها في بحث الطريقة الرومانية .

فهذه زبدة الأقوال وخلاصة القواعد التي أسست عليها الطريقة المدرسية . فكان من أتى من الأدباء بعد عصر لويس الرابع وهو القرن السابع عشر الذي بلغ اللسان الفرنسي فيه درجة الكمال لا يخرجون في النظم والتأليف عن الأساس الذي وضعه مشايخ الطريقة المدرسية ولا عن الأساليب التي راعوها . ويتكلفون لذلك الصعاب ويعانون طول الدرس ومراعاة القواعد ليتمكنوا من تحسين العبارة ومن تطبيقها على ما يتخيلونه من التشابيه والاستعارات ويلتزمون عدم الخروج عن أوزان العروض المصطلح عليها بين قومهم وجماعتهم ويجعلون كل بيت في الغالب كلاماً تاماً ولا يأتون بشيء من الكلام السوقي المبتذل ولا يصورون رذيلة من الرذائل ولا سوءاً من سوات الإنسان وعوراته ولا يصفون شيئاً من بؤس المعيشة أو سفلة الحياة الدنيا . ويتخبون مواضيع مؤلفاتهم من تواريخ القرون الأولى أي من تاريخ اليونان والرومان والعبرانيين . فكان كلامهم مشتملاً على التخيل الشعري وعلى التعقل المشروط وجودهما في الطريقة المدرسية ولكنه بارد ممل بسبب ما فيه من التصنع والتعمل ومن مراعاة تلك الشروط والقيود التي قيدت عقول أصحابه ومنعتهم عن الخوض في مضمار الوسط الذي هم فيه ويشعرون به ويريدون البحث عنه فيمنعهم مراعاة تلك القواعد والأساليب الانشائية . فمؤلفاتهم باستيفائها للشروط المدرسية لم تحدث تأثيراً على النفس ولا تهيجاً للعواطف كمؤلفات الطريقة الرومانية لعدم مراعاة شرط الاحساس القلبي فيها . ولذا قالوا بان راسين وقورنيل ومولير واهل طبقتهم لو اطلقوا العنان لأقلامهم ولم يقيدوها بسلاسل تلك الشروط المدرسية لأتوا باحسن مما جاؤا به من درر الالفاظ وغرر المعاني .

فهذا ما كان عليه فن الأدب الفرنسي قبيل الانقلاب الكبير ولذا كان الكثير من الكتبة لاسيما النشأة الجديدة يتذمرون من تقيدهم بتلك القيود المدرسية ويرون انفسهم كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه . فكان مثلهم كمثل غلام في مكاتبنا اراد التحرير لوالديه فلم ير امامه من نموذج الانشاء سوى ما طبع في الاستانة من رسائل الخوارزمي والبديع والهمذاني . وكانت هذه النشأة الجديدة ترى أيضاً قصور الطريقة القديمة عن حقيقة البلاغة وهي مطابقة

الكلام للواقع ومقتضى الحال . لان اصحاب الطريقة المدرسية مع محافظتهم على التعقل في الكلام كانوا بكثرة تشابههم واستعاراتهم لا يسمون الأشياء باسمائها الحقيقية ويستعملون الحشو ويتكلفون للعبارات التي لا لزوم لها . فاذا اراد أحدهم أن يعين الوقت وهو يكتب قصة أو رواية ويقول مثلاً : « قبل مرور ساعة من الزمان » ديج عباراته وكثر استعاراته وقال :

(قبل ان يتم العقرب خطاه المنظومة وينقل إلى مينا الساعة المجلاة ستين خطوة موزونة . . .) الخ . .

كما فعل الشاعر الفرنسي اندره شينيه وهو خاتمة الشعراء السالكين منهج الطريقة المدرسية وابلغهم كلاماً . وكانت ولادته في الستانة وامه رومية فارتحل إلى باريس وصار فيها أمام أهل طبقته فلما قتل سنة ١٧٩٤ م مع من قتل من افاضل الرجال وأكابرهم بآلة الكيلويتين انقضت الطريقة المدرسية بعد ان كانت قواعدها واساليبها هي المرعية بين الأدباء . يتبع فيها الخلف اثر السلف . ومع اعتراف النشأة الجديدة بها فيها من القصور والخلل لم يقدم أحد منهم على تركها ولا الخروج عنها لاوائل القرن التاسع عشر .

فقبل هذا التاريخ كان جمهور الناس وعوام الأمة في تسبب وغفلة لا يقيدون على المصالح انتظمت أو لم تنتظم ويدعون الامور تجري في مجراها حسناً كان أو قبيحاً نافعاً أو مضرراً كما يجري الماء في الأرض الطيبة بدون حفر النهر ولا كربه . وكانوا يستعملون هذا التعبير (Laisser aller) كما نستعمل تعبير (طيب معليش) . ولا يهتمون بالمسائل العمومية والاجتماعية كانوا لا تعنيهم ولا يعود خيرها وشرها عليهم . فلما حدث الانقلاب الكبير في فرنسا سنة ١٧٧٩ م تغيرت البلاد ومن عليها في بضع سنين وانقلبت افكار الناس وعاداتهم وخلاقهم وزال عنهم التسبب والغفلة والكسل والرخاوة وشغفوا بحب الانتظام والدقة فتقيدوا بالمسائل وتبصروا بالامور وكانوا صامتين ناصتين مفكرين متعقلين لا يضيعون اوقاتهم في مالا فائدة فيه ولا يشتغلون بالعبث من اللهو اعتادوا على الاداب العسكرية في انتظام الحركات والسكنات لان الامة باسرها حتى النساء والصبيان كانوا باجمعهم تحت السلاح الكامل يكرون ويفرون من غرب اوربا إلى شرقها ومن قارة افريقيا إلى قارة آسيا أي من مصر إلى سوريا . فكان الواحد منهم لا يهمل في قيامه وقعوده امراً ولا يغفل في ملابسه عن زير

ولا يترك فيها فتقاً بغير رتق . وإذا وقف استقامت قامته لان الانسان مستقيم القامة وإذا مشى اوركب لا يتوكأ على الخدم كما تفعل اكابر بعض الأمم دلالاً وعظمة بل اعتمد في حركاته على نفسه . وانتزع من عقولهم اكثر الخرافات والباطيل التي تولد في الانسان عادة ويكبرها الوهم في مخيلته مادام في مكانه لا يخرج منه ولا يسبح في الأرض فينظر كيف كانت عاقبة المتقين .

فانقلاب الاخلاق والعادات والاطوار استلزم انقلاب اللهجة وتغيير التعبيرات ولذا كان العصر الجديد مفتقراً لاسلوب جديد في النظم والتركان رجال العصر يتربصون حصول انقلاب في الأدب كما حصل في السياسة والعادات . فولد فيكتور هوغو للعصر الجديد ستان وصار رجل هذا الانقلاب الأدبي .

٢٠ - الطريقة الرومانية

اسلوب الطريقة الرومانية ابتدأ ظهوره في مؤلفات شكسبير امام الأدب وامير البلاغة . ثم نسج على منوال هذه الطريقة ادباء الالمان وراحت بضاعتهم فيها . ثم جاء فيكتور هوغو وكشف اساس الطريقة وأوضح مزاياها وصار امامها المشار اليه بالبنان .

(الادب عن الانكليين فالانكليز كانوا في مقدمة الأمم الاوربية التي انتهت من غفلة القرون الوسطى وبادرت الى اصلاح لسانها ووضع فنون الادب والعلم فيه . وقبل ظهور الادب الانكليزي كان الانكليز انفسهم يعتنون باشعار المداحين وشعراء الربابة من الفرنسيين وكانت اللغة الفرنسية لسانهم الرسمي على عهد ملكهم كليوم الفاتح (١٠٢٧ - ١٠٨٧) ومن خلفه عليهم من السلالة النورماندية . ولذا بقيت الكلمات الفرنسية مستكثرة في اللغة الانكليزية شأن الكلمات العربية في التركية والفارسية ثم اشتعل الانكليز بهتذيب لغتهم واصلاحها فأصبحت اليوم من اغنى اللغات الجديدة أدباً بعد اللسان الفرنسي . ونبع فيها وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦م) وجمع في مؤلفاته ما تفرد به قورنيل وراسين من فن المكميات وما

اختص به مولير وبومارشيه (١) من فن المضحكات وصار اماماً في كثير من الفنون الأدبية كفن التراجيديا التاريخية والدرام والكوميديا والاغاني المعر عنها بالشعر الموسيقي (ليريك) . فكان في افانين الأدب كما قال الشاعر :

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد
والف شكسبير نحواً من ٣٥ رواية ترجمت لجميع اللغات الأوربية وترجمها للفرنساوية
فرنسوا بن فيكتور هوكو وطبعت في ١٨ مجلداً ولم تزل رواياته تمثل على مراحح
الفرنساويين والطلليان وغيرهما من الأمم . وتمثل أحياناً في الاستانة وارمير ومصر
الاسكندرية أيضاً . واشهر ما يمثل منها (روميوجوليت) وهما فتى وفتاة تحبان حباً
شديداً وقاسيا تباريح الجوى سبب العداوة التي بين أهل الفتى المحب وبين أهل
محبوبته على مثال ما يقع بين قتائل العرب من العداوات التي تحول بين العاشق
والمعشوق بل على مثال ما يحدث في سوريا وفلسطين بين العائلات والبيوت
القديمة من العداوات الجاهلية المانعة لوصول المتحابين ليومنا هذا . ففي أواخر القرون
التاسع عشر للميلاد حدث في طرابلس حادثة هائلة تشابه عثق روميوجوليت من
وحوه عدة لاسباني اقتران المحبين سرّاً بمعرفة فقيه من المشايخ كما اقترن روميوجوليت
على يد الراهب لورانس وافضى الأمر الى هلاك المحبين في الحادثتين هلاكاً تدرى
الدموع لقص حبه وينفطر القلوب لمشاهدة تمثيله . فالتحويل بالموت بالحادثة الممتلئة
حماها من من المكابح ورسب المجلس بطرف الراهب أو لطف الغيب ما يقر
الحادثة الممتلئة لفن المضحكات الذي مثلناه فيما سبق برواية تارتوف لانها أحسن نموذج
لهذا الفن . ولكن الفرق عظيم بين تارتوف وبين لورانس . لان تارتوف تمثال محسن
للمساء والمكر يمدح الناس بحمل الـحة بيده ويصيد قلوب المعصين باظهار الـمساء
وكترة العباد . وليس فيه شيء من الظرف والحنون ولا العلم والأدب الممتلئة - منها
اوريد السروجي بطل مقامات الحريري . بخلاف الراهب لورانس أو السبيح
فانما من دى الناموس والوحدان ولم يدحل كل منهما في الحادثة التي تحصه الا
لاصلاح ذات البين فيظهر الواحد منهما على المرسح بهيئة الكمال والوفاء عيون
المتفرجين ترفه بالاستحسان والاعتبار . ومع ذلك فوجوده في الرواية يضر بها ليس
المضحكات

١١ . وبارشيه (١٧٤٢ - ١٧٩٩) هو الأديب الفرنسي صاحب رواية (حلاق الشبلية) و(رواح) (بارو) وقد اشتهر
الروا من الكوميدي على اخلاق المعاصرين وصاد اديهم وصور فيها ما يشبهه . أم .

ومن روايات شكسبير المشهورة أيضاً « هاملت » وهو اسم ولد للملك من ملوك الدانيمارك في قديم الزمان . وخلاصة الرواية ان ام هاملت اتفقت مع عمه وهو أخ الملك وكان شاباً حسن المنظر فسقى الملك سماً وتولى مكانه وتزوج ام هاملت فانتقم هاملت من عمه وقتله . وكان لهاملت معشوقة بديعة الحسن تلاهى عنها بتدبير الحيل في طلب الانتقام فماتت كمدماً . وابلغ ما في الرواية حديث هاملت مع حفار القبور وهم يحضرون قبر معشوقته ويشربون من القرعة ويتنادمون . فالنكات الفلسفية التي يفوه بها حفار القبور يقرب الرواية لفن المضحكات مع انها من أبكى المبكيات وقتل الملك على الوجه المتقدم له امثال في التاريخ . منها قتل ام خالد بن يزيد لمروان بن الحكم في الدولة الاموية . ولم تزل الممتلة الشهيرة ساره برنار تمثل على المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية وتلبس لباس الرجال كما تمثل دور النسير وهواس نابليون الأول وحفيد امبراطور النمسا في رواية (ليكلون) التي نظمها شاعر العصر ادمون رويستان . ومن روايات شكسبير ايضاً ما قبت وهو قائد لجيوش دونقان ملك ايقوسيا من بلاد الانكليز قتل سيده وتغلب على ملكه وحكم من سنة ١٠٤٩ الى سنة ١٠٥٧ م فصور الشاعر قصته في تلك الرواية وخلاصة الكلام فيها : ان ماقت اجتاز يوماً مع رفيق له بمفازة مقفرة فمر بثلاث عجائز ساحرات كانهن جنيات .

فقال احداهن : - السلام عليك يا ماقت يا أمير غلاميس

وقالت الثانية : - السلام عليك يا ماقت يا أمير قاودور .

وقالت الثالثة : - السلام عليك يا ماقت يا من سيكون ملكاً على ايقوسيا .

فقال رفيقه بانقو : اعوز بالله منكن أي النسوة انتن ؟ امس الانس ام من

الجان ؟ ففعلن بكل خير لرفيقي ولم تنبئيني بشيء .

فقال كبراهن : - اما انت فخيرك باحسن مما اخبرنا به رفيقك لان عاقبته

مششومة ويموت بلا ولد يخلفه في الملك . وأما نسلك فسيملك على ايقوسيا ويمتد

الملك فيهم . قل ذلك واختفين كلمح البصر . وكان الأمر كما تنبأن به .

ففي يوم من الأيام نزل الملك دونقان مع بعض خواصه عند ماقت فبالع لهم

في الضيافة والاكرام وفرش للملك في المخدع ولقنائه في الغرفة المجاورة وكانت زوجة

ماقت حريصة على تحقيق ما أخبرت به الساحرات فحرضت زوجها على قتل ضيفه

وسيده . فدخل في ظلام الليل الحالك واخذ خنجراً لأحد القرباء وهم عارقون في

النوم وغطسه في صدر الملك . فلما قتله اخذته الرهبة واستولى عليه الخوف والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده . فتداركت زوجته الأمر ودحلت المخذع وغرفت بيدها من دم المقتول ولطخت وجوه قرنائه وايديهم لاتهامهم بايقاع الجرم فتمت الحيلة وجلس ما قبت وزوجته على سرير الملك ولكن لم يهدأ روع ليدي ماقت ولا استراح ضميرها . فصور الشاعر ندامتها في الفصل الاخير من روايته بابدع اسلوب وأبلغ تعبير . وأخرجها على المسرح حاملة مشعلاً وهي لا ترى في عينيها الا الظلام وتفرك بيدها كأنها لم تنق من لطخ الدماء ولا ذهبت الرائحة منها مع ما تطيبت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور وتحسب زوجها معها فتقول له : اغسل يديك والبس ثوب النوم وقلل من اصفرار لونك الخ . . ومن روايات شكسبير أيضاً (اوتيلو) بين فيها غيرة الزوج وتدته على زوجته وترجمها نطماً للفرنساوية الفرد دوفينية وله غير ذلك من الروايات .

وأجاد شكسبير في تصوير أخلاق الرجال وتوصيفهم وبيان المزايا الخاصة بكل فرد من أفرادهم . فسلك في الأدب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على اساليب اليونان والرومان ونبذ وراء ظهره قواعد الطريقة المدرسية ولم يلتفت في الرواية إلى وحدة الزمان والمكان ولا تصنع في الانشاء ولا تقصد فيه ايراد البديع من الكلام ولا تهافت على التشابيه والاستعارات . بل اخذ ما يلهمه اياه الوجدان ويمليه عليه الضمير ويصور الاحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوفة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم والجود والكرم إلى طور الغضب والبطش والاستبداد وبين عوامل الحب والبغض واليأس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبر والتجبر والتفاخر والتكاثر إلى غير ذلك مما هو مغروس في طينة الانسان من الاخلاق والطوائع ويظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسلة جليلة ليس فيها تصنع ولا تعمل .

ثم نبع في الانكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤ م وكان كاتباً لقرومويل الشهير فلما مات وانقرصت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره وذهب ماله فاملى على زوجته وبنتيه كتاب « الجنة الضائعة » وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له ورتبه على اتي عشر غناء فجاء من أحسن ابنية الشعر الانكليزي ومن ابداع ما الفه شعراء الامم الاوربية بعد كتاب (المضحكة الالهية) المشابه لرسالة الغفران

فتحست اللغة الانكليزية واتسعت دائرة الأدب والتحيلات الشعرية فيها ومال ادبائها لقراءة الاشعار القومية الدارجة التي بطمها في القرون الوسطى التروبادور والروفير وهم من شعراء الرابة المعاصرين لعرب الاندلس وأوجدوا للشعر شكلاً جديداً واسلوباً مبتكراً . وبغ فيهم مثل شلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢م) وزوجته واللورد بايرون وكان دا نفس عال وتخيل واسع فنظم القصائد المعروفة بالشرقيات وتشيع فيها لليونان تشيع العجم للسادات وتفانى في حهم ولم يزل غرام العشق يلعب برأسه اثناء حرب المورة الى ان حطه العشق والهيام من أعلى قصور لوبدرا إلى اسفل أكواخ ميسولونكي وهي قرية على ساحل خليج قورنت الفاصل بين شبه جزيرة المورة وبقية بلاد اليونان . وسبب وخامة تلك القرية وعدم نظافتها كان هواءها فاسداً فاصابت الحمى الشاعر الانكليزي وعجلت بروحه الى الآخرة ونقلت جثته الى انكلترا واقيم له في ميسولونكي تمثال ينساهده السائح في تلك البقاع . فاللورد بايرون هو مؤسس الطريقة الرومانية باللغة الانكليزية وله في الشعر الدراماتيقي رواية ما تفرد نظمها في ايطاليا على سق رواية فوست وذكر فيها السحر والأرواح وحوارق الطبعه وله أيضاً رواية دون جيان بطمها على اسلوب متكرر وكلتا الروايتين تمتازان الآن على المراسح الباريزية

ومن مشاهير ادباء الانكليز والترسقوت (١٧٧١ - ١٨٣٢م) كتب بالانكليزية اكثر من سبعين قصة تاريخية بين سنة ١٨١٤ و ١٨٣٢ كلها في عاية التدقيق عول عليها المؤرخون ومهمهم مستله المؤرخ الشهير . لان صاحب المصص له في الوقائع التاريخية نظر دقيق وسررح واقعة فلما يسر للمؤرخ الاحاطة بها وسبح على عموال والرمم في ان الساحة عليه فليم ع تم طهر في عالم التحرير
التي
اتتجه في الادب الى السهله الملهمة فيلما يراى في مرون الادب والساسة
١٨٢٩ في ايطاليا بلاد الارناؤوط ورس الاما صول ، سورنا ومصر
كتب علمي وحين هيئها اراءه الساسة وعرب المة
قصه ساجدة وفي له قصصه احد من عساها « انكيدرنا »
ومسار على لمرارة الحماطة في السماء
.

اياس تافانوس سنة ١٨٧٧ ولكنه طمع في الاحرة على هذه الخدمة ورجح اكثر من اللازم في تجارته وتوفي سنة ١٨٨١
 فيهم مما تقدم أن اول واضح لاساليب الطريقة الرومانية ولهم شكسبير .
 ولكن أول ناسج على منوال هذه الطريقة ومظهر لمزاياها هم شعراء الالمان وجميعهم
 من انكليز ولمان وفرنساويين اقتسوا افانين الأدب من الاسبانيين والطليلاد المحالطين
 للعرب في القرون الوسطى .

٢١ - الطريقة الرومانية عند الالمان والفرنساويين

اما الالمان فأقدم تأليف أدبي لهم أغاني هيلد براند نظمت في القرن التاسع
 للميلاد بلسان الالمان كما نظمت أغاني رولان بلسان رومان . وفي القرن الثالث عشر
 جمع ديوان بيلوتنج كما جمعت قصة عنتر وذكر فيه الحروب التي حدثت بين قبائل
 بيلوجن وبين اتيليا الذي هجم عليهم من الشرق وبادهم . فهذا الديوان هو الحماسة
 الالمانية . ثم حدث الانقلاب الديني وظفر لوتر مؤسس احكام الديانة الروتستانتية
 وترجم للالمانية الكتب المقدسة فأتسعت بذلك اللغة وتهدبت نوعاً ما وظهر نفر من
 الكتات والشعراء والعلماء ومع ذلك استمر الالمان للقرن الثامن عشر للميلاد محرومين
 من فنون الأدب المعتمدة عند الادباء وكان الأمراء والاعيان في المانيا مكبين على
 نحصيل الادب الفرنسي وعلی حفظ الاشعار الفرنسية والتمثيل بها والتكلم
 بالفرنساوية في نوادي سمرهم ومحسعاتهم وصيافاتهم تشبهاً بملوك بروسيا وبها في
 القصر الملوكي ببرلين اد الناس على دين ملوكهم وكان لفريدريك الثاني ملك
 بروسيا اعجاب شديد بالنساء احتسم فولتر الفرنسي فقر به اليه وأحله في قصره
 مثلاً رفيعاً والحاصل كانت بصاعه ا - ب الفرنسي راتحة عند الالمانيين كرواحها
 عند الروم . وخرواحها أدباً مع - غرب الترم في الاستانة العلية ومصر القاهرة .
 حضر في يومها في مدرسة العلوم الدينية سارس امتحان طالب تركي استامبولي
 احاب جواناً له لا عن اثار الاستله التي الفيت عليه بما يتعلق بأحوال فرنسا وشؤونها
 الداخلية المأثرة بعرفها لأسانها فلي اسه له المعلم وسأله عن البوسة والمهرسك وعن
 الحروب المأثرة في فرنسا . فلي اسه له المعلم وسأله عن البوسة والمهرسك وعن

ورأيت في باريس تلميذاً مصرياً يحسن التكلم والكتابة بالفرنساوية ويتكلم العربية ولا يكتبها وله والده تركية تحرر له المكاتيب باللغة العثمانية ولم يكن هو يعرف اللغة العثمانية لا تكلياً ولا كتابة سوى بعض عبارات متعارفة ربما كانت والدته تعرف قدر ذلك من العربية فيتيسر لها التفاهم والتكالم باللغة العربية التركية واما المخبرة التحريرة فلم يتمكننا منها الا بواسطة الترجمان والكاتب مع ان كليهما ليسا بامين بل هما على جانب من العلم والأدب فالانهاك باللغة الاجنبية أدى إلى أن الولد أصبح لا يعرف لغة أمه كما تجب معرفتها ادبياً وطبيعياً . لان لغة الأم هي اللغة الطبيعية التي يسميها الفرنسيون (لانغ ماترنيل) ويسميها الاتراك (لسان مادر زاده) ومادر هي الأم بالفارسية .

وهكذا كانت الحال في المانيا بسبب تهافتهم على أدب اللغة الفرنسية ففي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر أي ما بين سني ١٧٧٠ - ١٧٨٠ م جاء ادباء الالمان بطرز جديد من الأدب كان له رواج على مسرح اللعب وأقبل الناس عليه اقبالاً عظيماً . مع ان الطرز الجديد الذي جاؤا به كان عارياً عن تلك الصور والاساليب البديعة التي في مؤلفات اهل الطريقة المدرسية وحالياً عن داك التصنع أو التعمل الذي كانوا يتكلفون له ومجرداً عن تلك المحاسن التي كانوا يؤلفونها تأليفاً . وانما كان كلام الادباء الالمانيين في هذا الطرز الجديد صادراً عن تأثر وتهيج وانفعال في النفس . وعن احساس في القلب . فنفس هذا الانفعال والاحساس الروح في كلامهم وصيره كلاماً حياً تألفه ارواح المستمعين وتحنٌ إليه . ولم يقصد ادباء الالمان في ما افوه الامتياز بالفضل والعلم بين الخواص وانما كانت غايتهم افهام كلامهم لعوام الناس ولجميع الاصناف من أولاد البلد الذين يقال لهم (بورجوا) . فمن أجل هذا عدلوا عن الأخذ بعالي الطبقة من الانشاء المصنع واستعملوا اللهجة المألوفة بين قومهم وابناء بلدهم وجعلوا اهتمامهم في نفخ روح الحياة في كلامهم وأدخلوا فيه كل ما يحدث انفعالاً في النفس وتهيجاً في العواطف بغير تهافت على البديع من الالفاظ ولا على رعاية القواعد وصوروا في كلامهم الغرائب والعجائب التي تشوق الاسماع لاستطلاع حقائقها ولا تطمئن القلوب الا بعد الوصول لنهايتها فان الادن تعشق بطبعها الاخبار ولذا نرى عوامنا في كل قطر وبلد يدورون وراء القصاص (الحكواتي) من قهوة إلى اخرى ويتلذذون بسماع ما يتلوه عليهم من اخبار عنتره بن شداد والوزير

أبي لبلى المهلهل والرباني حليلة وعلي الرئيق عايق رمانه وقصة الملك سيف والملك راد
سحت بر شهرمان وجميع ما ورد في ألف ليلة وليلة من الحكايات . وإذا بات بطل
الرواية في صيق وكرب لا يهدأ نالهم ولا تنام أعينهم الا بعد تمام الخبر وفهم ما جرى
له .

وكان أدباء الالمان اذا القوا رواية فاجعة اخذوا موضوعها مما يرونه في قومهم
ويشاهدونه في بلادهم وإذا بحثوا عن الوقائع التاريخية احتاروا مباحثهم من تواريخ
القرون الوسطى لاسيما من القصص والحكايات الدارجة على السنة الأمم الالمانية
والجرمانية ترجيحاً لها على تواريخ القرون الأولى وعلى قصص اليونان والرومان . كما
فعل كوته (١٧٤٩ - ١٨٣٣ م) شيخ ادباء الالمان فإنه اختار فوست بطلاً لروايته
الشهيرة بهذا الاسم . وتداول اسم فوست على السنة العامة في المانيا وفي انكلترا
قبل تأليف هذه الرواية الالمانية واشتهرت سيرته بين الناس بانه من السحرة الذين
باعوا الدنيا بالأخرة واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ولا كانوا مؤمنين
وأختاروا بطلاً لرواية أخرى (اكامون) وهو أمير في البحر هولاندي الاصل اشتهر في
تاريخ الالمان بخدمته لشارلكن وانتصاره على الفرنسيين وعلى ملكهم فرانسوا
الأول المستنجد بالسلطان سليمان القانوني . ومن بديع ما ألفه أيضاً الشاعر كوته قصة
وارترثم ديوان الشرقيات (ديفان اورينتال) وهو مجموع أشعار نظمها على اسلوب
غريب قلد فيها ديوان الحافظ الشيرازي أحد مشاهير شعراء العجم المتوفى سنة ٧٩٤
هـ أو ٧٩١ هجرية وكان الحافظ ممن اجتمع بتمورلنك حينما ضبط شيراز وجرى بينهما
لطائف مشهورة . وقد ترجم ديوان الحافظ للغات الاوربية كما ترجمت مؤلفات الاكابر
من شعراء الفرس مثل الفردوسي صاحب السهنامه المتقدم ذكرها ومثل الشيخ مصلح
الدين سعدي صاحب الكلستان والبستان وترجمه إلى الفرنسية الموسيو باربيه دومينار
مدير مدرسة اللسنة الشرقية ببارس . والكلستان مترجم إلى العربية التركية
ويدرس في عموم المكاتب العثمانية . وكان الصليبيون قد اسروا مؤلفه وحبسوه في
طرابلس الشام وشعلوه في بناء الابراج المحيطة بها من جهة البحر . فرق له أحد
الاغنياء من اعيان حلب وأفتداه بهال وخلصه من الاسروكانت وفاته سنة ٦٩١ هـ .
فأفرنج زماننا يحترمون سعدي قدر ما احتقره اسلافهم وذكره فيكتور هوكون في مؤلفاته
ونقل عنه . ومن مشاهير ادباء الالمان شيلر (١٧٥٩ - ١٨٠٥ م) وكان معاصراً لكوته

ورقيقاً له فاتخذ وليم تل بطلاً لروايته المشهورة بهذا الاسم وكان وليم تل المذكور رئيساً للعصبة التي خرجت في بلاد السويس على حكامها النمساويين وحررت البلاد من قيد اسارتهم سنة ١٣٠٧ م . والمذكور من خبره في التاريخ ان الدوق أي والي بلاد السويس المعين من قبل امبراطور الالمان نصب ذات يوم عموداً في ساحة المدينة ورسم في رأسه تاج الدوقية وأمر الناس بالحضوع امامه . فرفض وليم تل الانقياد لهذا الأمر الذي فيه التحقير والاذلال لنوع الانسان مع ما اختصه الله به من الكرامة وورد في القرآن الشريف «ولقد كرمنا بني آدم»^(١) . وكان وليم تل من أشد الانطال بأساً وامهرهم رمياً بالنبل فغضب عليه الوالي وأحصره بين يديه وحكم عليه بوضع تفاحة على رأس ولده وفلذة كبده ورميها بالقوس والنشاب . ففعل ذلك وقلبه يتميز من الغيظ وأصاب الهدف بعد ان كان الخطاء اقرب اليه من الصواب . فصور الشاعر هذه القصة التاريخية وبن فيها عوامل الاسبداد وعدم صبر النفس الالية على الظلم والجور والاستعداد وكان شيلر يلقب شاعر النساء والشبان لتأثير اقواله فيهم اكثر من تأثيرها في المتأدبين من الرجال المائلين الى العمل والتصنع في الكلام والى الانشاء العالي الطبقة . لان كلامه كان سهلاً بسيطاً خالياً مما في الطريقة المدرسية من أصول الصك والسبك ومن انواع البديع والاستعارات وفيه كثير من الالفاظ العامة والتراكيب المتداولة ولكنه كان على السامع أشد تأثيراً وأخذ بمجامع القلوب

فعند ان كان الالمان في الأدب عيالاً على الفرسانويين وليس عندهم من المؤلفات الأدبية الا ما هو ترجمة أو تقليد لما حرر بالفرنساوية على نهج الطريقة المدرسية صاروا أئمة في الأدب يقتدى بهم وسج على منوالهم . واشتهرت الطريقة التي سلكها كوته وشيلر وليستع ومن افدى الىهم بالطريقة الرومانسية لغة رومان وهي اللاتينية الدارجة التي جاء بها جنود الرومانيين وموظفهم إلى بلاد الغولوا والسلت أي لفرسانا فتحرفت فيها وامتزجت بلسان الفرانك وانقلبت الى اللغة الفرنسية الحالية فكلمة رومان كانت تطلق في القرون الوسطى على ما دون بلسان رومان من في المطوم والمنثور . وذلك مثل ميم ستراسبورغ وهو اقدم الابنية في لسان رومان

(١) ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في السر والسرور وزقناهم من الطيبات وفصلناهم على كثير من خلصا

حصلا اية (٧٠) سورة (١٧)

ومثل رومان رول
سأ اغاي رولان ورومان المائدة المستديرة ورومان
الثعلب ورومان السيد وسير غير ذلك . فكأت المحررات الرومانية أي المدونة بلغة
رومان تعتبر من التآليف الجاهلية بالنسبة للمحررات اللاتينية وهي ما حرر باللمعة
اللاتينية من التواريخ المقدسة وسير الصالحين والقديسين والصلوات الدينية .
فاللسان اللاتيني كان إذ ذاك لسان المدارس والكنائس والمعول عليه في العلم
والدين . وكان في سبكه تصنيع وتعمل ومراعاة لقواعد العراماطيق والعروض وبقية
علوم الآلات المدرسية . ويبلغون علوم الآلات في العربية إلى اثني عشر علماً كما لا
يخفى . فلغة رومان لم يكن فيها شيء من ذلك بل كانت على فطرتها الطبيعية وليس
في سك عباراتها أدنى تصنع ولا تهديد . فما اخار أدباء الامان مواضيع رواياتهم من
رومان القرون الوسطى ورجحوه على مؤلفات اللاتين واليونان سميت طريقة ادهم
بالطريقة الرومانية واطلقت كلمة (رومانتيك) الفرنسية على الأدب المستحدث
تسمية له باسم اجبي كما اطلقت كلمة (فرانك) الجرمانية على قتال الغولوا والسلت
وقبل لهم فرنساويون

فطريقة رومانتيك المنسوبة لفيكتور هوكتور تولدت في المانيا واستهزت برقابتها
للطريقة المدرسية وبميلها لاطهار قريحة القرون الوسطى وتصوير احلاق اهلها
وعوائدهم وحماسه فرسانها وصلابتهم في الدين وتعصبهم للمذهب وتهورهم في المسائل
ومبالغتهم في الاخبار وتصديقهم بالخرافات والخزعبلات . واراد أهل الطريقة
الرومانية الفوز على اهل الطريقة المدرسية - لا بانتقاء الالفاظ وسك العبارات
وانسجام المعاني ومراعاة القواعد - بل بالاتيان بكل ما يحدث انفعالاً في النفس ويفتح
مجالاً للتصور والخيال . ولذا عمدوا إلى القصص الدارحة على الالسن والمنقولة عن
الاسلاف والحدود ووضعوها في قالب شعري وألقوا بها رواياتهم واهملوا أساطير القرون
الاولى من الاسرائيليات والخرافات اليونانية والرومانية . وجاء الفيلسوف الالماني
هكل وفسر نفسيراً فلسفياً حقيقة الطريقة الرومانية وهو يبحث في الصور المختلفة التي
تغلب فيها العقل البشري فوجد فيها ثلاث طرق في صاغة الأدب منذ شأته الأولى
إلى زمانه وهي .

(١) الطريقة الرمزية (سيمبوليك)

(٢) الطريقة المدرسية

(٣) الطريقة الرومانية . كما سنذكره .

ويظهر الفرق بين الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية لكل مدقق حضر تمثيل رواية مؤلفة على نهج الطريقة المدرسية مثل مؤلفات راسين ومنها رواية (اندروماق) اليونانية و(استير) و(اتالي) الاسرائيليتين ومثل مؤلفات قورنيل ومنها (هوراس) وهي رواية الأخوة الثلاثة الرومانيين ثم حضر في مراسم الاستانة وازمير او مراسم مصر واوربا تمثيل رواية فوست مثلاً . فأول ما يشاهد عند رفع الستار شيخ عليه الهبة والوقار جالس على كرسي في غرفة المطالعة وأمامه مائدة تراكمت فوقها الكتب والدفاتر والاقلام والمحابر وهو يفكر في ما يكون اليه المرجع والمآب ويقلب على نور السراج اوراق الكتاب الذي خط فيه جابر ومسلمة علوم السحر والكيمياء ويتلهف على أيام الشباب وزمن التصابي ويقول .

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء وبعد ان يستولي اليأس على هذا الشيخ الفاني ينفخ في رأسه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ويحرضه على دعوة الشيطان اليه وتلاوة العزائم عليه فبأسرار التلاوات وخواص الطلسمات يظهر صاحب الاسم والعزيمة المتوسل بها وهو حادم من الجنة ويعلمه ما انزل على الملكين بابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولوا أنما نحن فتنة فلا تكفر . وهكذا يقول الخادم للشيخ فيبيع الآخرة بالدنيا ويشترى الضلالة بالهدى ويعلم منه ما يعيد الشباب والغناء ولعل ذلك بواسطة الأكسير الذي من خواصه إعادة الشباب وقلب المعادن إلى الذهب على زعم المتقدمين فينهمك الشيخ فوست في اللذات ويغرق في الهناء والمسرات ويعشق بنتاً يقال لها مارغريت فيراودها عن نفسها ويفرق بسحره بينها وبين أمها ويستويها بالجواهر والآلئاء ويطغىها الشيطان . . فتستحق لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . فيغتازل اخو مارغريت من عهز انخته ويقف لعاشقها بالمرصاد ويبارزه بالسيف فيقتل بوخزة حفية من ذاك الخادم الجنى المرافق لفوست . فتستحيي مارغريت من هذه الفضائح ويذهب الرشد منها فتقتل الولد الذي حملت به من فوست وتأخذها حاكم البلد بما حث يداها ويلقيه في السجن فيأتي عاشقها لتهريبها وهذه أشد ساعة على مارغريت حيث يتنازع قلبها عوامل الحب من جهة وعوامل الندامة من اخرى فلا تجد لها ملجأ غير رحمة الله التي وسعت كل شيء فتحول وجهها عن عاشقها وتتوب إلى الله توبة

خالصة . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفورٌ رحيم (١) . فيغفر الله لها ما تقدم من الذنب وما تأخر ويقبضها اليه فتخرم ميتة وتذهب نفسها الناطقة الخالدة الى عالم الأرواح على شكل الحمامة التي وصفها ابن سينا بقوله :

هبطت اليه من المحل الأرفع ورفاء ذات تعزز وتمنع وتنشق في آخر الليل سماء المرسح وتظهر مارغريت باهى الحلي والحلل في اعلى عليين بجانب اخواتها تحف بهن الملائكة المربون . وفوست ينظر اليها والعبرات تسيل من عينيه . واختلفوا في فوست فقالت طائفة انه من الهالكين ومقره في الدرك الأسفل من النار . وقالت طائفة اخرى لا بل استشهد في الحب وتاب إلى الله فتاب الله عليه والله خير التوابين . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ان الله كان تواباً رحيماً . انها التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً (٢)

ويرى المتفرج على هذه الرواية أفعال السحر والسحارات المكارات اللواتي يطبخن المواد السحرية في القدر ويصبينها بين المفارق ليسحرن المارين في الطرق ويرى ايضاً أعمال الشيطان الرجيم وغوايته لمن يتبعه من الانس وقدرته على حرق العوائد واطهار العجائب وحكمه في هذه الدنيا الدنية الفاسدة وكيفية استعادة النصرارى منه بالصليب . ولذا جعل أهل القرون الوسطى قبضات سيوفهم على شكل الصليب ليتعودوا بها من شر الشيطان الرجيم . وهذا يكون السيف قاطعاً بقبضته في الروحيات ويجده في الماديات .

ولما ذهب نابوليون الاول بعساكره إلى بروسيا اجتمع في برلين بالشاعر كوته مؤلف رواية فوست المذكورة وحادثه طويلاً وعجب به وأحسن عليه بنيشان الافتخار فاتجهت نحو مؤلفاته افكار الادباء من الفرنسيين كما اتجهت قبلاً افكار ادباء الالمان نحو مؤلفات فولتير حينما كان في سراي برلين من المقربين وكانت اساليب الطريقة الرومانية دخلت فرانساً على عهد نابوليون الأول بواسطة شاتو بريان ومدام دوستايل .

(١) سورة الانعام آية ٥٤

(٢) سورة النساء آية ١٦

أما الأول فهو الإمام الذي اقتدى به في الأدب فيكتور هوغو وقال : « أما ان
 اكون شاتوبريان اولاشي » . واسمه فرانسوارينه فيقونت وشاتوبريان نسبة لشاتوبريان
 أي لقصر بريان المشيد على نهر لورا بالقرب من نانت . وحيث كان من اشرف
 العائلات ذهب أيام الانقلاب الكبير إلى اميركا وساح بين اهلها المتوحشين وعاد منها
 لانكلترا ثم لفرانسا ونشر قصة (اتلا) وذكر فيها ما شاهده في سياحته من عجائب
 الأمم المتوحشة . ثم نشر قصة (رينه) وقص فيها اخبار نفسه وبين افكاره وانفعالاته
 بسبب ما كشف له من الحقائق المرعبة . وامتاز بين الكتاب برونى الانشاء وكثرة
 التصورات والاحساسات وبشدة الهيام وفصاحة الكلام فراجت بضاعته في الأدب
 ونشر حينئذ (حكمة الديانة المسيحية) وأقبل على تدقيق هذا الدين وخرح لمشاهدة
 الاماكن التي ظهر فيها والبلاد التي انتشر بين اهلها فساد في اقطار فلسطين وسوريا
 ومصر وبر الاناضول ونشر سنة ١٨٠٩ كتاب الشهداء وبين فيه كيفية ظهور الدين
 المسيحي على الدين الوثني ونشر سنة ١٨١١ (دليل السياحة من باريس إلى القدس)
 وعرف الفرنسيون بشؤون القرون الوسطى بعد ان كان ادباؤهم مشغوفين بتعريف
 القرون الاولى وبتقليد ادباء اليونان والرومان . وكانت جريدة الديبا المشهورة بحسن
 الاشياء وجودة التحرير حديثة الظهور فاقبل على التحرير فيها وبرع في قوة التصوير
 والوصف والتلوين وكان لكلامه تأثير على النفوس فصار لمؤلفاته دخل كبير في ظهور
 اساليب الطريقة الرومانية . ودخل شاتوبريان الوزارة الخارجية وتعين سفيراً ثم ناظراً
 للخارجية .

أما المادام دوستايل فهي بنت الوزير نيكرا الشهير . اشتغلت بالعلوم والمعارف
 كما هي عادة سيدات النساء في ذلك العصر ونبغت في فنون الادب واصبحت عالمة
 فاضلة يشار اليها بالبنان . فحررت سنة ١٨١٠ م كتاباً مفيداً عن المانيا وكتبت عن
 الادب باعتبارها له من العلائق بتشكيل الهيئة الاجتماعية . فدرست درساً فلسفياً
 ادب اليونان واللاتين . وبينت مدخل الدين المسيحي في تقريب عقول أهل الشمال
 من عقول أهل الجنوب . وذكرت الخواص المميزة لكل من الأدب الطلياني والاسباني
 والانكليزي والالماني . وما لكل مهما من العلائق بالفكر السياسي والأدبي .
 وشرحت تأثير الدين والاخلاق والشرائع على فنون الأدب . واستنتجت من
 تدقيقاتها العميقة ان الفكر البشري تابع لناموس الارتقاء مع المعاني الاخلاقية

والفلسفية والعلمية والسياسية . الخ ولكنه لم يتبع ناموس هذا الارتقاء في التحيلات الشعرية ولا في التصورات الخيالية فعندها ان الشاعر هومير وس مثلاً لا يذهب رونق كلامه وطلاوته ولا في عصر من العصور ولا يسمح به الدهر مرة أخرى ثم ظهر لا مارتين الشاعر السياسي الشهير ونظم ديوان التفكرات الشعرية فكان أول بناء من أبنية الشعر الجديد الموسيقي (ليريك) وخالف فيه اساليب من تقدمه كما خالف المتنبي اساليب الشعراء الجاهليين . واشتمل ديوان لا مارتين على تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد وعلى استغراقات في الحب وتجليات لطيفة ووصف مظاهر الكون وعالم الطبيعة وصفاً بديعاً ومن أحسن ما نظمة قصيدة (البحيرة) التي ترجمها نظماً للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيانا وباريس سابقا . وفهمت بان احمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم القصيدة المذكورة للعربية . وساح لا مارتين في الشرق وأحسن عليه ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان بمزرعة (جفلك) في ولاية أزمير فمكت فيها وفي رسي لسان وحرر سياحته الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في ثمانية مجلدات ونظم ديوان الالحان الشعرية والدينية وغيرها .

٢٢ - ظهور فيكتور هوغو

فجميع من ذكرناهم من الشعراء الفرنسيين وغير الفرنسيين تقدموا على فيكتور هوغو وعاصروه ومهدوا له طريق الأدب الجديد . وكانت النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر تائقة لرؤية أسلوب مستحدث في النظم والنثر ولحصول انقلاب في الأدب كما حصل انقلاب في السياسة لأن النشأة الجديدة من الخواص كانوا يافرين من قيود الطريقة المدرسية . وجمهور العوام كانوا متألمين من استبداد اصحاب الانقلاب الكبير باسم الحرية فان رؤساء هذا الانقلاب لم يكتفوا بتغيير شكل الحكومة بل هدموا اساس الدين وسببوا حدوث الموضوية في الأمة . أي انهم افروطوا في حاب الدين والسياسة كما افروط قبلهم ذوو التيجان من الملوك المستبدين فكان الجمهور يترقب ظهور إمام في الأدب يعيد لهم الرحاء والامل بالله والشعراء يترقبون ظهور هذا الامام ليخلص من الأدب من القيود الذي قيده بها بوالوفي كتابه

المسمى (آر بوثيك) أي صناعة الشعر . فكانوا يتمون كسر هذه القيود واعطاء الحرية التامة للفكر كما كسرت سلاسل الاستبداد وهدم بيت المظالم الا وهو حبس الباستيل الشهير واطلق سراح المحبوسين فيه ظلماً وعدواناً .

فظهر فيكتور هوغو وبرع في اللغة الفرنسية وفي طرق الافادة بها فضلاً عن معرفته بالمفردات والتراكيب اللغوية . وصار له خبرة بما للكلمات من القيمة الموسيقية أي بالنغمة التي تحدثها كل كلمة والتأثير الذي يحصل من جمع نغمات الكلمات والحنان . لان الكلمة عند خروجها من الفم لها نغمة مخصوصة ولحن بحسب مخارج الحروف . وتختلف المخارج باختلاف الالسنه ولذا ورد في الحديث الشريف « اقرؤا القرآن بلحون العرب » .

وقد عبر أئمة البلاغة من العرب عن هذه القيمة الموسيقية « بأجراس الكلم » ولا يخفى ما في هذا التعبير من الحلاوة لان الصوت يرن بالالفاظ رنة الجرس . وصار لفكتور هوغو أيضاً مهارة بعلم القوافي . فقوافيه عامرة مختلفة ليس فيها ما هو مكرر أو مبتذل بل جميعها ترد على غير ما ينتظره السامع . والخلاصة كان يعرف أي كلمة يلزم وضعها في أي بيت وأي بيت يقتضي انتقاؤه لأي موضوع . وساعده الحظ في السفر إلى رياض الأندلس التي تتغذى القرائح بنفحات أرهاها وتقر العيون بحسن مآظرها . فصاردهم كأنه آلة بديعة تفي بوظيفة السينماتوغراف والفوتوغراف معاً . فيصور ما يمر به من مشاهد الكون ويطلع ما يسمعه من حوادث الدهر ويعرضه على القراء والمستمعين بدون ان يضع منه خبراً أو يغفل منظرأ . فصور في أشعاره الخيالات وهي الشجر المجتمع الكثيف وكبقية تلاعب النسيم باوراقها والاغصان الملتفة وما ترسمه على بساط المرج الأخضر من الظل الطليل والجبال الراسية وما ينحدر عنها من الماء السلسيل والانهار الجارية وما ينعكس على مرآة سطحها من ضياء القمر وشعاع الشمس . ووصف صفير البلابل وهديل الحمام وبغام الطباء وسجع اليام وذكر غدوها ورواحها ما بين الرياض المزهرة والاشجار المثمرة والجدال المصحدة وصور غير ذلك أيضاً تصويراً حقيقياً باوضح بيان وافصح تعبير حتى يخال لمن يقرأ أشعاره انه ينظر إلى لوح من اللوح المصورة بقلم الرسام وفرشاته . ويسمع خرير الماء وصوت مزمار الراعي وهو يتناقص كلما ابتعد مع محبوبته في جوف الغابة . وجعل الالفاظ تلبس المعاني كما يلبس الثوب على الجسم فجاءت الفاظه طبقاً على معانيه . وكان

بمجرد نظره في المواد تتفجر المعاني من قريحته فيزنها بميران الحس ويصوغ لها على قدرها قوالب من الالفاظ والتراكيب كأحسن صائغ للحلى وأمهر سباك للمعادن . فكانت طريقته في بادیء الأمر عبارة عن وصف الطبيعة ومناظرها البديعة . ثم هجم على قواعد المتقدمين وأساليبهم هجمة الامة المستيقظة من غفلتها وكسر القيود التي قيد بها بوالوعقول الشعراء ونبد قواعد الطريقة المدرسية وراء ظهره واصلح عروض الشعر الفرنسي وغير تركيبه بمقاطع مختلفة وجوز تكميل معنى البيت بالبيت الذي بعده فوضع الجملة الواحدة في بيتين مما لم يجوزه المتقدمون وجعل نظم الشعر موافقاً لاحتياجات الفكر . وفتح لآخوانه من ذوي النشأة الجديدة طريقة مستحدثة في الأدب كانوا هائنين اقتحامها والولوج فيها

فاوجد فيكتور هوكو بذلك الطريقة الرومانية وحاد فيها عن استعارات الطريقة المدرسية وتشبيهاتها القديمة . ولم يتخذ كلام المتقدمين منوالاً لينسج عليه كما فعل اندره شينيه خاتمة اهل الطريقة المدرسية . بل اتخذ الذوق الطبيعي والاحساس الباطني دليلاً له في النظم والنثر كما فعل المتنبي والمعري وأهل طريقتهم الخارجين عن أساليب العرب المتقدمين . فكلما شعر فيكتور هوكوبشيء صورته بقلمه كما يحس به في قلبه بدون تهافت منه على ترضيع الكلام بجواهر البديع وتديبجه بحلل المجاز والتشابه ، فان اتى بشيء منها في كلامه عفواً بلا تصنع ولا تكلف فنعيم . والا فهو لا يهتم الا بالمعاني وبما يتخيله فيها من حقائق الشعر وإذا اراد تعيين الزمان مثلاً لم يتكلف ترتيب تلك الجمل المصنعة ولم يذكر حركات العقرب على مينا الساعة ولا شبه ذلك بدوران الفلك ولا بمنازل الشمس بل قال بذوقه الطبيعي :

« غداً اليوم الخامس والعشرون من حزيران سنة ألف وستمائة وسبع وخمسين . . . » كما ورد في مطلع رواية قرومويل وهي من الروايات التشخيصية المنظومة شعراً . فهذا مقتضى البلاغة في تعيين الزمان . وهذه الشطرة المطابقة للحال أبلغ من سواها . ومن المثال السابق الذي مثلنا به من كلام اندره شينيه . فكان السالك نهج هذه الطريقة إذا عطش قال هات اسقني كما قال أبو نواس :

الا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًا إذا امكس الجهرُ

وأما السالك نهج الطريقة المدرسية فكان يحيد عن السوق الطبيعي ويصنع كلامه ويقول « ألا ماء بارد نطفى به حرارة جوفنا » كما قال ذلك البارد المنتحي .

فايضاحاً لحقيقة الطريقة الرومانية لا نرى بدأً من تلخيص القواعد التي أوردتها بوالوفي صناعة الشعر ثم تلخيص القواعد التي ذكرها فيكتور هوغو في مقدمة رواية كرومويل وعارض فيها بوالو وجميع المنتسبين للطريقة المدرسية .

٢٣ - طريقة بوالو

نظم الشاعر الفرنسي بوالو كتابه الموسوم بصناعة الشعر سنة ١٦٧٤ م وهي أرجوزة طويلة محكمة البناء عالية النفس جامعة لقواعد الشعر وأنواعه اعتنى الشاعر في انشائها كثيراً وفكر فيها طويلاً لتكون قاعدة ونموذجاً في الشعر واقتفى في نظمها وتأليفها اثر الشاعر اللاتيني هوراس وهو نقل عن أرسطوطاليس في كتابه الموسوم بصناعة الشعر ولاأرسطوطاليس في الشعر كتاب آخر لخصه القاضي أبو الوليد بن رشد وطبع هذا التلخيص المستشرق فوستولاريو في مدينة فلورانس من إيطاليا سنة ١٨٧٣ ولا نطن بوالو اطلع على قصيدة ابن رشيق ولا على مؤلفاته في هذا المبحث لان الافرنج لم يكن لهم الفة بأدب العرب في القرن السابع عشر . وانما كانت عنايتهم باللغة العربية قل ذلك حينما ترجموا كتب علمها الى اللاتينية ولم يعودوا لدرسها الا في اواخر القرن الثامن عشر حينما نبغ شيخ المستشرقين سيلفستر دوساسي في باريس وشرح مقامات الحريري وألف الكتب المعتمدة . ولما ظهر ضياء ناشا من متأخري الادباء العثمانيين وقرأ العربية تم الفرنسيساوية اقتفى اثر بوالو ونظم بالتركية كتابه المعروف بالخراسات وانتقد فيه على كثير من شعراء الترك والفرس والعرب . فجاء كمال بك وانتقد عليه في رسالة سماها تخريب الخرابات وخطأه في كثير من مباحثه .

فالفصل الأول من كتاب بوالو في صناعة الشعر يشتمل على تفصيل القواعد التي اجملناها في الكلام على الطريقة المدرسية . وأكثر المؤلف في هذا الفصل من الخوض على مراعاة قواعد النحو والصرف والمعاني وغير ذلك من علوم الآلات . وحذر كثيراً من الابتعاد عن سلامة الذوق ولوقدر شعر . وشرع في الفصل الثاني والثالث في تطبيق هذه القواعد العمومية على افانين الشعر المختلفة وعرف كل فن منها على حدته . وبلغت فنون الشعر عنده إلى نحو أربعة عشر فناً . منها أنواع الغزل والتشبيب والمرقصات والمطربات وما احتوى على ذل العشق ورقة الكلام والادوار

المنسوجة على منوال شعراء التروبادور المعاصرين للاندلسيين ومنها انواع المدح وانواع الهجاء والهزل والسخرية والذم المشابه للمدح ومنها أنواع الرثاء ونحو ذلك . وتكلم أيضاً عن الروايات التمثيلية وهي (التراجيدا) أي الفاجعات و(الكوميديا) أي المضحكات وعرف كلاً منها وبين الشروط المقتضى مراعاتها في تأليف الرواية التمثيلية ولزوم وحدة الزمان والمكان والعمل . وعرف الشعر الموسيقي وهو الشيد والتلحين المسمى عندهم (ليريك) من كلمة لير وهي العود الذي يغنى عليه . وعرف أيضاً الشعر الحماسي المسمى عندهم (إيبونه) ومعناها في الأصل الخطبة التي يقولها الخطيب

فالشعر الموسيقي يمتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية أو الفردية أي المتفردة في ذات صاحبها . وذلك ان الشاعر يرى الحسنة فيشعر بالحب ويأمل الوصال . ويظهر له رقيب فيشعر بغضه وبانقطاع رجائه من الوصال . وبالمعروف الكريم فيشعر بالشكر له . ويموت صديق له فيشعر بالتفجع عليه . فبسبب هذه المشاعر تفيض نفس الشاعر بالغزل والنسيب والمدح والهجاء والرثاء ويتأهل أيضاً بدائع المخلوقات وينظر في خلق الأرض والسموات فتفيض نفسه بالتسبيح والتهليل والتقديس والترتيل . فكل واحد مما ذكر فن من افانين الشعر الموسيقي . ويختلف عروض كل منها وقوافيه باختلاف المساعر التي يشعربها واختلاف الالهام الذي يهبط عليه . ويعتريه من ذلك دهشة أو اندهال وحيرة وسرور وانسراح أو انقراض وحزن فيظهر أثر ما ذكر في نظمه وشعره .

وأما الشعر الحماسي فهو رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشعاعان فقولنا رواية أي خبر يفصل هذا النوع من الشعر عن الشعر الموسيقي لانه نشيد وغناء وعن الشعر الدراماتيقي أي الدرام لأن اساسه العمل . ولا يلتبس بالتاريخ الذي هو خبر ورواية أيضاً لان موضوع التاريخ الوقائع الصحيحة بلا اطراء ولا غلو . وأما الشعر الحماسي فموضوعه الوقائع الملفقة المستتلة على غرائب الشجاعة ونوادر الفروسية . واشهر كتب الحماسة الايلياد والاوديسة لهوميروس اليوناني . و(انبيد) لفرجيل اللاتيني والكوميديا الالهية لدانتي الطلياني . والحنة الضائعة للمتون الانكليزي وتخليص اورشليم لطاسو الطلياني وهانرياد لفولتر الفرنسي . والحماسة البابليوية ليفيكتور هوكو . وعند أهل الشرق ماها بهاراته ورامايانه للهند والشهنامه للفرس

وكتب الحماسة للعرب واسهرها كتاب الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي وقد طبعه مع شرح أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي عليه المستشرق الالماني فريتغ سنة ١٨٢٨ في مطبعة مدينة بونه . والحزب الأول من عكاظ الأدب هو في الحماسة الحميدية فهو (ايبوبة) الحرب اليونانية الاحيرة كما حرر فيكتور هوغو الايبوبة النابوليونية . ومن امعن النظر في الشعر العربي وجد اكثره من قبيل الشعر الموسيقي أي النشيد والاغاني وهو الممتاز بخاصته الشخصية وبإظهار الحواس الباطنة ووجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب بشجاعة الشجعان . ووجد المقامات تشابه ما عند الافرنج من فن الكوميديا . غير ان صاحب المقامات جعل اهتمامه في انتقاء الالفاظ وبلاغة التعبير ولم يلتفت كصاحب الكوميديا لدرس اخلاق الرجال وبيان المزايا الخاصة بافراد القوم أو الهيئة الاجتماعية . وكان الباحثون في أدب العرب لا يجدون فيه مثلاً «للدرام» الآتي تعريفه فجاء عبد الرحيم افندي احمد وعرض على المستشرقين في المؤتمر الحادي عشر المنعقد سنة ١٨٩٧ م في باريس رسالة الغفران للمعري وبين مشابقتها بالكوميديا الالهية ووعد بنشرها . وكان يوسف ضيا باشا الخالدي استنسخ رسالة الغفران المذكورة سنة ١٣٠٧ هـ من النسخة القديمة المحفوظة الآن بمكتبة الكوبريلي وهي تجاه نظارة المعارف وترتبة السلطان محمود في الاستانة . وهم إذ ذاك بطبعها فحال دونه سفره لبلاد الاكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس الكردي وتدوين قواعد هذا اللسان الذي نبغ من ابنائه امثال صلاح الدين الأيوبي صاحب الفتح القدسي . فاذا نشرت رسالة الغفران كما تطبع ترجمة الايلياد الآن في مطبعة الهلال تمكس قراء العربية من الاطلاع على فن جديد في أدب العرب غير الشعر الموسيقي والشعر الحماسي . والمأمول ممن ينشر رسالة الغفران ان يقابل بين النسخة المصرية والنسخة الاستامبولية لكيلا يقف ذهن المطالع كما حصل في المثال المنقول سابقاً من كتاب اعجاز القرآن للباقلائي بسبب وجود بياض في الأصل (١) . ومن دقق النظر في لزوميات المعري عرف ما هو عليه هذا الشاعر الحكيم من علو الفكر واتساع القريحة ولم يشتبه في ان كتابه الموسوم بالايك والغصون لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والأدب إلا أحصاها . وقد أطنب المؤرّحون في كلامهم على كتاب الايك والعصون وزعموا انه في مائة مجلد . ولكن

(١) طبعت « رسالة الغفران » بمصر سنة ١٩٠٨ وصححها المرحوم الشيخ ابراهيم البارحي

إذا نظرنا في قولهم ان اللزوميات في خمسة مجلدات ثم رأيناها مطبوعة في الهند في مجلد واحد وفي مصر في مجلدين حملنا ذلك علي الظن بان المائة مجلد من كتاب الأيك والغصون هي بمثابة عشرين مجلداً من اللزوميات طبعة الهند أو اربعين مجلداً من طبعة مصر . وعلى كل فهو من أعظم دوائر المعارف الأدبية في لسان العرب . ولا يعجز عن الاتيان بمثلها رهين المحسبين والايك هو الشجر الكثير الملتف . فكأنه أشار بهذا الأسم إلى أن الكتاب شامل لاصول الأدب وفروعه .

ثم أن بوالوبعد ما فرغ من بيان القواعد العمومية للشعر وبيان فنونه ولزوم اتباع الصدق والحقيقة فيه ذكر في الفصل الرابع من كتابه في صناعة الشعر ما ينبغي ان يتخلق به الشاعر من الأخلاق الحميدة وما يجب ان يحض عليه من الخير والمعروف . فاعترضوا عليه بذلك وقالوا بان هذا الفصل من مباحث علم الاخلاق لا من مباحث العلم والأدب . ولاموه ايضاً على اعتباره الشعر في مجرد قوالب الالفاظ وعلى تحديده بالحدود والتعاريف والزام الشاعر بمراعاة هذه الحدود في كل فن من فنونه وعدم الخروج عنها . وقالوا بان الشعر هو الهام من الله والطبيعة ونور يفيض على القريحة التي فيها استعداد طبيعي لقبوله ولا يمكن تعليم ذلك ولا تحديده بالحدود والتعاريف . والصحيح ان بوالوبعد اعترف بأن أساس الفكر المعاني الشعرية لا يمكن تعليمها بالقواعد ويقول بانها هبة من الله واستعداد فطري وغير يزي في قريحة الشاعر . وإنما الذي يدخل عنده تحت القواعد المذكورة هو شكل التعبير أي في قوالب الالفاظ التي تقاد بها تلك المعاني الشعرية .

٢٤ - هوكو والأدب الفرنسي

ولما ألف فيكتور هوكو رواية كرومويل التمثيلية سنة ١٨٢٧ وضع لها مقدمة بين فيها ما هو الاساس الذي أنشأ عليه ابنية اوراقه وما هو أصل الشجرة التي أثمر فرعها فأكهة روايته . كما وضع المعري مقدمة للزوم ما يلزم وافتتحها بقوله « كان من سؤالف الاقضية اني انشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزحتها عن الكذب والميظ » . ثم ذكر القواعد التي راعاها في تأليف هذا الكتاب وبين اللوازم التي تلزم القافية بدون ان يفتقر اليها حشو البيت واتى لها بالأمثال والشواهد المعتمدة من كلام

الحكمة والموعظة الحسنة كما هو مفصل في بابه . فخلاصة مقدمة كرومويل :
ان الانسان منذ النشأة الاولى الى الزمان الحاضر تقلب باعتبار التمدن أي
الحضارة وال عمران في ثلاث ادوار : (١) القرون الابتدائية (٢) القرون القديمة (٣)
القرون الاخيرة . وحيث كان الشعر سابقاً على اجتماع الانسان وملازماً له فقد تقلب
معه أيضاً في ثلاثة اشكال :

(١) الشعر الموسيقي أي الغناء (١) (ليريك)

(٢) الشعر الحماسي أي الحماسة (ايبك)

(٣) الشعر الدراماتيقي أي الهائلة (دراماتيك) .

وذلك ان الانسان لما انتبه في القرون الابتدائية لعوالم الموجودات - وكانت قريبة
عهد بالحدوث - انتبه معه الشعر . فانبهر من رؤية بدائع المخلوقات واسكرته الدهشة
حتى لم يكن أول كلامه الا « هيللة » . وكان تفكره تجلياً وجذباً وتصوره وحيّاً لقربه
من موجد الكائنات وهو الله . فكان ينادي بقلبه ويهلل بلسانه كما يتنفس برئتيه . ولم
يكن لعوده الا ثلاثة اوتار الخالق والنفس والمخلوقات . (٢) غير ان هذا السر المثلث
يشمل كل ما في الوجود . وكانت الأرض مقفرة تقريباً وليس عليها من بي آدم الا
بطون وفصائل ولم توجد بعد القبائل ولا الشعوب وكان لهم آباء لا ملوك . وكل عرق
من عروق البشر متمتع ببقائه ولا معرفة لأفراده بالملكية ولا بالشرعية ولا بالخصومة ولا
بالحرب . بل الكل لكل واحد وللكل .

فكان الاجتماع الانساني شركة لاشيء فيها يصابق افراد الانسان . وكانوا
يعيشون عيشة الرعاة البداوة التي ابتدأ منها كل تمدن وعمران . وهذه المعيشة أوفق ما
يكون لسائحات الفكر وهو اجس القلب . فكانت نفس الانسان سائحة على جماع

(١) قد يتعنى المرء بالشعر الحماسي أيضاً لأن الغناء اما هو تلحين الشعر موسيقياً كان أو حماسياً ولكن الغالب في

الغناء اظهار ما في نفس الانسان من الحس والشعور ولذا حصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعر الحماسي
بخاصته الشخصية . وكتاب الاعاي الله ابو الفرج الاصفهاني مباه على الغناء في المائة صوت التي احتارها المغنون

لرشيده . ولكنه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء فهو ديوان العرب

(٢) لا يخفى ان فيكتور هوغو حينما ألف رواية كرومويل كان من حزب الملوكيين المتمسكين بالدين الكاثوليكي

ولذا فهو يرى التثليث في كل امر ومسألة

الأهواء سباحة في بحر الخيالات وفكره اشبه بسحابة تسيرها الرياح وتغير شكلها ووجهتها بحسب مهبها . فهذا هو الانسان الاول . وهذا هو الشاعر الأول فهو شاب وموسيقي . ودينه الصلاة بمعناها اللغوي فقط وهو الدعاء وشعره الغناء . فهذا الشعر وهذا الغناء الذي للقرون الابتدائية هو « سفر التكوين » .

ثم زال عن الانسانية هذا الشاب رويداً رويداً واتسعت فيها جميع الدوائر . وصار البطن قبيلة والقبيلة شعباً وامة . واحتشد كل مجتمع من هذا الاجتماع الاساني العظيم حول مركز مشترك وتأسست الممالك . وحلت طبيعة العمران محل طبيعة البداوة وتبدلت الحيام بالقصور ومحطات الرحال بالمداين وتابوت العهد بالهيكل . واصبح رؤساء هذه الدول المستحدثة رعاة - للمواشي - بل للشعوب والأمم وتبدلت عصا الرعاة بصولجان الملك . ووقف كل شيء وتعين . واخذ الدين شكلاً مخصوصاً وانقلبت الصلاة من المعنى اللغوي إلى المعنى المصطلح عليه عند اهل كل مذهب

وتعينت أقوالها وافعالها بحسب ذاك المذهب . وضرب الاعتقاد نطاقه على العبادة وعلى هذا الوجه اقتسم الكاهن والملك ابوة الشعب وعلى هذا الوجه قامت مقام الشركة الابوية الجمعية الشيوقراطية وهي الدولة الجامعة أحكامها بين الديانة والسياسة . وازدحمت الشعوب والأمم على سطح الكرة فتضايقوا وتحاصموا وانتسبت بهم الحروب ، اصطدمت الممالك بعضها ببعض ، وطغى قوم على قوم . فاوجب هذا الطغيان ، احمة الشعوب والأمم وتغريبهم ورحلاتهم . وتصور الشعر هذه الوقائع العظيمة . وانتقل بذلك من الأفكار الى الأشياء وتغنى بالقرون والشعوب والممالك وصار حساً . وولد هومبروس فهذا الشاعر في الحقيقة أحسن معرف للاجتماع الاساني في القرون القديمة . وكل ما في هذا الاجتماع بسيط وحاسي . والشعر عندهم دين والدين شريعة أي قانون . فبعد بكاره الدور الأول ظهرت طهارة الدور الثاني من ادوار الاساية . واستولى نوع من الوقار والاحتشام على الاخلاق البيتية والاخلاق العمومية . ولم تحفظ الشعوب من عوائد بداوتها الا حرمة العريب ورعاية ابن السبيل . وصار للعائلة وطن يربطها وبشأت محبة الوطن والدار وزيارة القبور

فالنعير عن مثل هذا التمدن لا يمكن ان يكون ناشعار الحماسة . وتقلبت اشعار الحماسة في اشكال كثيرة بدون أن تصيغ خاصتها المميزة لها . فاذا تأملنا كلام الشاعر اليوناني بندار وهو من أهل القرن الخامس قبل الميلاد والملقب بأمر الشعراء

الغنائين لجودة قريحته في الشعر الموسيقي نجد كلامه كهنتياً أكثر مما هو ابوي وحاسياً أكثر مما هو موسيقي . وفي هذا الدور الثاني من أدوار العمران ظهر المؤرخون وجمعوا الآثار وأرخوا القرون . ومع ذلك فظهور التاريخ لم يستلزم نحو الشعر من الوجود بل استمر التاريخ حماسة وكان المؤرخ هيرودوس كأنه هوميروس ثان . ومن نظري روايات التراجيديا القديمة التي ألفها شعراء اليونان ومثلوها على مراسحهم تبنت جلياً أساليب شعر الحماسة ورأى علوهم في كل شيء وتجاوزهم الحد في العظمة والجبروت والهيبة والفخامة . فالأشخاص الممثلة في هذه الروايات هم من الجبارين وانصاف الآلهة والآلهة . ومواضيع الروايات احلام وهواتف ومقدرات والواحها تعداد نفوس وتشيع جنازات وحروب وغارات . وما كان ينشده الرواة من الأشعار كان يشدوه الممثلون . فمن التمثيل عند اليونان كان مقتصراً على هذا فقط ، وكانوا يبنون مراسحهم على سفح الجبل بلا سقف يقي حر الشمس ومطر السماء وانما هي درجات بعضها فوق بعض على شكل نصف الدائرة المسمى عندهم (امفيتاتر) وموضع التمثيل على الأرض في صحن المسرح وهو في غاية السعة والجسامة ويستوعب تمثيل معبد بفنائيه وسراي بدوائرها وقصورها وابراجها ومدينة بأسواقها ومعسكر بمهائماته . وكذا محل المتفرحين يستوعب ثلاثين ألف متفرج . مع ان مراسح الاوروبيين لا تستوعب اربعة آلاف . والمسرح الفرنسي في باريس لا يستوعب الا ١٤٠٠ ومرسح الاوبره فيها يستوعب ٢٢٠٠ ومرسح الشاتيلة وهو أكبر المراسح في باريس يستوعب ٣٦٠٠ وكان التمثيل عند اليونان يتبدى في الصباح ولا ينتهي الا في المساء . وربما مثل في المرة الواحدة روايتين أو أكثر . وكان الممثلون يفخمون اصواتهم ويعظمون قيافاتهم ويتبرقعون بالبراقع المناسبة للرواية حتى يحاكي الواحد منهم الجبار العنيد أو البطل الصنديد الذي يمثل دوره . فيمثل برومته بن تيتان وهو مقيد بالسلاسل فوق جبل قفقاس والنسرياًكل في احشائه . لانه صور من طين الأرض على هيئة الانسان ثم أراد ان يأخذ من نار السماء أو نورها لينفخ فيه الروح فاغضب الآلهة وجازاه كبيرهم بذلك الجزاء على ما اقترفت يده . ويمثل ايضاً انتيغون وهي في اعلى الابراج تفتش عن اخيها الذي كان في معسكر الاعداء من الفينيقيين . وقد ذكر خبرها الشاعر سوفوقل في رواية نظمها قبل الميلاد باربعمئة سنة وسماها (اديب الملك) ونسج على منوالها الشاعر الفرنسي فولتير وسمى روايته الفرنسية بهذا

الأسم أيضاً . واديب هذا ابن ملك من ملوك اليونان قتل اياه وملك على قومه وتزوج بأمه بدون علم مه . فلما وقف على حقيقة الامر لم يتحمل هذه المصيبة فقلع عيني نفسه بيديه وخرج من ملكه هاجاً وابنته انتيغون تقوده . ويمثل الممثلون أيضاً على مراسح اليونان مركباً كبيراً يزل منه خمسون أميرة بما يتبعهن من الخدم والحشم كما في الرواية التي ألفها الشاعر ايشيل قبل الميلاد بخمسة قرون . فكان يجتمع على مراسحهم فخامة البناء مع فخامة الكلام . ويمتزج التاريخ بالدين . وكان أول المضحكين عندهم من الكهان . وكانت العاهم احتفالات دينية ومواسم أهلية . فجميع الروايات المحزنة اليونانية هي من اشعار الحماسة وجميع الشعراء المتقدمين عيال على هوميروس ورواياتهم مستنتجة من الالياذة والاوذيسة ومبواضيع الجميع منها يعود إلى محاصرة تروادة .

٢٤ - الديانة المسيحية والأدب

ثم أخذ هذا الدور الثاني من ادوار الشعر يتقلص ويتعتق كما تعتق العمران القديم وجاء الرومانيون ونسجوا على منوال اليونانيين ونسخ شاعرهم فيرجيل عن هوميروس . وانتهى دور الشعر الحماسي وفتح دور جديد للشعر والتمدن بطهور الديانة المسيحية . فالديانة الوثنية مادية ظاهرية والديانة المسيحية روحانية باطنية فلما حلت أحدهما محل الاخرى ودخل الايمان بالمسيح قلب التمدن القديم قتله ووضع في جنازته المتعفنة جرثومة التمدن الحديث وثبت بتعاليمه دعائم الاخلاق . وأول حقيقة جاء بها هذا الدين هي القول بوجود حياتين للانسان . احدهما فانية والثانية خالدة احدهما على الأرض والثانية في السماء . وأعلم الانسان بانه مركب من حيوانية ونطق أي من جسد ونفس . وبانه نقطة الفصل المشترك وهو في علم الهندسة النقطة المشتركة بين خطين والخط المشترك بين سطحين والسطح المشترك بين حسمين أو بأنه الحلقة المشتركة بين سلسلتين من المخلوقات احدهما تتألف من الماديات والثانية من الروحانيات . احدهما تبتدىء من الجهاد وترتقي للانسان . والثانية تبتدىء من الانسان وتصعد الى الله .

ربما فقه بعض الحكماء المتقدمين شيئاً من هذه الحقائق ولكن اول من أوضحها

وجلاها الانحبل الشريف فاصحاب الديانة الوثنية خبطوا خبط عسواء وساروا في غلام الليل على هدى ولم بفرفروا في طربفهم بن الحن والباطل . والبعض من فلاسفتهم افاض من نبراس حكمته على الاشياء نوراً طفيفاً لم يصىء منها الا الجانب الاصغر وزاد في الظل الممتد وراء جانبها الاكبر . فنشأ من ذلك تلك الاشباح والخيالات التي وردت في فلسفه المتقدمين واساطيرهم . لان اضاءة تلك الاشياء بنامها لا تنيسر الا بنور الحكمه الالهيه . فلما جاء امر الله قام النور الالهى مقام هاتيك الانوار المترجة التي اتت بها الحكمه الانسانيه . وكان فيثاغورس وبقرات وسمرات وافلاطون سرج الليل فجاء المسيح بن مرسم (عليهما السلام) ضوء للنهار فحث كانت عبادة الاوثان دبابة مادية لم يخطر على بال الافدمين النفرين بين الروح والجسد كما في الديانة المسيحيه . بل اوجدوا شكلا وهبته لغبر الماديات وسخسوا المعنويات . فكل شيء عندهم مرثى ، محسوس ، منجسد ، والهنيهم مفترفون لسحابة يخنفون فيها عن الابصار . فهم يأكلون ويشربون ونامون . وتصيبهم الجراح فتسبل منهم الدماء . ويلقي بهم من السماء الى الارض فيتحطمون كما حدث لفولكن اله النار حينما حملت به امه من (جوبيتر) المشترى كير الاله ووضعت في اشنع صورة فاستنكفت منه ان يكون انها ورمت به الى الارض فهبط على جزيرة ليمن من جزر الممالك العثمانية وانكسرت رحله . وذهب لبركان انا ووضع فيه كور الحديد . فهو بعرج من وقعته ويشغل في صنعه ابد الابدن ودهر الدهرين . ومن هؤلاء المعسودات ماهم الهه ومنهم ما هو انصاف الهه فقط . ودناهم معلقة بسلسله من الذهب يمسكها كير الاله . وشمسهم يجرها في مركه اربع رؤوس من جيات الحبل . وجهنهم هاوبه عسيغه نعن الجغرافيون فوهتها على سطح الكره . وجنتهم على جبل اوليمسوس في نسالبا بسكنها لاله وبنلذون سعبمها . فالديانة الوثنيه عيجنت جميع المفتريات من اساطيرها في طينه واحده وصغرت الهها وكبرت اوادمها حتى تشابه الفاني بالحى الذى لا يموت . فالابطال الدين نكلهم عنهم هومير وس في اشعاره كادوا بكويون افرانا للمعبودين . فابو الفوارس اجاكس غضب على حوبير وهوراجع من محاربه برواده وأعلن الحرب عليه وعلى جماعته . واشبل عترة الحروب البوانبيه بضاهي في الفوه والسجاعة المربخ (مارس) له الحرب وحلاد الفلك بخلاف الدين المسيحي فله فرق بين الماده والروح وحفر وادنا عسبها بن الجسد

والنفس وواديا اخرب بن الانسان والآلهة فظهور النصرانية وبنشر تعاليمها دخل قلب الناس شعور جديد لم يكن معروفاً للمتقدمين واتسعت دائرة هذا الشعور عند المتأخرين اتساعاً غريباً فهذا الشعور هو المالخيوليا أي السوداء وهي اشد من الوقار المستولي على قلوب القدماء وأحف من الحزن . فالنصرانية وضعت في طبع المنديين بها المزاج السوداوي وجعلت الصلاة للفقير كالغنى للغني وأسست بين الناس المساواة والتفقة والحرية . فمذ ادخل الانجيل النفس بين الحواس ووضع الخلود وراء الحياة اصبح المتمسكون به يرون الاشياء بشكل جديد .

وعدا هذا في التاريخ الذي انتشرت فيه الديانة المسيحية حدث في العالم انقلاب كبير لم يتيسر معه ان لا يحصل انقلاب في العقول . لان الانقلابات التي حدثت قبل ذاك التاريخ كانت عبارة عن سقوط دولة وقيام اخرى ولم يكن لذلك تأثير كبير في قلوب العموم . بل المصيبة الحاصلة من تلك الانقلابات كانت كالمصاعقة لا تصيب إلا الاماكن العالية والمقامات المرتفعة فعبروا عنها باشعار الحماسة . ففي الاجتماع الانساني القديم كان الفرد سافلاً حتى كانت المصائب لا تؤثر عليه الا إذا نزل بيته وأصاب اهله . ولا يعرف الواحد من أهل تلك القرون الخالية البؤس ولا التعاسة خارج الآلام البيتية . ولا كان يسمع في تلك الاجيال بان المصائب العمومية الحادثة في المملكة تمس المعيشة الفردية . فلما حدثت تلك الانقلابات الكبيرة امان انتشار الديانة المسيحية وأصبحت الامم الاوروبية في هرج ومرج يتلاطمون كالأمواج في البحر العجاج وانقرض التمدن القديم ناستيلاء الاقوام البربرية على ممالك الرومان حدث من ذلك تأثير في قلوب العامة وانفعال في نفس كل فرد من أفرادهم . وأخذوا يفكرون في مصائب الدهر ومرارة الحياة وعرفوا بان هذه الدنيا الفانية ما هي الا هزل ولعب وكدر ونعب لا ينبغي للعاقل ان يغتر بها . فهذا الشعور الذي ولد اليأس في قلوب المشركين كما علم من حال الاديب قايون ، ولد في قلوب المنتصرين المالخيوليا وهي السوداء

وفي ذاك التاريخ أيضاً نولد فكر التجسس والاختبار . لأن تلك الوقائع العظيمة كانت أشبه برواية كبيرة مثلت على مسرح الدنيا وتشهد المتفرجون عواقبها المدهشة . فهذه الوقائع عبارة عن وتبة وثبها الشمال على الجنوب وتغير بسببها شكل العالم الروماني فأصبح يقاسي نزاع الموت وبلغت روحه التراقي فلما مات هذا العالم

قام جمهور من النحويين والبيانين والسفسطائيين يتقانون على جنازته ويقبلون جسده الذي لا حراك به . ويشرحون ويفسرون ويعبرون ويحللون ويناقشون ويجادلون كأنهم ذباب يتساقط على جيفة التمدن القديم . فمن سعادة هؤلاء المشرحين للعقول وحسن حظهم أنهم وجدوا جيفة يجرون عليها أول تجاربهم ويسبرون قروحها بمسبارهم . فكان أول جسد شرحوه جسد امة ميتة .

وعلى هذا الوجه نرى الآن ظهور جنية الماخيوليا والتفكر بجانب عفريت التحليل والتضاد . ونجد في احد طرفي هذا الدور الانتقالي البياني الشهير لونجين (٢١٠ - ٢٧٣م) ولد في حمص من سوريا والف باليونانية في علم البيان رسالة الاعجاز التي ترجمها بالوللفرنساوية . ونجد في الطرف الآخر القديس اوغوستين (٣٥٤ - ٤٣٠م) صاحب المؤلفات اللاتينية . فجميع ادباء القرون الوسطى استقوا افانين العلم والادب من حياض الروم في القسطنطينية . ولا يجوز لنا احتقار هذا الدور الانتقالي من ادوار الادب لان فيه النطفة التي تحلقت وولدت وكبرت حتى صارت عروساً تتمتع اليوم ببديع جمالها . فكتبة ذاك الدور - ونرجو هضم هذا التعبير الحرمع انه سوقي مبتذل - زبلوا رياض الأدب ليغتني المتأخرون ثمارها .

فحيث كان هناك دين جديد وامة جديدة اقتضى ان ينشأ على هذين الاساسين ابنية جديدة في الشعر . لان شعر المتقدمين كان حماسة صرفاً وبسبب تأثير الدين الوثني والفلسفة القديمة كان الشعراء لا يدرسون من الطبيعة الواجب عليهم تقليدها الا وجهاً واحداً وهو وجه الجمال . وينبذون وراء ظهورهم جميع ما لا علاقة له بشيء من نموذج الجمال بدون ان تأخذهم رافة على صناعة الأدب المقتضي لها تقليد ما في الطبيعة من خير أو شر . فهذه الطريقة كانت في بادىء امرها معتبرة . ولكن باضطرادها على قياس واحد زال رونقها وذهبت طلاوتها ونقصت قيمتها كما هو شأن كل ما اضطرر على وتيرة واحدة . فلما ظهر الدين المسيحي جرّ الشعر الى الحقيقة ووضعه في مكانه . وصارت قريحة الشاعر النصراني ترى الموجودات بعين أوسع وأرق مما كانت تراه قريحة الشاعر الوثني . فشعرت هذه القريحة الجديدة بان المخلوقات ليست كلها جميلة باعتبار الانسان بل الشنيع منها بجانب الجميل والمستظرف بقرب المستقبح والشر أكثر من الخير والظلام سابق النور والجد مخلوط بالهزل وكلام السخرية وراء الاعجاز بالفصاحة . فقالت القريحة في نفسها :

أحكمة الشاعر النسبية الجزئية أحسن من حكمة الخالق المطلقة الكلية ؟
 أبلغ من حد الشاعر ان يقوم ما اعوج على زعمه من خلق الله ؟
 وهل الابتر والاجدع والاجذم أجهل من كامل الاعضاء ؟
 وهل يحق لصناعة الادب ان تنزع بطانة الثوب الذي تردت به الانسانية والحياة
 والمخلوقات ؟

وهل يجوز نزع عضلة من الجسم أولولب من الدولاب ان أريد انتظام دورانه .
 وهل من الواجب على المطرب ان لا يعرب ؟
 ثم نظرت هذه القريحة الجديدة في وقائع العالم فوجدتها مضحكة مرهبة معاً
 واعتراها المزاج السوداوي بسبب الاعتقاد المسيحي واثراً عليها أيضاً الانتقاد الفلسفي
 المستفاد من ذاك الدور الانتقالي فخطت في الأدب خطوة كبرى زلزلت بها العالم العقلي
 وقلبت عاليه سافله وحذت في الشعر حذو الطبيعة وخلطت في اختلاق المعاني النورمع
 الظلام وكلام السخرية مع الاعجاز بالفصاحة بدون ان تخرج أحدهما بالثاني .
 ويتعبير آخر جمعت في الشعرين النفس والجسد وبين الحيوانية والنطق . لان الشعر
 والدين متلازمان والنقطة التي يسير منها أحدهما يسير منها الآخر . فوجدت في الشعر
 نموذجاً جديداً واسلوباً غريباً بالنظر للمتقدمين . وشرطت فيه شرطاً قلب شكله
 وأصلح قلبه . فهذا النموذج وهذا الشرط هو كلام السخرية الذي يظهر في قالب
 الكوميديا . فهذا هو الفرق الذي يفرق في نظرنا بين صناعة الأدب الجديدة وصناعة
 الأدب القديمة وبين الشكل الجديد الحي والشكل القديم الميت . أوبتعبير أشهر من
 هذا ولو كان مبهماً هذا هو الفرق بين أدب الطريقة الرومانية وأدب طريقة المدرسية .
 فيقول لنا حينئذ اهل الطريقة المدرسية :

.. ها نحن امسكناكم واخذناكم بالسنتكم . انتم تتخذون من القبيح نموذجاً
 للتقليد ومن كلام السخرية اسلوباً لصناعة الأدب ؟ ولكن اين اللطافة في ذلك اين
 حسن الذوق ؟ أما تدرون ان صناعة الأدب ينبغي لها ان تقوّم ما اعوج من الطبيعة ؟
 أما تعلمون ان الواجب عليها اعلاء شأن الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الاجدر بها
 انتخاب الاحسن مما في الطبيعة ؟ هل ادخل المتقدمون القبيح او السخرية في
 كلامهم ؟ هل مزجوا الكوميديا بالتراجيديا ؟ فاتبعوا يا سادة اساليب المتقدمين واقتفوا
 في فنون الادب أثر أرسطو وبوالوولا هارب . . . الخ .

- وفي الواقع ان حجب أهل الطريقة المدرسية دامغة . ولكن لسنا مكلفين بالرد عليهم لاننا لا نريد وضع قواعد جديدة ولا تقييد العقل بالعقل كما قيده . ادحانا الله من القواعد . وانما نحن حققنا وجود امر فنحن مؤرخون ولسنا منتقدين ولا مشرعين . فهذا الامر موجود سواء أعجبهم أو لم يعجبهم . ففرجة الشعر الجديد تولدت من انضمام نموذج السخرية بالكلام إلى نموذج الاعجاز بالفصاحة . وهي غزيرة المنبع في ابتكاراتها مختلفة الاشكال في تصويراتها . بخلاف الشعر القديم فانه وحيد الشكل وحيد الاسلوب لبساطته واضطراده على وتيرة واحدة . فهذا هو الفرق الحقيقي والاساسي بين أدب الطريقتين الرومانية والمدرسية .

نعم ان المتقدمين لم يجهلوا بالكلية حقيقة الكوميديا ولا السخرية التي نحن بصدددها إذ لا بد لكل شيء من أصل . وجرثومة الدور الثاني لا بد من ان تكون في الدور السابق عليه . ففي الايلياذة كل من (فولكين) و(تيرسيت) نموذج لهذه السخرية والكوميديا . والأول مثال للآلهة وقد مر ذكر السبب في عرجه وليس على اعرج من حرج . والثاني مثال للبشر ووصف هومير وس في الفصل الثاني من الايلياذة هذره في المنطق وهذيانه في الكلام وبين كثرة جلسته واستهزائه بجميع الناس حتى بالملوك . فكان في محاربة تروادة مضحكة اليونان يسخرهم ويسخرون منه لان فيه جميع النقائص والعيوب . ومن امثلة السخرية أيضاً مكاملة ميلاس مع بواب القصر في رواية (هيلانة) التي نظمها الشاعر اليوناني أوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد . ومن السخرية أيضاً ما نراه عند اليونان من الاشخاص الخارقة للطبيعة كالاني نصفه الواحد انسان ونصفه الآخر سمكة والذي بعين واحدة في جبهته وعرائس الجن اللواتي يظهرن على الانس كأنهن حور الجنان كل واحد من ذلك نموذج للسخرية . غير أن أدباء اليونان الاقدمين لم يتمكنوا من ايفاء هذا الموضوع حقه بسبب ما في أشعار حماسهم من الفخامة وما في رواياتهم من العظمة والجلالة . فالسخرية في كلامهم ليست في موقعها لأنها مستورة بجلالة الشكل الحماسي واسلوب الحماسة يفوق فيها على اسلوب السخرية ويمنعها من الظهور والبيان . بخلاف الادباء المتأخرين فان اسلوب السخرية له في شعرهم ورواياتهم موقع مهم وهو في كل موضع من كلامهم . ويصورون بهذا الاسلوب الشناعة والفظاعة من جهة واللعب من جهة اخرى . ويلحقون به في الدين الف وسوسة وأباطيل غريبة وفي الشعر الف

معنى مبتكر وتصور بديع . فاسلوب السخرية هو الذي أوجد في القرون الوسطى جميع هذه المخلوقات التي اعتقد الناس وجودها بين الانسان والله من عوالم الجن والروح والملك وملؤا بها الهواء والماء والأرض والنار فلم يبق محل في الفضاء الا وهي ساكنة فيه ومنها من هو على اكتافنا يكتب اعمالنا ومنها من يأكل ويشرب معنا من طعامنا وشرابنا ومنها من يلبسنا لبس الجلد على اللحم ولا يخرج منها الا بالضرب الشديد والتعذيب . وهذه السخرية هي التي جعلت لشيطان النصارى قرون التيس وأرجل الخنزير وأجنحة الخفافش وجرت الشاعر داني الطلياني وملتون الانكليزي الى تصوير تلك الصور الجهنمية العجيبة ووصفها بالاوصاف الهائلة والاشكال المخيفة حتى جاء في القرن السادس عشر المصور الشهير ميكيل انجلو ونقش على جدار كنيسة في الفاتيكان الذي يسكنه البابا صورة مفخمة بديعة سماها اليوم الآخر وهو يوم العرض والحساب . ولوقرأ القرآن الكريم لصور جهنم ترمي بشرر كالقصر كانه جمالة صفر . ومن أمثلة هذه السخرية أيضاً الخادم الجني ميفستوفلس المرافق لقّوست في الرواية المتقدم ذكرها ومنها الساحرات التي مركزهن في رواية ماقبت وانواع كثيرة من الخدام والرصد القائمين على حفظ الكنوز المخيفة والعيون الجارية والاشجار الكبيرة . وكذا الحوت الذي يظهر في البحر كالجزيرة المعشبة والشعابين التي تحاكي في الضخامة الفيلة وتحرق بنفسها كل مخضر ونحو ذلك . فالتأخرون عبروا عن جميع ما ذكر بكلام أفصح وأبلغ من كلام المتقدمين .

فاسلوب السخرية ماهو في نظرنا الا ضد قام بجانب اسلوب الاعجاز بالفصاحة ليميزه ويظهره . لان الاشياء تتميز بضدها . فهو اغزر المتابع التي فتحتها الطبيعة لصناعة الادب . فطريقة المتقدمين أورثت الملل والكلال باطرادها على نسق واحد ومراعاتها لاسلوب واحد وهو اسلوب الاعجاز . لان الاعجاز على الاعجاز والبلاغة وراء البلاغة والبيان تلو البيان متعب للفكر مجهد للذهن . فاذا فصل بينهما بكلام السخرية تفكه العقل وارتاح مما اجهده واضناه واستأنف السير نحو الاعجاز وهو في نشاط وارتياح بسبب توقفه بكلام السخرية والهزل . ثم لا يخفى ان الجميل إذا قرن بالقبيح زاد جماله رونقاً وصفاء وتألوءاً واعتلاء . ولذا كانت الجنة التي وصفها ميلتون ألد وأشهى من جنات الايليزه التي وصفها هوميروس وفرجيل . لان ميلتون صور تحت جنة عدن جهنماً أشد دهشة ونكالا من (تارتار) المتقدمين . ولولم يصف لنا

دانتى حبس ذاك الجبار العنيد في برج مدينة بيزه وسد باب البرج عليه حتى هلك
جوعاً بعد ان أكل اولاده لما وجدنا طلاوة لحسن فرانسواز دوريمني ولا لجمال بياتريس
التي دخلت به جنان النعيم إذ لولم يكن في كلامه تلك الشدة والقسوة والعذاب الاليم
لما كان فيه تلك الحلاوة الرائقة والعذوبة السائغة .

ففي شعر المتأخرين الاعجاز بالفصاحة يشبه النفس الناطقة المطمئنة بتعاليم
النصرانية . والسخرية أي الهزر بالكلام يشبه الجسد الحيواني الذي في الانسان .
فالنموذج الأول بتجرده من الهذيان وسلامته من العيوب حاز كل الحسن والجمال
والرشاقة والاعتدال والجذب واللطافة والركة والحلاوة . واخرج من خدور الافكار
عرائس مثل جوليت واوفينييه اللتين صاغهما شكسبير في رواية روميوجوليت ورواية
هاملت . ولعلمها تشبهان ليلى التي افتتن بها قيس العامري على عهد الدولة الاموية
ولقب لاجلها بمجنون ليلى . وفاطمة التي هام بحبها امرؤ القيس وقال لها « أفاطم
مهلاً بعض هذا التدلل » والنموذج الثاني ظهرت فيه جميع العيوب والعلل واتصف
بالشاعة والشناعة والهذيان والانهاك في الشهوات الحيوانية والرذائل الدينية وفي جر
المنافع ولو بإيقاع المفسد والجنايات . فهو فسق ، دنيء ، شره ، مهذار ، بخيل ،
طماع ، مراثي ، مفسد ، مفتن ، قواد ، غدار ، كذاب ، محتال . ويتمثل في صورة
باصيل وفيغارو وتارتوف وهارباغون . والأول اسم راهب يحب مسايرة العاشقين على
اهوائهم ولكنه كثير الطمع في اموالهم . والثاني اسم خادم نشيط ظريف قواد لسيدة
اوصله إلى معشوقته ومكنه من وصالها بمهارة حيله ودسائسه . وهما من الاشخاص
التي أوجدها مارشه في رواية (حلاق اشبيلية) و(زواج فيغارو) ونكت بها على اخلاق
المعاصرين من الفرنسيين قبل الانقلاب الكبير أي في عهد لويس السادس عشر
والخامس عشرون اسرافهم واستهزاء بأفعالهم . وفي سنة ١٨٥٤ أي في عهد
الامبراطورية الثانية انشأ احد الكتبة جريدة هزلية سماها (فيغارو) اشارة الى انها تخدم
خدمة فيغارو مع التنكيت والتبكيك وعدم المبالاة بشيء ولا التعصب لامر .
فاصبحت جريدة الفيغارو اليوم من أعظم الجرائد اليومية في باريس . و(تارتوف)
نموذج الرياء وهارباغون نموذج البخل وهما من اشخاص روايات مولير . ويمكن ان
يعد من هذا القبيل أيضاً أبوريدي السروجي في وعظه للناس بالمواظبة على الحسنة ثم جمعه
الفلوس واشترائه اللحم والخمر والجلوس للمنادمة مع غلامه كما هو موضح في

مقامات الحريري . فالجميل ليس له إلا نموذج واحد والقيح له الف نموذج لان جمال الجميل ما هو إلا نسبي بالنظر إلى الانسان وباعتبار تركيب أعضائه والقيح له نسبة وعلاقة مع غير الانسان فهو جميل بالنسبة إلى عموم المخلوقات وقيح بالنظر للانسان وحده .

ففي القرون الوسطى نرى لكلام السخرية موقعاً بجانب الإعجاز بالفصاحة وكثير استعمال السخرية في الأدب في الرسم والتصوير والحفر وفي الاخلاق والعادات كالرسوم التي احسن في تصويرها المصور الشهير ميكل انجلو الطلياني والمصور موبلو الاسباني وابدع ما أتت به قريحته الراسمة التي نقش فيها كيفية الصعود إلى السماء ثم ظهر شكسبير وصار ملك الشعراء كما قال دانتي عن هوميروس ومزج كلام السخرية بكلام الاعجاز وصاغ منهما الدرام . فشكسبير هو ابو الدرام والدرام هو الخاصة المميزة للدور الثالث من ادوار الشعر والادب العصري وهو جامع للمرهب والمضحك من الكلام أي للكوميديا وللتراجيديا .

٢٦ - الاجمال

فاجالاً لما تقدم لنا ذكره نقول :

ان الشعر له ثلاثة ادوار وهي الغناء والحماسة والدرام . ولكل منها مناسبة بدور من ادوار الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم . فالقرون الابتدائية غنائية . والقرون القديمة حماسية . والقرون الجديدة درامية والغناء يترنم في الأزل والحماسة تحتفل بالتاريخ والدرام يصور حياة الانسان . وخاصة الأول السذاجة . وخاصة الثاني البساطة . وخاصة الثالث الحقيقة . فرواة اليونان - ويسمونهم رابزود وهم اشبه برواة العرب الذي جاء منهم حماد الراوية وكانوا يطوفون القرى ويروون اشعار بندار وهوميروس وأيسيل - يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنين أي الناظمين لشعر الاغاني إلى الشعراء الحماسيين . والرومانيون أي مؤلفو الرومانات وهي الاقاصيص الموضوعية يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين إلى الشعراء الدراميين . وبظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون . وبظهور الدور الثالث ظهر الباحثون في حكمة التاريخ وبيان اسباب الوقائع وعللها .

وأشخاص شعر الاغاني عظام الاجسام طوال القامات والاعمار مثل ادم وقابيل وهابيل ونوح . ويدخل في زميرهم عوج بن عناق . وأشخاص شعر الحماسة من القوم الجبارين وهم أقوياء أشداء . مثل أشيل بطل الحروب اليونانية واستره آلهة العدل وأوريس بن اغاممنون الذي ألف فيه شعراء اليونان رواياتهم . ثم جاء فولتر ونسج على منوالها روايته المشهورة باسم اوريس . ويدخل في زميرهم عنتره بن شداد . وأشخاص الدرام هم بشرٌ على الصورة الحقيقية للانسان مثل هاملت وماقت واوتيلو الذين صورهم شكسبير في رواياته المشهورة بهذه الاسماء . وربما دخل في زميرهم أبو زيد السروجي في مقامات الحريري والشيخ علي بن منصور الحلبي في رسالة غفران المعري . ومنبع الاغاني الوهم والخيال ومنبع الحماسة والعظمة والفخامة ومنبع الدرام الحقيقة . وتتفجر هذه الينابيع الثلاثة من ثلاثة بحور كبيرة التوراة وهوميروس وشكسبير .

فهذه هي أشكال الفكر المختلفة بحسب اختلاف القرون التي تقلب فيها الانسان والعمران . وهي في ثلاثة أدوار الشباب والكهولة والشيخوخة فسواء نظرنا في أدب أمة على حدتها أو في أدب البشر على وجه العموم فالنتيجة التي نستنتجها من جميع ذلك واحدة . وهي تقدم الشعراء المغنين أو الغنائيين وهم الناظمون أشعار الاغاني على الشعراء الحماسيين أي الناظمين شعر الحماسة . وتقدم الشعراء الحماسيين على الشعراء الدراميين . ففي فرانس ماليرب (١٥٥٥ - ١٦٢٨ م) سابق على شابلين (١٥٩٥ - ١٦٧٤ م) وشابلين سابق على قورنيل (١٦٠٦ - ١٦٨٤ م) والأول هو الشاعر الغنائي (ليريك) الذي اصلح اللغة الفرنسية وقال فيه بوالو « وفي النهاية أتى ماليرب » . فذهبت مثلاً . وأما الثاني فانتقد عليه بوالو في الشعر وسخر به حتى جعله اعجوبة وهزأ . ويلقب الثالث بأبي التراجيديا وهي الروايات الفاجعات . وكذلك الحال عند قدماء اليونان فشاعرهم المسمى (اورفيوس) متقدم على هوميروس . وهوميروس متقدم على (أيسيل) الملقب بابي التراجيديا اليونانية . وفي كتاب العهد القديم أي التوراة سفر التكوين متقدم على سفر الملوك وسفر الملوك متقدم على سفر ايوب عليه السلام . وإذا نظرنا في أدب البشر على وجه العموم نرى التوراة قبل الإلياذة واللياذة قبل شكسبير . ولا غرو في ذلك فان الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم يبتدىء في الترم

بما يتخيله . ثم يقص ما يعمل . ثم يصور ما يفتكره . فالدرام يجمعه بين الاوصاف المتضادة كان أوعب للأفكار الفلسفية والتصورات العميقة . وكل ما في الطبيعة وما في الحياة يتقلب في هذه الاشكال الثلاثة وهي الغناء والحماسة والدرام . لان كل ما في الوجود يولد ويعمل ويموت . ولو أبيع التعبير عن الحقائق البرهانية بالتخييلات الشعرية لقال الشاعر بلسان الشعر ان الشمس عند طلوعها ترنم بالغناء وعند القائلة أي الظهيره تفاخر بالحماسة وعند الغروب تفجع بالمصيبة وهي الدرام . فهذا التعبير هو من باب الشعر وربما كان ضرباً من الجنون . انتهى كلامه ببعض تصرف وزيادة .

ثم شرع صاحب مقدمة كرومويل في الرد على اصحاب الطريقة المدرسية في تقسيمهم الشعر الى الاجناس التي سبق ذكرها في الكلام على بوالووفي تحديدهم كل جنس منها بالحدود والتعاريف وفي تفريقهم بين التراجيديا والكوميديا . وابطل قولهم بلزوم وحدة الزمان والمكان في الروايات التمثيلية ولم يقبل من وحداتهم الثلاثة الا وحدة العمل . وقد ضربنا صفحاً عن ايراد كلامه في هذه المباحث مراراً من التطويل ولان الروايات التمثيلية على ما فيها من الفوائد الجليلة في أساليب البلاغة لم تستهر لهذا الزمان بين المتكلمين بالعربية ولا اعتنى فحول ادبائنا في تأليف الروايات لا بالنظم ولا بالسجع ولا بالشر كما فعلت النشأة الجديدة من ادباء اللسان العثماني .

وقد حض فيكتور هوكون في تلك المقدمة على تأليف روايات (الدرام) بالشعر لا بالنثر وقال . بان بيت الشعر يحيط بالمعنى احاطة الثوب الافرنجي بالبدن ويضيق عليه ويوضحه معاً . ويعطيه شكلاً الف وادق وأتم من شكل النثر . ويديره علينا كأنه نوع من أنواع الاكسير الذي استخرجه الكيميائيون من خمر الذهب وزعموا ان فيه لذة للشاربين وشفاء للأجسام من جميع العلل والاسقام . فبيت الشعر على رأي فيكتور هوكون هو القالب الشفاف للمعنى . وإذا تلطف الشاعر في نظمته وانشائه اكسب المعنى رونقاً لولا بيت الشعر لمرّ ذلك المعنى غير ملتفت اليه . فالشعر هو العقدة التي تربط سلك المعاني أو المنطقة التي تضم حواشي الهدم على الجسم وتطويه طيات متناسبة بالهندام . والشعر يزيل من الالفاظ ما هو سوقي مبتذل أو عامي سخيف ويكسب المعاني حلاوة وطلاوة ورشاقة . سيما اذا قنصر الشاعر على استعمال الالفاظ المتعارفة بين الناس المتداولة على اللسان . وترك ما كان وحشياً غريباً في اللغة وعرض فيكتور هوكون بالذاهبين إلى ان « أعذب الشعر اكذب » بقوله ليت

شعري ما الذي يضيع من الشعر ان دخلت فيه الطبيعة والحقيقة ؟ وهل تنقص الخمر صفة من أوصافها ان وضعت في اباريق الزجاج وختم عليها ؟ كلا بل تصوير رقيقاً معتقة ختامها مسك يتنافس بها المتنافسون . وختم المؤلف مقدمة كرومويل بيان المقتضى للشاعر من النسيج على منوال الطبيعة (لأن كل ما في الطبيعة هو في صناعة الشعر) . وان كان الشاعر جيد القرينة فلا حرج عليه في شيء من القواعد وله الحرية المطلقة في التصرف بجميع افانين الشعر على حسب ما يريته .

فهذه خلاصة مقدمة كرومويل الشهيرة بين الأدباء على اختلاف لغاتهم وتباين مذاهبهم . ومنها يفهم ان الطريقة الرومانية ارجعت الشعر الى الحقيقة والطبيعة والحياة وتركته فيه التصنع وزخرفة الكلام واجراس الالفاظ ولم تلتفت إلى زعم اهل الطريقة المدرسية بان زخرف القول من مقتضى الذوق السليم للشاعر . وازالت جميع الحواجز التي تعرض امام سجية الطبع وتصد الفكر عن تصوّر الحقيقة وتوصيف الموجودات بحسب ما هو مغروس في جبلة كل منها سواء كان من صفات القبح او صفات الجمال بلا تفريق بينهما . ولذا نكتت بعض الجرائد بقولها على سبيل القريض والتبكيث : « فليعش الانكليز والالمان . فلتعش الطبيعة الهمجية الوحشية التي نشاهد جمالها في اشعار فيكتور هوغو واخوانه من أهل الطريقة الرومانية » . اشارة الى ان اساليب هذه الطريقة أو ما ظهرت في أدب الانكليز والالمان كما تقدم بيانه . وعرف بعضهم الروماني أي السالك نهج الطريقة الرومانية « بأنه رجل ابتدأ عقله في الاختلال » .

فمن امعن النظر في المبحث الاخير من تلك المقدمة وجده مطابقاً لما ذكره أئمة البلاغة والادب في لسان العرب كابي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وامثالهم . ولا حاجة لايراد اقوالهم في هذا الباب فانها معلومة ومحصلها وجوب نصرة المعنى على اللفظ لان الالفاظ خدم المعاني . قال الباقلاني « والشعران ضيق نطاق القول فهو يجمع جواشيه . ويضم اطرافه ونواحيه . فهو اذا تهذب في بابيه . ووفى له جميع اسبابه . لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطاهم خطاب » وقول فيكتور هوغو بان الخاصة المميزة لأدب الطريقة الرومانية عن غيره هي الجمع بين نموذج السخرية ونموذج الاعجاز بالفصاحة اشبه بقول المتنبي « وبضدها تتميز الاشياء » ولعل السبب الذي حمل المتنبي والمعري على ترك اساليب الجاهلية

والنسخ على منوال جديد هو الذي ذكره فيكتور هوغو من ان اساليب المتقدمين كانت معتبرة في بادىء امرها ثم باضطرادها على قياس واحد مراعاة للقوانين ثقلت على السمع وملها الطبع وسترى حقيقة ذلك في التعريف الآتي للطريقة الرومانية .

أما عدم تعرض فيكتور هوغو لأدب العرب كما تعرض لأدب الأمم الأوروبية ولأدب الفارسية العذبة فهو لجهله - سيما في ذلك التاريخ الذي ألف فيه مقدمته - بفصاحة العرب وإعجاز القرآن وحضارة الاسلام . فإن التمدن العربي لم يدرس حق درسه ليومنا هذا . ولم يزل صاحبنا المستشرق البودابستي العلامة كولدزير يحض المستشرقين من كل أمة على التعاون والاشتراك في تأليف دائرة للمعارف الاسلامية .

فان تم هذا المشروع وأنجزت ترجمة المهم من الكتب العربية ربما تيسر بعد ذلك للباحث الاطلاع على كنه العلوم والآداب الاسلامية . ولم يزل المستشرقون يترجمون في الصوروبون القرآن الكريم وتفسير البيضاوي ترجمة صحيحة ولا يكملون في كل سنة اكثر من بضع صحائف . ولم يترجم كلام المعري سوى ورقة فيها نحو مائتي بيت نشرت بالالمانية في فيينا عاصمة النمسا سنة ١٨٨٨ م . فهم يتقربون من فهم حقيقة الادب العربي رويداً رويداً . وقد رأينا فيما تقدم ان صاحب أغاني رولان يعتقد بان الاسلام فرع من عبادة الاصنام وبحسب بوالون من جملة أوثان المسلمين . ولو علم فولتير من أحوال الشرق ما يعلمه علماء هذا العصر لاستحى من نفسه ومزق الراية التي حررها باسم « محمد النبي » عليه السلام وقدمها للبابا بنوا الرابع عشر بعد ان سجد لديه وقبل قدميه (١) .

ولما ذهب فيكتور هوغو لاسبانيا رأى آثار العرب في المباني والقصور والقناطر وقدرها حق قدرها ولكنه لم يفهم من الآيات والابيات المنقوشة على جدرانها أكثر مما نفهمه من احرف الصين المنقوشة على البضائع الصينية ولا سيما على علب الشاي . ولما ظهر رينان وصار شيخ العلماء في عصره درس ادب العرب الاندلسيين من حيث الفلسفة ولخص ما حققه في كتاب سماه « ابن رشد » . فقام اليوم البارون قرا دوفو معلم العربية في الانستيتو الكاثوليكية بباريس ونشر كتابين احدهما « ابن سينا » والثاني

(١) قدم فولتير روايته المذكورة مع تحرير منه للبابا ختمه بالسجود بين يديه ولثم قدميه وكان ذلك منه رياء

فحمله البابا على ظاهره وأجاب عليه بجواب لطيف مؤرخ ١٩ سبتمبر سنة ١٧٤٥

« الغزالي » ودرس في الأول ادب العرب وفلسفتهم الشرقية وفي الآخر علومهم الكلامية والالهية . فالكتب الثلاثة المذكورة من أحسن ما حرر في هذا الصدد . ولكن الموضوع محتاج الى تعمق وتدقيق . ولا يتيسر ذلك الا بعد استخراج الكتب العربية وفهمها . وقد خبط رينان في بعض ما حرره عن الاسلام خبط عشواء وفتح لشارل ميزمر وامثاله باباً للاعتراض عليه : كما ان البارون الكاثوليكي تعصب على ابن سينا والغزالي في ما حرره . ومع هذا قال رينان في الخطاب الذي نشره سنة ١٨٨٣ م « بان اوربا ظلت منحطة في العلم والادب عن العالم الاسلامي وخاضعة فيهما اليه حتى أوائل القرن الثالث عشر . وفيه أخذ العالم المسيحي يرقى درجات العلم والعمران والعالم الاسلامي يهبط في الدرك الاسفل من الجهل وانحطاط الحضارة . واندثرت علوم العرب بعدما لقحت جراثيم الحياة في جسم العالم اللاتيني الغربي واستمر المترجمون من سنة ١١٣٠ م الى سن ١١٥٠ يترجمون في مدينة طليطلة كتب العلم من العربية الى اللاتينية وهم تحت حماية الاسقف ريموند . وفي السنين الاولى من القرن الثالث عشر شرعت مدرسة باريس الكلية في تدريس كتب ابن رشد ارسطوطاليس العرب . اما ارتحال البابا سيلفتر الثاني لطلب العلم في أشبيلية وان كان مشكوكاً فيه فقسطنطين الافريقي علامة عصره لا شبهة في أخذه العلم عن المسلمين » . اهـ . وقسطنطين الافريقي الذي يذكره رينان ولد سنة ١٠١٥ م في قرطاجنة وبعد ان حصل علوم الطب والحكمة صار كاتباً لاحد الامراء ثم دخل سلك الرهبنة في ايطاليا وادخل فيها علوم العرب وله مجموعتان كبيرتان باللاتينية طبعتا في بال سنة ١٥٣٩ م .

ودام قول فيكتور هوكو هو المعول عليه في الطريقة الرومانية إلى ان اشتهرت الطريقة الطبيعية (ناتوراليزم) في سنة ١٨٦٠ على عهد الامراطورية الثانية وقام اصحابها يناقشون فيكتور هوكو وشيعته وينتقدون عليهم . على ان الرجل وان ظهرت له معجزات في آيات البيان فهو ليس بنبي ولا تجب لهم العصمة عن الخطأ والنسيان ومن هو الرجل الذي تحمد كل سجاياه ؟ ومن هو المبرأ من كل عيب ؟ وكفاه نبلاً انه خطأ في الادب خطوة للامام ومهد الطريق لمن اتى بعده ولولا ظهور الطريقة الرومانية لما ظهرت الطريقة الطبيعية ولا حصل ارتقاء ونهضة في الادب . ثم ان مقدمة كرومويل وان بحث فيها المؤلف عن تاريخ الأدب وبيان الخاصة المميزة لأدب

الطريقة الرومانية عما سواه فهي أحق بأن تكون تعريفاً لنوع الدرام وحده وهو من فنون الشعر والأدب . وأما التعريف الشامل لجميع ما حرر من فنون الادب على نهج هذه الطريقة المستحدثة منظوماً كان أو منثوراً فهو ما يأتي . إذ من شرط التعريف ان يكون جامعاً للأفراد مانعاً من دخول الأغيار فيه . ولا يكفي أن يكون منطبقاً على فرد من الأفراد فقط . وتعريف الطريقة الرومانية تعريفاً جامعاً مانعاً ليس بالأمر السهل ولا يتيسر إلا بالنظر في الخواص الظاهرة والمشاركة بين جميع فنون الأدب المنسوجة على أساليب الطريقة الرومانية والمنشأة في قوالبها .

٢٧ - تعريف الطريقة الرومانية

الطريقة الرومانية هي أدب يبحث فيه عن مشاعر النفس وبدائع المخلوقات . وهذا الأدب قسم من الشعر الموسيقي أو الغنائي الممتاز بخاصته الشخصية كما سبق تعريفه . وبيان الفرق بينه وبين شعر الحماسة والدرام . فإذا نظرنا في أعراض النفس نجد لها على نوعين أحدهما أعراض قائمة بالنفس كالشعور بالحُب والرجاء والشعور بالبغض واليأس والشعور بالفرح والطرب والابتهاج أو بالحزن والغم والانقباض . . . والثاني انفعالات نخصل للنفس بواسطة الحواس الخمس وهي البصر والسمع والذوق والشم واللمس . فهذه الحواس منها ما هو حائز على الصفة التمثيلية للعالم كالبصر والسمع وهما بهذه الصفة آلات يبني الانسان بها العالم الخارجي الذي يحمل صورته في نفسه . ومنها ما لم يحز على هذه الصفة التمثيلية بسهولة وبلا واسطة كبعض الانفعالات العضلية وحاستي الشم والذوق عند أكثر الناس . فأهل الطريقة الرومانية اكتفوا بالتعبير عن النوع الاول وعن القسم الأول فقط من النوع الثاني وصوروا بدائع المخلوقات بصور يخال منها للقارئ أنه يسمع ويرى . كما يتضح لمن طالع وصفاً من أوصاف فيكتور هوغو في مآظر الطبيعة وأصواتها في بيان حنين النفس وانفعالاتها . وتركوا التعبير عن القسم الثاني من النوع الثاني أي عن الحواس التي لم تحز الصفة التمثيلية لخلقاتهم من المتأخرين وهم أهل الطريقة الطبيعية الذين قادمهم أميل زولا . فصور هذا الإمام في الأدب حقيقة كل ما بحث فيه وتكلم عنه ومثله تمثيلاً حقيقياً وعبر عن حاسم الشم بما كتبه عن الهال وهو سوق الخضري في باريس

وجعل القاريء يشم ما فيه من روائح السمك والقديد فضلاً عما يسمعه من جلبة البائعين والمشتريين ويراه من السلع والمركبات وانهمالك الغادي والبادي في الاخذ والعطاء .

ثم إذا نظرنا في ما حرره الشعراء والأدباء من أية أمة وفي أي لسان نجد منهم من يتكلم عن شعور وتصور . ومنهم الذين يقولون ما لا يفعلون وينظمون قصائد الغرل والرثاء وهم لا يشعرون بشيء من الغرام أو التفجع ويمدحون الممدوح قبل معرفته ويصفون الحبيب قبل مشاهدته ويهيمون في ذكر الطلول والرسوم وفي التشبيه بالشمس والقمر والترشيح بكثرة الرماد وطول النجاد حتى يلبس الأمر على السامع فلا يدري هل القائل من أهل القرن الرابع عشر للهجرة أم من الذين مضوا قبل البعثة . فمن شرط السالك نهج الطريقة الرومانية أن يتكلم عن مشاهدة وتصور وشعور وإحساس وانفعال وتأثر واعتقاد واقتناع . وإذا سمع العامي شيئاً من كلامه في الحب مثلاً قال هذا كلام عاشق محروق . وإلى ذلك أشار ابن زشيق فيما نقل عنه من كتاب العمدة بأن من بواعث الشعر العشق والانتشاء ومن شروطه الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والأزهار وكذا المسموع من غناء البلابل وطين الأوتار . فاهتمامنا بانفعالات الشاعر التي ليست بانفعالاتنا وإحساسه الذي ليس بإحساسنا إنما هو لكوننا بشراً . والشاعر بشر مثلنا . فبيننا وبينه مشاركة في الطبيعة وفي منبع الحس والانفعال . ويزيد الشاعر عنا باقتداره على الإبانة عن المعاني الكامنة في نفسه ونفوسنا . لأن له سجية الشعر وملكة راسخة في التعبير عن شعوره وإحساسه . ولعل هذا مقصد ابن خلدون في قوله « المعاني موجودة عن كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة . فالذي في اللسان والنطق إنما هو الالفاظ وأما المعاني فهي في الضمائر » . قال الفيلسوف الألماني هيكل : « لا تكون شهوات النفس وعواطف القلب من معاني الشعر إلا إذا كانت عامة ، متينة ، دائمة » بحيث يكون الشعر المشتغل على شهوة من شهوات النفس أو عاطفة من عواطف القلب مؤثراً في كل من قرأه أو سمعه . ويكون هذا التأثير دائماً في جميع الأزمان مثل الإلياذة والأوديسة وماها بهارته وراما يانا المؤلفة قبل الميلاد بقرون كثيرة . ولا يكفي أن يكون الشعر مؤثراً على فرد من افراد معدودة في مجلس أو مجالس محدودة . وقول امرئ القيس « قفا نبك من ذكرى حبيب

ومنزّل « يؤثّر على جميع الخبيرين بلسان العرب في عصرنا هذا وفي العصور الآتية كما أثار على آباءنا الأولين في العصور الخالية . فالكلام العالي المتين المنسوج على منوال الطريقة الرومانية هو الذي تشخص فيه الإنسانية . وتأثيره على السامعين إنما هو من جهة عمومه وشموله في تصويره ما في سويداء القلب من العشق والغرام والهموم والأحزان ، وفي وصفه المناظر المبهجة التي في الطبيعة ، وبيان مالها من الأشكال الغريبة البديعة ، وفي استطلاع حالة الإنسان وحظه من هذا العالم على حد قول الشاعر العربي :

سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامه
أعمى وأغشى ثم ذو بصر وزرقاء اليمامة
فالسالك نهج الطريقة الرومانية لا يكتفي بقوله لا عتاب ولا ملامه بل يسأل في كل موضع من كلامه من نحن ؟ إلى أين ذاهبون ؟ ويفكر في هذا السراج الذي يضيء فينا مدى العمر ثم ينطفئ بالموت . وفي أمر هذه الحياة التي تجري كالسيل ثم تنقطع . فيستفهم عن هذه الأثنية المختفية فينا وعن معنى (أنا) ؟ ويقول ما هو هذا الموت الذي يطفىء سراج العمر ويقطع مجرى الحياة ؟ هل هو نهاية أو وقفة أبواب تمر به من برزخ لبرزخ ؟ ماذا يوجد وراء ذلك ؟ والحاصل ما هو السبب ؟ ما هو سبب (أنا) الموجود ؟ ما هو سبب هذا العالم الذي أعكسه في نفسي ؟ فإن كان المفكر بما ذكر قادراً على تأليف شيء موافق لأساليب الطريقة الرومانية فهو يفتش عن هذا الشيء في خفقات قلبه وفي مناظر الطبيعة . فأدب الطريقة الرومانية تشف معانيه عن الخشية الحاصلة لأصحابه مما وراء الطبيعة . وهذه هي الخاصة المميزة له والمظاهرة لعظمته واعتلائه . وفي تصويره الاحساس الباطني وتوصيفه مناظر الطبيعة يعطي الإنسان فكراً عن الأمر الكلي ويرمز له عن المجهول .

فموضوع أدب الطريقة الرومانية هو مجموع هذه الانفعالات الشخصية المختصة بكل فرد من أفراد الإنسان وتلك الشروط الضرورية للمجتمع الإنساني . فهذا جل ما يبحث فيه السالكون نهج الطريقة الرومانية . ويبقى عليهم ما ذكرناه في قواعد الطريقة المدرسية من تمام النسبة بين أساس الفكر وشكل التعبير أي فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى ووجود الموازنة بين التخييل الشعري وبين التعقل واتباع الصدق والحقيقة في الشعر فاهل الطريقة الرومانية لا يهتمون بالقواعد التي وضعها علم

النفس (بسيكولوجي) لا بالحقائق العلمية . وليس لهم عناية بصناعة التفكير ولا بصناعة التعقل . وإنما دليلهم في النظم والنثر الإحساس . بخلاف أهل الطريقة المدرسية فإن دليلهم في ذلك العقل والذوق السليم . وهذا ما جعل لمؤلفاتهم التي ألفوها في القرن الثامن عشر وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر فائدة وقيمة ونسبة . فالطريقة الرومانية تتميز عن الطريقة المدرسية بأمرين أحدهما نفي والثاني عكس قضية :

أما النفي فهو عبارة عن حذف القواعد التي أسست عليها المؤلفات الأدبية ونفيها عن الأدب . وكانت هذه القواعد على ثلاثة أنواع . (١) تعريف كل من الفنون الأدبية على حدته كالغزل والمدح والثناء والهجاء . الخ والتفريق بينهما تفريقاً لا اتصال فيه . (٢) وضع قواعد لكل فن من هذه الفنون من شأن هذه القواعد توحيد النموذج وتغليبه على جميع الأمثلة المختلفة . (٣) قواعد الذوق وهي التي تعين حذاً للشاعر في اختيار أساليب التقليد وكيفيات التعبير وتخصر فكره .

وأما عكس القضية فهو عبارة عن العمل بضد ما عمل به أرباب الطريقة المدرسية فادب القرن الثامن عشر في جمع أوروبا كان على أساليب أدباء الفرنسيين الذين نبغوا في عصر لويس الرابع عشر وفي القرن السابع عشر مثل كورنيل وراسين وبوالوومولير وهؤلاء سجدوا على مسوالم المتقدمين من اليونان والرومان واحتاروا مواضعهم من القرون القديمة كما هو الحال في رواية (استير) و(اتالى) و(اندروماق) الخ . وأما أهل الطريقة الرومانية فأتخذوا مواضعهم من القرون الوسطى والبلاد الأجنبية وتاريخ النصرانية كما هو الحال في رواية (فوست) و(كليوم تل) وجميع روايات مكتور هوكونو التمثيلية

فالتريقة الرومانية وسعت أولاً دائرة الأدب . وأبالحري نقلت هذه الدائرة من ر-رها لمركز آخر . تم مزجت أساليب الفنون الأدبية من تراجيديا وكوميديا بعضها بعضاً . فشأ عن ذلك تشويش في بادئ الأمر ثم ظهر من هذا التشويش ترتيب جديد . وعاء الأدباء بشعر موسيقي وأدب مبهج وتاريخ حي . فالطريقة الرومانية كانت تلك الأساليب المعينة المحدودة التي من شأنها أن تمنع الشاعر من أن يتصرف فيها سكره واختياره كما أنها أزالته عن السبك والانشاء هاتيك العوائد الاستبدادية التي من حصائصها أن تصفي إلهامات الشاعر وترفع منها الغرابة . فبتغييرها أساليب

الفنون والقواعد والذوق واللغة والعروض وضعت الأدب في قالب غير معين . وسأقت أدباء العصر الجديد للتحري بكل حرية على أساليب وقواعد وفنون جديدة . فعثروا أول الأمر على قواعد الطريقة الطبيعية وهم الآن شارعون في وضع قواعد للطريقة الانسانية . ويتقربون بذلك الى الكمال شيئاً فشيئاً ويرقون معارج البلاغة درجة فدرجة .

فاذا تأملنا كلام المعري ومن سلك مسلكه من الشعراء نجد فيه اهتماماً زائداً بأمر الآخرة وبما بعد الموت وتفكيراً عميقاً في خلق السموات والأرض ودهشة مقلقة وحيرة زائدة وانفعالات نفسانية وإحساساً غريباً . فكان كلامه يدخل تحت التعريف المتقدم ذكره للطريقة الرومانية . ولكن بسبب فقد حاسة البصر التي لها المكان في هذه الطريقة لم يتيسر له وصف الطبيعة وصفاً لا ثقاً بها وبفصاحة لسانه . ولا حاجة لايراد مثال من كلام المعري فان كل كلمة من اللزوميات تشعر بهذه الدهشة والخشية والحيرة والانفعال والاحساس والتألم المأهون معه الموت ولا يحسب بجانبه مصيبة . وهذا بخلاف الجاحظ الذي يقول في أول كتاب الحيوان :

« جنبك الله الشبهة . وعصمك من الحيرة . وجعل بينك وبين المعرفة سبباً وبين الصدق نسباً . وحبب اليك الثبوت . وزين في عينك الانصاف . وأذاقك حلالة التقوى . وأشعر قلبك عز الحق . وأودع صدرك برد اليقين . وطرد عنك ذل اليأس . وعرفك ما في الباطل من الزلة . وما في الجهل من القلة . » فهو بعيد عن القلق والحيرة مثبت في الفكرة . وتأليف الكلام على هذا النمط يسمى طريقة الجاحظ وهي مخالفة لطريقة السجع .

وقد تصدى ابن رشيقي (٣٩٠-٤٦٩ هـ) لما تصدى اليه بالوضع كتابا في قواعد الشعر سماه العمدة . قال ابن خلدون « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها حقها ولم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله » . فليت شعري هل اطلع على شيء من مؤلفات اليونان في قواعد الادب والبيان كالذي الفه ارسطوطاليس وترجم شيئاً منه ابن رشيد في القرن السادس للهجرة والذي الفه البياتي لونجين الحمصي وترجمه بالولفرنساوية وسماه (رسالة الاعجاز) فان ادباء العرب كان لهم عناية بالقواعد الادبية باعتبار انها من جملة المنطق والفلسفة وان لم يعتنوا باشعار اليونان ورواياتهم التمثيلية . وكان ابن رشيقي في القيروان فلما حدثت فيها الفتنة فر منها الى

جزيرة صقلية ونزل مدينة (مازر) وأقام بها إلى ان توفي ودفن بمقبرتها . وكان الافرنج
مستولين على بعض الجزيرة والمسلمون في بعضها الآخر . ولعل ذلك كان على عهد
رجار الأول (روجر) . ونظن البعوض آذى ابن رشيقي ايام فرااره ومحنته حتى قال :
يارب لا أقوى على دفع الاذى وبك استعنت على الضعيف الموزي
مالي بعثت إلي الف بعوضة وبعثت واحدة إلى نمروذ
وله غير كتاب العمدة أيضاً (الانموذج) وكتاب الشذوذ وهو جامع لشواذ اللغة
(وقراضة الذهب) . وقد تصدى لوضع قواعد الشعر وبيان اساليه كما يفهم من
القصيد الآتية المفردة له وهي اشبه شيء بقصيدة بوالو التي جمعت فاعوت قال :
لعن الله صنعة الشعر ماذا من صنوف الجهال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما كان سهلاً للسامعين متينا
ويرون المحال معني صحيحاً وخسيس الكلام شيئاً ثميناً
يجهلون الصواب منه ولا يدرون للجهل انهم يجهلوننا
فهم عند من سوانا يلامون وفي الحق عندنا يعذروننا
انما الشعر ما يناسب في النظم وان كان في الصفات فنونا
فاتى بعضه يشاكل بعضاً وأقامت له الصدور المتونا
كل معني اتاك منه على ما وتمنى ولم يكن أو يكونا
فتناهى من البيان إلى أن كان حسناً يبين للناظرينا
فكان الالفاظ منه وجوه والمعاني ركبنا فيها عيوننا
فاذا ما مدحت بالشعر حراً رمت فيه مذاهب المشتھينا
فجعلت النسب سهلاً قريباً وجعلت المديح صدقاً مبيناً
وتعليت ما يهجن في السمع وإن كان لفظه موزوناً
وإذا ما عرضته بهجاء عبت فيه مذاهب المرقبيننا
فجعلت التصريح منه دواء وجعلت التعريض داء دفيناً
وإذا ما بكيت فيه على العا دين يوماً للبين والظاعنيننا
حلت دون الاسى وذلك ما كا ن من الدمع في العيون مصوناً
ثم ان كنت عاتباً جئت بالوع د وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركت الذي عتبت عليه حذراً آمناً عزيزاً مهيناً

وأصح القريض ما قارب النظم وإن كان واضحاً مستبيناً
 فإذا قيل أطمع الناس طراً وإذا ريم اعجز المعجزينا
 فذكر ابن رشيق من صنوف الشعر أوفنونه المدح . والسبب . والهجاء
 بالتصريح أو بالتعريض . والرثاء . وفرقة الاحباب . والعتاب بالوعد أو بالوعيد .
 وذكر غيره من هذه الصنوف بكاء الديار وأهلها فقال :
 وإذا بكيت به الديار وأهلها أجريت للمحزون ماء شؤونه
 فبالوذكر هذه الاجناس او الانواع في قصيدته (صناعة الشعر) وزاد عليها
 التراجم والكميديات والايوبة وعرف كل نوع منها وجعل له احكاماً وقواعد كما مر .
 وتوسع في هذا البحث حتى تألف من كلامه رسالة مطولة .

٢٨ - مؤلفات فكتور هوكو

طبعت مؤلفات فيكتور هوكو مراراً عديدة في قطع متفاوتة في الصغر والكبر
 ومنها ما هو مزين بالتصاوير والرسوم البديعة ومنها ما هو على أجل ورق وتمكنت
 المعامل الاوربية من طبخه وصقله . وآخر طبعة طبعت للجمهور في أجزاء صغيرة
 الحجم (قطع ٣٢) يقرب عددها من ثلاثمائة جزء ثمن الجزء ٢٥ سنتياً . واواسط هذه
 الطبعات ما كان بالقطع المثلث في ٤٨ مجلداً ثمن المجلد عشرة فرنكات يضاف اليها
 اثنا عشر مجلداً طبعت بعد وفاة المؤلف فيبلغ بذلك عدد المؤلفات ستين مجلداً . منها
 ١٦ مجلداً في الشعر وهي : (والارقام بين الاقواس عدد المجلدات) :

- (١) المدائح والمطربات
- (١) الشرقيات . أوراق الخريف .
- (١) اغاني الشفق . الاصوات الداخلية . الاشعة والظلال .
- (١) القصاص (٢) التأملات أي سانحات الفكر .
- (٤) سير الدهور
- (١) اغاني الشوارع والاحراح (١) السنة المهولة
- (١) صناعة كون الانسان جداً
- (١) البابا . الرحمة العالية . الاديان والدين . الحمار

- (١) رياح العقل الأربع
ومنها خمسة مجلدات في الروايات التمثيلية المنظومة وتسمى « درام » وهي :
- (١) كرومويل
(١) ايرناني . ماريون دولورم . الملك تيسلي
(١) لوكريس بوجيا . انجلو . ماري تيدور
(١) روى بلاس . اسميرالده . بورغراف
(١) توركماده . امي روبار .
ومنها أربعة عشر مجلداً في القصص وتسمى « رومان » وهي :
- (١) هان الاسلاندي
(١) بوغ جارغال . آخر يوم من أيام المحكوم عليه أو قلود كو
(٢) نوتردام دوياري أو كنيسة باريس الجامعة
(٥) البؤساء
(٢) المشتغلون في البحر وفي مقدمته ارخييل بحر المانش
(٢) الانسان الضاحك
(١) ثلاث وتسعون
ومنها ثلاثة في التاريخ وهي :
- (١) نابوليون الصغير
(٢) تاريخ جرم
ومنها مجلدان في السياحة عنوانها (نهر الرين) .
ومنها مجلدان في الفلسفة احدهما أدب وفلسفة والاخر وليم شكسبير
ومنها ستة مجلدات في الأقوال والاعمال وهي :
- (١) قبل النفي
(١) مدة النفي
(٢) بعد النفي
(٢) فكتور هوغو تاريخه .
هذا ما سلمه الشاعر بعد التنقيح والتهديب للطبع فنشر في حياته . وله
مؤلفات أخرى جمعت من المساويد التي سودها والاوراق التي تركها وطبعت بعد وفاته

بغير تصحيح في اثني عشر مجلداً وهي :

- (١) الاشياء المروية (١) الله (١) عاقبة الشيطان (٣) كل العود
- (١) المسرح الحر (١) التوائم (١) مراسلات الخطيبة .
- (١) السياحة في فرنسا والبلجيك (١) السياحة وفي جبل الالب في جبل البيرينة

(١) السنون المشؤومة .

فما ينشر بعد موت المؤلف يسمى (Posthumes) ويجوز فيه التنقيح والتهذيب عند اعادة طبعه . والذي ينشر في حياة المؤلف يسمى (ne Varietur) أي الذي لا يتغير ولا يجوز التبديل فيه بعد وفاة صاحبه ولا تحريف الكلم عن مواضعها . ولو وجد من يتحرى في اوراق فيكتور هوكلربما تمكن من استخراج مجلد أو مجلدين أيضاً . كما جمعت اخيراً المكاتب التي حررها العلامة رينان لامة وهو في المدرسة حديث السن وطبعت في مجلد . ولعل القارئ يستكثر عدد هذه المؤلفات التي لا يجد الانسان وقتاً لمطالعتها فضلاً عن تحريرها وسبك انشائها ولا سيما ما يحتاج منها لدقة وتلطف كقرص الشعر ونظم الروايات التمثيلية . ولكنه إذا تأمل في همة رجال العلم والأدب واقدامهم زال استغرابه وعلم ان ملكتهم رسحت في النظم والانشاء حتى صار التحرير طبيعة ثانية لهم كالكلام . وانا نشاهد المبعوثين في مجلس نواب الامة يتكلم الواحد منهم الساعات الطوال بدون أن يتلثم ويضبط كلامه بالاصول المعروفة بالاستنوغرافيا وينشر في جرائد المساء فيملا الاعمدة الكثيرة والصحائف الكبيرة . وفد بلغنا عن مبعوث في بلاد المجر انه تكلم في موضوع اثني عشرة ساعة بحيث انه بدأ في الصباح وبعد استراحة الظهر عاد لموضوعه واكمل بحثه في اليوم الثاني . فتألف من كلامه مجلد ضخيم . ولو قرأنا فهرست الكتب التي الفها الكندي والرازي واصحاب المعاجم والتأليف الصخمة لوحدناها تقارب هذا المقدار أو تزيد عليه . ورأينا في ما تقدم ما ألفه العرب في افانين الادب من المؤلفات الكبيرة ككتاب الايك والغصون للمعري ونحوه . على ان لفكتور هوكلربا معنيين في اعماله فتاريخ فيكتور هوكلربا في مجلدين حررته زوجته الشرعية الشاهدة على حياته وكانت الممثلة البارعة جوليت دروه تنسخ له وهو يملئ عليها . وربما كتب له أيضاً الشاعر اوغست فاكيري . وحرر ابنه فرسوا من جزيرة كيريري لاحد أصحابه في فرسا يقول .

« نحن كلنا نستغل . والذي يتم نظم الحماسات الصغيرة . وشارل يصنف روماناً وأنا اتحف فرنسا بشكسبير واجتهد بان أكون ترجماً صادقاً لهذه القريحة الواسعة » .

وفي الحقيقة ان فرانسوا هوكو ترجم مؤلفات شكسبير احسن ترجمة فطبت في ثمانية عشر مجلداً بعد ان عرضها على ابيه واستكتبه عليها المقدمات والخواشي . فجميع المؤلفات كانت تعرض على فيكتور هوكو وبعضها يطبع باسمه لانه كان رأس هذه العصابة ومدير هذه الجمعية المؤلفة من زوجته وصاحبه واولاده واصحابه . ولم يزل صغار الكتبة والشعراء في اوربا ينسبون مؤلفاتهم واشعارهم الى مشاهير الرجال ترويحاً لها وانفاقاً لبضاعته في سوق العلم والأدب . فان المؤرخ الشهير الفرنسي ميشله المستند في مؤلفاته على القصص التاريخية التي ألفها والتر سكوت الانكليزي نسب لنفسه في التاريخ الطبيعى الكتب الاربعة التي عنوانها الطير ، الحشرة ، البحر ، الجبل ، مع ان المحرر الحقيقي والمصنف لهذه الكتب النفيسة على ما يقال هي زوجته المدام ميشله وكانت من الفاضلات . ووجد المحققون في تاريخ الكيمياء ان بعض كتبها القديمة حررها اصحابها في القرون الوسطى وعزوها الى جابر وهرمس تقوية لسندها واقناعاً بصحتها . فانتحال الشعر أو الكتاب المصنف شائع بين الكتاب والشعراء وتارة يكون برضى المؤلف الحقيقي وتارة يكون بغير رضاه وهو السرقة . وقد يكون السارق المتحلل أشعر وأقدر من صاحب الشعر والتصنيف ولكن وقته لم يسمح له بالاتيان بمثل ذاك المؤلف . ولذا اهتمت الاكاديمية فيكتور هوكو بسرقة القصيدة التي عرضها على لجنة التحكيم والمسابقة وسمها (فوائد المطالعة) ولم يعطوه الجائزة التي استحقها .

وكان يحدث أمثال ذلك في أيام العرب وفي حضارة الاسلام كما اهتم الحريري في مقاماته . وكان قد عمل مقامة واحدة على مقامات البديع الهمداني وعرضها على أنوشروان بن خالد بن محمد وزير السلطان محمود السلجوقي وكان الحريري خصيصاً به . فأمره الوزير بانشاء المقامات واتمامها فصنف اربعين مقامة واتى بها من البصرة محل دار تحصيله العلم الى بغداد ونزل في الحريم وهي سرّة العاصمة والمحلة المشتعلة على دار الخلافة وقصور الامراء والاعيان وكان ذلك في خلافة المقتدي بالله سبع وعشرين الخلفاء العباسيين . فاستحسن الادباء طرر المقامات وحسدوه عليها واتهموه بسرقتها .

ولما امتحن سد عليه ولم تجد قريحته بشيء وهو في الحريم وسط تلك العاصمة الكثيرة الزحام والجلبة فنفي إلى المشان قرية بقرب البصرة مشتملة على نخل وزرع ولكر هواءها فاسد بسبب المستنقعات وكان إذا غضب على شخص نفي إليها . فالف الحريري في المشان عشر مقامات أخرى وكملت مصنفاته خمسين مقامة فقال فيه ابن جكيثا يهجو :

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان وقد ألجمه في الحريم بالخرس
وكان الحريري ينتسب إلى ربيعة الفرس وهي قبيلة من قبائل العرب على حدود فارس وكان أولع بنتف لحيته والعبث بها . ووعد أحد الأمراء يوماً بولاية على شرط ان يترك تنف لحيته فامتلأ برهة ولم يستطع الصبر فقال « أحب إلي ان تعاد لي الولاية على لحيتي من كل ولاية » . ونشأ الحريري في مجمع العلماء والأدباء واليهام نسبت الاقوال الكثيرة في النحوقيل مذهب البصريين ومذهب الكوفيين وكانت ولادته في البصرة وقيل لابل ولد بالمشان المجاورة لها (٤٤٦هـ-٥١٥هـ) وكانت السلطة والنفوذ في ذلك العصر للدولة السلجوقية التي ظهرت في العراق العجمي واتخذت مدينة الري عاصمة لها ويقال للمنسوب لها الرازي وقد صار علماً على كثير من العلماء والفلاسفة ولم تزل خرابات الري مشاهدة بظاهر طهران عاصمة الدولة الإيرانية . ويقال لها عبد العظم نسبة لأحد الأولياء المدفون فيها وهناك كان مقتل الشاه السابق . وسميت ملوك هذه الدولة السلجوقية بسلاجقة إيران تمييزاً لهم عن سلاجقة الروم الذين اتخذوا قونية عاصمة لهم وعن سلاجقة كرمان الذين حكموا في الجنوب الشرقي من بلاد العجم . وظهر في سلاجقة إيران ١٤ ملكاً في ظرف ١٦١ سنة وأعظمهم ثالثهم ملكشاه (٤٤٧-٤٨٥هـ) ابن الب ارسلان ويسمى ابا الفتح جلال الدين واليه ينسب التاريخ الجلالى الذي وضعه عمر الخيام الاديب الفلكي الشهير وكان وزيره نظام الملك صاحب المدرسة النظامية في بغداد . فيفهم من ذلك ان ملوك هذه السلالة ووزراءها كلهم حريصون على تعزيز جانب العلم والأدب ولاغرو أن أتى الأدباء في زمانهم بمثل المقامات الحريرية . وألف كمال بك إمام الأدب في اللسان العثماني رواية بليغة سماها « جلال » لها مقدمة يعدها الادباء من أبغ ما حرر في اللسان العثماني على الاسلوب الجديد .

فيتضح مما سبق ان مؤلفات فيكتور هوغو على نوعين منظوم ومثور . وكل واحد منهما يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام . فالمنظوم منه ما هو شعر ويشتمل على فنون كثيرة مثل الاود والبلاد والايلاجي الخ . ولكل منها عروض مخصوص ومنه ما هو روايات تمثيلية تتلى على المراسح كما يتلى النثر المرسل بغير التفتات الى أوزان النظم ولا قوافيه أي بلا ترنم ولا تطريب ولا تغريد ولا ترخيم في الصوت ولا وقوف على القافية . ونظمت هذه الروايات التمثيلية التي يقال لها درام على عروض البحر الاسكندري في الغالب وهو المبني على اثني عشر هجاء .

فاذا جرى التوقيع بالروايات الدراماتيقية على آلات الطرب ولحن فيها على طريقة الصناعة الموسيقية سميت « أوبرة » لاجلها بنيت المراسح الكبيرة التي يقال لها اوبرة كالاوبرة الخديوية في القاهرة والمرسح الذي بني في الاستانة ثم احترق ولم يجدد بناؤه . ويقال لاوبرة باريس اكاديمية الموسيقى لانها شعبة من شعب اكاديمية الصنائع النفيسة التي هي في عداد الاكاديميات الخمس الشهيرة في باريس . ومثال ذلك اوبرة فوست التي صنف قصتها الدراماتيقية الاديب الالماني كوته ثم جاء الملحن الفرنسي كونيوفوف ترجمتها كلامها على صناعة الالحان . وكذا رواية عائدة (آيدة) التي وضعها على صناعة الالحان الملحن الشهير الطلياني فردي ثم نظمها بالفرنساوية أديان من ادباء الفرنسيين . وأول ما مثلت هذه الرواية الاخيرة في الاوبرة الخديوية بالقاهرة سنة ١٨٧١ ثم مثلت في باريس على المرسح الطلياني سنة ١٨٧٦ وتمثل اليوم على جميع المراسح الفرنسية في العاصمة والايالات وفي أكثر المدن الأوروبية ولعل هذه الرواية هي التي ترجمت للعربية باسم (عائدة) .

فالأوبرة هي تأليف دراماتيقي اجتمع فيه الشعر والموسيقى ولذا فهي تشتمل على اوزان العروض وأنغام المزامير واقاويل الشعر أي ما فيه من التشبيه والتخييل فان دخل في الأوبرة مع الكلام المنظوم كلام منشور أيضاً سميت أوبرة - كوميك كرواية كرم . وان لم يكن موضوع الرواية دارما أي فاجعة بل كان كوميديا مضحكة سميت (بوف) و(بوفون) و(أويريت) تصغير أوبرة . واجتهد بعض الادباء الترك في التأليف بين الشعر والموسيقى في اللسان العثماني فترجموا رواية كرم نظماً للتركية وشخصوها مع الانغام الموسيقية على المراسح المتخذة من الاخشاب في محلة اقسراي وفي منتزهات ضواحي الاستانة . ومع ان مشروعهم ابتدائي فالتمثيل كان لا بأس به رغماً

من حادثة نشأته . فلو حصلت عناية في تنشيط هذا المشروع بقوة المال وهمة الرحال لنجح ولا شك باللغة التركية وباللغة العربية أيضاً فان دوائر البلدية في مدب اوربا الثانوية فضلاً عن العواصم تنفق النفقات الباهظة في كل سنة لاعانة المراسح . لان ما يجمع من اجرة الدخولية لا يكفي لتحسين المراسح الى الدرجة التي بلغتها مراسح اوربا . وكان لعلماء العرب وفلاسفتهم المتقدمين اهتمام بعلم الموسيقى وللغارابي فيه اليد الطولى ومما ألفه كتاب الموسيقى الكبير . ونقل صاحب الارزفي ما شره من الازجال والموشحات عبارة عن ابن رشد وردت له في تلخيصه كتاب ارسطوطاليس في الشعر الذي طبعه المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانس سنة ١٨٧٣ قال ابن رشد :

« المحاكاة في الاقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء . من قبل النعم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عند صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ اعني الاقاويل المخيلة غير المورونة . وقد تجمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والازجال وهي الاسعار التي استبطنها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أي الاندلس » . أهـ . ولا شبهة في أن أعاريض الموشحات والازجال من انسب العروض لنظم روايات الاوبرة لسهولة التوقيع بها على آلات الطرب بخلاف البحور الستة عشر في العربية أو البحور الثمانية عشر بالفارسية والتركية . ولا نطيل الكلام في هذا البحث فان أهله أولى بالبحث فيه والتفتيش عن دقائقه وخوافيه ونعود للصدد الذي كنا فيه .

وأما النشر الذي ألفه فيكتور هوكو فكله من قبيل المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها . ولس عند الافرنج سجع وهذا المنشور على اقسام وفنون شتى منها القصص التي يقال لها « رومان » وهي ما صور فيها مؤلفها غرائب الوقائع وعجائب الاتفاقات واستلفت نظر القارئ أو السامع بمفترياته وتخيلاته البديعة . وسميت هذه القصص رومان أو رومانس باسم اللغة القديمة التي كتب فيها رومان رولان وأمثالها من القصص والحكايات المنطومة والمنثورة . والرومانات على اقسام كثيرة منها الرومان التاريخي والغرامي أو الاحساسى والروحاني والفني والسياسي الخ ومن منشور فيكتور هوكو أيضاً التاريخ والسياحة والفلسفة والاقوال والاعمال والرسائل والخطب والسياسات وغير ذلك .

٢٩ - نظم فيكتور هوكو

قرض فيكتور هوكو الشعر في أعاريض مختلفة . منه ما هو على وزن البحر الاسكندري المنسوب لاحد الشعراء اليونانيين أو المدينة الاسكندرية التي زهت فيها العلوم والمعارف والآداب اليونانية على عهد البطالسة . ويتألف عروض البحر الاسكندري من اثني عشر هجاء اذا كانت القافية مذكرة ومن ثلاثة عشر إذا كانت مؤنثة . ويقسم كل بيت إلى شطرين بوقفة Césure تأتي بعد الهجاء السادس لمساواة الشطرين . والنظم في هذا البحر صعب يحتاج إلى نفس عال وتلطف كثير ومهارة زائدة وبه تظهر قوة الشاعر واقتداره على التصرف في الكلام ولذا اختص بالمواضيع الجذبة العالية لقصائد الحماسة وروايات الفاجعة . واختاره فيكتور هوكو لنظم روايات الدرام التمثيلية المذكورة في الكتب الخمسة المتقدم بياها ولنظم غيرها من الاشعار الحماسية والتاريخية ولكنه غير فيه كثيراً ولم يراع الوقوف على الهجاء السادس بل قسم البيت إلى شطرين غير متساويين وجوز تكميل معنى البيت الاول بالفاظ من البيت الثاني . مع أن العرب يشترطون ان يكون كل بيت من ابیات الشعر تاماً في بابه مستقلاً في معناه . ويمكن تشبيه البحر الاسكندري بالبحر العربية الستة عشر أو البحور الفارسية الثمانية عشر .

ومن شعر فيكتور هوكو ما هو على أوزان متخالفة تتألف من ستة أو ثمانية أو عشرة هجاء ات نظمت أسباطاً أسباطاً وأغصاناً أغصاناً وجعل لها ادواراً ولازمات على نسق ما استحدثه الاندلسيون وبقية شعراء العرب المتأخرين من الموشحات والازجال . وهي اسهل طريقة واقرب تناولاً من البحر الاسكندري كما ان الموشحات والازجال العربية اسهل من بقية البحور . ولها عند الافرنج اسماء بحسب اجناسها مثل اود وبلاد وروندو وايلجي الخ . ولها ادوار تسمى قبوله وستر وف ولها أيضاً لازمات refrain الخ واقتبس الفرثساويون هذه الاعاريض من شعراء التروبادور . وهؤلاء تلقوها عن عرب الاندلس كما اخذو عنهم علم القوافي . فان شعراء الافرنج على الاطلاق لم يكن لهم معرفة بالقوافي وانما كانوا يعتاضون عنها في اشعارهم بما يسمونه (أسونانس) وهو شبه القراي والعتابي كما مر ذكره . ومثلنا فيها سبق للقافية بكلمتي

(ساج) و(باج) ولما يسمونه اسونانس بكلمتي (ساج) و(آرم) والافرنج لا يلتزمون في القصيدة او المنظومة قافية واحدة أوروبياً واحداً كما يفعل العرب . ففيكتور هوكل لم يلتفت كثيراً لأوزان العروض التي نظم فيه من تقدم عليه من الشعراء بل تساهل جداً في جانب الالفاظ واستحدث من عند نفسه انواعاً جديدة ووضع هذه القاعدة وهي : « ان الشعر ليس في قوالب المعاني وانما هو في المعاني نفسها . فالشعر هو الامر الباطني لكل شيء في الوجود » .

فهذه القاعدة ليست مجهولة بالتمام عند أدباء العرب . ولعل ابن رشد اشار اليها في العبارة السابقة بقوله عن المحاكاة في اللفظ « أعني الاقاويل المخيلة غير الموزونة » . وحكي عن حسان بن ثابت حينما اتاه ابنه عبد الرحمن وهو صبي يبكي ويقول لسعني طائر .

فقال حسان : - صفه يا بني

فقال : - كاته ملتف في بردي حبره - وكان لسعه زنبور

فقال حسان : - قال ابني الشعر ورب الكعبة

فمقصود الصبي ان الطائر الذي لسعه يشبه في اجنحته وشكله المنقش العجيب الشخص الملتف برداء موشى ومصنغ . وقول حسان حجة على ان الشعر لا ينحصر في الكلام المقفى الموزون وانما حقيقة الشعر في المعاني والتخيل وفي ما يحده على النفس من التأثير . ولكن درج تعريف الشعر على اللسان بانه كلام مقفى موزون . وسبق لنا ذكر تعريف ابن خلدون للشعر بانه « الكلام البليغ ، المبني على الاستعارة او الاوصاف ، المفصل اجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على اساليب العرب المخصوصة » . وعلى هذا التعريف يكون كلام المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء . وقال ابو الفداء عن المعري « وطبق الأرض ذكره . . واكثر مصنفاته ركيكة فهجرت لذلك » .

والصحيح ان كلاً منهما امام مجدد في الأدب خرجا بالكلام عن تلك القيود المدرسية واطلقا للقرينة عنان الحرية وكان النوع المعروف بين الادباء هونوع القصيد وله اساليب معروفة عندهم تختص بمطلع القصيد وبيت التخلص والختام وذكر الاطلاع والرسوم والراحلة والسفر . فالمعري والمتنبي خرجا عن هذه الاساليب ولكنها

أفرطاً في إيراد التشابيه الغامضة والالفاظ اللغوية واحتاح شعرها الى شرح طويل وتفسير ثم صار هو أيضاً شعراً مدرسياً بسبب نسج المتأخرين على مواله وتهافتهم على التشابيه الغامضة . وقال فيكتور هوغو في كتابه المسمى أدب وفلسفة :

« لا يكفي أن يكون للشعر قالب حسن للالفاظ بل يلزم ان يحتوي على معنى أو تشبيه أو احساس ليكون له رائحة ولون وطعم . تسعى النحلة في بناء الواجهاات الست لبيوتها من الشمع . ثم تملأها بالعسل . فهذه البيوت أو الخلايا هي ابيات الشعر . والعسل هو الشعر » . اهـ .

فشبه الشعر بالشهد وهو العسل في شمعته . وبالخمر أيضاً ولها أوصاف ثلاثة : رائحة تفوح منها كما يفوح المسك . وتسمى ناصطلاحهم (بوكة) ولون كانه ياقوته سيالة أو صفراء فاقع لونها . وطعم يعرفه أهل الذوق كما تعرف طعوم المآكل ويميزون فيه بين الحس والاحسن الضار والنافع والانفع . ورأيت في أهل الذوق من رسخت لهم ملكة حتى أصبحوا يعرفون الخمر من أي كرم وقرية ومن محصول أي سنة بمجرد معاينة أوصافها الثلاثة بالحواس حاسة البصر وحاسة الشم وحاسة الذوق . وتشبيه الشعر بالخمر والعسل معروف عند العرب ويقولون فلان من أهل الذوق في الكلام وتقول العامة « كلام بلا طعم » وما يؤيد ان الشعر في المعاني قول ابي محمد الخازن من ادباء اصفهان وكان ينتسب للصاحب بن عباد ويرسل ابا بكر الخوارزمي قال : لا يحسن الشعر ما لم يسترق له حر الكلام وتستخدم له الفكر انظر تجد صورة الاشعار واحدة وانما لمعانٍ تعشق الصور ثم ان تقسيم الشعر عن الافرنج الى اود وبالااد وايليحي . الخ هو تقسيم باعتبار الشكل الخارجي أي باعتبار قوالب الالفاظ وبحور العروض والادوار . . . الخ . . . واما باعتبار المعنى فيقسم إلى ثلاثة أقسام غرامي وحماسي ودرامي . فالغرامي - ويسمى الموسيقي أيضاً لأن الاصل فيه الانشاد على نغمات الاوتار (١) - هو كل شعر اعرب عن الحواس الشخصية . فمؤلفه يبين في احساسه وعواطفه ووجه وبغضه وشقاءه وسعادته . فاذا جرى التوقيع به على آلات الطرب كان أشد وقعاً

(١) قد يتعمى المرء بالشعر الحماسي أيضاً لأن العاء إما هو تلحين الشعر موسيقياً كان أو حماسياً . ولكن الغالب في العاء إظهار ما في نفس الانسان من الحس والشعور ولذا حصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعر الحماسي بحاصته الشخصية وكتاب (الأعالي) ألهمه أبو الفرج الأصفهاني مساء على العاء في المائة صوت التي احتارها المعون للرشد ولكه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والعاء فهو ديوان العرب

وتأثيراً على النفوس والشعر الحماسي هو ما وصف به شجاعة الشجعان ودهمهم عن الحريم والأوطان وفيه احاديث المروءة والغيرة والحمية فهو هذه الصفة تاريخي . والدرام هو ما صور فيه الحياة الانسانية وتقدم تفصيل الكلام عليه .

فالآود والبلاد والايليجي . . الخ يقابلها في العربية المدح والغزل والرتاء . .

الخ غير أن هذه الاقسام في العربية من الأقسام المعنوية وأما عند الفرساويين فهي من الأقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف . ومن هذه الاقسام اللفظية أيضاً الشعر الفاجع وهو ما صور فيه الشاعر حادثة مهمة من شأنها تهيج العواطف وتحريك الغضب واستجلاب الشفقة والرحمة وتنتهي الرواية الفاجعة في الغالب بمصيبة . فروايات المتقدمين التي على هذا الطرز تسمى تراجيديا .

وروايات اصحاب الطريقة الرومانية التي على أسلوها تسمى درام . وأما الكوميديا فهي مصورة لأخلاق الهيئة الاجتماعية ومساوهم ومعايهم بصورة هزلية مضحكة كروايات مولير ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية ومستورة في مطبعة ابو الضياء . وأشعار الهجاء عند الافرنج تشتمل على الهجو والذم والانتقاد والتعريض والاستهزاء وخلط الجلد بالهزل ونحو ذلك . ومن أنواع الشعر عندهم أيضاً الشعر البدوي المصور لأخلاق البدو والرعاة وهم في البادية والخبال . وقد أحسن ليد بن ربيعة العامري في تصوير أخلاق البادية والمعيشة البدوية قبل الاسلام وديوانه مطبوع في فينا عاصه 'نمسا . ومن الشعر ما تقص فيه الحكايات وتضرب الامثال على ألسنة الحيوانا ، كحكايات لافونتين . ومنه أيضاً الشعر الذي على نهج الرسائل المكاتب . . . له أمثال عند العرب ومن شعراء دمشق المتأخرين من نظم حجة شرعية بجمع ما يزمها من القيود والشروط .

وجل مهارة فيكتور هوكو في الشعر الغرامي أو الموسيقى المعرب عن الاحساس الشخصي ولشعره نغمة مطربة وقوافٍ عامرة . وألحان تحنُّ لها القلوب وترتاح لسباعها النفوس . وهو الذي أوجد عند الفرساويين الهجو الموسيقي في المنظومات التي هجا بها نابوليون الثالث ولم تزل هذه الانغام والقوافي والألحان هي الباعثة على رواح أشعاره وإقبال الجمهور عليها .

وكما ان فيكتور هوكو غير أفاعيل الشعر وتفاعيله وأصلح عروضه على المثال المشار اليه آمأ . فقد أصلح كذلك ألفاظ الشعر ومعايه . وأبطل جميع اصطلاحات

الأدباء أي الأساليب والتعبيرات المصطلح عليها بينهم والتي لا يفهمها إلا أهل الغوص على المعاني وهم خواص الناس . وقال بأن جميع الالفاظ سواء . لا فرق فيها بين اللفظ الذي وقع اختيار الأدباء عليه وبين اللفظ الذي رفضوه وقالوا عنه سوقي مبتذل . وجوز للكتابة والشعراء الاخذ بكل واحد من نوعي الالفاظ المختارة والسوقية واستعمالها بلا فرق في النظم والنثر (١) على شرط موافقتها لقواعد النحو والصرف وابطل ايضاً ماكان يستعمله الادباء في كلامهم من المقدمات والدورات التي من شأنها تغطية المعنى والتثقيل عليه وكذا التعبيرات العمومية والاجمالية التي يتلاشى بها المعنى ويستبهم كما يفعل ادباء العرب في خطبة الكتاب المصنف وفي مقدمته . ولم يرض من جميع ذلك الا بالتعبير الاصلي والمعنى الحقيقي الدال على خصوصية الموضوع لان الغرض من تأليف الكلمات وتصنيف الكلام انها هو تشخيص الموضوع وبيان مزيته وغبابته . فلا حاجة للاستعارة ولا للمعنى المجازي . ويقوم مقام الاستعارة التشبيه أو التخيل الذي هو نوع من الاحساس لا التشبيه والتخيل المستفاد من طرز الكتابة . فالواجب على الكاتب ان لا يشغل نفسه بالاستعارات وانواع البديع وان لا يتصنع ولا يتعمل في الكلام . بل ينبغي له ان يهتم ببيان الموضوع الذي هو فيه وايضاحه ووصفه بالاوصاف السديدة المظهرة له ظهور الشمس في رابعة النهار ويوضح انفعالاته النفسية في ذاك الموضوع ليكون أشد تأثيراً على السامع . فتأثير الكلام يكون من جهة الانفعال النفسي والتصوير الطبيعي لا من جهة الاستعارات . غير ان فيكتور هوكو واهل طريقتة لم يمنعوا انفسهم من استعمال الاستعارات المدرسية والتعبيرات المصنعة لرسوخ ملكتهم فيها . ومن الاستعارات التي وردت لفكتور هوكو على الطرر القديم قوله « نجوم المركبة » يريد المصابيح التي تنارها المركبات ليلاً وتظهر عن بعد كالنجوم .

فادباء الغرب قالوا بان جل محاسن الكلام ان لم تكن كلها متفرعة عن التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية وجعلوها اقطاباً تدور عليها المعاني . ولذا تجد غزهم مثلاً يدور دائماً حول التفتن في تشبيه القدود بالاغصان والنهود بالرمان والحدود بالورد

(١) ذكر الحرجاني في اسرار البلاغة المطبوع أخيراً في مصر في الكلام على الالفاظ المستحسنة أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويشد اولونه في زمامهم ولا يكون وحشياً غريباً أو عامياً سخيفاً وسخفه بالرائة عن موضوع اللغة واخراجها عما فرضته من الحكم والصفة كقول العامة (انشغلت) و(انفسد)

والجلنار والعيون ونحو ذلك . على حد قول الشاعر :

قلبي على قدك المشقوق بالهيف طير على الغصن أم همز على الألف
وهل سويداءه خال بخدك أم خويدم أسود في الروضة الانف
وهي قصيدة غراء من كتاب ربحانة الالباء المطبوع في بولاق . والمراد تشبيه قد
الممشوق بالغصن أو بالألف . وقلب العاشق بالطير أو بالهمزة . وفي البيت الثاني
تشبيه سويداء القلب وهي الحبة السوداء التي فيه بالخال الذي على خد المحبوب
وتشبيه الخال بالخادم الصغير الاسود وهو في الروضة . لان جسد الحبيب في
اصطلاحهم بستان فيه جميع الازهار والفواكه والاشجار والانهار والتلال والوهاد
والاغوار والانجاد . فكأن جميع المخلوقات الطبيعية تتشخص في هذا الجسد .
فجميع أشعارهم في الغزل وجميع تفنناتهم فيه يدور ويرجع لاصل واحد واحسن مثال
له القصيدة الآتية :

نالت على يدها مالم تنله يدي	نقشاً على معصم اوهت به جلدي
كأنه طرق نمل في اناملها	أوروضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدها من نبل مقلتها	فالبست زندها درعاً من الزرد
مدت مواشطها في كفها شركاً	تصيد قلبي به من داخل الجسد
وقوس حاجبها من كل ناحية	ونبل مقلتها ترمي به كبدي
وعقرب الصدع قد بانت زبائنه	وناعس الطرف يقظان على الرصد
ان كان في جلنار الخد من عجب	فالصدر يطرح رماناً لمن يرد
وخصرها ناحل يمشي على كف	مرجرج قد حكى الاحزان في الخلد
انسية لورأتها الشمس ما طلعت	من بعد رؤيتها يوماً على احد
سألتهما الوصل قالت انت تعرفنا	من رام منا وصلاً مات بالكمند
وكم لنا عاشق في الحب مات جوى	من الغرام ولم يبدي ولم يعد
فقلت استغفر الرحمن من زلل	ان المحب قتيل الصبر والجلد
وخلفتني طريحاً وهي قائلة	ما تنظرون فعال الظبي بالأسد
قالت لطيف خيال زارني ومضى	بالله صفه لا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظماء	وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت الوفا في الحب شيمته	يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

واسترجعت سألت عني فقبل لها
وامطرت لؤلؤاً من ررجس وسقت
واشدت بلسان الحال قائلة
والله ما حزنت اخت لفقد أح
فاسرعت واتت تجري على عجل
واغمرتني بفصل من عواطفها
هم يحسدوني على موتي فوا أسفي
فهذه القصيدة اشتملت على كثير من التشابه وعلى شيء قليل من المعاني
وعلى شيء أقل من الاحساس . فشبّه النقش الذي تنقشه الماشطة على يد العروس
بطرق النمل وهم ذاهبون لمسكنهم قطاراً بجانب قطار . وبالبرد النازل على روضة
البقل وبدرع الزرد وبشرك الصيد أي شبكته . وشبه الحاجب بالقوس والأهداب
بالنمل والكبد بالهدف . وشبه الشعر الأسود على الصدغ بالعقرب وطرفه الملوي
بالزبانة وزبانتا العقرب قرناها . وشبه الخد بالجلنار وهوزهر الرمان وبالورد أيضاً
والثدي بالرمان وشبه نفسه بالأسد وشبهها هي بالشمس والظبي وشبه دموعها باللؤلؤ
وعينيها بالنرجس واناملها المصبوغة بالحناء الأحمر بالحناء واسنانها بالبرد . وردفها
بالحزن وهو ما غلظ وارتفع من الأرض ويسمى الراية والكثيب أيضاً .
وأما المعاني التي في هذه القصيدة فهي سؤاله الوصل وجوابها بالرد وصبره
وجلده على البعد ووفاء في الحب حتى لم يبق فيه رمل فشفقت عليه وبكت وحزنت
حزن الاخت لفقد أخيها والأم على ولدها واتت اليه تجري على عجل وتعطمت عليه
وانعشته فحسده العوازل .

فادباء العرب يستعذبون هذا الكلام المصنع المرصع كما يستحسنون النقش
على اليد والصبغ الأحمر على البنان . والفرق بين اليد البيضاء الطبيعية والانامل
المنظفة بالمبرد والمقص وبقيّة آلات التنظيف وبين اليد المنقوش عليها نقشاً وحشياً
والانامل المخضبة بالحناء لا يخفى على أهل النظر والذوق والأمم المتوحشة
لا يستحلون العرائس الا اذا كثر على اجسادهن النقش والوشم وشرحت خدودهن
وكسرت اسنانهن ليحصل فيها الفلج وثقت انوفهن وشفاهن واذانهن ليعلق فيها
الاقراط والحلقات فهم يبدلون خلقه الله بما يرويه حسناً بحسب اذواقهم وكذلك

الادباء يعدلون بالكلام عن السوق الطبيعي إلى تلك التشابيه والاستعارات وإذا نظرت إلى مدحهم رأيته أيضاً يدور حول طول النجاد وكثرة الرماد كبقوله .
طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد إذا ما شتى
فهذا البيت يليق مدحاً حقيقياً بشيخ قبيلة بدوية أو بملك أمة متوحشة من امم
اواسط افريقيا لا في كل ممدوح . وإذا مدح به ملك امة لها حظ من الحضارة ينقلب
المدح ذمّاً . وهكذا يقال في بقية فنون الكلام وضرويه مثل الهجاء والرثاء
والاستمحاة ، والشفاعة ، والشكر ، والاستعطاف ، والافتخار ، وبث الشكوى ،
والمواعظ ، والحجج . ولاسيما الوصف وهو اعمها واكثرها ضرورياً فان كل فن من هذه
الفنون يدور حول تشابيه معلومة وأساليب مدرسية يندر فيها الاحساس الشخصي
والانفعال النفسي وانما هي تقاليد يتبع فيها الخلف السلف
ففيكتور هوكو وأهل طريقته لا يرون شيئاً من الحسن في هذه التشابيه
والاستعارات المدرسية ولا يستعذبون معنى من تلك المعاني التي ليست بطبيعية . بل
يمجدونها من المعاني السخيفة غير المعقولة . خرج بها اصحابها عن الذوق السليم
وعن دائرة الطبيعة وشوهوا وجه الكلام بتلك الاستعارات كما سخموا وجه العروس
وبدنها بالنقش والوشم والصبغ ثم جاءوا يقولون (بالت على يدها ما لم تنله يدي) .
ورأينا في معرض بارنوم الذي يطوف به صاحبه مدن العالم القديم والجديد شخصاً من
المتوحشين وشم جميع بدنه فكان يتجلى امام الناظرين كانه لابس ثوباً مرقشاً والوشم
هو ان يغرز الجسد بآبرة ثم يذر عليها النؤور وهو النيلج (نبات النيلة) . وفي الحديث
لعن الله الواشمة والمستوشمة . واليك وصف مؤلفاته .

١ - المدائح والمطربات

هو أول ديوان ستره فيكتور هوكو في الشعر وافتتحه بمقدمات نثرية بليغة ترجمنا
احدهما لمناسبتها المقام ومنها يعلم أن تعبيراً عن الأود والبالاد بالمدائح والمطربات فيه
تساهل لان قصائد هذا الديوان لا تقتصر على المدح والغزل بل فيها أيضاً الرثاء
والهجاء ممزوجة ببعضها بعض

قال فيكتور هوكو .

هذا ديوان في الشعر الموسيقي (الغرامي) . فيه نوعان من افانين الشعر احدهما
(اود) ويدخل تحته جميع المطومات المشتملة على إلهامات دينية أو مطالعات قديمة أو

المتراجعة عن واقعة عصرية أو عن تأثر شخصي . والثاني (بالاد) وهو نوع مخالف للفرع المتقدم . ومنظوماته انما هي مسودات فن هوائي . وهي عبارة عن ألواح مصورة وخيالات وأحلام ومناظر بديعة وحكايات دارجة وأحاديث خرافة وأساطير ووسوسة . والقصد من نظمها إعطاء فكر عن ماهية الاشعار والقصائد التي نظمها في القرون الوسطى شعراء التروبادور المتقدمون الذين هم رواة الشعر في عالم النصرانية . وكانوا لا يملكون من الدنيا الا السيف والرباب ويطوفون على الامراء في قلاعهم وقصورهم ويتضيفون على موائدهم وينشدونهم الاشعار استجداء لاجناسهم ولولم يكن في التعبير فحفة لقال المؤلف بأنه وضع روحه في «الاولد» وتخيله في البالاد على انه لا يعبأ بتقسيم الشعر إلى أنواع وأفانين ولا بتصنيفه أصنافاً متباينة . لأن حقيقة الشعر واحد مهما اختلفت عروضه وأدواره . ولذا فهو لا يبالي باعتراض من يزعم ان ما ورد في هذا الكتاب ليس هو في شيء من الاولد ولا من البالاد . (كما قيل عن شعر المتنبي والمعري ، لانهما لم ينسجا على منوال شعر الجاهلية ولا حافظا على الاساليب القديمة) . فدعهم يقولون ما يشاؤون ويسمون بها يشتهون من الاسماء فان العبرة بالمسمى لا بالاسم . ونسمعهم يتشدقون كل يوم بصلاحية الفن الفلاني من فنون الشعر . ووافقية الفن الآخر . ويقولون بمحدودية هذا وبوسعة ذاك . ويمنعون في فن التراجيديا ما يميزونه في فن الرومان . ويسمحون في نوع الغناء بما يحظرونه في نوع الأولد . . الخ . فمن سوء حظ هذا انه لا يفهم شيئاً مما يقولونه ويفتش في كلامهم عن المعاني ولا يرى فيه الا التشديق بالالفاظ والذي يظهر له ان ما هو في الحقيقة ونفس الأمر جميل صحيح يكون جميلاً وصحيحاً في كل مكان . وما كان دراماتيقاً أي فاجعاً في قصة من القصص يكون دراماتيقاً أيضاً في رواية ممثلة على المسرح . وما كان موسيقياً أي غرامياً في دور (قوبله) من أدوار الشعر يكون موسيقياً أيضاً في سمط (ستروف) من اسماط الشعر المنظوم أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً . والحاصل التمييز الوحيد الحقيقي في محصولات الفكر انما هو التمييز بين الحسن والقبيح . والفكر أرض مخصبة لم تفتح تبغي محصولاتها النماء فيها بحرية . أعني حسب التصادف بدون ان تصنف صنفاً صنفاً أو تجعل صفاً صفاً في احواض مصنعة كما تجعل الازهار في البستان الصناعي . أو كما جمعت نوابغ الكلم في رسائل البيان وقيدت المنتخبات في سفائن الاشعار .

ومع ذلك فلا ينبغي لك ان تظن هذه الحرية مستلزمة للتشويش . كلا بل هي بالعكس باعثة على حسن الانتظام . وايضاحاً لذلك نقول : تأمل في الحديقة الملوكية التي في قصر فيرسايل بالقرب من باريس تجدها في غاية من التسوية والتعشيب والتقصيب والتنظيف والجرف والكري والترميل مشتملة على كثير من الشلالات الصغيرة ، والبحيرات الصغيرة ، والروضات الصغيرة ، وفيها من التصاوير النحاسية ما هي على هيئة آلهة البحر ، نصفها سمكة والنصف الآخر انسان . وهي سابحة على الماء ومتجمعة فوق بحار صناعية جلبت من نهر السين بصرف النفقات الباهظة وفيها من تماثيل الممر والرخام ما هو على صورة آلهة اليونان والرومان ، وهم يغازلون حور الجنان ، ويعزفون بالمزامير والعيدان ، وقد احدثت بهم اشجار السرو العالية على هيئة رمزية . وترى شجر اللبان في شكل اسطواني ، وشجر الليمون في شكل كروي ، وشجر الأس في شكل منحرف ، واشجاراً كثيرة لم تكن في اصل خلقتها الطبيعة على أشكال منتظمة ولكنها اقتضبت بمقص البستاني وهندمت بآلاته الزراعية . ثم قايس بفكرك بين هذه الحديقة المصنعة وبين غابة عذراء من غاب العالم الجديد تجد فيها اشجاراً ونباتات على سائر الاشكال من غياض ، وآجام وأيك ، ودوح ، وكلاء (١) وحشيش ، وعشب طويل ، ونبات متعرش بلبل وشوك واوراق مختلفة وفيها مروج نضرة كأنها بين تلك الاشجار الصلبة الشاخة شوارع أو طرق واسعة لا يسقط فيها نور الشمس ولا يمتد ظل الشجر الا على بساط من الخضرة . ويطير في تلك الغابة ألف نوع من الطير بالف لون من الريش وتجري فيها انهار كبيرة تقتلع الاشجار وتسحب جزراً مكلفة بالازهار . وتدق المياه الجارية من مكان أعلى إلى مكان أسفل فتحدث الشلالات ، ويتخلل الضياء بين تلك المياه الساقطة فينقلب إلى قوس قزح . ويتألف من هذا الهدير والخرير والتغريد والزئير الحان وحشية لا مثيل لها . فنحن لا نقول : أين العظمة ؟ أين العزة والجبروت ؟ أين

(١) واشهرها عاب اميركا وعاب افريقيا ومها عابة الكونمو . والعاب جمع عانة . والعابص جمع عيص وهي معيص ماء يجتمع فيبث فيها الشجر وتجمع أيضاً على أعياص . والآحام والاحات جمع احنة وهي من القصب والايك جمع ايكة وهي الشجر الكثير الملتف والدوح جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة من أي نوع والكلاء هو العشب وطباً كان او يابساً والحشيش هو الكلاء الياس أه مختار الصحاح

الحال الحقيقي ؟ بل سأل فقط : اين الانتظام واين عدم الانتظام ؟ فهناك مياه حست وحولت عن مجراها الطبيعي لتتدفق من ينابيع صناعية وتركد في حياض محتمة تم تنن فيها وهناك أيضاً آلهة تحجرت ، واشجار قلعة من الارض التي استت فيها ، وبقلت من الاقليم الذي ربيت فيه ، وحرمت من شكلها الطبيعي ، ومن تمارها الطيبة ، واكرهت على تحمل محل البستاني يفعل فيها حسب اهوائه ومشئته ، ويديرها كيف دار حل استقامته ، فالانتظام الطبيعي مضاد ، معكوس ، مقلوب ، محروب .

وأما هنا فبالعكس كل شيء خاضع لاموس لا يتغير . وفي كل شيء آية على وجود اله حي (١) وقطرات الماء تنحدر في مصبها وتحري انهاراً مجتمع وتصير بحاراً . وسدر النسات يختار الأرض الصالحة له ويصير احراجاً . وكل نجم (٢) وكل شجرة صغيرة او كبيرة تنبت في فصلها وتنمو في ارضها وتثمر تمرتها فتتضج في أوانها فكل ما في هذه الغابة جميل حتى السوك . فنسأل أيضاً اين الانتظام ؟

فاحتر إذاً بين أحسن ما اتت به الصناعة البستانية وبين مصنوعات الطبيعة ، بين ما هو جميل بحسب الاصطلاح وبين ما هو جميل بغير القواعد الاصطلاحية بين أدب مصنع مرصع وبين شعر متكرر لم ينسج على منواله أحد

ربما قال معترض بان الغابة العذراء البعيدة عن الناس قد يربض فيها ألف حيوان مفترس واما حياض الحديقة الصناعية التي استنقعت المياه فيها فلا تحتوي في الغالب الا على قليل من الضمادع المستقذرة فهذا الاعتراض وارد مع الا ف ولكن إذا حيرنا فنحن نفصل التمساح المفترس على الضفدع القذر . كما بفضل بررية الشاعر الانكليزي شكسبير على سخافة عقل الشاعر الفرنسي قاميسترون (ولد في طولور ١٦٥٦ - ١٧٢٣م) .

ومن المسائل المهمة المفتضى بيانها هو ان الانتظام يمتزج بالحرية في الأدب كما يمتزج بها في السياسة . لا بل الانتظام نتيجة للحرية فيهما جميعاً . ولكن ينبغي التفريق بين الانتظام وبين رعاية القواعد . فرعاية القواعد أمر لا يتعلق الا بالشكل

(١) وفي كل شيء له آية تد على انه واحد (ابو العتاهية)

(٢) الحن من البات ما لم يكن على ساق

الخارجي . وأما الانتظام فينتج من باطن الاشياء أي من ترتيب العناصر الاصلية التي في الموضوع المبحوث عنه ترتيباً يستحسنه الذوق . فرعاية القواعد هو تأليف مادي ووضع انساني . وأما الانتظام فهو أشبه بالامر الالهي . فهاتان الخاصتان المتخالفتان في ذاتهما كثيراً ما توجد احدهما بدون الأخرى . فالكنيسة المبنية على القالب القوطي يظهر لنا فيها انتظام بديع رغماً عن سذاجتها وعدم رعاية قواعد البناء فيها . وأما الابنية الفرنساوية الحديثة التي بنيت على قوالب ابنية اليونان والرومان وقلد البنائون في بنائها تقليداً أعمى بغير ذوق ولا مهارة فتظهر لنا غير منظمة رغم ما في بنائها من رعاية القواعد المعمارية . فالمؤلف العادي لا يتعذر عليه تصنيف تأليف على حسب القواعد . وأما وضع الانتظام في التأليف فلا يتيسر الا لذوي العقول الكبيرة من المؤلفين . لان الخلاق (١) الذي ينظر من الأعلى ، ينظم . والمقلد الذي ينظر من القرب ، يطبق على القواعد . فالأول يعمل بمقتضى ناموس طبيعته . والثاني يتبع قواعد طريقته . فالصناعة إلهام للأول . وعلم للثاني . والحاصل رعاية القواعد هي ذوق المتوسط (٢) . والانتظام هو ذوق القرينة . ومن هنا يفهم الفرق بين أدب الطريقة الرومانية وبين أدب الطريقة المدرسية .

واعلم ان الحرية في هذا المقام لا ينبغي ان تصل إلى الفوضوية . وان الخروج عن الاسلوب لا يقتضي ان يكون وسيلة لتجوير اللحن والغلط . فبقدر ما يتهور المؤلف في الخروج عن الاسلوب يلزم ان لا يكون في تأليفه لومة لائم . لانه اذا أراد التفوق في حق واحد على غيره يجب ان يكون معه عشرة حقوق زائدة عليه ويقدر ما يهمل علم البيان والمعاني يجب عليه ان يراعي علم النحو والصرف ولا يجوز له حلع ارسطوطاليس البياني (٣) الا إذا جلس مكانه فوجيلا النحوي (٤) وتنبغي محبة (صناعة الشعر) التي ألفها بالولاجل اشائها على الاقل ان لم يكن لاجل ما فيها من

(١) أي محتلق المعاني

(٢) أي المتوسط في الأدب الذي لم يبلغ شأو المتضلع فيه

(٣) وقد لخص ابن رشد كتاب « ارسطوطاليس في الشعر » وطعه المستشرق فوستو لاريو في فلورانس سنة

١٨٧٣

(٤) بحوي فرنساوي ألف كتاب « الملاحظات على اللغة الفرنساوي » (١٥٨٥ - ١٦٥٠) وهذا ما قاله الحرحاي في « اسرار البلاغة » المطبوع في مصر « أن تكون الألفاظ بما تعارفه الناس في استعمالهم وتداولونه في رماهم ولا يكون وحشياً عريباً او عامياً سخيفاً وسحقه نارالته عن موضوع اللغة واحراحه عما فرصته من الحكم والصفة كقول العامة (اشعلت) و(انفسد)

القواعد . فالكاتب الذي له أقل اهتمام بما يكتبه يجتهد دائماً بأن يصفى منطقه بدون ان يمحوا الصفة الخصوصية التي يفصح بها تعبيره عن شخصية فكره . فادخال التعبيرات الجديدة في الكلام ما هو الا دليل على عدم المقدرة . واللحن في الاعراب لا يأتي بمعنى جديد (١) . فالانشاء مثل الزجاج كلما صفنا تلاًلاً .

ربما اوضح مؤلف هذا الكتاب في غير هذا المحل كل ما أشار إليه هنا . ولكنه قبل ان يختم كلامه يستميج القراء في بيان ان رأي التقليد (أي رعاية الاسلوب) الذي وصى المتقدمون باتباعه حفظاً للطرق الأدبية ، ظهر له دائماً بأنه بلاء على صناعة الأدب فهو لا يجوز للكتابة التقليد لاساليب الطريقة الرومانية فضلاً عن الطريقة المدرسية . لان الذي ينسج على منوال شاعر من شعراء الطريقة الرومانية يصير بالضرورة مدرساً ما دام انه يقلد . فسواء عليك كنت صدى الشاعر الفرنساوي راسين أم كنت انعكاساً لنور الشاعر الانكليزي شكسبير فما انت الا صدى وما انت الا انعكاس ولو تيسر لك النسيج بالتمام على صورة شاعر من ذوي القرينة تفوتك دائماً غرابته (٢) أي قريحته . فلنعجب باكابر الشعراء ولا نقلدهم . ولنعمل بطريقة أخرى فان نجحنا فنعم ، وان سقطنا فما الأهمية ؟

يوجد سوائيل للتصبير إذا غطست فيها زهرة أو ثمرة أو عصفورة وتركتها مدة تكسوها قشرة سميكة حجرية وتحفظ في الحقيقة اشكالها الأصلية . ولكن رائحة العطر ، ولذة الطعم ، وحركة الحياة فقدت . فالتعاليم المتشدد بها ، والقياسات المنطقية الاسكولاستيقيه ، وسريان داء المادة ، وجنون التقليد ينتجن عين هذه النتيجة ، فاذا دفنت فيها قواك الغريزية وتخيلك وفكرك فلا تخرج منهم أبداً . وما تستخرجه منهم ربما تجده محافظاً على شيء من ظاهر العقل والقرينة والذكاء ولكنه يكون متحجراً كتلك الاشياء المصبرة .

فاصحاب الطريقة المدرسية يقولون « يجيد عن طريق الحقيقة والجمال كل من لم يتبع الأثر الذي طبعه باقدامهم السالكون قبله في هذا الطريق » فهذا خطأ واصحاب

(١) لا كما يقولون ليس على المطرب أن يعرب

(٢) يقول ادباء العرب هذا البيت من العرب المبتكر وراسين كما لا يحصى هو أمام الطريقة المدرسية وشكسبير

أمام الطريقة الرومانية

الطريقة المدرسية يخلطون بين العادة والدأب وبين صناعة الأدب . ويمشون على أثر العجلات توهما بأنها الطريق .

فالشاعر لا ينبغي أن يكون له إلا أنموذج واحد وهو الطبيعة ودليل واحد وهو الحقيقة . ولا ينبغي له أن يكتب مع ما كتب بل مع نفسه وقلبه . ومن جميع الكتب المتداولة بأيدي الناس ينبغي له درس كتابين فقط . أومير وس والتوراة . فهذان الكتابان المحترمان - اللذان هما أول الكتب تاريخاً وقيمة وكادا يكونان قديمين كالدينا - هما في حد ذاتهما عالمان للمعاني ويجد فيهما الكاتب بنوع ما الخليفة باجمعها مصورة بشكل مضاعف . ففي أومير وس مصورة بقرحة الانسان وفي التوراة بالهام الله .

انتهى في اكتوبر سنة ١٨٢٦ .

وبعد المقدمات الثرية البليغة ورد في هذا الديوان المنظومات وهي تزيد على خمسين منظومة بديعة اظهر فيها من رقة الالفاظ وجودة المعاني وقوة التخيل والتصور ما حمل ادباء العصر وشعراءه على الاقرار والاعتراف له بالفضل والشاعرية وبالقبض على زمام الصناعة الأدبية . وأحسن هذه المنظومات المنظومة التي عنوانها « فانه » وهو اسم ايلة على شاطئ البحر المحيط في شمال بوردواشتهرت ايام الانقلاب الكبير بالحرب الأهلية التي حدثت فيها بين حزب الجمهورية وبين المنتصرين للملوك من الاعيان والرهبان . وكذا المنظومة التي عنوانها (عذارى فيردون) وفيردون مدينة على الحدود اللمانية ومشهورة في التاريخ قديماً وحديثاً . وأبدع فيكتور هوغو في رثاء الذين قتلوا ونكبوا في تلك الحروب الأهلية وكان إذ ذاك على مذهب الكاثوليكين ومن قصائده هذا الديوان ومنظوماته البديعة (لويس السابع عشر) و(اعادة تمثال هانري الرابع) و(موت دوق برى) و(ولادة دوق بوردو) و(تعميد دوق بوردو) و(جنازة لويس الثامن عشر) و(تتويج شارل العاشر) و(الى عمود ميدان فاندوم) و(الى والدي) و(حرب اسبانيا) . . . الخ .

٢ - الشرقيات

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقدمتين وختمه بشروح مفيدة وأورد فيه إحدى وأربعين منظومة وقال بان الباعث على نظمها اتجاه انظار الادباء نحو الشرق بعد ان كانوا منذ عهد لويس الرابع عشر لا يبحثون الا في آداب اليونان والرومان ومعارفهم . ففي القرن التاسع عشر اقبلوا على درس لغات الشرق وآدابه وتاريخه وعلومه فوجدوا فيه الافكار والتخيلات عبرانية ، تركية ، يونانية ، فارسية ، عربية ، اسبانية ، لان اسبانيا جزء من افريقيا وافريقيا جزء من آسيا لوجود مشابهة وعلاقة بينهما . وشبه ما في هذا الديوان من المعاني والتخيل بمدن اسبانيا القديمة المشيدة على نمط المدن الشرقية . ووصفها بان فيها منتزهات لطيفة تظللها اشجار الليمون وتجري من تحتها الانهار ويسطع نور الشمس على ميادينها الواسعة المعدة للاحتفال بالمواسم والاعياد وازقتها ضيقة بعضها مظلم وبعضها غير نافذ ولا مستقيم . وابنية دورها من جميع الازمان وعلى كل الاشكال منها العالي والمنخفض والاسود والمبيض والمصبوغ والمنحوت والمنقوش . واتصلت العبارات بعضها ببعض من دور وقصور وفنادق واديرة وثكنات للعساكر . وكل منها يختلف عن الآخر في طرز البناء والاسلوب المعماري ويسدل على نوع غريب قائم بذاته . واسواقها غاصة بالانعام يعلوف فيها الصياع والخصام . وإذا دخل الاحياء مقابرها وقفوا سكوتاً كأنهم اموات وفيها المراسح والكنائس والمشائخ التي بقي أثرها من الازمان الغابرة وفي وسط كل مدينة كنيسة الجامعة مبنية على القلب القوطي المعروف . وهناك أيضاً الجوامع قائمة بين اشجار النخيل والجمير وقبها مغطاة بالنحاس والقصدير وأبوابها مصبغة وحيطانها مجلدة منقشة ونوافذها عالية وعلى كل باب كتبت آية قرآنية . ورصفت الأرض ورصعت الجدران بالفسيفساء . فاصبح كل جامع من هذه الجوامع كأنه زهرة كبيرة تفتحت في نور الشمس وفاح طيبها في الجو .

وكان تأليف هذا الديوان في اثناء حرب المورة واستقلال اليونان لأن الثورة ظهرت سنة ١٨٢١ في المورة وسرت إلى بقية الولايات والجزر اليونانية واستولى الشائرون على اتينا واسسوا فيها حكومتهم وعينوا ماوروقورداتورئساً عليهم . وكان

من حملة زعماء الثورة ريان سفينة يونانية يدعى فناري هجم ليلة ١٨ و ١٩ حزيران سنة ١٨٢٢ على الاسطول العثماني الراسي على جزيرة ساقرو واحرق بعض مراكبه . فسأقت الدولة العلية على اليونان رشيد باشا من الروم ايلي وابراهيم باشا من مصر . وكانت العساكر المصرية مدربة على النظام الجديد خرجت بالمراكب الى شبه جزيرة المورة واخذت ثورتها واسترد رشيد باشا اثينا وكادت الفتنة تنام لو لم توقظها اوربا باحراق المراكب العثمانية . وذلك ان الافرنج لما رأوا انخراط ثورة اليونان قامت الجرائد والشعراء بتبيح الافكار العمومية في اوربا على العثمانيين وتنتصر لارباب الفساد والعصيان من اليونانيين فتدخلت في المسألة انكلترا وروسيا وفرنسا وبعثوا اساطيلهم فأحرقوا الاسطول العثماني واغرقت بدون اعلان حرب على الدولة العلية ولا مراعاة للحقوق المتعارفة بين الملل والامم وجرت هذه الحادثة المؤلمة بتاريخ ٢٠ تشرين أول سنة ١٨٢٧ امام فرضة نافرين في جنوب المورة واشتهرت في التاريخ بواقعة نافرين ثم انتشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا واخذت العساكر العثمانية بلاد اليونان وعاد ابراهيم باشا لمصر وصارت اليونان ايلة ممتازة تحت سيادة الباب العالي تم اعلن استقلالها تماماً .

فشعراء الافرنج لم يقتصروا كشعراء العرب على مدح الامراء والتغزل والثناء بل هم يبحثون في السياسة الداخلية والخارجية ويروجون الرأي الذي يرونه . ولذا اتبع فيكتور هوغو في السياسة خطة استاذ شاتوبريان وخطة اللورد بايرن . وهذا الشاعر الانكليزي بعد ان خدم السياسة اليونانية بقلمه اراد ان يجرب فيها سيفه ويثبت اقتداره في ميدان الحرب كما اثبتته في ميدان الادب . فنزل من قصور لوندرا الى اكواخ ميسولونكي من بلاد اليونان ومات فيها بالحمى . وتهور في فعله وخاطر بنفسه كما خاطر المتنبي حينما خرج قاصداً الكوفة سنة ٣٥٤هـ فلقية اعراب من عشيرة فاتك بن الجهل الاسدي وأخذوا ما معه وانصرفوا . فقال له مفلح وكان من اتباعه أألسن القائل :

فالحيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فقال بلى وأظهر الشجاعة حيث ينبغي اظهار الحزم والرأي وكر على الاعراب
كرة الفوارس فقتلوه وقتلوا ابنه معه . واسس الانكليز جمعية دعوها جمعية بايرن (بايرن موسيقي) وغايتها حماية المسيحيين في الممالك العثمانية كما كانت مقاصد هذا الشاعر

وأمانيه وهذه الجمعية شعبة في الاستانة واخرى في اتينا وغيرها ولها علاقة بالمسألة المكدونية كما كان لها علاقة بالمسألة الكريدية .

وتوهم شعراء الافرنج في انتصارهم لليونان ان الموجودين في هذه العصور هم من نسل اولئك الابطال والفلاسفة الذين انقضوا في القرون الغابرة واورثوا المسلمين علومهم وفلسفتهم . فهذا هو السبب الذي حمل فكتور هوكو على التعصب لليونان على العثمانيين وعلى تحريضه امم النصارى على قتال المسلمين ومناداته بالحرب الصليبية . وكان لم يزل في سن الشباب وعلى سياسة المذهب الكاثوليكي والحزب الملوكي . ولم يك بعد قد اهتدى للتوحيد الفلسفي ومحبة الانسانية ولا لاتباع الانصاف الذي ذكره المعري بقوله :

والدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لأبي الحق ان وجبا
وفعل الافرنج ما فعلوه من الانتصار لليونان بلا مشوق ولا مستصرخ فظن
الارمن والبلغار بانهم يتمكنون من استمالة اوربا اليهم بالاستصراخ والتصويت
والاناشيد الحماسية فعدوا في اوربا المجتمعات وحطبوا فيها الخطب المهيجة على غير
فائدة . وبعد انقضاء المعرض الاخير بباريس بعث المقدونيون شاعرهم المفلق
ميخايلوفسكي مع وفد من ادبائهم لامهات مدن اوروبا فكان يكثر من انشاد القصائد
الشرقيات لفكتور هوكو ومن انشاد اشعار بايرون الانكليزي ومن تنظير هذه القصائد
والنظم على منوالها باللسان البلغاري ثم ترجمتها للفرنساوية وتلاوتها على الحاضرين
في المجالس بكل شوق وحماسة وطنية وهيجان عظيم . ومع ذلك لم تنفعل اوربا ولا
تأثرت الافكار العمومية فيها كما تأثرت ايام استقلال اليونان لاسباب كثيرة منها ان
الجمال لا يتكرر . والامم أصبحت تنظر لمنافعها الاقتصادية والتجارية اكثر من التفاتها
للحماسة الجاهلية . وتوهم شبان مصر ما توهمه هؤلاء أيضاً ايام بعثوا صاحب جريدة
اللواء الى باريس يحمل صورة عظيمة تمتل مصر وهي في الأسر وتحتها ابيات عربية
تستغيث فيها بمجلس النواب الفرنسي كما هو معلوم ومطلع الابيات : يا فرنسا
من نصرت البرايا . . انصري مصر ان مصر بسوء . . الخ .

أما عنوان المنظومات التي في هذا الديوان فهي «الصاعقة» و«قناري» سمي
هذه المنظومة باسم احد زعماء الثورة المتقدم ذكره ووصف بها المحاربات البحرية
وصور فيها اعلام الدول وهي تخفق على المراكب الحربية وقصيدة « رؤوس

السراي » نظمها سنة ١٨٢٦ على اثر الاشاعة الكاذبة التي اشاعتها الجرائد عن موت قناري بقبلة اصابته في محاربة ميسولونكي وعن ارسال رأسه مع رؤوس رفقاته إلى الاستانة . ووصف في هذه المنظومة السراي وما فيها من السراي والطواشية والبذخ والقصف ورثى قناري ورفيقين له افجع رثاء وحرص امم النصاري على قتال المسلمين . و(نافارين) صور فيها محاربة نافارين العدوانية وظهر الشجاعة باحراق المراكب العثمانية ومن ابياته قوله « مضت ست سنوات ونحن نرى افريقيا تركض لمساعدة آسيا على امة تعلمت كيف تموت . وابراهيم الذي لا يسكنه شيء طار من البرزخ الى السطح كانه صقربلا وكر ، كانه ذئب تحكم في حظيرة الغنم . فهو يجري إلى حيث تستدعيه الغنيمه فاذا عاد إلى خيمته رمى بيده الرؤوس إلى السراي » .

ومن منظومات هذا الديوان أيضاً (حضر المفتي على الجهاد) و(كدر الباشا) صور فيها جلوس الباشا في دائرة الحرم حزيناً وارتباك رجال المعية والخدام والخصيان وتساؤلهم عن سبب حزنه وعما ينقصه من النعم التي هو غريق فيها بين رقص الجوّاري وغناء الغانيات في قصور عالياة مفروشة بالديباة تعبق فيها روائح المسك والعنبر ودهن الورد . فوجدوا كبره لا على خراب البلاد ونهب العباد وكثرة الظلم والاستبداد وانما هو على موت خصيه الحبشي . ومن هذه المنظومات أيضاً (اغاني قرصان البحر) صور فيها كيف كانت المراكب تجري في البحر المتوسط وتغير على ما في سواحلها من بلاد الافرنج وتأسر البنات والغلمان وتبيعهم في السرايات للباشوات . ومنها (الاسيرة) و(ضياء القمر) و(النقاب) صور في هذه المنظومة غيرة الاخوة على اختهم وقتلها لانكشاف الحجاب عنها سبب الهوء وهي مارة في الطريق امام باب الجامع وبعد قتلها كفنها وقالوا لها هذا حجاب لا يكشف ستره ونحو ذلك من القصائد .

ولم يدع مدينة من مدن الشرق المشهورة إلا ذكرها في هذا الديوان . وأكثر من ذكر مدن ايطاليا واسبانيا ادخالاً لهما في الشرق . وكان لهذا الديوان رواج عظيم حينما نشر لعلاقته اذذاك بالمسائل السياسية الجارية . أما اليوم فقد ذهبت طلاوته وزال رونقه وقلت الرغبة فيه . لان فيكتور هو كوفضلاً عما كان عليه إذ ذاك من التغرض والتعصب الأعمى لم ير الشرق بعينه ولا عرفه إلا بدرس الكتب ومطالعة ما نظمته الشعراء مثل شاتوبريان وبايرون وكونيه ناظم (ديوان اورينتال) واملهم وطالع أيضاً ما ترجم من كلام الحافظ الشيرازي والشيخ سعدي صاحب الكلستان . ومن شروط

اهل الطريقة الرومانية الكتابة والنظم عن رؤية وانفعال نفسي ولذا يجدون شعور فيكتور هوكون في الشرقيات مبهما وكلامه مصنعا لا طبيعيا . بخلاف القسم المتعلق بالاندلس واسبانيا من هذا الديوان فلم يزل له رونق واعتبار عند ادباء الافرنج . لان الشاعر زار اسبانيا في صباه وقرأ مع اولادها في المدرسة فساعدته ذاكرته على وصف ما فيها باحسن صورة وأبدع أسلوب . ومنظوماته التي عنوانها (غرناطة) هي السحر الحلال كأنها كتاب في الجغرافية أفرغ في قالب شعري ومنها يتضح تبحر الشاعر في الجغرافيا والتاريخ والآثار القديمة والفلسفة وقد ترجمنا هذه القصيدة لتعلم اساليب الشعر الافرنجي ومناحيه وهي :

٢ - غرناطة

لا توجد مدينة لا بعيدة ولا قريبة ، لا عربية ولا اسبانية تنازع غرناطة الجميلة في تفاحة الحسن (١) . ولا تظهر أكثر منها امة شرقية ولا رشاقة تحت السماء ألطف من سمائها . قادم فيها النخل . مرسية اشجار البرتقان . جيان فيها القصر القوطي ذو القلل الغريبة . أغريدة فيها الدير الذي بناه القديس ادمون سيغونة فيها الهيكل الذي تقبل اعتابه وفيها قناة قائمة على ثلاثة صفوف من القناطر تجر اليها المياه من قمة الجبل . لير فيها الابراج . برشلونه فيها عمود على رأسه منارة مطلة على البحر . تودلسه (تطيله) راعية لصادقتها ملوك اراغون وهم في قبورهم العتيقة وحافطة لصولجانهم الحديد . طلوشه فيها سوق الحدادين المظلم كأن دكاكينه في الدجا منافذ على جهنم .

السمكة التي شفت في غابر الازمان عين طويبا من العماء تلعب في جوف الخليج الذي رقت فيه (فونتارابي) (٢) . اليقانت تمتزج فيها المآذن بالجرسيات قومبو

(١) اشارة إلى تفاحة الحسن التي تخاصمت عليها آلهات اليونان كما فصل خرها في الاساطير اليونانية

(٢) طويبا من أتقيا بي اسرائيل ذهب حينما اسرهم شلمنصر الى نينوى وعمي بصره فخرج ابنه يفتش له عن دواء واجتمع بالملك اسرافيل عليه السلام فوصف له سمكة يأخذ معها ويكحل به والده ففعل وعاد اليه بصره وعاش اربعين سنة أخرى وكتب سيرته في رسالة الخفت بالتوراة . وأما فونتارابي فقبل معناها عين العرب وقبل غير ذلك وهي على الحدود الفرنسية من جهة البحر المحيط

ستله فيها قديسها . قرطبة فيها الدور العتيقة وفيها الجامع الذي تحار العين في عجائبه . مادريد فيها نهر مانزانارس . يلياوتغطيها امواج البحر ويكسي المرج الاخضر سورها المسود من الهرم . مدينة ذات الشجاعة العظيمة تخفي فقرها من كبرها تحت رداء دوقاتها وليس لها شيء سوى شجر الجميز لان قناطرها الجميلة من بقايا العرب وقنواتها من بقايا الرومان . بلنسية فيها جرسيات كنائسها الثلاثائة . القنطرة ذات التقى اسلمت لهبوب النسيم رايات الترك المعلقة على عواميدها (١) . سلمنكة تجلس وهي ضاحكة على ثلاث تلال وتنام على نغمات الأوتار وتستفيق مذعورة من جلبة أولاد المكاتب الصغار . طرطوشة غالية على القديس بطرس . بوسير ده الغيبة فيها المرمر مثل الأحجار . توبه تفتخر بقلعتها المثمرة الشكل . طراً كونة تفتخر بأسوارها التي بناها احد الملوك . سمورة يجري من تحتها نهر دور وطليلة فيها القصر العربي . اشبيلية فيها جبر الدة . برغة وضعت ثروتها على قمتها . بينافلور مركيزة . جير ونة دوقة . بيغارة كلها زهدت في الحلي الفخيمة . بامبلونه المظلمة متهية دائماً للحروب وقبل ان تنام على ضوء القمر تقفل الابراج المحيطة بها كالمنطقة .

فهذه المدن الاسبانية اما منتشرة في السهول أو مرتفعة على الجبال . وفي جميعها قلاع لم تضرب يد الاعداء فيها بالنواقيس . وفي جميعها كنائس جامعة لها جرسيات حلزونية الشكل (٢) . ولكن غرناطة فيها الحمراء .

الحمراء وما أدراك ما الحمراء قصر زوقته الجن وملأته بالمحاسن كأنها هوفي الحلم . بل وقلعة ذات شرف مخرمة مقلبة . إذا جن الليل سمعت منها أصواتاً بحرية وإذا طلع القمر من وراء اقواسها العربية الكثيرة وانعكس نوره على الجدران احدث عليها نقوشاً بيضاء عجيبة . غرناطة فيها من العجائب اكثر ما في الرمانه من الحب الذي لونه كلون العقيق وينبت الرمان في وديانها بكثرة . غرناطة اسم على مسمى . غرناطة إذا اشتعلت نار الحرب فقعت في وجوه اعدائها اشد من فقع القنبلة الحمراء بهائة مرة .

(١) لعل مراد الشاعر الرايات التي يحملها النصارى من الاراضي المقدسة التابعة للترك ويلقبونها على عواميد الكنائس تبعداً

(٢) لانها كانت مادن .

إذا أجابت (فيفانوبن) (فيقاقونلد) بدفها المزين بالاجراس اوتتوجت (جنة العريف) بالنور وامست كانها خليفة ورفعت في ظلام الليل قمتها المضيفة فلا شيء أجمل من ذلك ولا شيء أعظم من ذلك . وتعزف الأبواق من (ابراج العقيق) كانها جمهور نحل تسوقه الرياح . وفي القوافة نواقيس مهيئة دائماً لاعلان الافراح وتطنطن في ابراجها الافريقية لتوقظ من في البيضاء . غرناطة لا تجارها الرقباء ولا في شيء . غرناطة تغني الاغاني الرقيقة بارق مما هي . وتصبغ دورها بابهي الالوان . ويقال بان النسيم يحبس انفاسه اذا نثرت غرناطة في ليلة من ليالي الصيف نساءها وازهارها في سهولها .

جزيرة العرب جدتها . والعرب الرحل المقتحمون انما قطعوا اسيا وافريقيا من اجلها فقط . ولكن غرناطة كاثوليكية . غرناطة ضحكت منهم . غرناطة تلك المدينة الطريفة لو امكنها ان تكون اثنتين لكانت اشبيلية أخرى . انتهى . فان كان هذا وصف غرناطة عند فيكتور هوكو فكيف يكون وصف اشبيلية ولا يحفى ما في تعداد هذه المدن الاسبانية من الأهمية في تاريخ آداب العرب لانتساب الكثير من العلماء والادباء اليها كالشريشي شارح المقامات والشاعر الاشبيلي والشاطبي ناظم الشاطبية وكثير من أمثالهم . وأما قوله تحبس انفاسها فهو من تشابيه أصحاب الطريقة المدرسية على حد قول العرب إذا برزت الحسنة احتجبت الشمس خجلاً ونحو ذلك .

أما غرناطة فهي في أسفل جبال نفاذه (سيبرانفاده) وعلى مجتمع نهري دارو وجنيل المنصب في الوادي الكبير وهي مبنية على ثلاث تلال تحتها سهل واسع من أجمل السهول يسمى لافيكه . وغالب ابنيتهما من القرميد الاحمر صفت بعضها فوق بعض فاشبهت الرمانة المفلوكة . ولذا سميت غرناطة ومعناها الرمانة وأشهر ابنيتهما «الحمرء» وهي على تلة يجري من تحتها نهر دارو وفيها برج عظيم على رأسه شرف ولونه عقيقي ولذا قيل له (تورفيرمبل) وتجاه الحمرء (الباسين) أي البيضاء وهي حارة من حارات غرناطة تشتمل على دور لطيفة للسكن . ويقرب الحمرء جنة العريف (جنراليف) وهي قصر للصيف من أبداع القصور مرتفع على قمة عالية وسميت الحمرء لانها مبنية بالقرميد الأحمر ومنظرها الخارجي ليس بعجيب فاذا دخل الزائر من بابها بهره ما يراه داخلها من التزيين والنقش العربي (ارابسك) والتزيين والترصيع بالفسيفساء

والتصفيح بانواع المرمروالقيشاني وكتبت عليه آيات قرآنية وعبارة (لا غالب الا الله) . وفي كل زينة من زيناتها وتزويقة من تزويقاتها دليل على سلامة الذوق والمهارة التامة في الصنعة وحسن الانتخاب . ومشتملات الحمراء دوائر كثيرة وساحات ومخادع واروقة وجنات تجري من تحتها الانهار . وفيها جامع وحمامات واشهر مشتملاتها حوش السباع وهي ساحة ساهوية مبلطة بالرخام الابيض يقرب طولها من ٣٠ متراً وعرضها ١٦ متراً وعلى جوانبها اروقة قائمة على عمد من الرخام وأقواس بديعة . وفي وسط الساحة قصعة بيضاء قائمة على اثني عشر سبعا من المرمر الأسود ينصب الماء من أفواهها ويجري في قنوات مكشوفة إلى البيوت والمخادع . ولكن الماء منقطع اليوم عنها . ومن مشتملاتها الظريفة قاعة السفراء وقاعة الاختين وغير ذلك . وقد مثلت الحمراء في كثير من المدن الاوروبية ومثلت في معرض باريس الاخير احسن تمثيل .

وتغزل شعراء العرب في غرناطة باشعار كثيرة ونظم رئيس كتابها عبد الله بن زمرك موشحات لطيفة منها :

لازمة

نسيم غرناطة عليل لكنه يبري العليل وروضها زهرة بلبل ورشفه ينقع الغليل دور

عقيلة تاجها السبيكة تطل بالمرقب المنيف
كانها فوق مليكه كرسىها جنة العريف
تطبع من عسجد سبيكه شموستها كلها تطيف
وقال أيضاً ووجهه بها من فاس إلى غرناطه :

لازمه

ابلق لغرناطة سلامي وصف لها عهدي السليم فلورعى طيفها زمامي ما بث في ليله السليم

دور

اعندكم انني بفاس اكابد الشوق والحنين
اذكر اهلي بها وناسي والليل في الطول كالسنين
الله حسبي فكم افاصي من وحشة الصبح والبنين

لازمه

مطارحاً ساجع الحمام شوقاً إلى الألف والحميم والدمع قد لج في انسجام مثراً عقده النظيم

دور

ياساكن جنة العريف أسكنتم جنة الخلود
كم ثم من منظر شريف قد حلف باليمين والسعود
ورب طود به منيف أدواحه الخضر كالبنود
النهر قد سل كالحسام لراحة الشرب مستديم

والزهر قد راق بابتسام مقبلاً راحة النديم

ولده هذا الأديب في غرناطة واتصل بواسطة لسان الدين بن الخطيب الشهير
إلى أميرها وأحرز منه رئاسة الكتاب وترجمه لسان الدين في كتابه «الاحاطة» وأثنى
عليه وقيل بأن ولده كتب هامشاً على ترجمة عبد الله بن زمرك وطعن فيه وقال بأنه
تقرب للأمير بالافساد والوشاية على والده لسان الدين وتوفي ابن زمرك مقتولاً سنة
٧٥٥هـ قتله زوجته مع ولدين له . وما قاله أيضاً في غرناطة :

عروسة تاجها السبيك وزهرها الحلي والحلل
لم ترض من عزها شريك بحسنها يضرب المثل
أيدها الله من مليك يملك المجد للدول

بدولة المرتضى المهيب الملك الطاهر الأغر تختال من بردها القشيب في حلة النور والزهر
كرسيها جنة العريف مرآتها صفحة الغدير
وجوهر الطلي عن صنوف تحكمه صنعة القدير
والانس فيه على صنوف فمن هديل ومن هدير
كم خرق الزهر من جيوب وكلل القضب بالدرر

فالغصن كالكاغاب اللعوب والطير تشدوبلا وتر

وهي طويلة اقتصرنا منها على ما يناسب المقام . فجنة العريف التي أكثر
الشعراء من ذكرها هي اتبه بقولنا اليوم قصر يلديز . ونظم في بارية أيضاً موشحات
ووصف قصرها العجيب فقال :

عليك بارية السلام ولا عدا ربك المطر

مدحل في قصرك الامام فقربك السؤل والوطر

عروسة است يا عقيله تجلى على مظهر الكمال

مدّت لك الفّ مستقيله تمسح اعطافك الشمال
والبحر مرآتك الصقيله يشف من ذلك الجمال
إلى آخره :

وقال أيضاً في هذا القصر من موشح آخر :

يا حبذا مبناك فخر القصور بوجه طالت بروج السما
ما مثله في سالفات العصور ولا الذي شاد ابن ماء السما
كم فيه من مردى بهيج وقور في مرتقى الجوّ به قدسما .
إلى آخره :

ومما ورد على منوال منظومة فيكتور هوكو القصيدة الشهيرة التي مطلعها (لكل

شيء إذا ما تم نقصان) حيث ورد فيها :

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة ام أين جيان
واين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فيضان وملآن
قواعد كنّ اركان البلاد فما عسى البقاء إذ لم تبقى اركان
تبكي الحنيفة البيضاء من اسف كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية قد افقرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحارب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
ياغافلاً وله في الدهر موعظة ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وما شياً مرحاً يلهمه موطنه أبعد حمص تغرّ المرء أوطان

وحمص هي اشبيلية وهي على الضفة اليسرى للنهر أي الوادي الكبير المنصب

في المحيط عند خليج قادس وارتفع وراء المدينة جبل ولذا قال فيها أحد واصفيها :

ذكرتك يا حمص ذكر هوى امات الحسود وتعنيته
كانك والشمس عند الغرو ب عروس من الحسن منحوته
غدا النهر عقدك والطودا جك والشمس اعلاه ياقوته

وهذا اشبه بقول الشريف العقيلي المنتسب لعقيل بن ابي طالب في مدينة

الفسطاط قاعدة الديار المصرية في اوائل الاسلام .

تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر
ونظموا في اشبيلية كثيراً من الاشعار لأنها كانت دار انسهم وسرورهم ومركز
عزهم وحضارتهم وكان أهلها يزيدون على أربعمئة ألف نفس . وأما اليوم فلا يبلغ
سكانها المائة وخمسين ألفاً .

وفيها القصر الشهير المعروف عند الافرنج باسم (القازار) وفيها منارة جبر الده
وارتفاعها (٩٤) متراً وكان يرصد فيها الافلاك . ومما قيل في بلنسية المعروفة بمدينة
فالانس وهي على شاطئ البحر المتوسط عند مصب (غواد الافيان) واليها ينسب كثير
من الأدباء :

بلنسية جنة عالية ظلال القطوف بها دانية
عيون الرقيق مع السلسيل وعين الحياة بها جارية
قاله ابو العباس احمد بن الزقان ومدحها باشعار كثيرة . ومما قيل في قرطبة
أيضاً :

بأربع فاقت الاقطار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهاء ثالثة والعلم أفضل شيء وهو رابعها
وقرطبة كما تقدم على نهر الوادي الكبير والزهاء حارة من حاراتها .

٣ - اوراق الخريف

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقالة ادبية تاريخية سياسية نظر فيها نظرة عامة إلى
الاحوال الجارية في سنة ١٨٣١ وإلى المسائل الخارجية وشبه القرن السادس عشر
للميلاد بصراط مرت عليه الامم الاوربية من الجامعة الدينية والسياسية الى حرية
الضمير وحرية المدنية أي استقلالها بإدارة بلديتها . ومن الفلسفة المنطقية الرهبانية
الى الفلسفة الحسية التحليلية المؤسسة على البحث والتفتيش ومن الدين
الكاثوليكي الى الدين البروتستانتي . ومن افانين الصناعة القوطية الى افانين
الصناعة المدرسية وهي الاستفادة من آثار الرومان واليونان . قال ولم يكن حينئذ في
اوربا الا حروب دينية وحروب اهلية وحروب على الاعتقاد بالسر المقدس وعدم

الاعتقاد به ولم يكن يسمع فيها الا صليل السيوف ولغظ العلماء المتعصين فظهر لوتير مؤسس الدين البر وتستانی وظهر ميكل آنج مصور (اليوم الآخر) وهو شيخ المصورين وامامهم وحدث انقلاب وتبدل في اوربا ولكن القلب الانساني مثله كمثل الأرض . يتيسر لك حرثها وزرعها وبناء ما تريده بناءه عليها ومع ذلك لا تنفك عن انبات العشب المغروس في طبيعتها وبزوره في داخل جوفها . ولا يتمكن المحراث من الوصول الى اعماقها ولا قلب سافلها لعاليتها . وكذا القلب الانساني لم يزل مغروسا فيه شيء من الافكار العتيقة . ولا تزول هذه الافكار تماماً الا بهدم القلب الانساني . إذ لا يكفي ان يقلب عاليه سافله فقط . فالذي يهدم القلب الانساني هو الشعر . وترنم الشاعر في هذا الديوان بمحبة الوالدة ويذكر المعاهد البيتية واحوال الطفولية وعبر عما يحده في نفسه ويحس به في قلبه ولذا كان تأثيره على نفوس القراء اشد من تأثير ديوان الشرقيات . غير ان الشرقيات أكثر سناء وضياء من اوراق الخريف .

أما المنظومة الاولى فمطلعها « كان لهذا العصر سستان » يعنى حينما ولد سنة ١٨٠٢ فشخص كيفية ولادته وحضانة امه وحنوها ورأفتها عليه . وذكر في القصيدة الثانية بيت ابيه وكيفية الذهاب اليه وما في طريقه من المدن وما حوله من الرسوم والاطلال وما ابقاه في ذهنه من التصور والخيال . وقال في منظومة اخرى « حينما يولد الطفل تهتف العائلة باصوات الفرح وتقر عيونهم جميعاً برؤية لحظه اللطيف اللامع وتتهلل وجوههم بالبشرمهما كانت حزينه او عبوسة . . » واطنب في وصف ما يتعلق بالمولود ومحبة امه له وخفقان قلبها عليه وكيفية نموه وقعوده وبكائه وأكله . وصور جميع ذلك بأسلوب بديع يخيل منه للقارئ انه في دار الولادة يسمع ويرى ما يحدث فيها من الاحتفال بالمولود . وعلى منوالها منظومة اخرى مطلعها « ما اجل الطفل وهو يتسم » . وكان تزوج وولدت زوجته فاختر لذة العائلة وعرف محبة الاولاد . ولدا خالف في هذا الموضوع المعري القائل :

على الولد يجني والد ولو انهم	ولاًة على امصارهم خطباء
وزادك بعداً عن بنيك وزادهم	عليك حقوداً انهم نجباء
يرون أباً يلقيهم في مؤرب	من العقد ضلت حله الارباء

وله أيضاً :

ابوك جنى شراً عليك وانما هو الضب إذ يسدي العقوق إلى الحسل
وهو ولد الضب ولذا كني أبا جسل . ويقال في المثل هو أعق من الضب وهو
القاتل في اللزوميات أيضاً من قصيدة غراء مطلعها :

ترنم في نهارك مستعيناً بذكر الله في المترنات
ومنها :

ولا ترجع بآباء سلاماً على بيض اشرون مسلمات
إلى ان قال :

خمور الريق لسن بكل حال	على طلابهن محرمات
ولكن الاوانس باعثات	ركابك في مهالك مقتات
صحبك فاستفدت بهن ولداً	اصابك من أذاتك بالمسات
ومن رزق البنين فغير ناء	بذلك عن نوائب مقسمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق	وارزاء يجئن مصمات
وان تعط الإناث فاي بؤس	تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً	ويلين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب	ولا في غارة متغشيات (١)
ودفن والحوادث فاجعات	لا حداث احدى المكرمات
وقد يفقدن ازواجاً كراماً	فيا للنسوة المتأيمات
يلدن اعادياً ويكن عاراً	إذا أمسين في المنهضات
يرعنك ان خدمن بغير فن	إذا رحن العشي مخدمات (١)

ومنها :

وما الجارات الا جاريات	بعيبك ان وجدن مهيمات
فلا تسأل أهنـد أم لميس	ثوت في النسوة المتخيمات
ولا ترمق بعينك رايمحات	إلى حمامهن مكمات

(١) تغشم إذا دخل الامر بشدة

(١) بعير فن أي بضروب كثيرة ومخدمات دوات خدم وهي الخلاخل

إلى ان قال :

وساوٍ لديك اتراب النصارى وعيناً من يهود ومسلمات
ومن جاورت من حنف وسرب صوابي (١) فليبن مكرمات
فان الناس كلهم سواء وان ذكت الحروب مضرمت
ومنها :

وواحدة كفتك فلا تجاوز إلى اخرى نجيء بمولمات
الى آخره .

وفي هذا المعنى ابيات من قصيدة لعلقمة بن عبدة من شعراء الجاهلية مدح بها
الحرث الغساني وأولها :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
تكلفني ليلي وقد شط أهلها وعادت عواد يبننا وخطوب
ومنها :

فان تسألوني بالنساء فاني بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ردهن نصيب
يردن ثراء المال حيث وجدنه وشرخ الشباب عندهن عجب

فكان فيكتور هوكو عارض المعري وصور في هذا الديوان سرور العائلة
بالاولاد . وكان لما نظمته في زهو الشباب . فالشاعران في هذا المبحث على طرفي
نقيض . ولكنهما يتفقان (في تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد ووضع المنز في كل
جيد) وفي الحيرة مذهب الدين قالوا رب زدني فيك تحيراً كما قال ابن الفارض :
زدني بفرط الحب فيك تحيراً وارحم حشاً بلظى هواك تسعراً

فاظهر فيكتور هوكو حيرته في منظومة عنوانها « ما يسمع على الجبل » . قال
فيها : بانه صعد إلى جبل مشرف على المحيط الغربي ووقف صامتاً ساكناً يرى
السماء فوقه والماء تحته ويسمع تلاطم الامواج وتضارب الرياح وامتزاج اصوات البر
باصوات البحر وصعودهما الى الملاء الأعلى . فالصوت الذي يصعد من البحر فيه
جلالة وسرور وهو من تلاطم الامواج والهدير . والصوت الذي يأتي من البر فيه كآبة

(١) الحنيف المسلم على ملة ابراهيم عليه السلام والصابئون حنس من أهل الكتاب

وحزن وهو من تضارب الرياح وتأفف الانسان من مصائب الحياة . فالبحر يرتل آيات الفرح والسلام كترتيل المزامير في صهيون ويحمد الخالق على ما ابدعه من جمال المخلوقات فيصعد كلامه الطيب الى الله . وكلما فرغت موجة من تسبيحها قامت وراءها موجة اخرى تسبح الله . وأما البر فينادي باصوات الويل والحرب ويصرخ ويشتم ويلطم . فهذا الصراخ والعيول هو بكاء الارض وصراخ الانسان . وهذان الصوتان احدهما يقول « الطبيعة » والثاني يقول « الانسانية » . قال الشاعر « وتأملت طويلاً في هذا المنظر الباهر وفكرت في لجج البحر الذي تعلوه الامواج فانفتح في قلبي لجة عميقة لا قعر لها وقلت في نفسي لم نحن هنا ؟ ماهو الغرض من كل هذا ؟ ما تصنع النفس ؟ أيهما احسن البقاء أم الفناء ؟ والله يقرأ وحده في لوحه المحفوظ لأي سبب يمزج على الدوام غناء الطبيعة ببكاء الجنس البشري :

قال المعري :

ارى الخلق في امرين ماض ومقبل وظرفين ظرفي مدة ومكان
اذا ما سألنا عن مراد الهنا كنى عن بيان في الاجابة كان

ونظم فيكتور هوغو في هذا المعنى قصيدة اخرى عنوانها « الشموس الغاريات » صور فيها غروب الشمس وظهور الشغف وتكاثف الغيوم على الافق واستدل بنظره في المخلوقات على وجود الخالق « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار » . فأولوالباب من الشعراء لاسيما الذين نهجوا نهج الطريقة الرومانية لا يفترون عن التفكير في هذا الأمر . ومما هو في منظومة الشموس الغاريات من لطائف الابيات قوله : « هذه السحب الملونة بالوان الرصاص والذهب والنحاس والحديد تستكن فيها الزوينة والاعصار والصاعقة والجحيم وتدمدم دمدمة خفية . فهو الله الذي يعلقها جميعاً في السموات العميقة كما يعلق الفارس على أوتاد البيت اسلحته المتصلصلة » . (١) .

(١) سورة النبا « ألم نجعل الارض مهاداً والحبال أوتاداً وخلقناكم ازواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وانزلنا من المعصرات ←

ومما ورد لفيفكتور هوكون في هذا الديوان من القصائد البديعة ، التي سماها
« الدعاء للجميع » قال :

يا بنتي قومي للصلاة . - انظري قد عسعس الليل ، ونزل الضباب على
الأفق ، وطلع النجم من وراء السحاب كأنه دينار . انصتي لم يبق الا مركبة تكر في
الظلام على بعد . والكل دخل ليستريح . والشجرة التي على الطريق نفضت غبار
النهار بريح المساء (وهي الدبور) .

زحزح الشفق عن النجوم ستار الليل وفجر كل نجم كالشرارة الحامية . ورقق
المغرب حاشيته الحمراء . وفضض الليل في الدجاء وجه الماء . وامتزجت اقلام
المحراث بالمسالك وبما حولها من الشوك . واختفى الجميع عن العيان . والتبست
الطريق على ابن السبيل .

النهار للأذى والتعب والبغض . فلنشرع في الصلاة حيث دخل الليل .
ما أصفى الليل وما أوقره ! الراعي يعود والماشية تجار ، والريح تعزف في نوافذ البرج ،
والمياه تركد في المستنقعات . والجميع يتألم ويشكو . لان الطبيعة من شدة تعبها
امست في احتياج للنوم والصلاة والحب .

هذه الساعة هي التي يتكلم فيها الاولاد مع الملائكة . واما نحن فهرع فيها
لما هينا الغريبة . فجميع الاولاد الصغار يدعون في آن واحد بدعاء واحد . وهم
راكعون على الأرض واعينهم شاخصة الى السماء وايديهم مضمومة وارجلهم حافية .
ويطلبون لنا الرحمة من الله تعالى .

ثم ينامون - وحينئذ تتناثر احلامهم الذهبية في حندس الليل بعد ان تتولد من
هوشات آخر النهار . فاذا رأت عن بعد انفاسهم متصاعدة وشفاهم محمرة طارت
إلى ناموسياتهم كما يطير النحل إلى الازهار وررفت حولها .

فيا عجباً لنوم السرير ! ويا عجباً لدعاء الصغار ! فهو صوت حنو ورأفة لا
عدوان فيه . وما أحلى هذا الدين الذي يقر العين ويضحك السن ! هذا مطلع
النشيد في ليلة السعد . فينيم الولد عقله الصغير في الدعاء كما يضع الطير رأسه
تحت جناحه .

ماء ثجاجا لنخرج به حباً ونباتاً وجنات الفاقا ،

والسبات الراحة . والمعصرات السحاب تقتصر . والاعصار ريح تثير سحباً ذات رعد ويرق

يا بنتي قومي للصلاة - وادعي اولاً وخاصةً للتي هزت الليالي الطوال في
سريرك . للتي التقطت من عالم الذروانت نفس لطيفة ووضعتك في الدنيا وصارت
لك أمّاً شفوقة وقسمت لأجلك نصيبها من هذه الحياة المرة إلى قسمين فشربت
الحنظل واستقتك العسل .

ثم ادعي لي . فاني احوج منها لدعائك لانها مثلك صالحة ، بسيطة ،
صادقة ، قلبها صاف ، ووجهها راض . شفقت على كثيرين ولم تحسد أحداً .
عاقلة ، حليلة ، صابرة على غصص الحياة ، متحملة للشر بدون ان تعرف
فاعله .

طالما قطفت الزهور ويدها الطاهرة لم تمس قشر الشجرة المنهي عنها (١) . ولم تقع
بالفخ مع ضحكة سنه . وتنسى دائماً كل ما سلف ومضى . ولا تعرف الافكار الخبيثة
التي تمر في الذهن كما يمر الظل على الماء .

تجهل - واجهلي مثلها دائماً - ما في هذا العالم من الشقاء الملوث للنفس ،
والخطوط الكاذبة ، والباطيل الفانية ، وكل ما عاقبته الندامة وتبكيته الضمير ،
والشهوات التي ترغي على القلب كالرغوة ، وخواطر الخجل والمرارة الباعثة على
احمرار الوجه .

أنا اخبر بالحياة ويمكنني ان اقول لك متى كبرت واقتضى تعليمك بان الجري
وراء السلطة والسعادة والتفنن هوجنون ودناءة . وبان كاس (٢) الانتخابات تدور علينا
وتسقيننا الخزي بدلا عن الفخار . وبان الانسان يخسر نفسه في لعب هذا القمار .
كلما عاشت النفس تعطشت . والامور وان شفت بدايتها عن نهايتها وظهرت
اسبابها في عاقبتها فالانسان مع ذلك يشيب على الرذيلة وعلي الضلال المنفور منه .

(١) قيل ان الاديب الماهر في الانتقاد الادبي سنت ريف كان يغارل زوجة فيكتور هوكو ولذا حصل بينهما تقاطع

وعداوة

(٢) وهي كأس تجمع فيه الاصوات لانتخاب رئيس المجلس أو غيره .

من كثرة المشي يتيه الانسان ويدخل عقله الشك . والكل يترك شيئاً على شوك الطريق التي سلكها فالغنم تترك صوفها والرجل يترك فضيلته .
قومي إذا وادعي لي وقولي في مقام كل دعاء : « يا الله يا الله يا ربنا انت ابونا فارحمنا انك انت الرحيم . فارحمنا انك انت العظيم » . ودعي قولك يذهب الى حيث ترسله نفسك . ولا تقلقي فلكل شيء طريق . فلا تقلقي على الطريق التي يذهب فيها .

لا شيء في هذه الدنيا الا وله مجرى . فالنهر يجري ملتوياً بين السهول حتى يصب في البحر والنحلة تعرف الزهرة التي فيها العسل . وكل طائر يطير ويقع دائماً على غرضه فالنسر يطير ويرتفع نحو الشمس . والعقاب يهبط على المقبرة والخطاف (السنونو) يطير في الربيع . والدعاء يصعد إلى السماء .

فاذا ارتفع صوتك الى الله بالدعاء لي أكون كالعبد الذي جلس في الوادي بعد ان حط حمله على حافة الطريق واشعر بخفة نفسي لان دعاءك يأخذ معه وهو صاعد جميع ما يثقل على عاتقي من الآلام والاوزار والخطايا .
قومي ادعي لابيك . - لاصير اهلاً لرؤية طيف ملك يمر في المنام كطير الحمام . ولتشتعل نفسي مع اشتعال البخور . احبي خطاياي بنفسك الطاهر ليصير قلبي معصوماً نقياً كانه صحن الهيكل الذي يغسل في كل مساء .

٣

ادعي أيضاً لجميع من يمر على هذه الأرض من الاحياء والجميع الذين اندثرت مآثرهم بهبوب الرياح وتلاطم الامواج عليها . وللأحق الذي يفرح بلمعان الحرير وبسرعة عدو الخيل . ولكل من يتألم ويشغل سواء كان غادياً أو بادياً . سواء عمل خيراً أو شراً .

ادعي للمنهمك في اللذات والعاكف عن القبلات إلى الصباح . ولن يتخذ وقت الصلاة ليلهو بالرقص أو الجلوس على المائدة . ويشغل بالفحشاء في الساعة التي تتلو النفس الزكية فيها دعاء المساء وإذا فرغت من دعائها رجعت خائفة من الله يسمع رجاءها

ياولدي ادعي للعذارى المستورات . وللمحبوس في القلعة . وللعواهر اللواتي
يعين اسم الحب الغالي . وللعاقل الذي يستغرق في مطالعته ويفكر في الخلق .
وللكافر الملعون الذي يطعن في الشريعة المقدسة . - لان الدعاء لانه لاهية له . لانك
تؤمنين عن الذين يمحذون والطفولية تقوم مقام الايمان .
ادعي أيضاً للذين هم راقدون تحت حجر القبر . يا لها من حفرة سوداء تفتح
امامنا في كل آن . جميع هذه النفوس الهالكة مفتقرة لمن يزيل عنها صداء الجسم (١)
هل سكوتها دليل على انها لا تتألم ؟ يا اولادي لننظر تحت الأرض لان الشفقة على
الأموات .

٤

اركعي اركعي اركعي على الأرض حيث وضع أبوك اباه . حيث وضعت
أمك أمها . حيث يرقد كل من عاش عليها رقدة عميقة في حفرة يمتزج فيها الغبار
بالغبار . ويجد الانسان تحت ابيه آباء . كاللج تحت اللج في بحر لا قعر له .
يا ولدي حينما تنامين تتبسمين . فيأتي الطيف وهو فرح في الظلام الذي
غطست فيه . فيجفل من نفختك ثم يعود إليك أيضاً . وفي النهاية تفتح عينيك
الاهيتين اللتين احبهما . في الوقت الذي يفتح فيه الفجر على الأفق جفنه وله أهداب
ذهبية فان الفجر عين الهية أيضاً .
ولكن الاموات لو تعلمين أي نوم ينامون ! فرشهم باردة وثقيلة على عظامهم
ولذا شنعهم . والملائكة لا يسبحون وهم مجتمعون حولهم وطيف الخيال يثقل عليهم
بجميع ما جنته أيديهم . ليلهم ليس له فجر والندامة تنقلب دوداً في البر وتفتت
قلوبهم .
يمكنك بكلمة يمكنك بقول ان تجعلي ندامتهم تتخذ لها جناحاً وتطير . وان
تبعثي بحرارة لطيفة تلذذ عظامهم . وان تجعلي الشعاع يصيب أيضاً أجفانهم
الغامضة وان توصلي لهم خبراً من النور والحياة وشيئاً من الرياح والاحراج والمياه .

(١) معري :

تجاوز هذا الجسم والروح برهة فما برحت- تأدب بذاك وتصدأ

قولي لي حينما تذهبين وانت طفلة مفكرة تدورين على شاطئ البحر المتلاطم
 او تحت الشجر الذي يملأ القلب مهابة وظله وبتضارب الرياح عليه ، الا تسمعين
 صوتاً يقول لك يا بني حينما لا تدعين لي ؟
 هذه شكوى الأموات ؟ فالأموات الذين يدعى لهم ينبت على قبرهم نبات
 أشد اخضراراً وأكثر ازهاراً . ولكنهم منسيون واحسرتاه ! حتى الشيطان لا يضحك
 لهم ولا ضحكة استهزاء . ليلهم بارد مظلم . وبعض الشجر الهائل الذي يظل
 قبورهم يغرس دائماً عروقه في قلوبهم بلا شفقة عليهم .
 ادعى ! حتى ان الاب والعم والاجداد الذين لا يطلبون منا الا الدعاء فقط ،
 يهتزون في قبورهم عند سماع ذكرهم . ويعلمون ان على وجه الأرض من يتذكرهم
 بعد ، ويشعرون بحصول أدمعة في عينيهم الفارغة كما يشعر ثلم المحراث بفتح
 الزهرة .

٥

يا هامتي لا ينبغي لي أنا أن أدعي لجميع الهالكين . ولا للأحياء المارقين من
 الدين . ولا لجميع الذين ضمهم القبر . والقبر أصل المعابد .
 لا ينبغي لي أنا الذي نفسه فانية ، مملوءة بالخطايا ، وفارغة من الايمان ، ان
 ادعي للجنس البشري . لان صوتي يكاد لا يكفي ليستغفر الله عن ذنوبي .
 كلا بل لو أمكن أحد أن يدعي اليوم لهذه الأرض الفاسدة لكان أنت . انت
 الذي صوتك يسبح . ودعاءك الطاهر يا ولدي يمكنه ان يتكلف بالآخرين .
 اسئلي هذا الاب العظيم الذي يبسم في افقك لماذا الشجرة الكبيرة تنشق
 الشجرة الصغيرة ؟ ومن الذي يميل بالعقل البشري عن الحق إلى الباطل .
 اسأليه هل الحكمة لا تختص الا بالأزلية ؟ لماذا نفخته تحطنا ؟ لماذا تحشر
 الانسانية في القبر بلا انقطاع ؟
 الأولاد يسهرون في المكان المقدس على الذين افناهم الائم . فهم ازهار
 يعطرونهم وهم بخور يفوح عليهم . وهم اصوات ترتفع إلى الله

فلنترك هذه الأصوات العالية تفعل . ولنترك الأطفال جاثين على الركب .
أيها المذنبون كلنا ولنا ذنوب . كلنا على شفا جرف هاو . فينبغي للطفولية ان تدعو
لنا .

٦

الخ . . الخ . .
وقصيدة الدعاء للجميع طويلة ومشملة على قواعد الانسانية والفلسفة
الاجتماعية التي شرعها ووضحها في كتاب البؤساء لان النثر اوسع مجالاً من الشعر
الذي يضيق عنه الكلام ولا يتيسر فيه الا الرمز للمسائل والاشارة اليها واللبيب تكفيه
الاشارة . وانما أوردنا منها ما ذكر لتعلم الاساليب الشعرية التي جرى عليها المؤلف في
النظم على نهج الطريقة الرومانية ولتظهر افكاره في الموجدات . وكان نظم هذه
القصيدة وهو في سن الشيخوخة أي في سنة ١٨٨٠ وهي معتبرة من أبلغ كلامه .
ولعله اتبع في هذا الدعاء الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي
عليه السلام .

قيل - يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة ؟
قال - امك ثم امك ثم أباك ثم أدناك ثم ادناك .
ومما ورد في القرآن قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب
ارحمهما كما ربياني صغيراً » .
وقال المعري في اللزوميات :

واعط اباك النصف حيًا وميتاً وفصل عليه من كرامتها آلاماً
أقللك خفًا إذا أقلتك مثقلًا وأرضعت الحولين واحتملت ثَمًا
والفتك عن جهد والقاك لذة وضمت وشمتم مثل ما ضم أو شَمًا
والنصف هو النصفة والانصاف . وأقل بمعنى حمل . واحتملت ثَمًا أي أتمت
أيام حملها وولدت لتسام . ولوتبتعنا كلام المعري أو ما ورد على شاكلته من الشعر
العربي لوجدنا فيه أكثر المعاني الواردة في قصيدة الدعاء للجميع

٤ - اغاني الشفق

ويشتمل هذا الديوان على نحو خمسين قصيدة بديعة أبلغها المنظومة التي عنوانها (الى العمود) وهو المركون في ميدان فاندوم بباريس . وكان قد نصب على عهد الامبراطورية الاولى تذكراً لانتصارات نابوليون الأول على النمساويين والروسين واغتنامه منهم الغنائم الكثيرة وفي جملتها ٢٠٠ , ١ مدفع فبني العمود بالاحجار وصفح بنحاس المدافع المغتنة بعد ان نقش عليه صور المحاربات على الاسلوب المعروف عن الرومان وبقية الأمة الفاتحة القديمة التي نصبت المسلات والاعمدة والاهرام وصورت الصور على جدران المعابد والقبور . وعدد الشاعر في هذه المنظومة مظفريات نابوليون ومآثره ومفاخره وقال بان يد قدرته شيدت هذا العمود بالمجد والنحاس . والقصيدة من أبلغ اشعار الحماسة وقد صدرت من أفصح شاعر في حق أعظم فاتح .

ومن قصائد هذا الديوان المنظومة التي عنوانها (نابوليون الثاني) ومطلعها :
« ألف وثمانمائة واحد عشر » وهي السنة التي ولد فيها الممدوح . وهذا المطلع من أساليب الطريقة الرومانية وليس فيها تعمل ولا تصنع كما في مطلع القصائد المنظومة على نهج الطريقة المدرسية ونابوليون الثاني هو ابن نابوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا ويسمى دوق ريشتاد وكانت نشأته في فينا عند امه . وألف فيه شاعر العصر . آدمون رويستان رواية بديعة سماها النسير (ليكلون) تصغير نسر وتمثل في يومنا على المراسح .

وفي هذا الديوان أيضاً منظومتان عنوانهما (قنارى) وهوبطل اليونان المتقدم ذكره في ديوان الشرقيات . وكانت ولادته سنة ١٧٩٢ في جزيرة إبصاره المجاورة لجزيرة ساقر ووفاته سنة ١٨٧٧ . وكان رئيساً على مركب صغير وبعد استقلال اليونان صار رئيساً للأسطول وناظراً للبحرية ثم رئيساً للوزارة .

وفيه أيضاً قطعة عنوانها (الرجاء بالله) ومنها يعلم حسن اعتقاد الرجل وان كان من أهل الحيرة . وهي : ضع يا ولد أملك في الغد ، ثم في الغد أيضاً ، ثم في الغد دائماً . ولنعتمد في المستقبل . ضع املك وكلما طلع الفجر لنكن هناك حاضرين

لنستغفر كما ان الله حاضر ليغفر . خطايانا يا حيبي وملكي هي المسببة لآلامنا
فلعلنا إذا اطلنا القعود على الركب يغفر الله لنا بعد فراغه من الغفران لجميع
المعصومين ولجميع التائبين .

٥ - الاصوات الداخلية

نقل المؤلف في مقدمة هذا الديوان عن شكسبير انه قال في بعض مؤلفاته بان
كل انسان في داخله موسيقى فتباً لمن لا يسمعها . وأورد في هذا الديوان اثنتين وثلاثين
قصيدة غراء ومن أبلغها قصيدة البقرة صور فيها قرية بما حولها من الدجاج
والكلاب . ينبح هؤلاء والناس نيام وتصرخ أولئك عند طلوع الفجر . فالديوك
حراس النهار والكلاب حراس الليل . وفي تلك القرية بقرة صفراء فاقع لونها تسر
الناظرين وقفت بكل هبة ووقار لا تعباً بالذين حولها . وجاء صبية بشعور مغبرة واطمار
بالية واسنان حادة وصحة تامة وهم في صراخ وجلبة يزاحم بعضهم بعضاً وينادي كل
فريق منهم رفاقه . واغتنموا فرصة غياب اللبان وانقضوا على البقرة يعصرون ثديها
باصابعهم ويلتهمون حلماتها الكثيرة بافواههم ويمتصون حليبها وهم متكاثون حول
احشائها وهي غير مكتثرة بما يفعلون وشاخصة ببصرها تنظر إلى بعض النقط التي
حولها .

فمثل هذه البقرة كمثل الدنيا أم المخلوقات وملجأهم الوحيد يلتقطون العشب
واللبن من تحت احشائها الابدية . قال المؤلف فنحن معشر العلماء والشعراء تعلقنا
بثديك المتين ايتها الطبيعة وارقتونا مما ادره علينا فكان لبنك دماً وروحاً لنا . واستفدنا
من نورك وحرارتك وأوراق شجرك ومن جميع ما عليك من الجبال الراسية والانهار
الجارية والمروج الخضراء والسماء الزرقاء وانت تفكرين بربك تنزعجين منا .

فبقرة فيكتور هوكو اشبه بام دفر المعري حيث قال :

دنياك تكنى بام دفر لم يكنها الناس أم طيب

والدفر هو النتن والتعفن ولا تحفى مناسبتة في تكوين الحيوان والنبات . ولكن

بقرة فيكتور هوكو تدر على ابنائها بلبن سائغ للشاربين . والمعري :

يلحف ما جادت السليالي الا بسم لنا قطيب
والقطيب الممزوج

٦ - الاشعة والظلال

افتتح هذا الديوان بمقالة أدبية نثرية قال فيها :

كتب شاعر عن جنة عدن الضائعة وكتب شاعر آخر عن النار . فالدنيا بين الجنة والنار . والحياة بين البداية والنهاية . والانسان بين أول انسان وآخر انسان . فالانسان موجود باعتبارين احدهما بالنظر للجمعية والثاني بالنظر للطبيعة . ووضع الله الشهوة في الانسان . ووضعت الجمعية فيه العمل . ووضعت الطبيعة فيه الخيال فمن الشهوة الممزوجة بالعمل أي من الحياة في الحاضر ومن التاريخ في الماضي تولد « الدرام » (١) ومن الشهوة الممزوجة بالخيال تولد الشعر بمعناه الأصلي . فاذا نزل توصيف الماضي إلى التفصيلات العلمية ، وإذا نزل توصيف الحياة إلى التشریحات الدقيقة صار الدرام روماناً . فالرومان ماهو الا درام مفصل تارة بالفكر وتارة بالقلب تفصيلاً لا يليق بالتمثيل على المراسح . وعدا هذا فالشعر فيه درام . والدرام فيه شعر . فالدرام والشعر ينفذ كل منهما في الآخر كما تنفذ الحواس في الانسان أو كما ينفذ النور في الاجسام . والعمل فيه أحياناً خيال . مثال ذلك ما قاله السيد في الرواية التي ألفها قرنيل : « هذا النور المظلم الذي يهبط من النجوم » .

لا أحد في هذا الكون يتخلص من السماء الزرقاء والشجر الأخضر والليل المظلم والرياح العاصفة والطيور المغردة . وليس من مخلوق يقدر على التجرد من الخليفة . على حد قول المعري : أخرج من تحت هذي السماء فكيف الباقي وابن المفر - ومن جهة أخرى الخيال فيه أحياناً عمل . . لان الواحد يتمم الآخر والشئ يكمل بعضه بعضاً . فالجمعية تقوم في الطبيعة والطبيعة تطرف الجمعية .

فالشاعر تنظر احدى عينيه للانسانية والاخرى للطبيعة . والعين الأولى تسمى الملاحظة والاخرى تسمى التصور فمن هاتين العينين الشاخصتين في موضوعها يتولد في مخ الشاعر إلهام يقال له القريحة . الخ .

(١) مؤلف « الجنة الضائعة » هو الشاعر الانكليزي مبلتون ، ومؤلف « النار » أي « الكوميديا المقدسة » هو الطلياني

دابقي ، انظر مقدمة « روى بلاش » في تعريف الدرام

ثم افتتح المؤلف هذا الديوان بقصيدة عنوانها « وظيفة الشاعر » . وكان تكلم على هذه الوظيفة في مقدمة الديوان الأول وقال ينبغي للشاعر ان يكون للأمة نورا يسعى بين يديها . ويربها طريق الصواب . ويقودها إلى المبادئ الحسنة وهي الانتظام والشرف ومكارم الاخلاق . ولتكون سلطة الشاعر هينة على الأمة يلزم ان يهتزين اصابعه جميع الياف القلب الانساني كما تهتز اوتار العود . ويلزم ان لا يكون كلام الشاعر صدى لكلام احد سوى كلام الله تعالى . وينبغي للشاعر ان يذكر الأمة بان لها ديناً ووطناً وهذا ما أغفل ذكره المتقدمون وان ينشر دائماً بأشعاره ما يكون لبلاؤه من الاقبال والادبار وما في دينه من الزهد والاستغراق في الحب حتى ينال المتقدمون عليه والمعاصرون له شيئاً من قريحته ومن روجه وحتى لا يقول عنه من يأتي بعده في المستقبل بانه كان ينشد اشعاره بين قوم جاهلين .

وبين فيكتور هوغو في القصيدة التي عنوانها وظيفة الشاعر افكاره وشرحها احسن شرح وشبه الطبيعة بعود كبير وشبه الشاعر بريشة الهية يضرب بها على اوتار هذا العود . فالشاعر يلهم الشعر وهو يسبح بين غياض الاشجار وعلى سواحل البحار ويسمع هدير الماء وتلاعب النسيم بالاوراق . وقال في آخر القصيدة الرابعة : انشر ايها الشاعر نشيدك الديني بين العائلات وبين الصبيان والبنات وبين الشيوخ وأرباب صبعك الساحل للذين سارت بهم السفن في لجج البحر والارياح متغيرة (١) وأرد للعذارى العصمة وهي كوكب السعد والشرف . وأرد للجمهور المحراب الذي غطاه الكفر . وارد للشبان المستقبل وللشيوخ الخلود وصب دليلك في عقول الرجال والنساء . وارد لكل منهم الصحيح من الجهة المقنعة حتى يجد عندك كل مفكر ما يفتش عليه . أغرس محبة الله في القلوب والقي في كل نفس كلمة الهية من جنس ما تشعر به . . الخ .

وهذا ما أثار اليه المعري في مقدمة لزومياته حيث قال : انشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكذب فمنها ما هو تمجيد الله وبعضها تذكير

(١) (المعري)

يموج محرك والاهواء غالبية لراكبيه فهل للسفن ارساء

للناسين وتنبية للرقدة الغافلين وتحذير من الدنيا الكبرى التي عبثت بالأول واستجيب
فيها دعوة جرجول إذ قال لأمه :

جزاك الله شراً من عجوز ولقائك العقوق من البنينا

فهي لا تسمح لهم بالحقوق وهم يباكرونها بالعقوق . . الخ .
فهذه صفة الشاعر الذي ينبغي الاقتداء به والنسج على منواله . لا الشعراء
الذين يتبعهم الغاؤون وفي كل وإد يهيمون ويقولون بما لا يفعلون حتى صار لهم
الكذب خلقاً والتعلق للامراء سجية استجداء لمعروفهم وطلباً لآسنانهم .
وأرق ما في هذا الديوان المنظومة التي عنوانها حزن اوليمبيوكنى بهذا الاسم عن
نفسه وقايس فيها بين جلال الطبيعة وجمالها وبين قلة حظ الانسان وقصر ايام سعادته
وليالي انسه وانقضاء شهواته وفناء لذاته . اذ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو
الجلال والاکرام . قال فيكتور هوكون في آخر هذه القصيدة : يقرضنا الله المروج
النضرة والعيون الجارية والاشجار الملتفة والصخور الوعرة والسموات الزرق
والبحيرات والغدران والسهول لنضع فيها قلوبنا وامانينا واشواقنا . وهذا القرض
لأجل مسمى . ثم يسترد جميع ذلك منا ويطفئ سراجنا ويغمس في الليل المغارة التي
كننا مستنيرين ونحن فيها . ويقول للوادي الذي انطبعت عليه روحنا ان يمحي اثرنا
وينسى ذكرنا . فلا حيلة . انسينا ايتها الدار والبستان والظل والخضرة . وابلى يا
عتابنا . واخف يا شوك اثر اقدامنا وغردي يا طيور واجري يا انهار وانمي يا اوراق فان
الذين نسيتموهم لا ينسوكم أبداً . . الخ . وهي طويلة محزنة . وفي هذا المعنى أو
ما يقاربه قصيدة المعري التي يقول فيها :

للمليك المذكرات عبيد	وكذاك المؤنثات اماء
فالهلل المنيف والبدر والفر	قد والصبح والشرى والماء
والثريا والشمس والنار والنشر	ة (١) والأرض والضحي والسماء
هذه كلها لربك ما عا	بك في قول ذلك الحكماء
خلني يا اخي استغفر الله	فلم يبق في إلا الذماء

(١) الشرة نحتان صغيرتان يقال لهما أنف الأسد

ويقال الكرام قولاً وما في العصب - رالا الشخصوص والاسماء
واحاديث خبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء
وهي طويلة مدرجة في اللزوميات وكلها حكم . ونفس المعري ونفس فيكتور
هو كويتقاربان ولكن الأول أعمى والثاني بصير يرى بهجة الطبيعة وزيتها فيظهر
وصفها في شعره . ويزيد فيكتور هو كوعلى المعري بانه من أهل عصر جديد بزغت في
افقه شمس الحرية والمدنية واتسع فيه نطاق العلوم وافانين الصناعات فارتفعت مدارك
الشاعر .

ويشبهون القصيدة (حزن اوليميو) (١) بقصيدة البحيرة التي نظمها الشاعر
الشهير لا مارتين وترجمها للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيينا
وباريس سابقاً . ورأيت في كتاب فرنساوي نشر حديثاً بان أحمد بك شوقي شاعر
الخصرة الخديوية ترجم قصيدة لا مارتين المذكورة للعربية . ومؤلف هذا الكتاب
الفرنساوي فرديناند دي مرتينو وعبد الخالق بك ثروت وعنوانه منتخبات من غزل
العرب ترجما فيه من كلام الجاهلية واهل الطبقة الاسلامية ومن أقوال المعاصرين أيضاً
مثل حسن حسني ومحمود باشا سامي البارودي واسماعيل باشا صبري وحفني بك
ناصيف .



هذا ما نظمه فيكتور هوكو من الشعر الموسيقي في الدور الأول من حياته . وأما
ما نظمه في الدور الثاني أي في منفاه فهو أعلى طبقة وأحسن ديباجة وأشد تأثيراً
واهاجة وأثر توقداً وتوهجاً لان قريحته نضجت في شمس الغربة وهو معتزل عن الناس
بتلك الجزيرة . واستبحر فكره بمجاورته المحيط الغربي لان للجوار حقاً . فنظم
احسن مؤلفاته وهي ديوان القصاص وديوان التأملات وديوان سير الدهور . وأبلغ
هجاء لفكتور هوكو ما هجأ به نابوليون الثالث في ديوان القصاص وأفجع رثاء له ما
رثى بنته في ديوان التأملات . وأحسن شعر حماسي له ما ورد في ديوان سير الدهور كما
قرره العارفون بكلامه .

(١) اوليميو اسم لامعنى له ولا هو من الاسماء التاريخية وانما كنى به الشاعر عن نفسه

٧ - القصاص

الف فيكتور هوكون ديوان القصاص بعد انقلاب الجمهورية الثانية إلى الحكومة الامبراطورية وذلك ان البرنس لويس نابوليون بوناپرت بن لويس بوناپارت الذي كان ملكاً على هولاندا واخ نابوليون الأول انتخب رئيساً للجمهورية لاربعة سنوات ختامها سنة ١٨٥٢ فحلف امام مجلس نواب الامة وبحضور فيكتور هوكون الذي كان عضواً فيه على ان لا يبدل القوانين الموضوعة ولا يخالف احكام القانون الاساسي ولا يخون عهد الجمهورية . ثم صارت الاكثرية في المجلس لحزب الاورليانيين وارادوا تولية كونت باريس وهو شاب من العائلة الملكية في فرنسا . وكان يعارضهم حزب الوارثين الذي يقولون بان حق الوراثة في الملك انما هي لكونت شامبور فهو الذي ينبغي توليته على سرير الملك الفرنسي . فاعتنم رئيس الجمهورية هذه الفرصة وكان حق الوراثة في الامبراطورية التي أسسها نابوليون الأول منتقلاً اليه لوفاة نابوليون الثاني عند اهل امه في فيينا وهو الملقب ليكلون اي النسر ودوق ريشتاد . وكان لنابوليون الأول شهرة عظيمة واعتبار زائد في نظر افراد الامة فاخذ رجال المعية وحاشية القصر يشوقون ابن أخيه على الاستبداد بالامر كما يفعل المقربون من أولي الامر في كل جيل وفي كل أمة وكما فعلت بطانة هارون الرشيد ودسوا للمعنيين الشعر المهيج واحتالوا على سماعه للخليفة تحريضاً له على البرامكة ومن هذا الشعر قولهم :

ليت هنداً انجزتنا ما تعدد وشفت انفسنا مما تجدد

واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

فلما سمعها الرشيد قال أي والله اني عاجز حتى بعثوا الي بامثال هذا . وهكذا كانت بطانة البرنس بوناپارت رئيس الجمهورية يغرونه على الاستبداد ونكت العهد وقلب الحكومة . ففي ٢ دسمبر سنة ١٨٥١ أي قبل حلول الاجل المضروب لانتهاه رئاسته نكت الايمان التي حلفها وغير القانون الاساسي الذي تعهد برعايته احكامه وعدم تغيير مضمونه وبدله بقانون اساسي آخر يخوله حق البقاء في رئاسة الجمهورية عشر سنين . ثم أبدله أيضاً بقانون اساسي ثالث أعلن به الحكومة الامبراطورية بدل الحكومة الجمهورية . وصدقت الامة على هذين القانونين وكان عدد الاصوات

المصدقين يزيد على ٧ ملايين صوت . فاعلن لويس نابوليون امبراطوراً على فرنسا وتلقب بنابوليون الثالث . وشرع في اضطهاد المخالفين لسياسته وتعذيبهم . ففر فيكتور هوغو من بطشه وبعث يقول له ما معناه :

وحلفت انك لا تميل مع الهوى
فاجاب لسان الحال عن نابوليون الثالث :

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم
وخرج مشير القصر الامبراطوري يجول بالعساكر في شوارع باريس ويقول ما معناه :

ان المعالي عروس غير وامقة
وكان أول هذا الملك من رجل
مالم تخلق ردائيهها برشح دم
سعى إلى ان دعوه سيد الأمم

فهذا الرجل هو نابوليون الأول الذي لا يختلف في شجاعته ومهارته اثنان ولكن عساكر الامبراطورية الثانية لم تظهر البسالة على قول فيكتور هوغو الا في طرق باريس وميادينها بقتل أحرار الرجال والنساء والاطفال ونفيهم من الأرض وتغريبهم على الجواري المنشآت في البحر . ولما انتشبت الحرب بينهم وبين جيرانهم ولوا مدبرين ولذا يقول لهم الشاعر متهمكماً « أسد علي وفي الحروب نعامة » . على انا نحن معشر العثمانيين لا ننكر بسالة عساكر الامبراطورية ولا شجاعة ما قمهون حينما صعد على قلعة مالا كوف في مدينة سباستابول من شبه جزيرة القرم فقبل له بان الروس وضعت تحت البرج بارودا لتطيره فاجاب « انا هنا وهنا أقعد » فذهبت مثلاً وكان ذلك في الحرب التي حدثت بين الدولة العلية والروسيا سنة ١٨٥٥ وكانت فرنسا وانكلترا متفقتين مع العثمانيين .

يشتمل ديوان القصاص على نحو مائة منظومة تفجرت منها سهام السخط والغضب وتساقطت كأرجوم والشهب على نابوليون الثالث وعلى أشياعه وأحزابه . ولم يدع منهم أحداً إلا وعرض به ورماه بنبال هجوه فندد باعضاء مجلس المبعوثان (١) ومجلس الاعيان لتصديقهم على لائحة القانون الأساسي للحكومة الامبراطورية . وبالذين نفذوا هذا القانون من الوزراء وامراء العسكرية وسائر رجال الدولة والمعية .

(١) مجلس المبعوثان هو مجلس نواب الأمة والألف والنون ليست للتثنية وانما هي اداة جمع بالفارسية

وبالذين تملقوا لرجال القصر الامبراطوري وقبلوا اعتبارهم جرأاً لمغرم . وبالحكام الذين راعوا خواطرهم في الاحكام وحكموا على احرار الرجال بل والنساء بالحبس والنفي والاعدام . وبالأقسمة والرهبان الذين دعوا في كنائسهم بتأييد عز الدولة الامبراطورية . وسيق الجميع بالسنة حداد . وكلما ذكر سيئة أورذيلة ل نابوليون الثالث قارنها بحسنة أو فضيلة من حسنات نابوليون الأول وفضائله ولذا لقب الأول بالكبير والثالث بالصغير . فورد في أشعاره كثير مما يسميه اداؤنا في فن البديع بالطباق وهو الجمع بين متضادين لاسيما في المهجورية التي عنوانها الاستغفار أو تكفير السيئات فانه جعلهما فيه على طرفي نقيض . فهاجي ديوان القصاص تتخللها أشعار المدح والحماسة . وفي هذا الديوان أيضاً رثاء الذين قتلوا في حادثة ٤ دسمبر وتحنين الذين اخرجوا من ديارهم ونفوا بعيدين عنها واناشيد الذين سفروا على البحر ووصف حالة اولئك المصابين والمحكومين والمنفيين وحنينهم إلى اوطانهم وشوقهم لمن تركوه فيها من الأرامل والايتام ومن الاخوات والبنات والاباء والامهات اللواتي يكيين بكاء الخنساء على أخيهما مما تتفطر له القلوب وتفتت الاكباد لا سيما من قرأ شعره وهو يتألم بلدغة الاستبداد .

فما ورد في هذا الديوان من بدائع المعاني القصيدة الثالثة من الفصل الثاني وعنوانها « تذكار ليلة ٤ » وهي الليلة الثانية من جلوس نابوليون على تخت الامبراطورية . نظمها الشاعر ليلة عيد الجلوس سنة ١٨٥٢ وصور فيها ما شاهده في تلك الليلة وجسم الحادثة بكيفية بديعة ومضمونها ان صبياً يتيماً حسن الصورة حسن الاخلاق كان يلعب مع الصبيان امام دارهم فاصابته رصاصتان من بنادق عسكر الامبراطورية وهم يتجولون في شوارع باريس لارهاب الناس وتسكينهم . ولم يكن لهذا الصبي المقتول الا جد وجدة طاعنان في السن ليس لهما وارث سواه فادخلته جدته السدار والدم يسيل من جراحه ومات بين يديها فاخذت تنوح وتلطم وتقول واسوأناه ! واحسرتاه ! كيف اعيش بعدك يا ولدي ومهجة كبدي . لم تخلف لي أملك سواك . افهموني انتم يا حاضرون لماذا قتلوه ؟ أريد ان تعرفوني السبب . الصبي لم يصرخ لتحيا الجمهورية .

قال الشاعر اما نحن فكنا واقفين صامتين دهشة وفرائصنا ترتعد امام هذا المأتم الذي لا عزاء له إلى أن قال لها مخاطباً .

أيتها الجدة انك لا تفهمين السياسة أبداً . الموسيو نابوليون - وهذا اسمه الصحيح - فقير بل وامير أيضاً (برنس) يحب القصور ويقتضي ان يكون له خيل وخدم ونقود للعب القمار ولسفرة الطعام ولخزائن الملابس وللخروج للصيد . وهذه الوسيلة يخلص العائلة والكنيسة والجمعية . ويريد ان يكون قصر سن كلومملوءاً بالورد طول الصيف لتأتي اليه ولاية البلاد وأعيانه ويسجدوا له . فهذا هو السبب الذي أوجب الجذبات العجائز أن يخطن باصابعهن المرتجفة من الهرم أكفان صبيان لم يتجاوزوا من العمر سبع سنين .

والقصيدة السادسة من الفصل الثالث عنوانها « الشرقية » قال فيها :
لما رأى عبد القادر وهو في سجنه قد دخل عليه ذلك الرجل ذي العينين الضيقتين الذي يسميه التاريخ نابوليون الثالث قال مزدرياً من يكون هذا الرجل ؟ رأى وهو في نافذته رجل قصر الايليزة الاحول يمشي وخلفه قطيع كالغنم في خدمته . أما هو فكان اسد الصحراء والسلطان الذي ولد تحت اشجار النخيل وصاحب السباع الكاسرة . فهو الحاج النافر وعينه هاديتان . والأمير المفكر الشديد الرحيم . وهو رجل عابس متشائم شبَّح اصفر في برنس ابيض . وثب وهو خمران بمداومة الحرب ثم وقع في الظل على الركب . وهو الذي يصلي على قارعة الطريق ويجلس في الخباء المرفوع الاطناب وترى النجوم يديه المصبوغتين بدم الانسان وهو ساكن الجأش . وهو الذي يسقي السيوف ويجلس على الرؤوس المقطوعة مفكراً في بديع خلق السموات . فلما رأى لحظ هذا الرجل الخائن المحتال وجبهته المظلمة من الخجل احجم عنه وهو العسكري الجميل والشيخ المهيب الجليل ونفر من شاربى ذاك الشنيع (١) .

ف قيل له انظر ايها الامير بلطات العساكروهي مارة فهذا الرجل هو قيصر الحرامي اسمع هذه الشكايات المرة وهذا الصراخ المتعالي . فهذا الرجل الذي لعنته الامهات ولعنته الزوجات . لانه رملهن وكسر قلوبهن . واخذ فرانساً وقتلها وهو الآن يبلغ في دمه . فحينئذ سلم عليه الحاج عبد القادر . ولكنه في الباطن احتقر هذا الدني الديموي فهذا النمر الأشم الانف شم ذاك الذئب وهو مستخف به أه .

(١) وكان نابوليون الثالث ذا شاربين افقيين عكس امبراطور المانيا الحالي عيلوم الثاني .

نظم فيكتور هوكو هذه الهجوية وهو في جزيرة جرسى في نوفمبر سنة ١٨٥٢ وكان الامبراطور نابوليون بعد جلوسه يذهب للاصطياف في مدينة بوالتي هي من اجمل المدن الفرنسية على حدود جبال الپيرينه وفي مدينة بياريس التي على ساحل المحيط الغربي بالقرب من الحدود الاسبانية فزار في احدى سفراته الامير عبد القادر الجزائري ولطفه واطلق سراحه .

فان هذا الامير الخطير بعد ان ثبت أمام الفرنسيين ١٥ سنة واطهر من البسالة والدراية في الحرب ما لا مزيد عليه اضطر سنة ١٢٦٤ هـ على تسليم نفسه فسيره الدوق دومال والى الجزائر في ذلك الحين الى فرنسا . فانزل في قصر لا مانغ من مدينة طولون . ثم نقل منه إلى قصر مدينة بويسمى قصر هنري الرابع وهو من أحسن القصور بناء وزينة ولم يزل السائح يشاهد فيه الدائرة التي سكنها الامير عبد القادر سنة ١٨٤٨ م ثم نقل منه إلى قصر امبواز وهو بالقرب من مدينة تور التي انتهت اليها فتوحات العرب في اوائل القرن الثاني من الهجرة . وفي سنة ١٢٦٩ هـ حضر الامير عبد القادر للاستانة ونال التفات السلطان عبد المجيد وذهب ليقيم في مدينة بروسه . ولما حصلت فيها الزلازل ارتحل عنها إلى دمشق سنة ١٢٧٢ هـ وتوفي سنة ١٣٠٠ هـ في قصره الذي بقرية دامر فنقل نعشه إلى الصالحية ودفن بتربة محي الدين بن العربي رحمهم الله جميعاً . والامير عبد القادر هورب السيف والقلم وله تأليف معتبرة مطبوعة وترجم احدها للفرنساوية المسودوغا . وكان الامير عضواً فخرياً في الجمعية العلمية الفرنسية .

ومما في هذا الديوان من الاهاجي والمناجاة البليغة المنظومة الثالثة من الفصل السادس وعنوانها « دعاء المغربين » وفيها توسلات إلهية ومخاطبات لحمام الوادي ونسيم الصبا كانها مترجمة عن العربية قال فيها :

يا الله يا كبير اليك ترتفع اكفنا ونحوك تشخص ابصارنا . اللهم ان هؤلاء لمكبلين بالحديد وعبراتهم تسيل على الحدود لهم أشد الممتحنين بلاء مع انهم اصلح الناس حالاً . ايتها الطيور المارة ان هناك منازلنا . أيتها الرياح الجارية ان هناك اخواتنا وامهاتنا يبكين ليلاً ونهاراً . بلغهم يا طير بؤسنا . واحمل اليهم يا نسيم الصبا اشواقنا . وانت يا الله نرسل اليك فكرنا . ونسألك ان تنسى هؤلاء المحكوم عليهم بالقتل ظلماً ولكن أن تجعل مجدهم لفرانسا المهانة وان تركنا نحن المظلومين نموت في

هذا العذاب الاليم . . . الخ . وهذا يذكرنا بقول ابن المعتز حينما أخذ ليقتل :

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك خانتك من بعد طول الامن دنياك
مرت بنا سحراً طير فقلت لها طوباك يا ليتني اباك طوباك
أن كان قصدك شوقاً بالسلام على شاطي الفرات ابليغي ان كان مثواك
من موثق بالمنايا لافكاك له يكي الدماء على ألف له باكي

ولا أدري أن كان لها بقية أم لا ولكن الغالب في الشعر العربي ان يعلوبه النفس ثم ينقطع قبل أن يشفي غليل النفس بذكر الوسط الذي يقوم فيه الشاعر وشرحه وتوصيفه بجميع ما فيه كما يفعل شعراء الافرنج . نعم أن شعراء الجاهلية ومن نسج على منوالهم شرحوا أوصاف الفرس أو الناقة مثلاً واطنبوا في ذلك ولم يتركوا عضواً ولا حركة ولا هيئة الاذكروها وتحيلوا فيها ولكنهم مع ذلك حصروا نظرهم في نقطة واحدة ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً إلى ما حولهم من مناظر الطبيعة وبدائع المخلوقات .

وابن المعتز اشعر بني هاشم وهو ابن الخليفة العباسي المعتز بالله بن المتوكل ويسمى خليفة يوم لانه ولي الخلافة يوماً واحداً ثم خانتة الايام وغدرت به السياسة فسلم لمؤنس الخادم فقتله . وتشبيهات ابن المعتز وأشعاره مشهورة ومن مؤلفاته كتاب الزهرة والرياض ، كتاب البديع ، كتاب مكاتبات الاخوان بالشعر ، كتاب الجوارح والعين ، كتاب السرقات ، كتاب اشعار الملوك ، كتاب الأداب كتاب حلي الاخبار ، طبقات الشعراء كتاب الجامع في الغناء ، أرجوزة ذم الصبوح .
ومن قوله :

سقى الحظيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر
فطالما نبهتني للصبوح بها في غرة الفجر والعصفور لم يطر
ومن كلامه البديع قوله : أنفاس الحي خطاه إلى أجله . وكان مستجمعاً للكمالات الانسانية وقيل في رثاء :

ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب

قرأ على المبرد وثعلب وتاريخ ولادته (٢٤٧ - ٢٩٦هـ)

والفصل السابع من هذا الديوان هجوية عنوانها « هاتين قدوركين يا ساحرات شكسبير » اشارة الى رواية ماقت التي ألفها شكسبير وما فيها من خسر الساحرات

اللواتي يطبخن السحر في القدور ويفتحن للنساء الفال فقال فيكتور هوكو هاتين قدوركن يا ساحرات شكسبير . وخذن عني يا ساحرات ماقت كل الامبراطورية من قديمة وحديثة . وضعن في كانون واحد برجه السمين والكونت فروشو وفلان وفلان . . . وعدداً كبيراً من رجال نابوليون إلى أن قال واحنين رؤوسكن وانفشن شعوركن وحلقن عيونكن واكشفن نحوركن وانفخن بملء رئاتكن على النار التي تحت القرعة وانظرن فان الصغير يخرج من الكبير وصيرن باروش وطاليران بخاراً وكذا ابن الأخ الذي يهبط بيننا ان العم يعلو . فما الذي بقي في قعر الانبيق ؟ العار . فكان فيكتور هوكو وهو في جزيرة جرسى كلما سمع بنفي المتهمين بالسياسة لبلاد الجزائر أو لا ميركا يفور غضبه ويشتد غيظه ويهدر كهدير البحر . وشبه السفن التي تحمل المنفيين بالبوم التي تنادي على خراب البلاد بابعاد نخبة الشبان الاحرار منها . ولكنه مع ذلك لم ينقطع رجاءه ولا خابت أمانيه بل كلما نظر في المستقبل لاح له قبس الفلاح ولمع في عينيه نور الصباح وراقت اشعاره وصفا كلامه ولذا شبهوه بالبحر الذي يهيج تارة ويسكن اخرى . وله في البحر تشابه واستعارات لم يسبق إليها . وقال في خاتمة هذا الديوان انه سوف ينبلج صبح العدل ويزهق ليل الباطل ان الباطل كان زهوقاً . وأنذر باستيقاظ الامة من رقدة الغفلة ومجازاتها الظالمين المستبدين المجرمين . ان المجرمين في ضلال وسعير . ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . ولو أطلع السيد عبد الله نديم على ديوان القصاص لما حرر كتاب المسامير .

٨ - ديوان التأملات

وعرف هذا الديوان بتسميته أيضاً سانحات الفكر ولخص فيه أعمال ربع قرن من حياته وما شعر به من فرح وترح وقال في مقدمته بأنه تاريخ حظ من الحظوظ البشرية في شقائه وسعاده أو هو ديوان الحياة الانسانية منذ خرجت من معمى المهد إلى ان نزلت في معمى اللحد . وأبواب هذا الكتاب هي : الفجر النفس الزاهرة التنازع والاماني ، في المسير ، على ساحل اللامتناهي . ومنها يفهم فكر الشاعر في ترتيب المنازل التي يقطعها المسافر في طريق الحياة . واجاد في وصف المناظر الطبيعية

وتصوير وجوه الأرض على حد قول أبي تمام :
يا صاحبيّ تقصياً نظريكما ترى وجوه الأرض كيف تصورُ
ترى نهاراً مشمساً قد زانه زهر الربا فكانها هو مقمر
ومن ذلك أيضاً قول القاضي عياض وقد تولى قضاء سبته وغرناطة :
انظر إلى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وأبدع ما في هذا الديوان الرثاء الذي رثى بنته حينما انشبت فيها المنية اظفارها
وهي في ريعان الشباب واشهر العرس وأتى بالبدايع والعجائب في وصف قلب الوالد
على ولده وما يكابده بسبب موته من آلام الحياة وعذابها . ولعله تابع في النظم شعوره
وإحساسه فجعل أول المراثي تفجعاً وبكاء . ثم أرتفع صوته بالنحيب والعيول . ثم
زاد ألم الرزية عليه وكبرت المصيبة في عينيه فصار يهدر كما يهدر المجنون ولا يعي ما
يقول فطوراً يقاتل القضاء وتارة يلعن القدر وانقطع من الدنيا وزال رجاؤه بالآخرة
ويئس من هذه الحياة الفانية .

ثم برد قلبه شيئاً فشيئاً وهذا باله رويداً رويداً فصار يندب ميتة ويعدد محاسنها
ويتذكر زمن طفوليتها وشبابها وعرسها وكل ذاكرة منه تسيل من عينيه عبرة وتودع في
قلبه حسرة . ولم ير له ملجأ إلا في تسليم الأمر لله والرضاء بما قدره وقضاه فصبر على
البلاء ورجع بانكسار وتزلزل إلى الله وانكب على اعتاب مراحمه كانه عمل بنصيحة
الشيخ محمد عlish حيث قال :

الزم باب ربك وأترك كل دون وأسأله السلامة من دار الفتون
لا يضيق صدرك فالحدث يهون الله المقدر والعالم شؤون

لا تكثر همك ما قدر يكون

نحن والخلائق كلنا عبيد والاله فينا يفعل ما يريد
همك واغتمامك ويحك لا يفيد القضاء تحكم فالزم السكون

لا تكثر همك ما قدر يكون

ومنها أيضاً :

مولاك المهيمن انه يراك فوض له أمورك وأحسن في الظنون

ومها :

الرصاص ترصبة والسخط حرام والقنوع راحة والطمع جنون
وأفجع رثاء واحسن توسل فيكتور هوكو ما جاء في المربة التي عنوانها « الى
فيلكيه » وهي المدينة التي غرقت بقرها ليوبولدين وهي تنزه مع زوجها في زورق على
نهر السين وقد أتينا على ترجمتها بالحرف بياناً لاسلوبه في التفجع والرثاء . قال فيكتور
هوكو وكان قد خرج من باريس وذهب إلى جبال البيرينة وسواحل المحيط الغربي :

إلى فيلكيه

الان باريس وطرقها وجدرانها وضبابها وسطوحها بعيدة عن عيني . الآن أنا
تحت غصون الايك وأستطيع التفكير في حسن السموات . الآن خرجت مصفراً من
المأتم الذي أظلمت منه روحي وشعرت بان سلام الطبيعة الكبرى دخل قلبي .
الآن استطعت ان أجلس على شاطئ البحر متأثراً من هذا الأفق اللطيف
الهادي وان افحص في ضميري عن الحقائق الغامضة وان انظر إلى الازهار وهي في
الحدائق .

الان ياربي ، حصلت لي سكينه محزنة استطيع بسببها أن أرى بعيني رأسي
الحجر الذي أعرف أنها نامت في الظل تحته نومة أبدية .
الآن قد رقت عواطفني بهذه المناظر الالهية ما بين سهول وغابات وصخور وأودية
ونهر كالفضة .

ولما رأيت عجزتي ورأيت معجزاتك رجعت لي عقلي أمام جلالك فجئت إليك يا
الله يا من يجب علينا الايمان به . وأحضرت لك قطع هذا القلب الذي كسرتة وهو
مملوء بحمدك .

جئت إليك يا الله ، معترف بانك رؤوف رحيم حلیم وبأنك اله حي . وأقر
بانك وحدك تعلم ما تصنعه وبان الانسان ما هو الا ريشة في مهب الريح .
أقول بان القبر الذي يغلق على الأموات يفتح القلك الأعلى . وان ما نحسبه
في هذه الدنيا نهاية هو البداية .

أقرأها الاله العظيم وأنا راكع بانك وحدك مالك لما هو حقيقي ، مطلق ، لا

نهاية له . أقر بان انجراح قلبي هو خير وهو عدل . لأن الله أراد ذلك .
لا أعترض أصلاً على جميع ما أصابني بارادتك . فالنفس تتدحرج في الابدية
من مأثم لمأثم والانسان يتدحرج من ساحل لساحل .
لانى من الاشياء الا طرفاً واحداً والطرف الآخر غاطس في سّرّيلٍ مرعب
فالانسان يتحمل الأذى بدون ان يطلع على الأسباب . وجميع ما يراه قصير ،
زائل ، لا فائدة فيه .

أنت تلقي الانسان دائماً في طريق الشك ولم ترد ان يكون له على هذه الأرض
يقين ولا سرور .

ولا يملك الانسان خيراً الا ويسترده القدر منه فهو لم يعط شيئاً في أيامه السريعة
الزوال ليتمكن من ان يتخذ له مسكناً ويقول : هنا بيتي وارضي وأحبابي . جميع ما
تراه عيناه ينبغي ان يراه في مدة قليلة . ثم يهرم وتخور قواه . فما دامت هذه الأشياء
واقعة فأنا أقر بانها حدثت كما يلزم ان تحدث (١) . يا الله ! العالم مظالم وألحانه التي لا
تتغير مؤلفة من البكاء ومن الغناء أيضاً . والانسان ما هو الا ذرة في هذا الظلام الغير
المتناهي . فهذا ليل يصعد فيه الابرار ويهبط الاشرار . أعرف بان لك يا الله أشياء
اخرى كثيرة تشتغل بها عوضاً عن ان تشفق علينا جميعاً وبان الولد الذي يموت
ويخلف الحزن لأمه لا يضرك منه شيء .

أعرف بان النمر يسقط من الريح الذي يهزه وبان الطير يفقد ريشه والزهر يفقد
رائحته وبأن الخليقة دولا ب كبير لا يمكنه ان يدور بدون ان يسحق احداً ،
الشهور ، والأيام ، وأمواج البحر ، والعيون الذارفة بالبكاء تمر جميعها تحت السماء .
الأزرق أعرف يا ربي انه يلزم للعشب ان ينبت وللأولاد ان يموتوا . لعلك في
سمواتك ما وراء طبقة الغيم وفي أعماق الزرقة النائمة التي لا تتحرك تصنع أشياء
مجهولة يدخل فيها ألم الانسان كأنه عنصر من عناصرها .

لعل هلاك الأشخاص الملاح بتيار المصائب فيه فائدة لمقاصدك التي لا
تحصى . طوالت نحوسنا تسير تحت نواميس واسعة لا يغيرها شيء ولا يرقق عواطفها
شيء . وليس في الامكان أن تأتي المراحل الالهية فجأة وتغير ناموس العالم .

(١) ليس في الامكان ابداع مما كان . لو اطلعتم لقلتم الحيرة في الواقع .

أتوسل اليك يا الله بان تنظر لنفسي وتعتبر باني اتيت لعبادتك خاضعاً خضوع الصبي وليناً لين المرأة .

وأعتبر أيضاً باني منذ طلوع الفجر اشتغلت وقاتلت وفكرت وسعيت وجادلت وأنا أفسر الطبيعة للناس الذين يجهلوننا وانير كل شيء بنورك . وإني عملت الواجب علي في هذه الدنيا وأنا اقتحم المهالك والمخاطر ولا يمكنني ان أنتظر هذا الجزاء ولا أقدر أن أتأمل بانك انت أيضاً تنزل يد بطشك على رأس المنحني وبأنك أنت الذي ترى قلة حظي تأخذ أيضاً ولدي على عجل . واعتبر بان النفس التي أصيبت بمثل هذه المصيبة هي مدفوعة على الشكوى . وبأي اجترأت على سبك وعلى رفع صوتي عليك كالولد الذي يرمي البحر بحجر . إعتبر يا ربي ان المرء قد يشك في الله حينما يشتد عليه الالم . وان العين التي تبكي كثيراً تعمى في النهاية . وان الشخص الذي يلقيه مآثمه في أظلم هاوية لا يمكنه ان يضرع اليك وهو لا يراك .

اليوم وأنا ضعيف القلب كالوالدة انخني على اعتبارك تحت سمواتك المنكشفة وأشعر في مرارة المي باني استنرت بنظرة وقعت مني على العالم .

يا ربي ، أنا اعترف بان الانسان اذا جسر على الشكوى منك فهو في حالة الجنون . فها انا تركت الشكوى وتركت السب . فدعني ابكي . واحسرتاه ! دع الدموع تجري في جفوني لانك خلقت البشر لذلك . دعني انحي على هذا الحجر البارد وأقول لولدي : اتشعرين باني هنا ؟

دعني اكلمهما في المساء حينما يسكن كل شيء وانا منحني على ما بقي من جسدها وهي كأنها ملك ينصت لي وكأنها تفتح في الليل عينيها السماويتين .

واحسرتاه ! لم يبق في الدنيا شيء يسليني . فالتفت نحو الماضي بعين الاشتياق ونظرت إلى تلك اللحظة من حياتي فرأيتها تفتح جناحيها وتطير . وسأرى تلك اللحظة حتى مماتي . تلك اللحظة التي فاضت فيها دموعي وصرخت قائلاً : ماذا إذا ؟ الولد الذي كان لي الآن فقدته بالكلية !

لا تغضب علي يا ربي ان قلت هذا . لان جرحي سال دمه زماناً طويلاً والضيق في نفسي لم يزل شديداً . وقلبي وان خضع لكنه لم يسلم ولم يرض .

لا تغضب يا ربي ! حيث يصعب علينا أن نخرج نفسنا من هذه الاكدار العظيمة . انت يا ربي اعلم بان أولادنا لازمون لنا . إذا رأى الانسان ذات يوم في

حياته وهويين اكداره واتعابه وفقره والبلاء الذي رمت به اقداره قد ولد له ولد جميل ضاحك بشوش يخال أنه رأى باب السموات فتح له . فإذا رأى مدة سبع عشرة سنة ولده الذي هو قطعة من جسده يكبر وينمو ويعقل وإذا عرف أن هذا الولد الذي يجبه هونور في قلوبنا وضياء في بيوتنا وأنه هو السرور الوحيد الذي لنا من جميع ما نتمناه في هذه الدنيا . فلا يخفى عليك يا ربي انه إذا فقد منا يكون حزننا عليه عظيماً . أهـ - فيلكيه في ٤ سبتمبر سنة ١٨٤٧ .

وبعد ان طال رثاء فيكتور هوكوندبه حصلت له الفة بالموت واعتاد عليه . فانحنى على القبر كأنه يريد انتزاع السر المكنون فيه ونظم قصائده التي عنوانها « كلام على الكتيب » و« وقفة في المسير » و« ما هو الموت » . ولكن لم يتيسر له رفع الستر عن القبر ولا إزالة الحجاب عن هذا الباب . وأكثر في كلامه من توحيد الله وذكر الآخرة وخلود النفس .

ومن القصائد المشهورة في رثاء الاولاد القصيدة العينية التي نظمها ابو ذؤيب الهذلي المتوفى سنة ٢٧ للهجرة وكان مات له في سنة واحدة خمسة أولاد في الطاعون الذي حدث بمصر ومطلع قصيدته :

امن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
ومنها :

أودى بني فاعقبوني حسرة عند الرقاد وعبرة لا تقلع
فالعين بعدهم كأن حداقها كحلت بشوك فهي عور تدمع
وفي اشعار فيكتور هوكوند ما يحاكي كلام أم حكيم زوجة عبيد الله بن عباس والي اليمن من قبل علي رضي الله عنه حينما اتاهما بشر بن اوطاة قائد عساكر معاوية وذبح لها ابنتين صبيين فلم تملك امهما نفسها ولا قدرت ان تقر في مكانها بل كانت تحوم حوم الطير حول وكر صغارها وقد ذهب عقلها وفرغ صبرها فقالت تبكيهما وتولول :

ها من أحس بابني اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
ها من أحس بابني اللذين هما قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف
ها من أحس بابني اللذين هما مخ العظام فمخي اليوم مردهف
من ذل والهة حيرى مدلهة على جبيين ذلاً اذ غدا السلف
خبرت بشراً وما صدقت ما زعموا من أفكهم ومن القول الذي اقترفوا

انسحى على ودجى ابني مرهفه مشحوة وكذاك الأثم يقترف
ومثل ذلك مراثي شواعر العرب وجمع كلامهن احد افاضل العلماء ونشره في
بيروت وسيدة شواعر العرب الخنساء القائلة .
اعيني جودا ولا تجمدا الا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل الا تبكيان الفتى السيدا
ومن شواعر العرب برة بنت عبد المطلب جد النبي عليه السلام قالت في وفاة
أبيها :

اعيني جودا بدمع درر على طيب الخيم والمعنصر
على ماجد الجود واري الزناد جميل المحيّا عظيم الخطر
والبكاء على الأموات وندبهم من عادة نساء العرب ولذا نبغت فيه الشواعر
منهن سيما وان قلب المرأة أرق وأحن ولذا قال فيكتور هوكو بأنه صار ضعيف القلب
كالوالدة .

ومما ورد للعرب في هذا المعنى قول أبي بكر بن زهر الاندلسي .
ولي ولد مثل فرخ القطا صغير تخلف قلبي لديه
وافردت عنه فيا وحشتا لذاك الشخيص وداك الوجيه
تشوقني وتشوقته فيبكي عليّ وأبكي عليه
وهذا الشاعر الرقيق اشتهر بفن الطب وعلم الأدب وسارت الركبان بموشحاته
وهو حفيد ابي العلاء بن زهر الطبيب المشهور . وكان صاحب هذه الابيات بعث به
إلى مراكش وسمم فيها فمات سنة ٥٩٦ هـ وله بنت واخت ماهرتان في الطب والقبيلة
نفيتا أيضاً إلى مراكش وقتلتا مثل أخيهما بالسم . وأبقى ولده في الاندلس فقال
الابيات المذكورة متشوقاً .

٩ - سير الدهور

ديوان جليل ملأه الشاعر بالحكمة والفلسفة فاحوج مطالعه إلى الدقة والتبصر
فيه ومراجعة كتب التاريخ والفلسفة لفهم دقائق معانيه كما يحتاج لذلك قارئ
اللزوميات ورسالة الغفران واشباههما من كتب الأدب والفلسفة التي خفيت وقائعها

على كثيرين فنسبوا لها الركاكة . ومن هذه الكتب أيضاً ما ألفه الصفدي شرحاً على الطغرائي صاحب لامية العجم والقصائد المعروفة في الكيمياء . ومنها أيضاً ما ألفه ابو بكر بن وحشية صاحب الفلاحة النبطية سنة ٩٠٤ م ومنها نسخة في مكتبة أيا صوفيا . وزعم المستشرق الروسي شولسن يان لابن الوحشية معرفة بعلم الاراميين والبابليين وفنون ادبهم ومن منظوماته « الشوق المستهام » تكلم فيه عن خطوط المتقدمين وكتاباتهم . وله أيضاً « سدرّة المنتهى » بحث فيها عن مواضيع دينية فلسفية . ومثل ذلك أيضاً « أزهار الافكار في المعادن والاحجار » لشهاب الدين ابي العباس النقاشي المتوفى سنة ١٢٥٣ م تكلم فيه عن المعادن والاحجار الثمينة وطبعه المستشرق رافويس في اوترخت من هولندا سنة ١٧٨٤ م ثم طبعه كليمان موله سنة ١٨٦٨ م . ومن ذلك أيضاً ديوان شذور الذهب لبرهان الدين بن أرفع رأسه من مدينة جيان في اسبانيا المتوفى سنة ١١٩٧ م في فاس ، وغير ذلك .

وجمع فيكتور هوكتوفي هذا الديوان سيراً حماسية انتخبها من تاريخ البشري في القرون الأولى والوسطى والآخرى وصورها في الواح معظمة وسبكها في قوالب مكبرة وقصها قصصاً مفجعة شرح فيها سير الانسان في مراقي العمران وخروجه من الظلمات إلى النور ومن قيد العبودية إلى سراح الحرية . وجعل الحق للأمم والقوة للملوك الجبابرة المستبدين بالبرعية . وبين كيفية تغلب الحق على القوة كلما خطا الانسان خطوة في التاريخ وارتقى درجة في سلم الحضارة . وأظهر بذلك قاعدة الحكم « لمن غلب » من بين الأمم شيئاً فشيئاً ويعلو الحق ويتصمر رويداً رويداً لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه .

فنظم فيكتور هوكتوفي تصوير القرون الأولى قصيدة « تيتان » سلك فيها طريقة الشاعر اليوناني ايشيل مؤلف رواية « برومته » المقيد بالسلاسل وبين فيها ظلم الجبارين ومحاربتهم للآلهة ثم سقوطهم في مهاوي الخزلان . اما تيتان فورد ذكرهم في اساطير اليونان بانهم من أولاد الساء والأرض وقيل بانهم عصوا على الآلهة وأرادوا ان يبنوا لهم صرحاً ليبلغوا به اسباب السموات أي نواحيها . فعمدوا إلى الجبال ووضعوا حبلاً فوق جبل حتى كادوا يبلغون الساء الدنيا لولا ان كبير الآلهة جوبيتر صعقهم بصاعقة دكت الجبال دكاً .

ونظم فيكتور هوكتو أيضاً « ضمير قاين » ويعرف عندنا بقابيل الذي قتل أخاه

هابيل ثم ندم على ما فعل (١) . فصور الشاعر ندامته وعين الله ناظرة اليه بالغضب وعظم هذه القصة وجسمها تجسماً لائقاً برجال ذلك العصر الذين منهم عوج ابن عناق . ولشعراء الترك والفرس مبالغات عجيبة في تصوير مثل هذا الموضوع . كالشاعر نفعي الذي وصف شدة الحروق قال بأن زفرة من زفرات الثمل كافية لتشيغب البحور السبع وجعلها سراباً ووصف شاعر آخر رستم عنتره الفرس وقال بأن النبل الذي رمى به من قوسه اخترق السموات السبع ودخل في اللامكان . واستخرج فيكتور هوكو من التوراة والاسرائيليات غير هذا الموضوع وصوره كذلك في هذا الديوان .

ونظم في تاريخ القرون الوسطى عدة منظومات مثل لاديسلاس وسيجسموند وغيرهما من الظلمة وقطاع الطرق الذين توصلوا بالقتل والنهب والهيل والدسائس الى لبس تاج الملك والجلوس على كرسي الامبراطورية . وقارنهما بالسيد ورولان وغيرهما من الفوارس الشجعان الذين جاهدوا بأنفسهم في سبيل النصرانية وتقاتلوا في الغيرة والحمية الدينية . ورولان هو ابن اخ شارلمان وقائد جيوشه وشارلمان هو الامبراطور المعاصر لهارون الرشيد . وتقدم ذكرهم وذكر السيد أيضاً وهو عنتره الاسبانيين كما ان رولان عنتره الفرنسيين وكلاهما اشتهرا في الحروب مع مسلمي الاندلس . وصور فيكتور هوكو القرون الوسطى بما فيها من المظالم والجزائم الفظيعة واراقة الدماء والاستبداد والنخوة الجاهلية والتعصب الديني وأطنب غاية الاطناب في توصيف ذلك وتعظيمه وتجسيمه .

ونظم في القرون الأخرى مقبرة ايلو وهو مكان في المانيا انتصر فيه نابوليون على عساكر الروس وبروسيا . ونظم فصلاً سماه جماعة الظلام وافتتحه بقصيدة عنوانها

(١) سورة المائدة « واتل عليهم نبأ ابني آدَمَ بالحق إذا قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوء بأثمي وأثمك فنكون من اصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطُوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا بني اعجزت أن أكون مثل هذا العراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين من أجل ذلك كتب على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنها قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنها أحيا الناس جميعاً » الحج .

الحرية قال فيها : بأي حق تضع الطيور في الاقفاص ؟ بأي حق تغتصب هؤلاء المغردين وتحرم منهم الغابات والانهار والفجر والرياح ؟ بأي حق تسلب هؤلاء الاحياء حياتهم ؟ أتظن أيها الانسان بان الله خلق الجناح لتعلقه على مسمار في بيتك ؟ ألا يمكنك ان تعيش سعيداً مسروراً بدون ذلك ؟ ما الذي فعله هؤلاء المعصومون ليوضعوا في الحبس ؟ من يعلم كيف يمتزج حظهم مع حطنا ؟ من يعلم إذا كان العصفور الذي ينهب من الاغصان ، ومن يعلم إذا كان الأذى الذي تؤدي به الحيوانات ، وإذا كان لاستعباد الذي يجري على البهائم بلا فائدة لا ينقلب على رؤوسنا ظليماً كظلم نيرون ؟ من يعلم إذا كان زنجير الحبس لم يخرج من ارسان الحيوانات ؟

خذ حذرك من العدالة الالهية لان الله ينظر إلى المكان الذي يبكي الاسير فيه ويصرخ . ألا تفهم أيها الانسان بانك ظالم ؟ اطلق سراح المحبوسين ودع البلابل تطير في الحداثق . فميزان العدالة وان أختفى عن الاعين فله كفتان تزن الاعمال . . . الخ . الخ .

ونظم قصيدة اخرى عنوانها « الحرامي والملك » وبين المشابهة بينهما وما يرجح به كل واحد منهما على صاحبه . ونظم قصيدة اخرى عنوانها « للملوك » خاطبهم فيها بكلام ترتعد منه الفرائص وتقشعر الجلود فقال لهم : أتظنون أنتم باننا نحن نحكم نحن الذين نشغل في هذه الأرض ونستخرج ثروتها ونكد ونجد في حرارة الشمس وبرد الشتاء ولا ننال من اتعابنا غير الجوع والعطش . وانتم على سرر مرفوعة من العز والنعيم . وعلى جانب من التبذير والاسراف والفحش . نحن الخدم وانتم الملوك . نحن الغنم وانتم الذئاب . نحن الفريسة وانتم المفترسون . تبنون القصور والسرايات من أموالنا واتعابنا وترتعون فيها وتلعبون ونحن نقاسي نزع الموت على لقمة . لا شغل لكم الا الأكل والنوم والسكر والفحش والقتل والظلم فانتم لا فرق بينكم وبين الأسود الكاسرة والوحوش الضارية . . الخ . الخ .

واطنب فيكتور هوكون في بيان الحرية وتعريفها بأساليب كثيرة وصور مختلفة وأشكال متنوعة . ومن كلامه ما ورد على حد قول المعري في الزوميات :
يكفيك حزناً ذهاب الصالحين معاً ونحن بعدهم في الأرض قُطان
ان العبراق وان الشام مذ زمن صفران ما بها للملك سلطان

ساس الانام شياطين مسلطة
من ليس يحفل خص الناس كلهم
تشابه النجر فالرومي منطقة
أما كلاب فاغنى من ثعالبهم
متى يقوم امام يستقيد لنا
صلوا بحيث اردتم فالبلاد أذى
وقال أيضاً

مل المقام فكم أعاشرأمة
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
أمرت بغير صلاحها امرأها
فعدوا مصالحها وهم اجرأها
وقال أيضاً

يا ملوك البلاد فزتم بنسء العـمـر
ما لكم لا ترون طرق المعالي
يرتجي الناس أن يقوم إمام
كذب الظن لا إمام سوى العقل
فاذا ما اطعته جلب الرحمة
انما هذه المذاهب اسباب
غرض القوم متعة لا يرقون
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة
يا شأنكم في . النساء
قد يزور الهيجاء زير النساء
ناطق في الكتيبة الخرساء
مشيراً في صحه والمساء (١)
عند المسير والارساء
لجذب الدنيا إلى الرؤساء
لدمع الشفاء (٢) والخنساء
والقرمطي بالاحساء

(١) قطان أي سكان صفران أي خاليان من الحكومة العادلة الخنص الجوع تقول حصه الجوع خصا ومخمصة
المبطان الذي لا يزال ضخم البطن من كثرة الاكل النجر الاصل مرطان مفعال من الرطانة وهي كل كلام لا
يفهم . وما أصدق هذا البيت على أهل زماننا فان أكثر المشتغلين بآداب العرب وكتبهم هم من غير العرب بل ومن غير
المسلمين . يستقيد من القود وهو القصاص الذي فيه الحياة والعدل والوصول إلى الحقوق الاعطان مبارك الأبل
ومرايض الغنم الشطن بفتح الحيل وجمعه اشطان عدوا مصالحها أي تعدوا على مصالحها وحاروا فيها نس
العمران تأخيرهم والنساء جباية الأموال رير النساء كثير الزيادة للنساء الكتيبة الجيش والخرساء الذين لا يسمع
لهم صوت لقله كلامهم

(٢) الشفاء التي استوت قصبت انفها وارتفعت ارنبتها والخنساء التي تأخر انفها وقصر وشاربها هنا إلى الشريفة
والوصيفة الذي قام بجمع الزنج على بن محمد ويسمى لعلي بن أبي طالب والقرمطي ابو القاسم بن زكرويه
ويسمى أيضاً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وخرج في أيام المكتفي سنة ٢٨٧ هـ الصليم الداهية وقوله
تسامت قرش أي تغالبهم ومقاتلة بعضهم بعضاً فكان هذا سبباً لغلبة الترك والدبلم عليهم والغاية الغيلم أي
الخنساء يقال للخص الذي لا يرى شيئاً إلا أتى عليه شخص من الشخص

فانفرد ما استطعت فالقائل الصادق يضحى ثقيلاً على الجلساء وما يحاكي
بعض أبيات قصيدة الحرية المتقدم ذكرها قول المعري :

اعاذل ان ظلمتنا الملوك فنحن على ضعفنا اظلم
توسط بنا سائرات الرد ابق لعل ركائبنا قلم
إلى أن قال :

فلا تغبطن ذوي نعمة فحلفهم وقعة صيلم
تسامت قريش إلى ما علمت وأستأثر الترك والديلم
وهل ينكر العقل ان يستبد بالملك غانية غيلم
وما ظفر الملك في جيشه سوى ظفر بالردى يقلم

وقوله

واقصاي من الرؤساء كوني وكونهم لخالقنا عبيدا

وقوله

قد عمنا الغش وازرى بنا في زمن اعوز فيه الخصوص
ان نصح السلطان في امره رأى ذوي النصح بعين الخصوص
وكل من فوق الثرى خائن حتى عدول المصر مثل اللصوص

وقوله

لقد ساس أهل الأرض قوم تفتقت امور فما الفت لهم يد رائق
هم هتكوا بالراح أستار عاذل ولم يحفظوا بالنسك حرمة ناتق
إذا جرحوا دنأ فلم يرج عندهم قصاصاً أجادوا قتل عذراء عاتق
وصاغوا بها تجنى الولاة مراكنا وزادوا على اسيافهم والمناتق
ولو كان للدنيا لدى اله قيمة لما نظروا في أهلات الرساتق (١)

وقال أيضاً

صاحب الشرطة ان انصفني فهو خير لي من عدل ظلم
من أراد الخير فليعمل له فعليه لذوي اللب علم

(١) رتق الفتق أي أصلح الفساد عاذل هو العرق الذي يخرج منه دم المستحاضة النائق كثيرة الاولاد .
المركن يستعمل للباء . الدن خاية الشراب . والعذراء العاتق القديمة وهي التي لم يقض ختامها أحد ، وقتلها
مرجها

حكم الناس غواة مثلما حكمت قبل حصاة وزلم
لا يهابون بصغير من عدئ فقديماً كسر الرمح القلم
ويعجبني ما قاله في هذا الباب شاعر العصر احمد شوقي بك من القصيدة
التاريخية التي تلاها في مؤتمر المستشرقين في جنوه (جنيف) سنة ١٨٩٤ م قال :
ان ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الاسد ر فكيف الخلائق العقلاء
يحسب الظالمون ان سيسردو ن وإن لن يؤيد الضعفاء
والليالي جوائر مثل ما جا روا وللدهر مثلهم أهواء

١٠ - اغاني الشوارع والاحراج

وهو ديوان كالذي سبق ولا حاجة إلى ايراد مثال منه . وأما ما نظمته فيكتور
هوكو في شيخوخته فهو :

١١ - السنة المهولة

هجا في بعض هذا الديوان نابوليون الثالث وعد سقوط حكومته الامبراطورية
كفارة لما اقترفه من السيئات على زعمه في حادثة ٢ ديسمبر . وبين في بعضه الآخر ما
جاء به الفرنسيون من الغيرة والشجاعة في الدفاع عن الاوطان في اثناء حرب
السبعين الالمانية وما قاموا به من الثبات في حصار باريس . واعتبر الحرب الفرنسية
الالمانية كانها حلقة لسلسلة الحروب التي أثارها دول القرون الوسطى المعبر عنهم
بالقيودالينه وهم أشبه بما كان في بلادنا من أصول التيار والزعامه ويحكمه الامراء
الذين قيل لهم (دره بك) . وعد انقطاع تلك السلسلة وزوال هاتيك الافكار
العسكرية بظهور الفكر الجديد والتقدم العصري . وتكلم في القسم الثاني من هذا
الديوان على ويلات الحرب الاهلية وما اقترفه الرعاع (كومين) في باريس من الفظائع
الدموية واطهر حقهم وجهالتهم في احراق الديار وذبح الرجال وختمه بطلب العفو عن
المجرمين المغلوبين .

١٢ - صناعة كون المرء جدًا

تكلم في هذا الديوان على الاطفال والأولاد وشبههم بالملائكة واعتبر وجودهم على الارض دليلاً على رحمة الله وتأييداً لما يرجوه الناس من الحياة الآخرة . وكان فيكتور هوغو يطرب لباباة الاطفال ومناغاتهم وللعب الصغار وهوشاتهم ويفرح لا بتسامهم وضحكهم وتبريق عيونهم وتهلل وجوههم ويحصل له من جميع ذلك تجل واستغراق ظهر أثره في نظمه . وبعد ما اصيب في اولاده عكف على حب حفيده جورج وحفيدته حنه (جان) وشغف بهما شغفاً زائداً والتزم تربيتهما بنفسه فكان يشاهد نشوءهما وتفتح الروح وانفتاح الذهن فيهما وينظم مطالعته وما يلهم به من الشعر . فنظم جميع ما يتعلق بالاطفال والاولاد من تهليل وترقيص وتلهية وتلعيب وصور جميع حركاتهم وسكناتهم ونومهم وقيامهم وجريهم ونظهم ولعبهم . مثال ذلك القصيدة التي عنوانها « أغاني لترقيص الاولاد الصغار في الحلقة » وكذا المنظومة التي عنوانها أيضاً « حنه كانت في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف » وذلك أن مربيتها جازتها بهذا الجزاء تأديباً لها . فجاها جدها من وراء الباب المقفل وأطعمها الحلواء خفية فقالت له تبت وما عدت ادخل اصبعي في انفي ولا أدع الهرة تخمشني فذهب يتشفع لها عند مربيتها . فاعترض عليه أهل الدار وقالوا له اطعمتها كثيراً وأفسدت تربيتها . وكيف ينتظم امر البيت ان لم يكن فيه وازع ورادع وقانون يتبع . فاقرب خطئه واعترف بان كثرة المرحمة مضرة بمصلحة العائلة كضررها بمصلحة الامة وتبعث على انحطاطها وهلاكها . وقال لهم انا المخطيء ضعوني مكانها في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف . فقالوا له انت مستحق لذلك لان القانون ينبغي أن ينفذ على الكبير والصغير . فنظرت إليه حنه بعين الشفقة والرحمة وقالت له بصوت منخفض « وأنا أجيب لك الحلواء » . فنظم الشاعر هذه القصة بصورة بديعة والفاظ عذبة وهي مثال لمواضيع قصائده . فكان كالصغير مع الصغار ولذا انتقد عليه بعض الأدباء وقالوا بان في اشعاره ما هو اشبه بباباة الاطفال لا لذة فيه ولا طعم له .

ثم نظم أربعة دواوين صغيرة لخص فيها مسلكه الفلسفي وجميع معارفه العلمية وأفكاره الدينية والهوامات الربانية وسماها «الاديان والديس» . «البابا» . «الحمار» «الرحمة العالية» ونظم فيها شيئاً كثيراً مما نقرأه في لزوميات المعري على حد قوله :

دين وكفر وانباء تقصُ وفر قان ينصُ وتوراة وانجيل
في كل جيل اباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى، جيل

وقوله :

جاء القرآن وامر الله ارسله وكان ستر على الاديان فانخرقا
ما ابرم الملك الا عاد منتفضاً ولا تألف الا شتً وافترقا
مذاهب جعلوها من معاشهم من يعمل الفكر فيها تعطه الأرقا
ولكن كلام فيكتور هوكو أوضح وأظهر واجمع وأكثر تفصيلاً وترتيباً وإن كان الشاعران يتفقان كثيراً في اصل الفكرة وتتوارد خواطرها على المعاني الواحدة .
ويظهر في كلامهما أثر الخيرة والدهشة من النظر في الكون ولكن فيكتور هوكولم يستول عليه اليأس ولا القنوط الذي استولى على أفكار المعري واحرمه من نعيم الدنيا ولذائذ الحياة مع ما كان له من سعة الرزق وكثرة المال . وما انشده في ذلك :

واتهامي بالمال كلف ان يطلب مني ما يقتضي التمويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتهم لغيري التحويل
عيشة ضاهت الهواذير ما فيها مُقيد وكلها تطويل
ان حباك القدير كالنيل تبرا فليفضه العطاء والتحويل

إلى أن قال :

وإذا هولت علي المنايا راقي من وعيدها التهويل
حوليني عن ظاهر الأرض فالقلب يسلي همومه التحويل

الخ . .

ووردت ترجمته في بعض الكتب الفارسية وقيل فيها بانه كان من أهل الثروة واليسار مع

زهد وتكشف .

١٣ - الأديان والدين

ديوان مشحون بالحكم ولكن ضيق الوقت منعنا عن تدقيقه ومقابلته بما ورد على مثاله من شعر العرب . وهو على خمسة أبواب: باب الجدل ، باب الفلسفة ، باب لا شيء ، باب الأصوات ، باب النتيجة ، ونظم في باب المجادلات تسع منظومات : (١) يوم الأحد (٢) أول التفكير (٣) التيلوجي ونسميه المتكلم أو المتكلمون وهم الباحثون في علم الكلام والتوحيد . (٤) للتيلوجي أي خطاباً لهم ومطلعها :

أيها الرهبان ، أيها اللابسون الحرام والطيلسان ، سواء عليكم تعميمتم بعمائم البر أو تتوجتم بالتيجان المرصعة بالجواهر والآليء فحيث جعل لكم في هذه الدنيا حق بالحماقة فانتم تتجاوزون فيها الحد بشدة لا مثيل لها . لان العلي الأعلى يغض بصره ويصمم أذنه عنكم . . . الخ . (٥) الاختراع . (٦) الأيدي المرفوعة نحو السماء (٧) احسن الصنع وبين فيها ما يقوله المتكلمون من النصارى في حق الله (٨) بقية . (٩) مسائل .

ثم ذكر في الباب الثاني آراء الفلاسفة وفي الباب الثالث آراء الملحدين الجاحدين الذي يقولون بعدم وجود شيء . ان هي الا ارحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر . وانما مثلنا كمثل الزجاجه إذا انكسرت لا يعاد لها سبك . وأما الخاتمة فهي منظومة طويلة نظرها في حسن السماء ونجومها التي هي زينتها وفي الشمس والقمر ونورهما وفي الكون باجمعه وقال في ختامها : هو موجود : انظري ايتها النفس فله اوج وهو الضمير . وله محور وهو العدالة . وله نقطة اعتدال وهي المساواة . وله فجر واسع وهو الحرية . وشعاعه ينير فينا ما تتصوره النفس فهو موجود : موجود ! موجود ! بلا نهاية ، بلا بدايه ، بلا كسوف ، بلا ليل ، بلا فراغ من العمل ، بلا نوم .

فارجعي يا دودة الأرض عن خلق الشمس . اه وهذا على حد قولنا لا تتفكر في ذات الله وحقيقته بل تفكر في خلقه ومصنوعاته .

١٤ - الحمار

اراد المؤلف بنظم هذا الديوان بيان افضلية الطبيعة والسوق الطبيعي على العلم لا سيما على العلم الكاذب والباطيل . وقايس فيه بين صبر الحمار وبين خشونة الرجل وعبث الصبي . لان الحمار وان كان في عرفنا كناية عن البلاهة والغباوة ومن اوصاف الذم لكنه في عرف المتقدمين رمز عن الصبر ولذا سمي مروان الحمار وكان ذا شجاعة وحزم . وسمى اليونان بعض رجالهم واطنه أشيل الحمار أيضاً . ففكتور هوغو سمي حمارة الصبر وقايس بينه وبين الفيلسوف كانت وجعل بينهما مخاطبات فلسفية بديعة وقال لكانت « ما الذي وجدته بعد خوض بحار العلوم وما الذي استنتجته من سير غورها وإلى أين أوصلتك هذه الكتب والدفاتر فهي لم تدون ولا وضعت في الكتيبات الا لترعى في حواشيها الأرضة وتتخزن فيها الرطوبة فالعلم الحقيقي هو في وجه الطبيعة والطفولية وفي الابتسام والصلاح والبشاشة . . الخ » .

١٥ - الرحمة العالية

صور في هذا الديوان الظلم والاستبداد وبكاء المظلومين ولعنهم الظالمين وشخص القوة المستبدة أحسن تشخيص وبين الحامل للمستبد في أمرهم على الشكوى . ولكن المفكر في باطن الأمر ونفس الحقيقة يرى أولئك الظالمين الملعونين في حاجة وافقار للشفقة عليهم أيضاً . لان حمل الحكومة والدولة من أثقل الاحمال لاسيما وان أولي الامر واصحاب الاستبداد محاطون دائماً بالمداهين والمتملقين . فالظالم شنيع ولكن المغربي له والمتبصبص اشنع فالتملقون يفسدون اخلاق الملوك منذ حداثة سنهم وهم يكررون عليهم في كل صباح ومساء « كل هذه الامة هي لك » . فحب الملك خصلة كفية الخصال الانسانية والملوك يستون في الخصال مع بقية الناس ولكنهم يفرقون عنهم بان الحقيقة تخفى عليهم بالكلية ولا يطلعون على جلي الخبر فهم أحق وأولى بالرحمة العالية .

الدرام

استعملنا هذا الاسم لينما يضع ادباء العرب اسماً مقابلاً له أو يعرفونه كما عرب المتقدمون كلمة موسيقى أو ارتطاطيقي ونحوهما من الكلمات اليونانية . والمقتضى لهم ايجاد كلمة تكون على وزن من أوزان الاسماء العربية ويسهل النطق بها على اللسان لأننا في عصر يحتاج فيه لإدخال كلمات جديدة في لغة العرب كما ادخل السلف فيها الكلمات اليونانية والفارسية وغيرهما على عهد الخلفاء العباسيين .

١ - كرومويل

اول درام الفه فيكتور هوكو هو درام كرومويل وتقدم ذكر مقدمة هذه الرواية في تعريف الطريفة الرومانية . أما كرومويل فهو من أشهر رجال الانكليز في القرن السابع عشر للميلاد اشتغل بالسياسة حتى صار رئيساً للحزب الجمهوري وأحدث (الثورة) الانقلاب الذي قتل فيه شارل الأول ملك الانكليز سنة ١٦٤٩ كما قتل لويس السادس عشر ملك فرنسا سنة ١٧٩٣ م واستبد اوليفيه كرومويل بالجمهورية وصار صاحب الأمر والنهي كانه ملك ولم يقنع بما استحوذ عليه من السلطة والنفوذ بل وسوس له الخناس الذي يوسوس في صدور الناس بان يملك على الانكليز . فآخذ في تهيئة الاسباب واعداد المعدات كما فعل نابوليون الثالث حينما تنوج بتاج الامبراطورية . واستعدت بلدية لوندرا لتقديم الصولجان له وتهياً البرلمان لالباسه التاج وكاد الاحتفال برسم التتويج يتم في كنيسة وستمنستر حسب الأصول والتقاليد القديمة ولم يبق بينه وبين الفوز بأمانيه الا قاب قوسين أو أدنى . فحينئذ اكتشف على عصابة سرية من أصحاب الجمهورية يأتمرون على قتله ولا يؤخرهم عن الفتك به الا انتظار رسم التتويج ليغمدوا سيفهم المسلول في قلب ملك لا في قلب رئيس للجمهورية فخاف ورجع عما تشتهي نفسه وظهر ميله للمحافظة على قوانين

الجمهورية وكرهته في لبس التاج والتملك واخفى شوقه لعروس المملكة وحرصه الزائد على نيل وصاها لان الظلم من شيم النفوس . . .

وكان أوليفيه كرومويل ذا اخلاق غريبة وطينة عجيبة وطبيعة منقلبة اجتمع في خصاله الضدان من شهامة ودناءة وجبن وشجاعة وشدة ورحمة ولين جانب وقساوة وحرية أفكار ونفاق ومجاملة ولذا اتخذ فيكتور هوغو بطلاً لروايته وصور اخلاقه تصويراً بديعاً وجعل مجرى الرواية في ويت هال سنة ١٦٥٧ وافتتح الرواية بقوله : « غداً الخامس والعشرون من حزيران سنة ألف وستماية وسبع وخمسين » وختمها بقول كرومويل « إذا متى اصير ملكاً ؟ » اشارة إلى شدة حرصه على الملك . فالادباء الناهجون منهج الطريقة الرومانية يعتبرون هذا المطلع وهذه الخاتمة من أبداع المطالع والخواتم وأبلغها مع بساطتها وخلوها عن التشابه والاستعارات المدرسية . ويقولون بان انشاء الرواية من أعلى طبقات الانشاء ولكن تمثيلها على المراسم متعسر لظوها وكثرة اشخاصها فهي اشبه بكتاب تاريخي مدقق منها بالرواية التمثيلية . وعدا هذا فمؤلفها لم يحسن توصيف اخلاق الرجال ولم يستطع اعطاء كل رجل صفته الحقيقية بدون افراط ولا تفريط بل اتبع في الوصف تصوراته وخيالاته . والمطلوب في الرواية التمثيلية تصوير الرجل بذاته وافكاره بلا غلو ولا اطرأ ولا مبالغة ولكل رجل تاريخي احوال مخصوصة تكتنف به ينبغي مراعاتها في تأليف الرواية فنانبوليون مثلاً له تعبيرات وأفكار واطوار لوخرج عنها مؤلف الرواية لأفسد تأليفه وكذا الملك صلاح الدين الايوبي مثلاً . ولكننا لم نزل نجهل حقيقة تاريخنا فضلاً عن معرفة اخلاق رجل واطواره . أما الافرنج فلكثره معلوماتهم وسعة اطلاعهم لو حضر أحدهم تمثيل رواية وكان من أصحاب الذوق في الكلام لا يكتفي بالتبصر في محاسن الالفاظ وتنسيق الكلام ورونق الأشعار وعلو الانشاء بل ينظر مع ذلك إلى الأهم وهو حسن الموضوع وتصوير اخلاق الرجال واستنتاج النتائج الادبية الفلسفية الاخلاقية . بخلاف من يتلومنا مقامات الحريري والهمذاني أو يستمع تلحين الاشعار وأنشادها على العود والقانون فان طربه في الغالب اسما هو حلالة التعبير ويلهوها عما يحتويه من الفكرة والمعاني فحلالة التعبير هي كالديباج والحلي للأفكار والمعاني . وربما يلهو المرء بحلي الغانية وزينتها عن جاهلها الحقيقي كما نشاهد ذلك على المراسم في الشخصيات المتوسطات في الحس إذا برزن بزينة الاميرات وباثواب الملكات

٢ - ايرناني

وسماها المؤلف أيضاً الشرف القشتالي وقشتالة إيالة في وسط اسبانيا . وصور فيها الدولة الاسبانية وهي في ذرى مجدها وأوج عزها .

وذلك ان العرب بعد فتحهم اسبانيا وتأسيسهم الدولة الأموية (١) فيها فُرقية امراء القوط إلى جبال استوريا في الشمال الغربي من اسبانيا وأسسوا فيها دولاً صغيرة . فلم يعبأ بهم المسلمون وحسبهم من المتشردين فلم يستأصلوا جرثومتهم ولا أجلوهم إلى ما وراء جبال البيرينه كما كانت تقتضيه الحكمة السياسية من تحكيم الثغور في هذه الجبال واتخاذها سداً مانعاً لهجوم الأعداء على المملكة الاسلامية . ثم ظهرت ملوك الطوائف (٢) من المرابطين والموحدين وبني زيان وبني هود وآخرهم بنو الاحمر ومؤسس هذه الدولة عبد الله محمد بن احمر سنة ٦٣٣ هـ وعدة ملوكها عشرون واستمر ملكهم ٢٦٥ سنة وكان آخرهم أبا عبد الله الصغير وكانت عاصمتهم غرناطة .

فلما ضعف امر المسلمين وكثر النزاع والجدال بين امرائهم قويت شوكة المسيحيين في شمال اسبانيا . وكان يوان الثاني حاكماً على اراغون وهي إيالة في شمال اسبانيا على ساحل البحر المتوسط وعلى صقلية فزوج ابنه فرديناند بابنة حاكم قشتالة وهي ايزابلا . وتلقب فرديناند بالكاثوليكي وخلف اباه في الملك واستولى على قشتالة

(١) الخلافة الأموية في الاندلس من سنة ١٣٩ - ٤٢٣ = ٢٨٤ سنة هجرية

(٢) الخلافة الاموية

ملوك الطوائف من سنة ٤٢٣ - ٤٧٩ = ٥٦ سنة هجرية

دولة المرابطين (يوسف بن تاشفين) من سنة ٤٧٩ - ٥٤٠ = ٦١ سنة هجرية

دولة الموحدين من سنة ٥٤١ - ٦٦٨ = ١٢٧ سنة هجرية

ملوك الطوائف . من سنة ٦٦٨ - ٨٩٨ = ٢٣٠ سنة هجرية

فرديناند وايرابلا ١٤٧٩ ميلادية

آل اوستريا (شارلكين) ١٥١٩ ميلادية

آل بوربون ١٧٠٠ ميلادية

بالوصاية عن زوجته وحارب المسلمين وأخذ منهم غرناطة ، وأخرجهم من اسبانيا وأخذ من الفرنسيين مملكة نابولي في ايطاليا وفي ايامه اكتشفت اميركا وحمل ما فيها من الذهب إلى أوروبا . وبعد وفاة ايزابلا انتقل ملك قشتالة بالارث إلى بنتها حنة المجنونة وكانت متزوجة بفيليب الجميل ارشيدوق اوستريا وخلفت منه ولداً اسمه الدون كارلوفانتقل اليه بالارث ملك جده فرديناند وجدته ايزابلا واجتمعت له المملكة الاسبانية بها فيها من الثروة الاميركية . ثم ورث من جده الثاني امبراطورية المانيا وصار انتخابه لها وتلقب بشارلكن وحاز على جميع الممالك المذكورة في الجدول الآتي :

جدول في بيان ما ورثه شارلكن أي شارل الخامس من الممالك

(١) آل اسبانيا	(٢) اوستريا
فرديناند الكاثوليكي تزوج ايزبلادي قشتالة	مكسمليان تزوج ماري دي بورغونيا
ملك	ملكه
أراغون ونابولي	امبراطور المانيا الوارثة من شارل وارشيدوق اوستريا الجسور (هولانده وارثوا وفرانش كونته) .
اسبانيا والمستعمرات الاسبانية في اميركا	
حنة المجنونة	تزوجت
	فيليب الجميل

الدون كارلوهو شارل دوتريش الذي لقي فيما بعد شارلكن أما اوستريا فكانت احدى الامارات التي تتألف منها امبراطورية المانيا . أما امبراطورية المانيا فكانت مجموع امارات ومدائن حرة وكانت الامبراطورية فيها بالانتخاب لا بالوراثة وذلك انه عند موت الامبراطور يجتمع امراء الامارات السبعة وهم اكبر الامراء الذين تتألف منهم الامبراطورية ولذا لقبوهم (المنتخبين السبعة) وانتخبوا امراطوراً من اوستريا في الغالب أي من العائلة التي تملك على امارة اوستريا فلما مات مكسمليان امراطور المانيا سنة ١٥١٩ م انتخب حفيده

شارلكين . وكان فرانسوا الأول ملك فرنسا صاحب عظمة وثروة ونفوذ وعسكر فكان يسعى مع المنتخبين في انتخاب نفسه ورشاهم بكثير من الأموال والهدايا فاخذوا ماله وانتخبوا عدوه شارلكين فاشتدت الرقابة بينهما . وكاد شارلكن يتفرد بالملك في اوربا ولم يبق له رقيب فيها سوى فرانسوا الأول ملك فرنسا فحاربه واسره واحضره إلى مدريد عاصمة ملكه وعقد معه معاهدة موافقة لسياسته ثم اطلق سراحه فلما وصل أرض فرنسا نقض العهد واسعد السلطان سليمان القانوني وكان أقوى ملوك الأرض قاطبة . وجرت محاربة بحرية في مياه تونس بين اسطول شارلكين واسطول خير الدين باشا المشهور باسم بارباروس أي ذي اللحية الشقراء وانتصر فيها العثمانيون وانتصرت العساكر الانكشارية أيضاً على العساكر الالمانية في محاربة أخرى برية وقعت على حدود النمسا والمانيا . وكان شارلكين شديد الحرص على التفرد بالملك والسؤدد فلما لم يستطع ادخال جميع اوربا في حكمه ونحت نفوذه استولى عليه اليأس وانقطعت آماله فتنازل عن ملك اسبانيا لابنه فيليب الثاني وتفرغ عن امبراطورية المانيا لاختيه فرديناند واعتكف هو في دير من الأديرة إلى ان مات حزناً وكمداً .

أما موضوع رواية (ايرناني) فهو ان الدون كارلوقبل ان يصير امبراطوراً على المانيا وبسمى شارلكين كان يهوى في ماريده غانية اسمها الدونة سوله وكان يهاها أيضاً عمه الدوف روى غوميز . أما هي فكانت تعشق شاباً من الاشقياء وقطاع الطريق اسمه ابرناني وكان ثلاثتهم يترددون عليها بدون أن يشعر احدهم بالآخر . فصادف الدون كارلو عند معشوقته هذا الشاب مرتين ففي المرة الأولى مكنه من الخروج ولم يتعرض له وفي المرة الثانية ضيق عليه بالحرس وحصره بالعسكر واناح لهم دمه وجعل جائزه لمن يأبئه برأسه ففر ايرناني بكل مشقة من بيت حبيبه واختفى عن الابصار فلما انقطع أمل هذه الغانية من الملك ومن حبيبها الشاب الفت نفسها بين ابدي عاسفها الثالث وكان شيخاً هرمها ففرح بها وحملها إلى قصره وأراد الدخول بها . ثم اهندى ابرناني إلى حبيبه وجاء إليها وبينما هو يغازلها ويعانفها وإذا دخل صاحب البيت وهو الدوف روى غوميز ووجدهما متعانفين ثم جاءهم الملك بغته وأراد القبض على ابرناني فامنع الدوف من تسليمه وعد أخذ من بينه اهانة لشرفه وأشار إلى صور ابائه واجداده المعلقة على جدران العرفه وهم حماه الملهوفين ومعينو المستجيرين . فترك الملك ايرناني واخذ الغائبه عوضاً عنه وخرج بها من القصر فلما لحا ايرناني من

الهلاك طلب من الدوق ان يطلق سراحه ليتعقب أثر محبوبته ويخلصها من أيدي الملك وعاهده على ان يعود إليه متى طلبه واعطاه بوقاً لينفج فيه متى اراد ان يستدعيه فادا سمع صوت البوق حضر اليه بالخال .

ثم ينتقل مجلس التشخيص إلى اكس لاشابل في المانيا وكانت عاصمة الامبراطور شارلمان وفيها قبره ثم جرت العادة بتتويج الامبراطور في هذه المدينة . فادا ارادوا تولية امبراطور اجتمع المنتخبون وهم الملوك أو الامراء السبعة الذين لهم حق الانتخاب واختاروا أحدهم وألبسوه التاج وأطاعوه . وكان الدوق قارلو مرشحاً لهذا الامر . فائتمرت عصبة على قتله وفيهم عمه الدوق روى عوميز واختلفوا في المحل الذي فيه قبر شارلمان واخذوا معهم ايرناني ليطعنه بخنجره . فعلم بهم الدوق قارلوس ودخل المقبرة ونزل لقبر شارلمان وفاه بكلام هومس ملوك الكلام ومن أبلغ ما نظم فيكتور هوكو . ثم اطلقت المدافع ودقت الاجراس اعلاناً بانتخابه امبراطوراً على المانيا وخليفة لشارلمان وألقى القبض على المتآمرين واراد قتل ايرناني لانه ليس من ذوي الرتب والشرف ولكنه بين نسبه وظهر بان اسمه الحقيقي هو جان دراغون دوق سيغورب وقاردونيا فعفى عنه وزوجه بمعشوقته الدونة سوله فلما اخذها وأراد الخلوة بها في قصره سمع صوت البوق فتذكر عهده وفضل الموت على عدم الوفاء بالوعد فتسرب السم وتسربت حبيبته ثم قتل الدوق روى غوميز نفسه أيضاً من شدة حبه لتلك الغاية . فهذه الرواية ليس لها حقيقة تاريخية وانما هي من مختلقات الشاعر وتخيلاته ولكنها في أعلى طبقة من البلاغة والاسجاء وحسن الدوق .

٣ - روى بلاس

صور المؤلف في هذه الرواية التاريخية انحطاط دولة اسبانيا في أواخر القرن السابع عشر للميلاد وذلك انه بعد فيليب الثاني ابن شارلكن المتقدم ذكره جلس على كرسي المملكة الاسبانية ابنه فيليب الرابع ثم شارل الثاني آخر ملوك هذه السلالة النامساوية ولما جلس سنة ١٦٦٥ م كان عمره أربع سنوات وهو لا يستطيع المشي ولا الكلام فكانت الوصاية لأمه ثم لآخيه وامرأته ووزراء دولته وبعد ان كر أيضاً لم يلتفت لمصالح الملك وأهمل ادارة مملكته وبيته وزوجته وكان يقضي ايامه في الصيد

والتجول في الراري والغابات وامراته في هم وكدر من وحدتها وتكلفها بمراسم التشريفات وبالتقاليد المرعية في قصر الملك ولم يكن لشارل الثاني ولد فاوصى بالملك لحفيد لويس الرابع عشر ملك فرنسا وانتقلت دولة اسبانيا من آل اوستريا إلى آل بوربون سنة ١٧٠٠ و زال نفوذها واعتبارها من بين الدول الاوروبية ولم تنزل في انحطاط لم تخلص منه للآن وترى بعين الحسد تهافت الدول الاوروبية على استعمار افريقيا ومدهم فيها السكك الحديدية وجرهم المنافع التجارية وهي شاحصة ببرها كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه . واضاعت بالامس آخر مستعمراتها في اميركا وهي جزيرة كوبه ثم جزائر فيليبين ولم تكسب اليوم من تقسيم البلاد المراكشية الا جزءاً موهوماً على ساحل المحيط الغربي يسمى (ريودور) أي نهر الذهب . ويشاهد رسمه على الخريطة المرسومة بعد عقد المعاهدة بينها وبين فرنسا ولا يرى أثر الحقيقة مسماه وحل ما يعلم عنه ان ليس هناك لا نهر ولا ذهب .

فصور الشاعر في هذه الرواية انحطاط المملكة الاسبانية وشرح اسباب انقراض دولتها فاذا رفع السار عن المسرح ظهرت غرفة من غرف قصر الملك في مادريد وفيها وزير المملكة وقد غضبت عليه الملكة وطردته من القصر لانه لم يقبل بان سروج ستاً من حاشيتها بعد ان راودها وحظي بها وقبل ان يخرج من القصر ليلنزم بيته صمم على الادغام من الملكة فاستدعى ابن عم له يسمى قيصر وكان لفقرة معاشراً للهمل وقطاع الطريق مع ما له من الحسب والنسب وأراد ان يتحذه آلة لدسائسه . فاستكشف من دالك ورد ما عرضه عليه من المال والجاه فامر بنفيه للهند فنفي إليها والس خادمه روى بلاس لباس الاسراف ودعاها بابن عمه قيصر وقدمه لرجال الدولة واعياها بعد ان اسكبه أوراقاً يعترف فيها باصله وخدمته له وكان روى بلاس بعشق الملكة ففرب منها وحطي لديها بالقبول وصار من أعظم وزرائها واکر مستشاريها . وبينما هو حائز على رضا الملكة وعلى أعظم مسند في المملكة ظهر له سيده وأخذ يهدد الملكة ويوبحها على هيامها في حادمه وعلى تفريطها بنفسها وطلب منها امضاء ورقة ليحذها حجة عليها ولا يزوج بسرهما ما دام مسلماً له رما الملك فكادت الملكة فصل بذلك خوف الفصحه والعار ولكن روى بلاس اسد عصبه حرصاً على شرف الملكة محبته وقتل سيده ثم شرب سماً وماتت الملكة تدب عليه وتكي فهذا محصل الرواية .

وقال فيكتور هوغو في مقدمتها :

ان المتفرجين في المراسح على ثلاثة اصناف : احدهما النساء . والثاني الخواص . والثالث العوام . فالذي يتطلبه العوام من التأليف الدراماتيقي بدون استثناء تقريباً هو العمل (١) والذي تتطلبه النساء قبل كل شيء هو الشهوة والذي يتطلبه الخواص على الخصوص هو الأخلاق . فاذا أمعنا النظر في هذه الاصناف الثلاثة من المتفرجين نجد العوام هائمين بالعمل لدرجة يتساءلون فيها عند اللزوم بالاخلاق وبالشهوات . وتجدهن النساء مكترثات بالعمل أيضاً ولكنهن مستغرقات بتفاصيل الشهوة حتى يقل اشتغالهن جداً بتصوير الاخلاق . ونجد الخواص يتلذذون بمشاهدة الاخلاق أي بمشاهدة الرجال احياء على المراسح ويتلقون الشهوة كأنها عارض طبيعي في التأليف الدراماتيقي ويحصل لهم انزعاج من العمل . والسبب في ذلك ان العوام انما يتطلبون في حضورهم المراسح الهيجان . والنساء يتطلبن الخلدجان . والخواص يتطلبون التفكير . والجميع يبغى لذة ولكن اولئك يبغون لذة النظر . وهؤلاء يردن لذة القلب . والآخرين يبغون لذة العقل . ومن ثم حصل في رواياتنا - أي روايات فيكتور هوغو - ثلاثة أنواع مختلفة من التأليف احدهما عامي سافل . والآخران رفيعان عاليان . ولكن في ثلاثتهم الكفاية لسد الاحتياج . فالعوام لهم الميلودرام أي ما كان فيه انتقام وقتل وأزال وفضيحة والنساء هن التراجيديا التي تشرح الشهوة . والخواص لهم الكوميديا التي تصور الاخلاق الانسانية .

وربما يتداخل بعض هذه الثلاثة في الآخر لان العوام ربما كان فيهم من له شوق طبيعي لتطلب الجمال كما يكون له ذوق في الاشياء التافهة . ومن له هيام في التصورات والتخيلات البديعة قد يكون له اقبال على الاشياء العادية المزدري بها . وكل واحد من خواص الادباء البالغين في الأدب رتبة الكمال ينبغي ان يتصف بصفة المرأة من جهة الاحساس القلبي كما ان المرأة تتصف احياناً بصفة خواص الادباء المفكرين .

فاذا أمعنا النظر في اصناف المتفرجين الثلاثة نراهم جميعاً محقين . فان النساء هنَّ حق في ابتغائهن خلدجان القلب . والخواص لهم الحق في ابتغائهم التعلم

(١) أي الفعل الذي يجري على المراسح من ضرب وقتل وقيام وقعود وحركة وسكون .

والاستفادة . والعوام لا لوم عليهم في طلبهم التسلي . فمن هذا الشرح ينتج قانون الدرام .

فالقصد من الدرام والغاية منه هو تصوير الاخلاق . أي اختلاق رجال وتمثيلهم على المراسح بمقتضى الشروط المؤلفة من صناعة الأدب ومن الطبيعة . والقاء الشهوات في هؤلاء الرجال لبيان أخلاقهم وأيضاحها . ثم استخراج الحياة الانسانية من تصادم هذه الاخلاق والشهوات بالنواميس الكبرى الالهية . أي استخراج وقائع كبيرة ، صغيرة ، مؤلمة ، مضحكة ، هائلة تشتمل على لذة للقلب يسميها الناس المنفعة وعلى عبرة للعقل يسميها الناس محاسن الاخلاق . فيتضح من ذلك ان الدرام يخرج من التراجيديا بتصوير الشهوات ومن الكوميديا بتصوير الاخلاق والصفات . فالدرام هو الشكل الثالث الكبير من اشكال الصناعة الادبية ويشتمل على الاثنين الاولين ويجمعهما ويفصلهما . فلو لم يوحد شكسبير بين قورنيل ومولير ولم يعط يده اليسرى لقورنيل ويده اليمنى لمولير لبقى كل منهما بعيداً عن الآخر . ولكن بوجوده التقت الكوميديا بالتراجيديا التقاء القطب المثبت بالقطب المنفي من الكهرباء فحصل من التقائهما شرارة هي الدرام . أهـ .

ثم انتقل فيكتور هوكلبيان حقيقة الدرام بالنظر لفلسفة التاريخ فقال :
إذا اقتربت مملكة من السقوط تمكن الناظر فيها من ملاحظة علائم كثيرة . ففي بادىء الامر يميل الاشراف للانحلال . وبانحلالها تنقسم على الوجه الآتي :
تضطرب المملكة وتنطفي السلالة المالكة . وتزول احكام القانون . وتتجاذب الدسائس الوحدة السياسية فتمزقها شذر مذر . وتحمد كبار العائلات وتنقرض . ويشعر الجميع في الداخل والخارج بضعف محيت . وتسقط عظام الامور التي تقوم عليها الدولة ولا تبقى واقفة الا على صغائر الامور وحدها ويصبح منظرها العمومي محزناً . ولا يبقى فيها لا ضابطة ولا عسكري ولا مالية . وكل واحد يحسب الساعة آتية لا ريب فيها . فمن ذلك يحدث في الازهان كدراً من البارح وخوف من الغد واحتراس من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة .^١ وحيث ان مرض الدولة في رأسها فاعيان المملكة الذين هم أقرب إلى الرأس يكونون أول المصابين بهذا المرض . فماذا يحدث حينئذ ؟ لا يبقى في قصر الملك من الاعيان المقربين الا الذين هم أقل حياء وأسوأ أخلاقاً وجميعهم على وشك الانقراض ويصيق الزمان وتنبغي العجلة ويلزم لهم

الاستهلاك في جمع المال والارتقاء لأعلى المراتب والاستفادة من الحال الحاضرة . ولا يفكر الواحد منهم إلا بنفسه . ويجمع بلا شفقة على الوطن ثروة قليلة خاصة به في قرنة صغيرة من الفقر العام الكبير . ويصير ندياً ويصير وزيراً ويتهالك في الوصول للسعادة ونفوذ الكلمة ويفتق ذهنه باستحصار الأجوبة الظريفة وينافق ويداهن ويلاطف فينجح . وكلهم يستحذون على مقامات الدولة ومناصبها وعلى وساماتها ورتبها وألقابها وأموالها . يأخذون الجميع . ويتطلبون الجميع . وينهبون الجميع . ولا يعيش الواحد منهم إلا بالحرص والطمع . ويخفون قلاقل المملكة وفسادها وسوء ادارتها الداخلية تحت مهابة ظاهرية . وتشبه نفوسهم للعجب وتطاول اعناقهم للعظمة والكرياء . ولما كان الشرط الأول في حياة هؤلاء المقربين هونسيان جميع الحواس الطبيعية فيصبح الواحد منهم كانه وحش مفترس ، ومتى جاء يوم سقوطه وإبعاده عن مناصب الدولة صار مدهشاً عجيباً وانقلب إبليساً

فاذا يئست الدولة من حالتها ابعدت عن مراكزها النصف الثاني من اعيان المملكة الذين هم أكرم نسباً واحسن جرثومة . فيلازمون بيوتهم ويدخلون قصورهم ويذهبون لبلادهم ومعاقلمهم ومصائفهم وينفرون من مصالح الدولة ولا يستطيعون تدبير أمرهم ولا حيلة ييدهم لأن المملكة قد حان موتها ولم يبق في الأيام الا ذماء . (الذماء بقية الروح في المذبوح) كيف العمل وماذا يجدي التحسروما ينفع البكاء ؟ فينبغي التغافل واغماض العين وتسليية النفس بالملاهي واللعب والأكل والشرب والتلذذ والتنعم . من يعلم ؟ هل بقي للواحد منهم سنة أو سنتان أمامه ؟ فاذا تفوه سادة المملكة وكبرأؤها بذلك أو شعروا به واحسوا بشيء منه فقط اقبلوا على التهور في مصالحهم والافراط في امورهم . فزادوا في مشترياتهم وفي حلي نسائهم وفي ضيافاتهم واتقان مطابخهم وموائدهم واسرفوا وبذروا واهدوا وفرقوا وباعوا واشتروا ورهنوا واستدانوا وسلموا انفسهم لأكلي الربا واتلفوا مداخليلهم واضرموا النار في الجوانب الأربعة من أملاكهم . فيصبح الواحد منهم يوماً وقد حلت به المصيبة ونزل عليه البلاء وخرب هو قبل خراب المملكة رغماً من سرعة سيرها نحو الانقراض . فينفد ماله ويحترق كله ولا يبقى من تلك الحياة الزاهرة والطهي والبهجة ولا الدخان لانه طار أيضاً . ولم يبق إلا الرماد ولا أكثر من ذلك . فيتركه جميع الناس وينسونه الا اصحاب الديوان . فتصير حالة هذا الشريف المسكين إلى ما يمكن أن تصير اليه .

فيصبح بائساً سفيلاً من الرعاع ويدور مع الحمل ويختلط بجمهور العامة ويغيب بين افواجهم المزدحمة . ولم يكن خالط العوام قبل ذلك ولا رآهم الا على ابوابه واعتابه فيغطس الآن بينهم ويلتجئ إليهم . ولم يبق معه نضار وانما بقيت له (الشمس) أي نضارة الحياة وهي ثروة من لا ثروة له وبعد أن أقام في أعلى طبقات الجمعية فهو الآن يقيم في أسفل طبقاتها . ويدرب نفسه على الذل بعد العز . ويهزأ بالذين اشتد بهم الحرص والطمع حتى نافقوا وتقربوا من أولي الامر وصاروا من الاغنياء النافذي الكلمة . وأما هو فيصير فيلسوفاً لا يبالي بالاقبال والادبار ويشبه من حوله من رعاع الناس وأوباشهم بحاشية القصر ورجال المعية ويتخذ منهم جماعة واخذانا ويترأس عليهم ويراعي النخوة والشهامة في جانبهم . وعدا هذا فهو طيب العنصر جسر القلب مفطور على النجابة والفطنة جمع في اخلاقه وخصاله بين ذوق الاديب الشاعر ودانة الصعلوك الفقير وشهامة الرئيس الأمير . لا يبالي بشيء ويسخر من كل شيء ويشوق رفاهه واصحابه للسرقة كما كان يبعث برجاله واتباعه للنهب والغارة ولكنه لا يتنزل لان يسرق أو يستعطي بنفسه . تراه رث الظاهر سليم الباطن ذا كرم وسخاء كالامير وتهور كتهور اليائس الفقير . لم يبق له من الاصاله إلا شرف النسب الذي يحافظ عليه والاسم الذي يخفيه والسيف الذي يشهره .

فهاتان الصورتان اللتان رسمناهما ووصفنا بهما قسم المقرين وقسم المبعدين من اشراف المملكة يوجدان في وقت من الاوقات في تاريخ جميع الممالك . ولكنها في أواخر القرن السابع عشر للميلاد وجدت في اسبانيا بصورة تستلفت النظر ولذا شخصنا في هذه الرواية التمثيلية القسم الأول من كبراء اسبانيا في الدون سالوست المقرب في قصر الملك والمنعم عليه والقسم الثاني في الدون قيصر (سيزار) الذي يرعى مع الحمل مع ان كلاً منهما ابن عم الآخر . وعدا هذين الشخصين اللذين يتمثل فيهما كبراء المملكة الاسبانية المقرين والمبعدين يوجد تحتها شيء كبير مظلم مجهول يتموج في جنح الظلام . فهذا الشيء هو الشعب الذي له المستقبل وليس له الحاضر . فالشعب يتيم فقير ولكنه ذو قوة واستعداد وقابلية يتطلب العلى وهو في الدرك الأسفل . وعلى ظهره علامة الخدمة والاستعداد وفي قلبه شوق للمعالي . الشعب خادم للسادة الكبراء ، وعاشق وهو في الذل والشقاء للصورة الوحيدة التي تتلأأ له

وسط هذه الجمعية المنقرضة كأنها نور إلهي ويتمثل له فيها الحاكمية والشفقة والنمو .
فالشعب هوروى بلاس خادم الدون سالوست .

فاذا تصورنا هؤلاء الاشخاص الثلاثة على الوجه المشروح بقي علينا أحيائهم
وتمشيتهم أمام المتفرجين وأن ندير عليه أعمالاً ثلاثة تتلخص فيها جميع أحوال المملكة
الاسبانية في القرن السابع عشر . ويوجد فوق هؤلاء الرجال الثلاثة مخلوقة صافية
نيرة . فهذه المخلوقة هي امرأة وملكة وهي في شقاء من حيث انها امرأة لأنها لم يكن لها
زوج . وهي في شقاء من حيث انها ملكة إذ ليس لها ملك . ومتعطفة على من تحتها
بعاطفة ملكة وقلب امرأة وناظرة للدرك الأسفل . بينا أن روى بلاس الذي يتشخص
فيه الامة ناظر للمقام الأعلى . فهذه الرؤوس الاربعة المجتمعة على هذا الوجه
(بقطع النظر عن الأشخاص الثانوية) هي في نظر المؤرخ الفيلسوف النكات الأصلية
لمملكة اسبانيا منذ ١٤٠ سنة . ويمكن لنا أن نضيف رأساً خامساً لهذه الرؤوس
الاربعة وهورأس الملك شارل الثاني . ولكن شارل الثاني ملك اسبانيا لم يكن شخصاً
بل هو في نظر التاريخ ظلٌ ولذا بقي في الدرام ظلاً لم يبن شخصه

فما ذكرناه لأن انما هو بيان حقيقة هذه الرواية وهي روى بلاس بالنظر لفلسفة
التاريخ . ويمكننا النظر إليها باعتبار آخر . لان الأشياء في هذا العالم تختلف أشكالها
باختلاف النظر إليها . ومثل ذلك كمثل الجبل الأبيض . ان نظرت اليه من المحل
المعروف باسم (فروادوفليشس) تراه بهيئة غير الهيئة التي تراه فيها لو نظرت اليه من
المحل المعروف باسم (سالانش) . ومع ذلك فهو دائماً الجبل الأبيض . وكذا الحال في
هذا الدرام فانه يختلف شكله باختلاف النظر اليه . فلو نظرنا اليه باعتبار الانسانية
المحضة لرأينا الدون سالوست يتشخص فيه حب الذات والاهتمام واستغلال الفكر
والتغرض . والدون سيزار بعكسه يتشخص فيه عدم المبالاة وعدم الاهتمام وراحة
البال وعدم التغرض . وروى بلاس يتشخص فيه الذكاء والعشق واقتحام الاخطار
والمهالك . والملكة يتشخص فيها الفضيلة المائلة للانتهاك بسبب المحلل وضيق
الخلق .

وأما باعتبار صناعة الأدب فيجتمع في هذا التأليف الانواع الثلاثة من
الروايات التمثيلية . الدون سالوست هو الدرام . والدون سيزار هو الكوميديا وروى
بلاس هو التراجيديا . فالدرام يعقد العمل والكوميديا تشوشه والتراجيديا تحسمه

فالموضوع الفلسفي لهذه الرواية هو تطلع الأمة وتطلبها للمقامات العالية .
والموضوع الانساني هو رجل يحب امرأة . والموضوع الدراماتيقي أي الفاجع أو الهائل
هو محبة خادم للملكة . فجمهور العوام لا يرون الا الموضوع الاخير أي الدراماتيقي
الذي هو الخادم . والحق معهم . وهكذا يقال في كل تأليف من هذا القبيل .
فترتوف يضحك منه واحد ويرهب منه آخر . فان ترتوف حية تسعى في البيت . فهو
المراثي بعينه . فيكون تارة انساناً وتارة معنًى . وأوتلوهو في نظر البعض اسود يجب
بيضاء . وفي نظر البعض الآخر وضعٌ تزوج بشريفة وفي نظر الآخرين غيور أو هو
الغيرة على النساء .

ثم ان هذه الرواية لها تعلق من جهة المعنى التاريخي برواية إيراني . فان حالة
الكبراء في الروايتين تظهر بجانب حالة المملكة . ففي إيراني لم تكن اسبانيا اكتسبت
شكل الحكومة المطلقة ولذا كان الكبراء ينازعون الملك في الامر ويقوون عليه تارة
بالنفوذ وتارة بالسيوف ويخرجون عليه مرة ويطيعونه أخرى - كما كان الحال في المملكة
العثمانية على عهد الجزائر صاحب عكا وباشوات مصر وبكوات تونس ودايات الجزائر
وبقية الامراء الذين يقال لهم دره بك - ففي سنة ١٥١٩ م كان الكبراء في اسبانيا
يبتعدون عن قصر الملك ويقيمون في الجبال وفي المعازل والحصون . ويكونون تارة من
قطاع الطريق مثل إيراني وتارة من الامراء المستقلين في ادارتهم الداخلية مثل روى
غومز كما فصلت احوالهم في تلك الرواية . ثم بعد مئتي سنة من ذلك التاريخ انقلبت
القضية فصار الكبير الذي كان اشبه بالمستقل في ادارته رجلاً من رجال المعية ينافق
لينفق والبعض الآخر من الكبراء سقطوا في الفقر والمذلة فهم يخفون اسماءهم لا
للتملص من سطوة الملك بل للتملص من أصحاب الديوان والحاحهم فالواحد منهم
لا يصير قاطع طريق بل يضير نورياً أي من الرعاع . فيرى من ذلك ان الحكومة
المطلقة مرت على هؤلاء الكبراء اعواماً كثيرة فأحنت رأس هذا وقطعت رأس ذاك .
ثم ان بين رواية إيراني ورواية روى بلاس مضى على اسبانيا قرنان من الدهر
حكم خلفاء شارلكين في غضونهما اللعنا . وكان من الحكمة الالهية عدم زيادة ساعة
ولا نقص ساعة في هذين القرنين . لان شارلكين ولد سنة ١٥٠٠ م وشارل الثاني
مات سنة ١٧٠٠ م ورث لويس الرابع عشر شارلكين كما ورث نابليون سنة ١٨٠٠ م
لويس الرابع عشر . فالمؤلف عطف نظاره نحو التاريخ ونحو ظهور هذه الدول

المعظمة فيه وملاً رواية ايرناني بضياء الفجر ورواية روى بلاس بطلام الشفق . ففي ايرناني اشرفت شمس آل أوستريا . وفي روى بلاس غربت شمس باريس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٣٨ م . انتهى .

فيتضح من هذه المقدمة مع ما فيها من ركاسة الترجمة لعدم تنقيحها بسبب ضيق الوقت حقيقة الروايات التمثيلية وكيفية تشخيصها للأحلاق الانسانية وتصويرها الوقائع التاريخية كما يظهر الفرق بين انواع الروايات من درام وكوميديا وتراجيديا فان تأليف الروايات له شروط وقواعد وأساليب كما ان له غاية ومقصداً . ويتضح من ذلك أيضاً وجه اعتراض الافرنج على المقامات الحزبية التي هي أشبه بالكوميديا . ولعل ادباءنا يهجون هذا المنهج الجديد في التأليف الأدبية ولا يقفون عند حد القصيد والرجز أو الرسائل والمقامات والخطب فان القرن العشرين مفتقر إلى تصوير الأخلاق الشرقية بأسلوب الروايات التمثيلية ومحتاج إلى درس تاريخ الأمم الشرقية درساً مدققاً ومعرفة خصال كل رجل من مشاهير رجاله كصلاح الدين وموسى بن نصير وامثالهما . ونظم الكونت دوليسل وهو خليفة فيكتور هوغو والمنتخب عوضاً له في الاكاديمية قصيدة غراء سماها موسى الكبير وصور فيها محاكمة موسى بن نصير ووقوفه بين يدي الخليفة الأموي ومدافعة عما اتهم به كما أن عبد الحق حامد بك ألف باللسان العثماني رواية طارق بن زياد وهي نثرية تمثيلية وفيها أشعار بديدة .

٤ - الملك يتسلى

صور فيها المؤلف فرانسوا الأول ملك فرنسا ومجنونه تريبوله . لان الملوك كان لهم مجانين ومهرجون ومضحكون وأقزام قصار القامة ومساخر . ولم يزل يشاهد اثرهم وبقيتهم في بلاد الشرق . ولعهد قريب كان للولاة في بلادنا مساخر ومضحكون يسمونهم المهرج والسوطري ولم يزل منهم من هوحي ليومنا . واما في أوروبا فاعتاضوا عن جميع ذلك بالمراسح وتفننوا في تنويعها . فجعل المؤلف فرانسوا الملك المتكبر الجبار وتريبوله المجنون المضحك الهزئة على طرفي نقيض في مسرح اللعب . ولكن تريبوله مع ما هو عليه من دناءة النفس والتلصص كان أباً حنوياً شفوفاً على أولاده .

فكانت له خصلة حسنة من جهة الأبوة وقد قام بحقها احسن قيام واطهر احساسه
الابوي على بنته حينما أراد الملك ان يقع بها للتسلية .

٥ - لوكريس بوجيا

بوجيا عائلة اسبانية الاصل انتخب منها باباوات اشهرهم اسكندر السادس
وصار لهذه العائلة نفوذ عظيم في رومية وإيطاليا وجميع العالم الكاثوليكي . وكان للبابا
اسكندر السادس أولاد منهم قيصر بوجيا المشهور بارتكاب الأفعال الدنيئة والجنايات
الفظيعة وكان اسقفاً وله اخت تسمى لوكريس بوجيا .
فموضوع الرواية ان خمسة شبان من أولاد الكبراء اجتمعوا في البندقية
(فينيسيا) في مرقص تنكر فيه الراقصون والراقصات بالبراقع ثم جلس هؤلاء
الاصحاب يتسامرون وأفضى بهم الحديث إلى ذكر الفظائع وتعداد الجنايات التي
ارتكبتها عائلة بوجيا . وكان أحدهم القبطان جينارونام على حديثهم ثم استفاق
على قبلة قبلته اياها في جبهته امرأة مستترة بالبرقع لم يعرفها . فهذه المرأة هي امه
لوكريس بوجيا وسمعت قذف أولئك الشبان في حقها وحق عائلتها . ولم يكتف
الشبان بالكلام بل مروا بباب دار زوجها الدوق دوفيرارو ومعهم جينارو وفتطاول على
تاج الدوقية المرسوم على بابه وطعن في لوكريس بوجيا وفي أخيها وأبيها . فأمر الدوق
باللقاء القبض عليه وحبسه وطلبت زوجته قتله ثم لما علمت بانه ولدها طلبت العفو
عنه . فاغتثش الدوق دوفيرارو من ذلك وظنه واحداً من عشاقها واجبرها على سقيه
السم . وبعد خروج زوجها من البيت سقت ولدها المسموم ترياقاً نافعاً ضد السم
فشفي وفتحت له الباب وهربته وهو لا يدري بانها امه ثم ارادت الانتقام من رفاقه
الخمسة الذين طعنوا فيها في مرقص البندقية . فاحتالت في دعوتهم عند الاميرة نغروني
وفي سقيهم السم القاتل وبينما هم منهمكون في اللذات على المائدة ومنتعمون بنعيم
الضيافة سمع النواح ودخل الرهبان بأثواب الماتم وخلفهم خمسة توابيت لحمل
الموتى . وظهرت لوكريس بوجيا على المسرح شامطة في اعدائها الخمسة الذين قذفوا
في عرضها والسم يدور في بدنهم ولا يمهلهم الا برهة قليلة . ولكن جينارو لحق برفاقة

وأراد الموت معهم وشرب من كأسهم ورفض من أمه الترياق الذي ناولته إياه لتنقذه من السم وطعنها بخنجره وهو لا يدري أنها أمه فقالت له حينئذ لوكريس بورجيا (أنا أمك) وختمت الرواية بموتهم جميعاً . و مراد المؤلف من هذه الرواية بيان أن أشقى النفوس وأظلمها وأطغها قد تتجمل بأحاساس كالأحاساس الناشيء من محبة الوالدة لولدها .

٦ - توركماده

وهي من الروايات التمثيلية التاريخية . أما توماس توركماده فهو رئيس محاكم التفتيش الديني في إسبانيا . وقد اشتهرت هذه المحاكم بالظلم والعدوان والتعذيب بأنواع آلات العذاب كالضرب الشديد وشد المعذنين بالمشدات حتى تتحلل عظامهم وتنف شعورهم وإلباسهم الطاسات المحمية ووضعهم في صناديق مسمرة حتى إذا تحرك الموضوع فيها دخل المسمار في بدنه ومزق جلده ولحمه وغير ذلك من أنواع العذاب والاحراق بالنار أو التفریق في الأنهار والبحار . وعرفت هذه المحاكم باسم (انكيزيسيون) وكان أول تأسيسها في قشتالة واراغون من إسبانيا لمحاكمة المسلمين واليهود والمشكوك في إيمانهم من النصارى الذين يتساهلون بفرائض الدين الكاتوليكي وتوفي توركماده سنة ١٤٩٨ م أي عقب إخراج المسلمين من إسبانيا .

٧ - بورغراف

وهي من الروايات التمثيلية أيضاً . وهذا الاسم يطلق على ذوي الآراء السخيفة لاسيما في المسائل السياسية . والبورغراف هم أمراء البلاد ومحافظوا القلاع كما كان الجزار في عكا وأبونيوت في يافه ولم يزل له في يافه سبيل ينسب إليه ويروى عن هؤلاء الولاة والأمراء الروايات الغريبة والأقاصيص العجيبة . فصور فيكتور هوغو في رواية بورغراف أخلاق أمراء الألمان وغرائب أحوالهم

٨ - ماري تيد - وهي ملكة الانكليز (١٥١٦ - ١٥٥٣ م) بنت هابري الثامن

وكانت مخالفة للإصلاحات والنظامات الجديدة شأن المستبددين من الملوك . فألف الشاعر فيها هذه الرواية .

٩ - انجلو- اسم ملك ظالم من ملوك بادو في إيطاليا اتخذ الشاعر موضوعاً لروايته .

١٠ - ماريون دولورم - غانية من غواني باريس كانت على عهد لويس الثالث عشر والكردينال ريشيليو الوزير الشهير فصورها الشاعر في روايته .

١١ - اسمالده - اسم نورية في باريس ولعلها من الأشخاص الموهومة واتخذها المؤلف عروساً لهذه الرواية التمثيلية ولقصة « نوتردام دوبياري » .

١٢ - امي روبسار .

فهذا ما ألفه فيكتور هوغو من الروايات التمثيلية وسماه درام . واكثر هذه الروايات منظوم ومنها ما هو نثر .

نثر فيكتور هوغو

المنثور من كلام فيكتور هوغو على فنون كثيرة منها فن القصص المعبر عنها بالرومان ومنها الأدب والفلسفة والانتقاد الأدبي والتاريخ والرحلة والمراسلات والأقوال والاعمال والمشهودات ونحو ذلك :

١ - فأشهر القصص التي ألفها هي قصة البؤساء وذكرنا فيما سبق ان العلامة الفاضل شمس الدين سامي بك الفراشري - وفراشقرية في ولاية يانيه من بلاد الارناؤد - ترجم جزءاً كبيراً من هذه القصة للسان العثماني وسماه السفلاء ونشره بمطبعة مهران في الاستانة . ولسامي بك تأليف كبيرة مفيدة مثل قاموس الاعلام في ستة مجلدات ضخمة وقواميس صغيرة وكبيرة من التركية للفرنساوية ومن الفرنسية للتركية وغير ذلك من المؤلفات النافعة العصرية .

أما الباعث على تأليف هذا الكتاب فهو ما ذكره المؤلف في مقدمته حيث قال :

طالما وجد عذاب اجتماعي بفعل القوانين والعادات ، طالما لم تحلّ الثلاث المسائل العصرية وهي الخط من كرامة الانسان بكثرة البؤساء وسقوط المرأة في العهر

بسبب الجوع وفقر دم الأولاد باشتداد برد الليل ، وطالما وجد في الناس جهالة وفقر فالكاتب التي هي من جنس هذا الكتاب لا تخلو من الفائدة :
وموضوع الكتاب ان رجلاً فقيراً يدعى جان فلجان كسر قفل الخباز وسرق رغيفاً ليطعمه لاولاد اخته الجياع فحكمت عليه المحكمة وفقاً للقوانين بالاشغال الشاقة وألقى في الحبس الذي هو جهنم الهيئة الاجتماعية ولاقى من الآلام والمحن ما لاقاه على زعم النصارى المسيح بن مريم عليها السلام تخليصاً للبشر من الخطايا . فكان جان فلجان فداء للأخلاق الانسانية . وبعد تحمله الآلام والمشاق الكثيرة صعد إلى النور . وكان الاسقف ميريل وهو من أشخاص هذه القصة وعظ هذا الجاني بالصبر على المصيبة ووضع في نفسه المظلمة شعاعاً طفيفاً فاستنارت ثم توقدت وتوهجت فصور الشاعر ما اختلج في صدره هذا المحكوم عليه من الهيجان وعبر عن ذلك بحدوث زوبعة عاصفة في قرعة الرأس . ومن اشخاص هذه القصة وأبطالها البنت فوزيت والبوليس جافروين حالة العملة والشغال الذين يلجئهم الفقر والجوع الى ارتكاب القبائح والجرائم وحالة البنات الشغالات اللواتي صيرتهن المتربة من العواهر الفاجرات وصور الفقر المدقع والجوع القتال احسن تصوير . وفي هذه القصة أيضاً أخبار كافروش وهو من رعاع باريس وما جرى له مع البوليس جافرو وقد اشتهر خبرهما حتى ضرب بهما المثل . ومما ذكره المؤلف بطريق العرض في هذه القصة محاربة واترلو التي غنمها نابوليون الأول ووصفها بكلام نثري اشبه بالشعر الحماسي .
وذكر أيضاً الفتنة التي حدثت في باريس سنة ١٨٣٢ أما البوليس جافرو فجعله مثلاً للطاعة والقيام باعباء الوظيفة ..

٢ - نوتردام دوباري . وهي كنيسة باريس الجامعة سمي بها قصته لجران حوادثها في هذه الكنيسة وفي اطرافها . وهي بنيان ضخم غليظ وفي وسط باريس بقرب نظارة الضبطية ونظارة العدلية أو الحقانية . وموضوع القصة عشق ضابط فرنساوي يدعى فوبوس لرقاصة نورية تدعى اسميرالده ورقابة راهب الكنيسة لهما وخطف احد الاشقياء المدعو كازيمودو للبنت . فالموضوع بسيط عادي ومهارة المؤلف تظهر في تصوير الحالة التي كانت عليها باريس في القرون الوسطى ووصف ما فيها من الأزقة الملمة والطرق غير المستقيمة ووصف أهلها ما بين بائع وتاجر وصانع وتلميذ وجندي وشريف ووضع وهم يمرون أمام الكنيسة أفواجاً وفواجاً ويرحون ويغدون

في فنائها ويستظلون بظللها وصور جميع ذلك بصورة خيالية وهمية لطيفة تعجب القارئ وهي مؤلفة على اسلوب اللغة الرومانية .

٢ - هان الاسلاندي ، هي قصة مصورة للجمال الذي قد يكون في الشنيع كما صور محبة الوالدة لولدها وتهافتها على انقاذه من مخالب الموت في رواية لوكريس بوجيا رغماً عن قساوة أخلاقها وسوء أفعالها وكما صور هذا المؤلف ايضاً في رواية الملك يتسلى اشفاق الوالد على بنته وغيرته على ناموسها وسعيه في تخليصها من أيدي الملك مع ان هذا الوالد لا يغار على ناموس نفسه ولا على شرفها ولا يبالي في ارتكاب انواع الدناءة والمجون . ومن بديع الحكم التي في قصة هان الاسلاندي ما ذكره في مقدمتها عن (نضج القرية) قال :

في كل مصنف فكري مثل الدرام والشعر والرومان ثلاثة أشياء : ما شعر به المؤلف ، وما نظرفيه المؤلف ، وما تنبأ به المؤلف ، فليكون الرومان (القصة) حسناً ينبغي ان يكون فيه كثير مما شعر به وكثير مما نظرفيه . وأما الشيء المتنبأ به فيلزم ان يظهر من تمام الشيء الذي شعر به والشيء الذي نظرفيه بغير احتياج للحل وانما بالطبع والبداهة .

فاذا انقضى الفصل الأول من العمر وانحنت الجبهة على الكتاب والكتابة وشعر المرء باحتياحه لعمل شيء آخر خلاف الحكايات الغريبة التي يخوف بها النساء العجائز والاولاد الصغار واحتك بالحياة احتكاكاً اخلق ديباج شبابه ، يعلم حينئذ ان كل ايجاد وكل اختلاق وكل تنبؤ في هذه الصناعة ينبغي ان يكون اساسه مبنياً على الدرس والنظر والتفكير والعلم والقياس والمقابلة والتعقل الصحيح وكما الدقة في تصوير الاشياء بحسب الطبيعة ونقدها نقداً خالياً من الغرض والهوى . فالالهام الحاصل من مراعاة هذه الشروط الجديدة لا يضيع شيئاً من هذه الصناعة الأدبية وانما يكسب صاحبها نفساً عالياً وجناحاً قوياً ويعرف الشاعر بالطريق التي يسلكها حينئذ . وجميع التخييلات الهوائية التي تخيلها في سني حياته الأولى تجمد على هيئة مخصوصة كما يجمد الجليد ويتشكل منها فكرة ورأي . فهذا الدور الثاني من حياة المصنف المتفنن هو الزمن الذي يؤلف فيه أحسن مصنفاته ويكون فيه شاباً نضيج الرأي . فهذه هي الصحيفة الثمينة والنقطة العليا التي هي الأوج والساعة التي يشتد فيها الحر والضياء من وسط النهار واللحظة التي يقل فيها الظل إلى أقل ما يمكن ويكثر

فيها النور إلى أكثر ما يمكن أه .

٤ - بوغ جارغال . حرر فيكتور هوكو هذه القصة وهو في السادسة عشرة من عمره وطبعها ثم صححها واعاد طبعها . وموضوعها انه في سنة ١٧٩١ أي في اثناء الانقلاب الكبير الفرنسي كان في جزيرة سن دومينيك من جزر الانثيل الاميركانية عبد اسود يسمى بيرو يخدم عند أوربي من اغنياء المستعمرين فاحب ابنته مارية حباً شديداً وكانت بديعة الحسن والجمال ولها خطيب فاخفى العبد حبها ولم يبح لها بشيء ولكنها كانت تلاحظ حنوه واشفاقه عليها وخطيبها كان يرى ذلك ويعجب من جرأته على محبة خطيبته . ثم حصلت ثورة العبيد السودان على المستعمرين من البيضان وفي اثناء معامع الثورة خطف احد السودانين مارية وذهب بها إلى مكان بعيد فخرج خطيبها يفتش عنها فقبض عليه الثائرون وأرادوا قتله وأحضره بين يدي بيرو وكان انتخب بوغ جارغال أي رئيساً للثائرين فحماه من شرهم وجمع بينه وبين خطيبته مارية . ثم أن بوغ جارغال ضحى نفسه لسلامة معشوقته وخطيبها وتخلصهما من أيدي العبيد الثائرين وسلم نفسه لاعدائه البيضان ليقتلوه وأداه حبه إلى فداء روحه في سبيل محبوبته . ومن هذه القصة يظهر اقتدار المؤلف في تصوير الوقائع مع حداثة سنة .

٥ - آخر ايام المحكوم عليه بالقتل . ألف فيكتور هوكو هذه القصة سنة ١٨٢٩ ودرر فيها المحكوم عليه بالاعدام وهو في سجنه ينتظر حلول الساعة التي ينقضي فيها ابيه وتزهق روحه وعبر بأسلوب بديع عن بكائه واضطرابه وانزعاجه وبين جميع ذلك بأساليب شعرية لا وصفية فقط . فكان المؤلف كانه يشاهد جميع حركات هذا المسكين وارتجافه واختلاج عضلاته اختلاجاً طبيعياً لكسر سلاسل الحديد التي برجليه والحسل المربوط بيديه وكأنه يفهم ما يقوم في ذهنه ويخطر في باله من الافكار المرعبة والتصورات الهائلة المدهشة فحرر جميع ذلك بكيفية مؤثرة محزنة يكاد القارئ يجن من تلاوتها . ففيكتور هوكو اجهد نفسه كثيراً في ابطال الجزء بقتل النفس وسعى في الغاء هذا الجزء بقلمه ولسانه وخطب في هذا الموضوع خطباً كثيرة في مجلس النواب وفي النوادي والمجتمعات ولكنه لم يوفق لرفع جزاء القتل من القانون الفرنسي .

٦ - المشتغلون بالبحر . ومقدمتها تبحث عن اربخيل بحر المانش الفاصل بين فرنسا وانكلترا . فصور المؤلف في هذه القصة ما يكابده الملاحون والنوتية من

العذاب الأليم وما يقاسونه من الأهوال والشدائد عند تخالف الهواء وحصول الانواء وتلاطم الامواج وانكسار السفن واشراف من فيها على الهلاك ووقوعهم فريسة لحيوانات البحر ومنها الحيتان الكبيرة ومنها ما يلتف على الانسان كما يلتف الحبل ويشد وثاقه شداً محكماً حتى لا يستطيع حراكاً ثم يعض بدنه كالعلقة ويمتص دمه ويسمى هذا الحيوان البحري (Pieuvre) هبراو (ربيله) ومن البلاء الذي يقع فيه الفلاحون وصيادو السمك أيضاً رمال المستنقعات التي على سواحل البحار يحبسها الواحد منهم أرضاً يابسة فاذا وطئها غاصت رجلاه في الرمال وكلما تحرك حركة للتخلص منها زاد غطساً فيها إلى رأسه ويستمر في هذا العذاب الاليم وهو يشاهد الموت بعينه ولا سبيل للنجاة حتى يغرق ويموت خنقاً . فوصف الشاعر مجاهدة المشتغلين بالبحر من أفراد الانسان والمعترك الذي يحصل بينهم وبين الطبيعة أتم وصف مما يذكرنا بقصة السندباد البحري وما لاقاه في أسفاره .

٧ - الانسان الضاحك . الف فيكتور هوكو هذه القصة سنة ١٨٦٩ وجعل حوادثها تجري في انكلترا على عهد ملكتها حنة (آن) المعاصرة للويس الرابع عشر في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد . وموضوع القصة ان احد مرقصي الدبب كان يتجول في جنوب انكلترا ومعه دب سماه هومو ومركبة يسكن فيها ويجر اثقاله عليها كما يفعل مرقصو الدبب ليومنا هذا في أوروبا ولم يزل منهم في جنوب فرنسا وأكثرهم عثمانيون من أهل البوسنة والهرسك يحملون الباسا بورط ويحتمون بقناصل الدولة العلية . فكان هذا الرجل يرقص دبه أمام الجمهور ويضحكهم ويسليهم ويعتاش من احساناتهم وعطاياهم وكان صافي النية حسن الطوية مع كونه هزأة ومسخرة للناس . فالتقى ذات يوم بصبي مشوه الخلقة يحسبه الناظر اليه ضاحكاً على الدوام وكان هذا الصبي اختطفه سارقو الاولاد فشوهوا خلقة وتركوه وحده في البراري فالتقى ببنت حسنة الوجه ولكنها عمياء كانت خرجت مع امها فنزل الثلج عليهم وماتت أمها من شدة البرد فاصطحب الصبي بالبنت وأحبها . ثم ان ذاك الرجل التقى بهما وتبناهما وحملهما معه في مركبته وطاف بهما البلاد وهو يستر زق من حرفته ويطعمهما . ولم يزل على ذلك إلى أن كبرا وبلغا أشدهما . فذهب بهما الرجل يوماً إلى لوندرا فتعرف أناس إلى الشاب واخبروه بانه ابن البارون فلانشاري من أعيان انكلترا ولورداتها فاستلم هذا الانسان الضاحك ثروة ابية وملكه وصار عضواً في مجلس اللوردات بعد

تلك السفالة التي قضاها في سني صباه وصار لا يتكلم في المجلس الا بالمحاماة عن
البؤساء والتقرير على الاعيان والكبراء الذين لا ينظرون إلى الضعفاء والمساكين
وكان ذا لهجة شديدة ولكنها غير منتظمة فكان إذا أتم خطبته استولى الضحك على
جميع الاعضاء ولم يقرروا اجراء شيء من طلباته .

واورد المصنف في هذه القصة كثيراً من الحكم والفلسفة . من ذلك ما قاله
عن الطبيعة والحياة : . . . بعد كل شيء فالانسان لا يعيش كثيراً والحياة قصيرة
تمضي بسرعة . كلاً ! بل هي طويلة !! لأن الطبيعة اظهرت - ولو بشيء قليل -
عنايتها بالانسان لكيلا تفتري همتنا في غضون ذلك ولكي لا يكون على بصراً غشاوة
فنرضى بالبقاء ولا نغتني الفرص المناسبة لشق انفسنا بما أعدته لنا من الخبال
والمسامير ولذا أنبت لنا القمح وانضجت العنب وانطقت البلابل وهي مراثية
بانشادها اغاني السرور واخفائها الكمد . وارتنا في بعض الاحيان شعاعاً من الفجر
فهذا ما يسمونه بالسعادة . وما هي إلا طرف رقيق من الخير يحيط بكفن عريض من
الشر . فهذا حظنا من الدنيا نسج الشيطان منه السداة واللحمة ولم يطرز الرحمن فيه
الا اطرافه وحواشيه . أه .

قال المعري مخاطباً الدنيا :

يموج بحرك والاهواء غالبه	لراكبيه فهل للسفن ارساء
إذا تعطف يوماً كنت قاسية	وان نظرت بعين فهي شوساء
★ ★ ★ ★ ★	★ ★ ★ ★ ★
فلا تغرنك شم من جبالهم	وعزة في زمان الملك تعساء
نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا	برغمهم فاذا النعماء بأساء

٨ - ثلاث وتسعون . سماه بذلك لانه بحث فيه عن وقائع سنة ١٨٩٣ وقصص
فيه قصصاً حكيمية فلسفية موضحة لحقيقة الانقلاب الكبير الفرنسي وللسبب
الحامل لاصحابه على الثورة ومقاومة بعض الاهالي للثائرين لعدم فهمهم المراد من
الانقلاب ومن الاصلاحات الجديدة ولاعتقادهم ان الملك قوة الهية مفوضة للملك
يفعل بمقتضاها ما يشاء برعيته فهم عبيده يتصرف بهم تصرف المالك في ملكه فبين
المؤلف ذلك باساليب بديعة يفهمها العوام والفلاحون وعرفهم بان القوة الحاكمة
ينبغي ان تكون في الأمة وأن سيد القوم يجب ان يكون خادهم .

وأما ما ألفه في التاريخ فهو :

١ - نابوليون الصغير : كتبه المصنف بعد لبس نابوليون الثالث تاج الامبراطورية وكان هويستشيط من ذلك غضباً فتهور في الطعن فيه والخط عليه ولما طبع الكتاب جاء احد المتبصعين بنسخة منه للامبراطور وكان في قصر سن كلو وهو في ضواحي باريس على نهر السين فنظر فيه طويلاً ثم التفت لمن حوله من الوزراء وامراء العسكرية وقال لهم باستهزاء وسخرية انظروا يا سادة هذا نابوليون الصغير ألفه فيكتور هوغو الكبير . فلما بلغ الخبر مسامع فيكتور هوغو هجاه بقصيدة بليغة لم أر مثيلاً في شعر أهل العصر الا قصيدة كمال بك كبير الشعراء عند الاتراك .

٢ - تاريخ جرم : وهو تاريخ حادثة نابوليون الثالث سنة ١٨٥١ ألفه المصنف في خمسة أشهر ولم ينشر الا بعد ٢٥ سنة حينما سقط نابوليون الثالث ويقسم هذا التاريخ إلى أربعة ايام : يوم المكيدة والكمين . يوم الحرب والنزال . يوم الذبح وقتل الاطفال . يوم الفوز بالنصر . ثم اتبعه بفصل خامس عنوانه يوم السقوط . فوضح المؤرخ في هذا التاريخ صورة الجرم ثم بين القصاص واستنتج من ذلك وظيفة الفرنسيين وهي العدل والحق .

« الرين » وهو عنوان كتاب صنفه فيكتور هوغو في الرحلة والسياحة وحرر فيه ما وجدته في نفسه من التأثر والاحساس الباطني والانفعال بمشاهدة ضفاف الرين وهو نهر في اوربا ينبع من جبال الالب ويمر من بحيرة قونستانس وبمدينة بال ومايانس وقوبلينتس وقولونيا واوترخت وليدن ويصب في بحر الشمال وعما قاله في هذا التأليف عن الضمير والكائنات :

... لا شيء في يعارض كون الشجرة عالمة بثمرتها . ولكن من المحقق ان الانسان لا علم له بالمقدرة عليه . حياة الانسان وعقله هما على خاطر وهوى لا أدري أي مأكنة مظلمة يسميها البعض عناية الهية والبعض الآخر يسميها صدفة . فهذه المأكنة أو الآلة تخلط وتمزج وتحلل كل شيء في الوجود . وهي تخفي دوايبها في الظلمات وتعرض نتائج محصولاتها في رابعة النهار . يحسب المرء نفسه يفعل شيئاً آخر . فالتاريخ مملوء بذلك . . .

ولكن بين هذا الاختباط يوجد قوانين . فالاختباط ما هو الا في الظاهر والانتظام في الباطن . فبعد انقضاء مدة طويلة ترجع الحوادث المدهشة التي فتحت

عبون احدادا كما ترجع الحوم ذوات الاذنان من اعماق التاريخ المظلمة . فالفخاخ هي دائماً تلك الصالح بعينها والسقوط دائماً عين ذاك السقوط . والغدر دائماً عين ذاك الغدر . والمهالك هي دائماً تلك المهالك بعينها . فالاسماء تتغير والاشياء ثابتة .
أما ما حرره فيكتور هوغو في الفلسفة فهو :

١ - أدب وفلسفة ممزوج بعضها ببعض : وقد ذكرنا فيما سبق من هذا الكتاب تعريف الشعور بأنه لا يكفي وجود الاسلوب الحسن والشكل الطريف في البيت بل ينبغي أن يحتوي على فكر أو صورة أو احساس وشبه بيت الشعري بيت النحل الذي يتخذ من الشمع والشعر فيه كالعسل .
وقال أيضاً في تعريف الانشاء :

الانشاء هو الذي يخلد ذكر الشاعر ويقي تأليفه . لان حلوة التعبير تزين الفكر كالميناء على السن .

وقال في تعريف الواجب :

مادام الممكن لم يفعل فالواجب لم يؤد . فهذا فكر من افكاره ومنها أيضاً في الزواج :

الزواج هو تطعيم فيه امساك جيد أوردى .
وقال في التغير والتقلب :

إذا قلنا عن رجل « رأيه السياسي لم يتغير منذ أربعين سنة » نكون مدحناه مدحاً مذموماً . لان قولنا هذا يؤدي إلى انه لم يحصل له تجربة في المسائل اليومية ولا حصل لفكره انعكاس ولا اشعاع على الحوادث . فهذا من قبيل مدحنا الماء بكونه راكداً والشجرة بكونها ميتة . وتفضيلنا ما في الصدف من سمك البحر على النسر الطائر . فبالعكس كل شيء متغير في الرأي . وفي الاشياء السياسية لا شيء مطلق على اطلاقه الا الاخلاق الباطنية لتلك الاشياء . فهذه الاخلاق هي من خصائص الوجدان وليست من خصائص الرأي ومتعلقاته . فرأي الرجل يمكن حينئذ ان يتغير تغيراً لا يمس بشرفه بشرط ان لا يتغير وجدانه . فالحركة سواء كانت تقدّمية أو تأخرية هي في حد ذاتها حيوية ، انسانية ، اجتماعية . « أه .

وهكذا يقال في صاحب الجريدة كما يقال في رجل السياسة . وقد رأينا في ما تقدم ان رقباء فيكتور هوغو عابوا عليه قلبه في احزاب السياسة وتغير رأيه من الملكية

إلى الامبراطورية إلى الجمهورية .
٢ - ولیم شکسیر : ومما ورد في هذا التأليف من الحكم ما ذكره عن التقدم والترقي قال :
ففاظظة التقدم تدعى انقلابات . فاذا تمت الانقلابات اعترف الانسان بما يأتي وهو : ان النوع الانساني تألم وترضض ولكنه مشى .
فالتخريب هو الشغل والتعمير هو العمل (أي البناء كما في بناء الدار فان فيها تعميراً مثل رفع الجدران الجديدة وتخريب مثل هدم الجدران القديمة وحفر الأسس)
فالتقدم يهدم باليد اليسرى . أما باليد اليمنى فهو يعمر . فاليد اليسرى تسمى القوة واليد اليمنى تسمى العقل . أهـ .
ففيما ذكر من مؤلفات فيكتور هوغو كفاية لمعرفة ماهيتها ولا حاجة لذكر بقيتها .

الخاتمة

لا ريب في ان فيكتور هوكون أكابر الشعراء الذين نبغوا في العالم الانساني كله في قديم الزمان وحديثه . وهو عند الفرنسيين شيخ الطريقة الرومانية والشعر الغرامي المعروف باسم « ليريك » . كما انه من فحول القصاصين ومؤلفي الروايات التمثيلية المشهورة باسم « درام » . غير ان الطريقة الرومانية التي كان لها المقام الأول في صناعة الأدب سقطت بظهور الطريقة الحقيقية التي أمامها اميل زولا . وروايات فيكتور هوكون التمثيلية لم تبلغ درجة الاعجاز لا بالنظر إلى المؤلفات السابقة عليها ولا إلى المؤلفات اللاحقة لها من هذا النوع . لعدم كشف فيكتور هوكون اسرار القلب الانساني واطهار ما فيه من الاحساس الحقيقي . ومع ذلك فهو لم يزل إمام الشعر الغرامي ومجدد اساليب النظم والنثر ولذا لقبوه بابي الشعر العصري واقتفى الشعراء أثره وسلكوا مسلكه . وكان الباعث على شهرته في العالم المتمدن كله من اوروبي واميركي وما يلحق بهما ثلاثة امور : احدها سياسي وثانيها ديني وثالثها علمي .

نبغ فيكتور هوكون في عصر الانقلاب والتجدد وطال عمره وكثر عمله . وكان لقومه الحظ الأوفر من التقلبات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم انظار العالم المتمدن بأسره . فكان هذا الشاعر لسان حال الامة وترجمانها في كل انقلاب حدث فيها وتبدل طراً عليها وغير حكومتها من ملكية مطلقة إلى جمهورية مفرطة ، إلى امبراطورية ديمقراطية ، إلى ملكية مقيدة بقليل أو بكثير من القيود ، إلى جمهورية ثانية ، إلى امبراطورية ثانية ، ثم إلى جمهورية ثالثة . فهذه التقلبات هيئت الافكار العمومية وكثرت الاحزاب السياسية ودعت إلى استماع قول الشاعر الحكيم والتمثل باشعاره في نوادي السمر الأدبية والسياسية على اختلاف الآراء وتبدل المشارب . ومتى تحدث أهل العاصمة بامر سارت الركبان بحديثهم إلى الولايات واطراف المملكة ثم فشى في الممالك المجاورة وجسمه البعد في المخيلات فاصبح صدهاء في الخارج اشد من صوته في الداخل . وبعد ان استبد نابوليون الثالث بالحكم مال لاهية الملك وعظمة السلطنة وتفاخر بالصيت والشهرة واشتد حرصه على السمعة في البلاد الاجنبية . وانتشرت اللغة الفرنسية على عهده في اكثر الممالك المتمدنة

وصارت اللسان الرسمي المتداول بين الدول في المناسبات الديبلوماسية وفي الاجتماعات السياسية والأدبية وفي قصور الملوك والامراء وفي حفلاتهم وسهراتهم ومراقصهم وعلى موائد ضيافتهم وفي تحرير المراسلات والمعاهدات كما اصبحت اللسان الرسمي في نظارة الخارجية العثمانية وفي كثير من دوائر الدولة العلية ومعاملاتها ولم تزل إلى يومنا هذا .

فلما اقترن اسم فيكتور هوغو باسم نابوليون بسبب مدحه نابوليون الأول وهجوه نابوليون الثالث زاد شوق الناس للاطلاع على اشعاره وقصصه في داخل فرنسا وخارجها وراجت بضاعته في الأدب فلم يدع باباً من أبواب الشعر الا طرقة ولا مسأله الا بحث فيها . ثم ساعدته الظروف بالانتصار على نابوليون الثالث بعد حرب السبعين الالمانية وتشكل الجمهورية الثالثة فزاد ذلك في اهمية الشاعر وفي انتشار شعره وبالع رجال الجمهورية في الاحتفاء به والاحتفال له كاحتفال الامبراطورية بشخص الامبراطور .

أما السبب الثاني لشهرته فهو سهولة اشعاره ووضوحها وتصويرها المسائل العظيمة والافكار الدقيقة . فظهر بشعره فرحه وسروره بنعمة الحياة وابتهاجه بالمخلوقات . ورأى في امنا الدنيا بقرة حلوباً تدر على ابنائها بلبن سائغ للشاربين وتكلم على افراح العائلة وزينة البيوت بالاولاد ولذة اجتماع الاهل على المائدة ومحبة الوالدين وحنوهما . وحض على الاحسان للفقراء والمساكين والشفقة عليهم وبين اعتقاده بالله الغفور الرحيم ورجاءه بتقدم نوع الانسان في الحضارة وبتحس الحياة البشرية والمعيشة الانسانية بسبب انتشار الافكار الجديدة وتغلب الحق رويداً رويداً على القوة والنور على الظلمة حتى تتساوى الناس في الحقوق ويرتفع عنهم الضغط والاستبداد ويزول من بينهم الظلم والاستعباد وينشر العدل ويزهو الباطل ان الباطل كان زهوقاً فجميع ذلك مما يرغب الجمهور في تلاوة اشعاره وتعليمها للأولاد ونشرها في البيوت بين النساء والبنات . بخلاف اشعار المعري التي لا يذكر فيها إلا بخل أم دفر على بنيتها بالحقوق ومبادرتهم لها بالعقوق .

ولا يرى بقرة فيكتور هوغو تجود الا بسم قطيب أي ممزوج بحلاوة . ومع غنى المعري وثروته لم يلتذ بالمال والبنين ولا بشيء من زينة الحياة الدنيا وزهد في اكل اللحوم وشرب المكيفات وعمي بصره عن مشاهدة المناظر الطبيعية والرياض النضرة

وحيث كان ليفيكتور هو كوا اعتقاد ثابت في الله ورجاء كبير في حسن المستقبل وارتقاء الانسان إلى دار السعادة عرف وظيفة الشاعر وبين ما يترتب عليه وعلى كل عاقل مفكر في الأمر من نشر الحقائق بين قومه وإبلاء لسانه وزعم ان الشاعر ينبغي ان يكون رسولاً للأمة ونوراً يسعى بين يديها ليهديها الصراط المستقيم فكافي بالمعري يقول له : واخوان القبطاناه في اختيال كأنهم لقوم انبياء ولم يكن فيكتور هو كويهودياً ولا نصرانياً وتبرأ من أصحاب هذين الدينين وقال بأنهم اتخذوا دينهم لعباً وهواً وأوصى بعدم دفنه على سنن واحد منها وبعدم حضور احد من رهبان النصارى ولا من احبار اليهود في جنازاته . كما انه لم يكن يعرف حقيقة الدين الاسلامي ولا امعن نظره في آيات القرآن لما قدمنا ذكره من الاسباب وهو عدم توسع دائرة المعارف الاسلامية في عصره . والذي ذكره في شعره من القرآن هو امثال قليلة نقلها عن غيره بدون ان يبحث فيها بفكره ومع ذلك ففكتور هو كويهودي اعترف في كثير من أشعاره باعتقاده بالله وحسن رجائه باليوم الآخر واهتدى للتوحيد بنظره في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار كما اهتدى ابراهيم جد الانبياء عليه وعليهم السلام : « وإذا قال ابراهيم لآبيه آزر أتنحذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بارغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهديني ربي لآكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

وهكذا قال فيكتور هو كوا لقومه اي بريء مما تعبدون . فلم يكن مشركاً بالله ولا كان منكراً جاحداً انكار الشاعر فولتير وجحوده بل ربما كان حنيفاً . والحيف هو الذي يؤمن بالله ولا يتخذ شكلاً مخصوصاً للعبادة وكان منهم اناس في جزيرة العرب قبل الاسلام مثل ورقة بن نوفل وغيره فاذا أمعنا النظر في كلام فيكتور هو كوا نراه من الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ونراه أيضاً كثير البغض في الجبابرة المستبدين ويدعو الناس إلى عدم اتخاذ أرباب من دون الله وقد ورد في القرآن الكريم في سورة آل عمران وهي السورة الثالثة والآية ٦٠ .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ؟ وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وانتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » . انظر إلى بلاغة هذا الكلام وتأمل قوله ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله تجد جميع الأدباء من قديم وحديث ومن عربي أو أعجمي عالة عليه في هذه البلاغة التي وصلت أعلى الدرجات وهي المعر عنها في صناعة الأدب بالاعجاز . ولقد ورد لفكتور هوكو كلام متشابه يدل على حيرته والحيرة مقام من مقامات العلم بالله ولكنه لم يفتر عن القول بأنه موجود موجود موجود . ولما ماتت بنته وأشدت حزنه سب الله عدواً بغير علم ثم رجع وأستغفر لذنبه وشبه نفسه بالصبي الذي غضب ورمى البحر بحصاة . فهو لم يضر البحر في شيء ولكن فعله دليل على سفاهته وحمقه . فمثل الله كمثل البحر ولله المثل الأعلى : قال الحكيم الفيلسوف ارنيس رينان عن فيكتور هوكو وعن فولتر بأنها سارا من قطبين متخالفين ولم يتلاقيا إلا على محبة العدل والانسانية .

وبالبحث الثالث على شهرة فيكتور هوكو كثرة عمله وغزارة معارفه . عدا معرفته بدقائق اللغة الفرنسية وبعلم القوافي والعروض والموسيقى وما يلزم للشعر وكان حكيماً فيلسوفاً يضع كل شيء في موضعه وكل معنى في قلبه ولم يغب عن علمه شيء من التاريخ والجغرافيا واسماء البلدان وله اطلاع على العلوم الرياضية وجميع المسائل الاجتماعية وكليات القوانين البشرية والسياسية . وله اقتدار عجيب في التخيلات والتصورات والاختلاقات . وإذا نظر في شيء تمكن من رؤيته بعين لم يتيسر لغيره من الشعراء الرؤية بها . فوقف على كنه الأشياء وحقيقتها وعلى جميع ما يعرض لها من الصور والأشكال والألوان وبقية الخواص الظاهرة والباطنة . وإذا ذكر اسبانيا مثلاً لم يترك فيها مدينة إلا وصفها بالوصف اللائق بها سواء كان وصفاً جغرافياً أو طبيعياً أو تاريخياً بالنظر لمن اشتهر فيها أولاً بنبت في أرضها أو لمآها الطبيعي ومنظرها الخارجي وذكر كذلك كثيراً من مدن فرنسا وإيطاليا وقال في جبل نارها فيزوف .

نابولي مرساها معطر بالازهار يقف فيه فصل الربيع ولا يمر
 وجبل فيزوف المتلهب بالنار يغطيه بتاج متوقد
 كأنه فارس من فرسان الحرب كثير الغيرة والحسد شهد عرساً
 فحسد اهله على أفراحهم ورمى بقلنسوته الحمراء وسط ازهارهم .
 ولا يخفى ان ضباط العساكر الفرنسية يزينون قلنسواتهم بالريش الحمراء
 وهي على هيئة جبل النار في حالة اشتعاله وتساعد الدخان واللهيب من جوفه . ومن
 عادة الاسبانيين إذا طربوا برؤية وجه حسن اوسماع نغم أو حضور مناطحة الثيران
 والبقر رموا بقبعاتهم إلى الأرض ونخروا نخرة أو تأوهوا . وقد شاهدت هذه العادة في
 شباب بعض المدن الشرقية والسورية ولعلمهم اخذوها عن الاسبانيين بواسطة اليهود
 الذين لم يزلوا في بلاد الشرق يتكلمون اللغة الاسبانية رغماً من كل ما اجراه
 الاسبانيون فيهم من النفي والاجلاء والتعذيب في محاكم الانكيزسيون . فهذه
 الايات على حد قول الشاعر العربي في حمص الاندلس وهي اشبيلية :

غدا النهر عقدك والطود تا جك والشمس اعلاه ياقوته

وتقدم ذكر الايات فيما سبق .

فهذا مثال لاساليب فيكتور هوكو وتشبيهاته وكان له ولع بالأمور العظيمة
 والمقامات العالية والمناظر الواسعة والمعاني الدقيقة فعرف لج البحر الذي لا يرى
 ساحله وبعد الفضاء الذي لا تدرك نهايته وقلد أصوات الاشياء ووصف الجمادات
 وصفاً يخال منه للقارئ انها حية تنطق . ولذا قالوا بأن فيكتور هوكو انطق الجماد ونفخ
 فيه بأساليبه الشعرية روح الحياة . وله ابتكارات بدیعة وتشابه ظريفة وتعبيرات
 لطيفة . ونجد لما ورد في كلامه من التشبيه والتخيل والبدیع امثلاً كثيرة في الشعر
 العربي والاندلسي تكلم عليها الباقلاني في اعجاز القرآن والجرجاني في اسرار البلاغة
 المطبوع في جريدة المنار ومن سلك مسلكهما من علماء اللغة والبلاغة . ولكن فيكتور
 هوكو يفوق بسعة الاطلاع والاحاطة بالمسائل . واكثر شعراء العرب انحصرت اقوالهم
 في الدائرة الذين هم فيها فلم يخرجوا منها ولا تعدوا الاساليب التي وضعها شعراء
 الجاهلية . والذين خرجوا عن تلك الاساليب واتسعت مداركهم قليلون مثل المتنبي
 والمعري الذي تكلم على كثير من المسائل الاجتماعية والسياسية ونادى بالحرية
 والمساواة بين افراد البشريين ماهية الحق والعدل وشرح كثيراً من المسائل الفلسفية

واظهر شعوره واحساسه بالوسط الذي القينا فيه فكان سجناً لنا لا خلاص منه إلا بالموت . فهو متحير في هذه العقدة التي أضلت الادباء في حلها .

ثم ان اهل النقد الادبي س بلغاء الافرنج يقولون نعم ان فيكتور هوغو انطق الجهاد وتوصل باسالييه الشعرية إلى وصف المناظر الطبيعية وتصوير العصور الخالية والهيئة الاجتماعية باحس تصوير وأبداع وصف . فهذا لا ينكر ولكنه لم يتوصل إلى معرفة باطن القلب الانساني ولا لايجاد أوصاف تامة ولا حياة طبيعية للأشخاص الذين اختلقهم على مسرح التمثيل . ولذا لم يكن أوجد الادباء في تأليف روايات الدرام . فهو وان انطق الجهاد لكنه اخرس البليغ ، مثال ذلك ان ابداع ما في رواية ايرناني التمثيلية هو الفصل المنظوم على لسان الدون قارلو الذي انتخب امراً طوراً لالمانيا وتلقب بشارلكين . فهذا الفصل هو بيت القصيد من هذه الرواية كما ان فصل القبله أو النافذة هو بيت القصيد من رواية (سيرانو دو برجيراك) التي اشتهر بتأليفها شاعر العصر ادمون روستان وقد انتخب بالأمس عضواً في الاكاديمية الفرنسية .

وموضوع هذا الفصل ان المعشوقة وقفت في النافذة (بالكون) وعاشقتها واقف تحت النافذة يغازلها ويطلب منها قبلة وهو يتلثم في كلامه ولم يدر كيف يكلمها بلسان الادب . فالشاعر سيرانو دو برجيراك خاطبها عنه وافصح في تعبيره عن حقيقة اللثم والتقبيل حتى لانت بكلامه وانجذبت اليه وهناك تظهر قوة البيان وان من البيان لسحرا . فكلام شارلكين في رواية ابرناني هو من كلام الملوك فينبغي ان يكون من ملوك الكلام . فلما حان زمن انتخاب الامبراطور وترشح الدون قارلو لهذا المسند العظيم وحصلت المؤامرة على قتله بدسائس فرانسوا الأول ملك فراسا المتطلب أيضاً لهذا المسند واتفق المؤتمرون على الاجتماع في الغار الذي فيه قبر شارلمان بمدينة اكس لا شابيل من المانيا . اكتشف الدون قارلو أي شارلكين على مؤامرتهم وسبقهم إلى ذلك الغار وكان الهيام بمحبوبته قد أحد كل مأخذ واستولى على جميع حواسه فكان يتلهب شوقاً وغراماً إليها وقد قربت ساعة الوصال . ومعشوقة الملوك كما لا يخفى هي المملكة ولا يحبون أحداً سواها ويضحون كل عزيز عليهم في سبيلها اذ لا أعز منها عليهم لا دين ولا ولد ولا زوجة ولا أب . فكم قتل الوالد ابنه والأبن اباه للتوصل للملك كما ان معشوقة الراهب العابد هي الكنسية وزوج الراهبة العابدة وحبيب قلبها هو السيد المسيح عليه السلام . وكذا مقال في الهائمين بحب الله والمفتونين بجمال نبيه

المصطفى عليه السلام . ونظموا في ذلك القصائد والدواوين البديعة . ففيكتور هوكو شخص في رواية ايرناني جميع ذلك وعندما يرتفع الستار عن هذا الفصل من الرواية يرى الحاضرون الغار الذي فيه قبر شارلمان وينزل اليه تحت الأرض بدرج متصل إلى بهو كبير عليه قبة وفيه مخدع جعل فيه قبر شارلمان ويظهر على المسرح شارلكن بلباسه الملوكي متمنطقا بسيفه تلوح على وجهه علائم الاهتـام فيزور القـر ويتكلم وحده بما يدور في خلده ويخطر في بالـه وينظر إلى التاريخ نظرة عامة وإلى الذي ناله شارلمان بلبسه تاج قياصرة الرومان فتتوق نفسه وترتفع حواسه ويرغى ويزيد كالبحر العجاج المتلاطم بالامواج . فالحاضرون تشخيص الرواية لا يرون فيها عيباً ولا نقصاناً وأما أهل النقد الأدبي وهم أرباب الذوق في الكلام الذين اعتادوا التفريق فيه بين الغت والسـمين - كما اعتاد ارباب الذوق في الخـمور التفريق بين خمر وأخرى لكثرة ذوقهم وطوافهم على معاصر الخمر وعلى الاقبيـة المخزون فيها أيضاً بوظيفتهم وصنعتهم التجارية - يقولون نعم أن شارلكن في هذه الرواية هويـت القصيد وهو من ملوك الكلام ولا ننكر فصاحته وبلاغته وانما عيبه عندنا هو عدم وجود الروح فيه . فهذه النفس الناطقة التي أرانا ايها الشاعر على مسرح اللعب والتشخيص هي نفس المؤلف أي نفس فيكتور هوكو وليست نفس المشبه به وهو شارلكن فالحماسة التي أظهرها المؤلف في شعره ليست بطبيعية ولا هي حقيقية بل هي عندية أي من عند الشاعر ولم تبـن على الحجج والبراهين الادبية التي اشترطها اصحاب الطريقة الحقيقية وسماها إمـيل زولا (دوكيمان) . فاصحاب هذه الطريقة الجديدة يلومون فيكتور هوكو على تعظيمه الأمور ويشبهون قريحته بمرأة مكبرة تكبر الشيء المعكوس فيها وتجسمه تجسماً خارجاً عن الحقيقة وعن العرف والعادة . ومن عادة فيكتور هوكو ارخاؤه العنان للقوة الواهمة والخيالية ولذا نجد في مؤلفاته مثل كازيمودو ومثل الرجل الضاحك من الاشخاص الموهومة التي لا توجد الا في كتاب ألف ليلة وليلة وما كان على نفسه

ومما انتقد فيه على فيكتور هوكو من جهة الاخلاق تبدل رأيه السياسي ونقله فيه ذات اليمين إلى ذات الشمال ومن حزب الملكية إلى حزب الجمهورية ورأينا فيما نقدم جوابه على هذا الاعتراض بقوله ان مدحنا الرجل بالتات على رأي واحد في السياسة مدة طويلة ليس بمدح مستحسن وانما هو كمدح الماء الراكد وتفصيلك ايه

على الماء الجاري . والجواب الصحيح على هذا الاعتراض أن فيكتور هو كومع
 ظهور معجزاته في المعاني ما هو الا بشر غير معصوم تميل نفسه إلى شهواتها التي منها
 التقرب من الملوك وأولي الأمر - ولكننا نجده محافظاً على الاعتدال في امر الشهوات
 النفسية صبوراً متجلداً عند الحاجة وبينما نرى امثاله واقرانه من أدباء باريس لا يقنع
 أحدهم بعشر نسوة نجده اقتصر هو على اثنتين أم اولاده والمثلة البارعة جوليت .
 ومن غريب أمر هذا الشاعر انه خالف القاعدة المطردة في عظماء الرجال . فكان في
 شبابه من حزب الملكيين المحافظين على بقاء الحال على ما كانت عليه فانقلب من
 ذلك رويداً رويداً حتى صار في شيخوخته من حزب المفرطين في محبة الحرية المائلين
 للانقلاب والارتقاء شديد العداوة للاستبداد وللمستبدين . وهذا خلاف المطرد في
 اخلاق الرجال فانهم كلما تقدموا في السن عدلوا عن حب التجدد والانقلاب والحرية
 ومالوا للبقاء على حالتهم الراهنة . ومن الاخلاق التي نهى عنها في شعره واتى بمثلها
 في عمله تربية الاطفال فانه حرر كتباً ونظم اشعاراً كثيرة في حقهم ولكنه لم يحسن ذلك
 بعمله وفعله . ومع علمه بان عصا التأديب من الجنة لم يستعملها في تربية اولاده ولا
 احفاده واطلق العنان لشهواتهم فاحدى بنتيه عرّضت نفسها للخطر فماتت هي
 وزوجها غرقاً . والثانية تزوجت على غير رضاه وسافرت للهند فنكبت واصيبت
 بعقلها . وحفيدته لم تطق معاشرة زوجها ولا قدرت ان تصبر على حكمه ففارقته
 وحكم بينهما بالطلاق . وابنه افراط في اللذات فمات فجأة عند صاحبة له في بوردو ولم
 يزل الناس يشيرون بالبنان إلى البيت الذي مات فيه . ومما يشابه ذلك ما انتقد فيه
 على امام الادب عند العثمانيين وهو نامق كمال بك وكان كثيراً ما يلهج بالاصلاحات
 والحرية فلما عين متصرفاً لجزيرة رودس انتقد عليه رقباءه بأنه لم يجر فيها من
 الاصلاحات سوى رفع الكلاب من ازقتها وشوارعها . ومثل ذلك ما ينقل من ضيا
 باشا وهو من مشاهير الادباء العثمانيين وكان رئيس الكتاب في المابين الهمايوني على
 عهد ساكن الجنان السلطان عبد العزيز ثم نال رتبة الوزارة وعين والياً لاحدى
 الولايات وله نظم كثير ودواوين شعر من ذلك نظمه قصة المولد الشريف و(ترجيع بند)
 في التصوف ومحاسن الاخلاق وكان لاشعاره رواج في الزوايا والنكاي وفي المدارس
 والجوامع . واتفق ان احد طلبة العلم الصلحاء في مدينة بروسة كان كثير الانشاد لها
 والترنم بها فعاهد نفسه إذا ذهب إلى الاستانة ليزورن هذا الشاعر الفاضل لا لطلب

مأمرية أو احسان منه وانما لمجرد التبرك بلثم يده والاسترشاد بنصائحه والاقتباس من فضائله . فلما جاء الاستانة زار الشاعر الوزير في بيته حتى إذا قارب غروب الشمس ودخل وقت الكراهة فرأى ما لا يجب رؤيته العلماء المتعففون عن لذات الدنيا ونعيمها فندم على سعيه وخرج وهو يقول : الشعراء يقولون ما لا يفعلون .
أما الثروة التي تركها فيكتور هوغو فقد رثت باكثر من ثلاثة ملايين فرنك ورث بعضها ولدا ابنه وهما حنه وجورج . والبعض الآخر ورثته بنته اديل (عادلته) التي تزوجت على غير رضاه وأصبحت بخلل في عقلها . وفوض أمر تنفيذ وصيته إلى اوغوست فاكييري الشاعر وهو أخ لزوج ابنته الثانية التي غرقت مع زوجها وإلى الأديب بول موريس واوصاهما بنشر ما لم يطبع في حياته من مؤلفاته .

« انتهى الكتاب »

حررت هذا الكتاب في بوردو سنة ١٩٠٢ م وقدمته لأمي أيضاً ببعض ما لها عليّ من الحقوق ورجائي بأن لا تحسب اغترابي عنها من العقوق

فهرست

ترجمة حياة فيكتور هوغو في أدوارها الثلاثة

صفحة ٩

فيكتور هوغو وعلم الأدب

نظرة عامة في الأدب - تبعية اللفظ للمعنى . النظر في أدب الأمم المتقدمة .
عدم اختصاص الشعر بلسان العرب .

صفحة ٣١

أدب العرب - لغة حمير ومصر واللغة السامية والمحدوري تدويها - طبقة
الجاهليين من ادباء العرب - افصح الكلام وابلغه الكلام المرسل لأن اللفظ يتبع فيه
المعنى .

صفحة ٣٨

ظهور الاسلام بالقرآن العظيم - بلاغة القرآن ووقوع اللفظ فيه تابعاً للمعنى لم
يغادر القرآن الكريم صغيرة ولا كبيرة الا احصاها الباقلاني وفن الانتقاد الأدبي .

صفحة ٤٩

أهل الطفلة الاسلامية ويجمع كلامهم كتاب الاغانى . وكلامهم اعلى طبقة
من كلام الجاهلية .

صفحة ٥٣

ترجمة كتب العلم عن خمس لغات . كتاب كليله ودمنة . أشعر أهل الطبقة
الاسلامية البحري . الكتب المعول عليها في تاريخ الأدب : تأليف ابن قتيبة
والمبرد . كتاب الساهر لابن المنجم . يتيمة الدهر للثعالبي دمية القصر
للباخرزي . وشاح الدمية للبيهقي . خريدة القصر لابن العماد زينة الدهر
للوراق الخ

صفحة ٥٤

طبقة المتنبي والمعري وهي طبقة فلاسفة الشعراء . تعريف الشعر والأسلوب .
استبداد الرؤساء ووضعهم السيف في موضوع القلم . تعريفهم الأدب بالسكوت
والهمس .

صفحة ٦١

اتساع دائرة الأدب في الاندلس واستحداث الفنون والاعاريض الجديدة فيه
بيان الهدف الذي يرمي نحوه أدباء العرب . انتقاد الافرنج عليهم . تأثير لغات
الاعاجم على لسان العرب . تأثير ادب العرب على ادب الافرنج .

صفحة ٦٧

منشأ أدب الافرنج : تأسيس الدولة الافرنجية الاولى وهي دولة آل مير وفه
(مير وفينجيان) . ظهور لغة رومان . انقسام لغة رومان إلى لسان أوق ولسان أوليل .

صفحة ٧٥

دخول العرب بلاد الافرنج . فتح اسبانيا والبرتغال . ارجاع موسى بن نصير
عن عزمه وكتبته . نارغريجوار ورفع الحصار عن القسطنطينية . جبال البيرية وفتح
ربون قرقسون ، نيم . ولاية عبد الرحمن وفتح افينيون . مرور عبد الرحمن من
روتسفو وفتح بايون ، نوردو ، بواتيه ، نور ، منتهى حدود الفتح الاسلامي في
فرنسا .

صفحة ٧٩

شارل مارتيل والمعركة بقرب بواتيه ورجوع العرب إلى نربون . اخذ المسلمين
بشار عبد الرحمن واسترداد ايلات فرنسا الجنوبية وصبطهم ايلة بروفانس . اتفاق
شارل مارتيل مع ملك لومبارديه وارجاعهما المسلمين إلى سفح جبال اليريه

صفحة ٩٤

ظهور الدولة الافرنجية الثانية وهي دولة آل قارلواي آل شارلمان وتسمى قارلو
فينجيان . أخذ بين القيصر مدينة بربون من المسلمين . عبد الرحمن الداخل والدولة
الاموية في الاندلس . شارلمان وحربه مع الامويين واتفاقه مع العباسيين فتح
المسلمين حزر البحر الشامي ومستعمرتهم فراقسيه بين نيس وطولون وعزوهم بلاد
السويس

صفحة ٩٥

الحروب الصليبية الثانية

صفحة ١٠٠

اختلاط العرب بالافرنجية وتبادل الافكار . البابا سيلفستر الثاني . انشاد فقراء الافرنج النشائد والمدائح العربية . أخذ التروبادور علم القوافي عن العرب . انتقال هذا العلم إلى شعراء الشمال وهم التروفيير .

صفحة ١٠٢

تأسيس الدولة الافرنجية الثالثة وهي دولة آل قابت (قابتيان) وظهور المملكة الفرنساوية واللغة الفرنساوية سنة ٩٧٧ معاهدة فيرودن سنة ٨٤٣ ويمين ستراسبوغ اغاني رولان . حج شارلمان مدرسة مون بيليه واطباء العرب ترجمة الكتب إلى الفرنساوية ، عصر لويس الرابع عشر . دار الماركيزة رامبويه . الاكاديمي الفرنساوية الادباء قورنيل ، راسين الخ .

صفحة ١٠٥

الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية

في آداب الافرنج

نسج أدباء الافرنج على منوال شعر اليونان والرومان ، ظهور الطريقة المدرسية الانقلاب الكبير ، ظهور فيكتور هوغو وتدوينه الطريقة الرومانية في مقدمة رواية كرومويل . مؤسس الطريقة الرومانية وشيخها الاكبر وليم شكسبير . ظهور الطريقة الحقيقية والطبيعية .

صفحة ١١١

مؤلفات فيكتور هوغو

المطبوع منها في ستين مجلداً . ما نشره في حياة المؤلف وما نشر بعد وفاته . شركاء المؤلف في أعماله .

صفحة ١٧٥

نظم فيكتور هوغو : تعريفه الشعر افانين الشعر واقسامه . دواوين الشعر
الذي نظم في الدور الأول من حياته . ديوان الشرقيات في نظر الأدباء . القصيدة
الاندلسية . ديوان أوراق الحريف ووافق فيه المعري في شيء وخالفه في آخر . ديوان
الاصوات السداسية وقصيدة القرة ومخالفته فيها للمعري . ديوان الأشعة والطلال
وبيان وظنم الشاعر . ديوان القصاص وهجاء نابليون الثالث . ديوان التأملات
ورثاء ابنته ديوان سير الدهور ومرافقته في كثير منه لما نظم المعري . ما نظم
الشاعر في شيخوخته وهي القصائد الفلسفية

صفحة ١٨٢

الدرام وهي الروايات الشخصية المنظومة . تعريف فيكتور هوغو الدرام .
رواياته الاثنا عشرة .

صفحة ٢٥٠

نشر فيكتور هوغو : القصص وهي الرومان . قصة البؤساء . قصة نوتردام
دوياري . قصة هان الاسلاندي وتعريفه في مقدمتها (نضج القرية) . قصة الانسان
الضاحك وما ورد فيها عن الطبيعة والحياة . التاريخ . الرحلة . ما ذكره في رحلة نهر
الرين عن الضمير والكائنات . الادب والفلسفة . تعريف الانشاء . تعريف
الواجب . تعريف الزواج . تبديل المسلك السياسي تعريف الانقلاب .

صفحة ٢٦٨

الخاتمة

سبب شهرة فيكتور هوغو . المتقدم فيه على فيكتور هوغو . معتقد فيكتور
هوغو . ثروة فيكتور هوغو .

صفحة ٢٢٧

مؤلفات جرجي زيدان

صاحب الهلال

البريد	التمن	١ - مؤلفاته التاريخية
٤	٤٠	تاريخ مصر الحديث مزين بالرسوم جزآن (طبعة ثانية)
٢	٢٠	تاريخ الماسونية العام
٢٠	٣	تاريخ اليونان والرومان (مختصر)
١	٤	تاريخ انكلترا مزين بالرسوم
٥	٧٥	تاريخ التمدن الاسلامي ٥ أجزاء مزين بالرسوم
٢	٢٠	تاريخ العرب قبل الاسلام جزء أول
١٢٠	٨	التاريخ العام الجزء الأول
٥	٤٠	تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر مزين بالرسوم جزآن مجلدان (طبعة ثانية)

٢ - مؤلفاته العلمية واللغوية وغيرها

٨٠	الهلال - مجلة علمية تاريخية أدبية تصدر مرة في الشهر مزيّنة بالرسوم قيمة اشتراكها بالسنة للقطر المصري والسودان
١٠٠	وقيمة اشتراكها بالسنة للخارج
٥	٦٠ سنو الهلال من السنة الأولى إلى الخامسة عشرة تمن السنة
٥	٨٠ ومن السنة السادسة عشرة إلى الأخيرة تمن السنة
١	١٠ الفلسفة اللغوية (طبعة ثانية)
٢٠	٥ تاريخ اللغة العربية
٢٠	٢٠ « دآب اللغة العربية الجزء الاول والثاني . ثمن الجزء .
٢٠	٤ انساب العرب القدماء .

البريد	الضمن	
٢	١٥	علم الفراسة الحديث مزين بالرسوم
٣ - سلسلة روايات تاريخ الاسلام		
٣	٢٠	(١) فتاة غسان جزآن طبعة ثالثة
٢	١٠	(٢) ارمانوسة المصرية
٢	١٠	(٣) عذراء قريش طبعة ثالثة
٢	١٠	(٤) ١٧ رمضان طبعة ثالثة
١٢٠	١٠	(٥) غادة كربلاء طبعة ثالثة
١٢٠	١٠	(٦) الحجاج بن يوسف طبعة ثالثة
١٢٠	١٠	(٧) فتح الاندلس طبعة ثالثة
١٢٠	١٠	(٨) شارل وعبد الرحمن طبعة ثالثة
١٢٠	١٠	(٩) ابو مسلم الخراساني طبعة ثالثة
١٢٠	١٠	(١٠) العباسة اخت الرشيد طبعة ثالثة
١٢٠	١٠	(١١) الامين والمأمون
١٢٠	١٠	(١٢) عروس فرغانة
١٢٠	١٠	(١٣) احمد بن طولون
١٢٠	١٠	(١٤) عبد الرحمن الناصر
١٢٠	١٠	(١٥) الانقلاب العثماني
٤ - رواياته الاخرى التاريخية		
٢	١٠	اسير المتمهدي طبعة ثالثة
١٢٠	٨	استبداد المماليك طبعة ثالثة
١٢٠	٨	المملوك السارد طبعة ثالثة
١٢٠	٦	جهاد المحبين أدبية غرامية طبعة ثالثة

الأمانة العامة

للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين



السعر ٤٠ ل.س